
نجيب محفوظ
C.E. RE
Bibliotheca Alexandrina
0196481

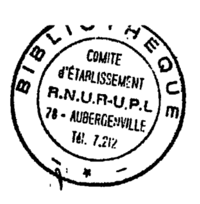
مطبوعات مكتبة مصر

بداية ونهاية



نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"



القى الضابط نظرة كئيبة على الردهة الطويلة التى تفتح عليها فصول السنتين الثالثة والرابعة ، وقد شمل المدرسة ـ التوفيقية ـ سكون عميق ، ثم مضى الى فصل من فصول السنة الثالثة ، ونقر على الباب مستأذنا ، ودخل متجها صوب المدرس واسر فى اذنه بضع كلمات ، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس فى الصف الثانى وناداه قائلا :

ـ حسنين كامل على .

فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس والضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق ، وغمغم :

ـ أفندم ؟

فقال المدرس :

ـ اذهب مع حضرة الضابط .

فخرج التلميذ عن قمطره ، وتبع الضابط الذى غادر الفصل فى خطوات بطيئة . ولم يطمئن قلبه لهذه الدعوة ، وراح يسائل نفسه : ترى أجاءت بسبب المظاهرات الأخيرة ؟. وكان قد اشترك فى المظاهرات ، وهتف مع الهاتفين : « ليسقط تصريح هور » و « ليسقط هور ابن الثور » ، وقد ظن انه نجا من الرصاص والعصى والعقوبات المدرسية جميعا ، فهل كان مغاليا فى ظنه ؟. وسار وراء الضابط فى الردهة الطويلة متفكرا ، يتوقع بين لحظة واخرى ان يجبهه بما عنده من تهم ، ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من فصول السنة الرابعة ودخوله مستأذنا ، ثم بلغ مسمعه صوت المدرس وهو ينادى قائلا :

ـ حسين كامل على .

شقيقه أيضا ؟! ولكن كيف يمكن أن توجه اليه تهمة من هذه

التهم وهو لا يشترك فى المظاهرات بتاتا ؟! وعاد الضابط يتبعه الفتى واجما ، وما أن وقعت عيناه على شقيقه حتى غمغم فى دهشة :

ـ وانت ؟!.. ماذا حدث !؟

وتبادلا نظرة حائرة ، ثم تبعا الضابط الذى مضى متسمتا حجرة الناظر . وسأله حسين فى لهجة رقيقة مؤدبة :

ـ ما الذى أوجب استدعاءنا من الفصل ؟

فأجاب الضابط بعد تردد قائلا :

ـ ستقابلان حضرة الناظر .

وقطعوا بقية الردهة دون أن ينبس أحدهم بكلمة . وكان الشقيقان متشابهين لدرجة كبيرة ، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل ، وعينان عسليتان واسعتان ، وبشرة سمراء ضاربة الى العمق ، الا أن حسين فى التاسعة عشرة ، يكبر أخاه بعامين ودونه طولا ، على حين يمتاز حسنين بدقة فى قسمات وجهه اكسبته وضاءة ووسامة . ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر ، وتخايل لعينيهما منظره الصارم فى رهبة وخوف . وزرر الضابط سترته ، ونقر على الباب ، ثم دفعه برقة ودخل وهو يومىء اليهما أن يتبعاه . ودخلا وهما ينظران الى الرجل وقد انكب على مكتبه فى صدر الحجرة يقرأ رسالة بعناية دون أن يرفع بصره نحو القادمين كأنه لم يشعر بحضورهم . وحياه الضابط بأدب جم وقال :

ـ التلميذان حسين كامل على وحسنين كامل على .

فرفع الناظر راسه وهو يطوى الرسالة بيديه ، واطفأ عقب سيجارة فى النافضة ، وجعل يردد بصره بينهما ، ثم تساءل :

ـ فى اى سنة انتما ؟

فقال حسين بصوت متهدج :

ـ رابعة رابع .

وقال حسنين :

ـ ثالثة ثالث .

فنظر الرجل اليهما مليا ثم قال :

ـ أرجو أن تكونا رجلين كما ينبغى . لقد توفى والدكما كما ابلغنى أخوكما الأكبر ، والبقية فى حياتكما ..

ووجما فى ذهول وانزعاج . وهتف حسنين وهو لا يدرى قائلا :

ـ توفى أبى !!.. مستحيل !

وغمغم حسين وكأنه يحدث نفسه :

ـ كيف ؟! لقد تركناه منذ ساعتين فى صحة جيدة وهو يتأهب للخروج الى الوزارة ..

فصمت الناظر قليلا ثم سألهما برقة :

ـ ماذا يعمل أخوكما الأكبر ؟

فقال حسين بعقل غائب :

ـ لا شىء ..

فتساءل الرجل :

ـ أليس لكما أخ آخر موظف او شىء من هذا القبيل ؟

فهز حسين رأسه قائلا :

ـ كلا ..

فقال الرجل :

ـ أرجو أن تتحملا الصدمة بقلوب الرجال ، واذهبا الآن الى البيت كان الله فى عونكما ..

٣

وغادرا المدرسة الى شارع شبرا يلتمسان طريقهما خلل الدموع . وكان حسنين أسرعهما الى البكاء فأراد حسين أن ينهره فى حال عصبية ولكن أفحمه البكاء واختنق صوته فلم ينبس بكلمة . وعبرا الطريق الى الجانب الآخر ، وحثا خطواتهما

قاصدين عطفة نصر الله على مسيرة دقائق من المدرسة . وتساءل حسنين وهو ينظر الى شقيقه كالمستغيث :

ـ كيف مات ؟

فهز حسين رأسه واجما وتمتم :

ـ لا أدرى . لا أستطيع ان أتصور . لقد تناول فطوره معنا، وتركناه فى صحة جيدة . لا أدرى كيف وقع هذا ..

وحاول حسنين ان يتذكر الصباح القريب بتفاصيله فذكر انه رأى اباه أول ما رآه وهو عائد من المرافق فحياه كعادته قائلا « صباح الخير يا بابا » فأجابه مبتسما : « صباح الخير ، ألم يستيقظ أخوك ؟ » واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة . فدعا الرجل الأم الى مشاركتهم الطعام فاعتذرت بأن نفسها مصدودة ، فتذمر الرجل قائلا : « اذا جلست معنا انفتحت نفسك » ولكنها أصرت على الاعتذار . فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة : « على كيفك » . لا يذكر انه سمعه يتكلم بعد ذلك . اللهم الا نحنحة مقتضبة . وكان آخر ما رآه منه ظهره وهو يدخل حجرته مجففا يديه فى منشفته . ثم انتهى ، انتهى ، ابشع بها من كلمة . واسترق الى حسين نظرة مروعة فوجده محزونا واجما كأنما كبر وشاخ ، وعاد الى ذكرياته وهو يكابد لوعة حارة . « لا أصدق انه مات » ، لا استطيع ان اصدق . ما هو الموت ؟. لا استطيع أن أصدقه . انتهى ؟! لو كنت اعلم ان هذا آخر ما بقى لنا من عمره ما غادرت البيت . من أين لى ان أعلم ؟. أيموت الانسان وهو يأكل ويضحك ؟ لا اصدق . لا استطيع ان اصدق . وانتبه على أخيه وهو يجذبه من ذراعه الى عطفة نصر الله التى كاد يفوتها فى ذهوله . وسارا فى طريقها الضيق تصطف على جانبيه البيوت القديمة والحوانيت الصغيرة الى ما يعترضها من عربات الفاز والخضر والفاكهة . وسبقهما البصر الى عمارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفناء المستطيل الترب ،

ثم ترامى الى أذنيهما الصوات فتبينا صوتى امهما واختهما الكبرى وهزهما حتى الاعماق فأجهشا فى البكاء ، وجريا لا يلويان على شيء ، وارتقيا السلم مهرولين الى الدور الثانى فوجدا باب الشقة مفتوحا فتدافعا الى الداخل، وقطعا الصالة الى حجرة الأب فى نهايتها ثم دخلا وهما يلهثان . وثبتت عيناهما على الفراش وقد وشى الغطاء بالجسم الممدد تحته ؛ ثم اقتربا من حافته وارتميا عليها واغرقا فى نشيج حار . وكفت الأم والأخت عن الصوات على حين غادرت الحجرة امرأتان غريبتان . وارادت الأم أن تتركهما ينفسان عن صدرهما فتماسكت واقفة فى جلبابها الأسود وقد احمرت عيناها وانتفخ خداها وانفها، أما الأخت فقد ارتمت على كنبة وأخفت وجهها فى مسندها وراح جسمها ينتفض من البكاء . وكان حسين يبكى ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة استنزالا للرحمة . وكان حسنين يبكى فى جو من الخوف والذهول والانكار . وقف حيال الموت محتجا ثائرا ولكن فى نفس الوقت خائفا يائسا . « ليس هذا بأبى . لا يمكن أن يسمع أبى هذا البكاء كله دون أن يتحرك . رباه لماذا يجمد هكذا ؟ انهم يبكون ولكن فى تسليم من لا حيلة له . لم أكن لاتصور هذا ، ولا اتصوره . ألم أره يمشى فى هذه الحجرة منذ ساعتين ؟ ليس هذا أبى . . وليست هذه حياة » وبدأ الانتظار وكأن لا نهاية له فاقتربت الأم من الشابين ومالت نحوهما قائلة :

— حسبكما . قم ياحسين خذ أخاك خارجا .

وأعادت القول حتى قام حسين وأنهض أخاه ولكنهما لم يغادرا الحجرة . وقفا يلقيان على الجدث المسجى نظرة طويلة غائمة بالدموع . ولم يستطع حسين أن يقاوم رغبة حارة غامضة فانحنى على الجثمان وكشف الغطاء عن وجهه دون مبالاة بالحركة التى بدرت من أمه ، فطالعه الوجه الغريب موسوما بميسم الفناء ، تشوبه زرقة مروعة ، ويرين على

صفحته سكون غير دنيوى . فى عمق العدم ولا نهائيته ، فسرت رجفة فى أوصاله . لم يكن أحد منهما قد رأى ميتا قبل هذه المرة فركبهما الخوف والأسى . ونفذ الى اعماقهما حزن قهار الى حيث لم تنفذ عاطفة من قبل . ومال حسين نحو الميت ولثم جبينه فعاودته الرجفة . ومال حسنين نحوه كذلك ولثم جبينه فى شبه غيبوبة . وأعادت الأم الغطاء على الرأس الفانى ، وحالت بينهما وبين الفراش ، ثم قالت لهما بلهجة حازمة :

ــ اخرجا ..

فتراجعا خطوتين ، وتولى حسنين عناد طارىء فتوقف ، وتشجع به حسين فتوقف كذلك . وجال بصرهما بالحجرة فيما يشبه الذهول ، وكأنهما كانا يتوقعان تغيرا شاملا لا يدريانه ، ولكنهما وجداها كالعهد بها لم يتغير منها شىء . هذا الفراش على يمين الداخل ، والصوان فى الصدر يليه المشجب ، والى اليسار الكنبة التى ارتمت عليها الأخت وقد اسند الى حافتها عود انغرست ريشته بين أوتاره ، وثبتت عيناهما على العود فى دهشة ممزوجة بالحزن . طالما لعبت أنامل الراحل بهذه الأوتار، وطالما التف حولها الأصدقاء مطربين يستعيدون ويعيد ، فما أعجب ما بين الطرب والحزن من خيط رقيق ، أرق من هذا الوتر . ثم مر بصرهما الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش ، لا تزال تدور باعثة دقاتها الهامسة ، ولعل الراحل قرأ فيها آخر تاريخ له فى الدنيا وأول عهدهما باليتم . وهذا قميصه على المشجب وقد لاحت آثار عرقه ببنيقته ، فرنوا اليها بحنان عميق ، وقد بدا لهما فى تلك اللحظة أن عرق الانسان أشد ثباتا من حياته العظيمة . ولبثت الأم تنظر اليهما فى صمت . لم تجر لها خواطرهما على بال ولكنها كانت تدرك

من هول الكارثة ما لم يدر لهما بخلد . وندت من حسنين تنهدة حارة لفتت اليه شقيقه فوضع يده على كتفه وهمس فى اذنه :

ـ هلم بنا .

والقى الشابان نظرة اخيرة على الجثمان المسجى وهما يعتقدان ـ بحكم العادة المتوارثة ـ ان عينى ابيهما تريانهما رغم الموت فلم يولياه ظهرهما ان يسىء اعراضهما الى شعوره ، وبعثا اليه بتحية قلبية وتقهقرا الى الباب ثم غادرا الحجرة . ولاحت من حسنين نظرة الى أخيه فطالع فى وجهه حزنا عميقا مؤثرا فخفق قلبه وأحس نحوه بعطف ، كما أحس بحاجته الشديدة الى عطفه ..

٢

وغادر الشقيقان الشقة الى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسى فوجدا أخاهما الأكبر ـ حسن ـ جالسا فى صمت وكآبة . وجلسا الى جانبه يشاركانه صمته وكآبته . لم يكن لديهما فكرة عما ينبغى عمله، أما حسن فكان ذا تجارب كثيرة . وكان يشبه أخويه الى حد كبير بيد أنه اختلف عنهما فى نظرة عينيه التى تنم عن جراة واستهتار ، فضلا عن أن طريقته فى ترجيل شعره الكثيف المنفوخ ، ولبس البدلة ، دلت على عنايته بنفسه من ناحية ، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من ناحية اخرى . كان حسن يعلم بما ينبغى عمله ولكنه لم يبد حراكا لأنه كان ينتظر مقدم شخص هام . وقد سأله حسنين بتأثر :

ـ كيف مات والدنا ؟

فأجاب قائلا وهو يقطب :

ـ مات فجأة فأذهلنا جميعا . كان يرتدى ملابسه وكنت جالسا فى الصالة فما أدرى الا ووالدتنا تنادينى بفزع ، فهرعت

الى الحجرة، فوجدته ملقى على الكنبة وصدره يعلو وينخفض . وجعل يومىء فى ألم الى صدره وقلبه فحملناه الى الفراش ، وقدمنا له كوب ماء ولكنه لم يستطع ان يشرب . ثم غادرت الحجرة مسرعا لاستدعاء طبيب ، ولكنى لم اكد ابلغ الفناء حتى صك مسمعى صوات حاد فعدت فزعا ، ووجدت ان كل شيء انتهى ..

ورأى وجهى شقيقيه يتلقصان من الألم فازداد وجهه كآبة . كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجس خيفة من شقيقيه ان يظنا بحزنه الظنون . كانا يعلمان بطبيعة الحال بما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة بسبب حياته المضطربة المستهترة . فخاف ان يحسباه دونهما حزنا وأسفا . والحق انه يجد لوعة الحزن والأسى . والحق انه لم يبغض اباه قط على رغم ما كان . واذا لم يكن حزنه كحزنهما فمرجع هـذا الى تقدمه عنهما فى السن — كان فى الخامسة والعشرين — والى تمرسه بالحياة حلوها ومرها ، ومرها على الأكثر ، الأمر الذى يلطف عادة من مرارة الموت . حقا كان قلبه يحدثه بأنه لن يجد بعد اليوم من يصرح فى وجهه قائلا : « لا استطيع ان اعول رجلا خائبا مثلك الى الأبد، فما دمت قد نبذت الحياة المدرسية فشق سبيلك بنفسك ولا تلق بنفسك على » . حقا لن يجد من يقول له هذا بعـد اليوم ، ولكنه لن يجد كذلك من يؤويه اذا ضاقت به السبل وكثيرا ما تضيق به حتى لا يوجـد بها منفذ لأمل . انه أعظم ادراكا لحقيقة الكارثة التى وقعت من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه دواعى الحزن والأسف !؟ . واختلس من الوجهين المحزونين نظرة سريعة من عينيه البراقتين ثم عض شفتيه . كان يحبهما على رغم الظروف التى تدعوه الى الحقد عليهما وفى مقدمتها جميعا نجاح حياتهما المدرسية وتمتعهما بعطف أبيه . ولكنه لم يكن يرى فى المدرسة ميزة يحسد عليها أحد ، ومن ناحية أخرى كان مقتنعا بأن اباه يحبه كشقيقيه وان ران على

حبه السخط والغضب ، واهم من هذا كله ان الشعور برابطة الأسرة كان ولا يزال قويا فى آل كامل بفضل الأم قبل كل شيء .

وعند الضحى اقبل عليهم رجل وامراة فى ثياب ريفية فعرفوا فيهما خالتهم وزوجها عم فرج سليمان ، وقد عزاهم الرجل وشاركهم جلستهم ، على حين هرولت الخالة الى الداخل وهى تصرخ « ياخراب بيتك يا اختى » فدوت العبارة فى آذانهم دويا مفجعا وعاود الشابين البكاء . وراح عم فرج سليمان يحادث حسن بينما خلا الشقيقان الى نفسيهما فى صمت طويل . والتقت أفكارهما وهما لا يدريان فى مصير أبيهما بعد الموت . وكان حسين راسخ العقيدة عن وراثة وبعض العلم فلم يداخله شك فى النهاية ، وسأل الله بقلبه أن يلقى اباه فى ذلك اليوم البعيد وهما على احسن حال من رضوان الله . وأما حسنين فكان فى حيرة من كرب الموت لا يدع للعقل راحة للتأمل والتفكر . وكان يسلم بالايمان تسليما وراثيا لا شأن فيه للفكر ، وقد حملته امه يوما على أداء الفرائض فأداها دون وعى ، ثم هجرها فى شيء من التردد دون تكذيب أو زيغ . ولم تتسلط العقيدة على فكره . ولم تشغل باله كثيرا ، ولكنه لم يجد نفسه خارجا على حقائقها قط . وقد دفعه الموت الى التفكير ولكنه لم يطل به ، وسرعان ما عاوده التسليم تؤيده هذه المرة عاطفة حادة : « هل الموت هو النهاية ؟ . ألا يبقى من أبى الا التراب ولا شيء وراء هذا ؟ . معاذ الله . لن يكون هذا . ان كلام الله لا يكذب » . ولبث حسن وحده لا يشغله شيء من هذه الأفكار ولم يستطع الموت نفسه ان يدعوها إلى رأسه . كأنه كان وثنيا بالفطرة . والحقيقة انه لم يتأثر بأى نوع من التربية أو التهذيب . كان ابن الشارع كما كان يدعوه أبوه فى ساعات الغضب . وقد طبع على العبث فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور العقيدة ، وما

انفك يتخذ منها مادة لمزاحه ودعابته . وحتى الأثر الخفيف الذى علق بقلبه من وحى أمه ضاع فى خضم الحياة التى اكتوى بنارها . لذلك تاه به الفكر فى وديان بعيدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحظه وحظ اسرته منها . بيد انه لم يطل به المكث مع شقيقيه وزوج خالته فقد تراءى عن بعد رجل يهرول قادما ما أن وقع بصر حسن عليه حتى قال بارتياح كأنه كان ينتظره :

ـ فريد افندى محمد !

وكان القادم يجفف جبينه بمنديل على رغم لطافة الجو الخريفى ، ولكنه كان بدينا مفرطا فى البدانة ، ذا كرش عظيمة، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسماته دقيقة صغيرة ، على ان بدانته وكهولته وأناقته ايضا اضفت عليه وقارا مما يعتز به موظفو الحكومة والكتبة منهم خاصة . وعلقت به اعين الأخوة برجاء يستحقه من كان جارا مثله وصديقا قديما لأبيهم . واقبل الرجل عليهم معزيا . ثم خاطب حسن قائلا :

ـ طلبت اجازة اليوم من الوزارة . هلم بنا الى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثم لابتياع اللوازم الضرورية .

وجعل يسأل عما كان وصاه به قبل ذهابه الى الوزارة من اجراءات تستدعيها الوفاة ، ثم تأبط ذراعه وذهبا معا ..

٤

وعند اقتراب موعد الجنازة بلغ الاضطراب بحسنين مداه، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه . كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التى يحب أن يظهر بها أمام الناس . لم يكن أخواه ليكترثا كثيرا لهذا الأمر ، أما هو فكان يعد اخفاق الجنازة كارثة كالموت نفسه ؛ غضبا لأبيه الذى

حبه . ولنفسه هو . وقلب عينيه فيمن تجمع من المشيعين فلم ير احدا يملا العين الا جارهم الكريم فريد افندى محمد . اما زوج خالته فكان فى حكم العمال . وليس عم جابر سليمان البقال بخير منه . والحلاق أدهى وأمر . ونفر غيرهم غيابهم اشرف من حضورهم . وانقبض صدره وغشيه كدر عميق . ولكنه كان قليل الصبر فما وافت الساعة الرابعة حتى تدفقت جماعات الموظفين حتى سدوا عطفة نصر الله سدا . وردت اليه الروح فعاد الى حزنه خالصا من القلق . ثم حدث ما لم يدر له فى حسبان ، فجاءت سيارة فخمة تنطق بالعز والجاه ، ووقفت على بعد يسير من البيت وغادرها ساع ففتح بابها ثم نزل منها رجل ينم مظهره على الألقاب والرتب . وتقدم بجسمه الطويل العريض الذى عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فهرع اليه الاخوة بأدب ، واندس بينهم فريد افندى محمد ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة التى ينبغى ان يقدرها - كموظف - اكثر من سواه ، وتساءل القادم فى صوت منخفض :

- اليس هذا بيت المرحوم كامل افندى على ؟

فبادره فريد افندى قائلا باحترام :

- بلى يا سعادة البك ..

ولم يجدوا ما يقدمونه له الا كرسيا خيزرانا على قارعة الطريق فشعروا بحرج غير قليل . وكان حسنين قد امتلأ ارتياحا لمقدمه ولكنه وجد ضيقا لسؤاله عن بيت المرحوم مما دل على انه لم يعرف البيت ، واقترب من اخيه حسن يسأله :

- من يكون هذا الرجل ؟

فقال حسن :

- أحمد بك يسرى ، مفتش عظيم بالداخلية ، وصديق حميم للمرحوم ..

فسأله بغرابة :

— لماذا سأل عن البيت كأنه لا يعرفه ؟
فحدجه حسن بنظرة غريبة وقال :
— كان والدنا كثير التردد على بيته ، اما هو .. انه رجل عظيم كما ترى .. !
وصمت الشاب لحظة ثم استدار قائلا :
— كان المرحوم يحبه ويعده أعز صديق .

وتناسى حسنين هذا، ولم يشأ أن يفسد على نفسه زهوها، وود لو يراه — ذلك المفتش — المشيعون جميعا . ثم حلت اللحظة المفجعة فخرج النعش من البيت وعلا الصوات من الشرفة والنوافذ . انتظمت الجنازة بالمشيعين جميعا يتقدمهم النعش . وعلقت أعين الشقيقين بالنعش فى ذهول وانكار . وتساقط دمعهما طوال الطريق . وبلغوا المسجد واخذوا فى توديع المشيعين وشكرهم ، واظهر البعض استعدادا لمرافقة النعش حتى مستقره الأخير ، ولكن حسنين همس فى أذن أخيه الأكبر قائلا :
— لا تسمح لأحد بالذهاب مهما كلفك الأمر .

كان حريصا على الا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة ووفقوا الى صرف المشيعين ، وركبوا سيارة الموتى وليس فى ركابهم الا عم فرج سليمان وفريد افندى محمد الذى أبى الرجوع اباء لم ينفع فيه الرجاء . وانطلقت السيارة بهم الى باب النصر ، ووقفت بهم ناحية قامت بها القبور فى العراء ثم ووري جثمان كامل افندى فى قبر غير بعيد من الطريق الملتوى الذى يشق المدافن كأنه من قبور الصدقة . ووقف حسنين غارقا فى الحزن والبكاء ، ولكنه على حزنه كان يسترق النظرات الى فريد افندى محمد فى خجل واستياء « لو علم التلاميذ بالوفاة لجاءوا معزين ، ولرافقنى بعضهم حتما الى هذا القبر . الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه . لا مقبرة ولا يحزنون . لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا ؟! » .

٥

انتصف الليل او كاد ، وخلت الشقة الا من أهلها . وآوت الأسرة الى الصالة ومعهم الخالة وزوجها . وراحت الأم تعيد قصة الوفاة للمرة العشرين فى ذاك اليوم الحزين ، وانصت اليها حسين وحسنين باهتمام ، على حين وجم حسن متفكرا .

وتحدث حسنين عن أحمد بك يسرى متحاشيا مسألة جهله للبيت ، لوجود خالته وزوجها من ناحية ، ولأنه لم يكن يحب ان يذكرها من ناحية أخرى . وكان شعور العطف نحو والده يملأ عليه نفسه فجعل يرنو الى باب حجرته المغلقة بطرف حزين ، ويتخيل فراشه الخالى بانكار وأسف . ثم نظرت الأم الى الأبناء وقالت :

ــ قوموا للنوم ..

وأذعنوا لمشيئتها بلا اعتراض بعد يوم شاق أليم ، ومضوا الى حجرتهم . وكان بالحجرة ثلاثة أسرة صغيرة فأخلوا واحدا لزوج خالتهم الذى لحق بهم على الأثر ، وشارك حسنين حسين فى فراشه . ولكنهم لم يستسلموا للنوم ، أو تأبى النوم عليهم ، فراحوا يتحدثون عن أبيهم بحزن وحنان ، ويذكرون أيامه الأخيرة ، وميتته المفاجئة . ثم قال حسين :

ــ كانت جنازته تليق بمقامه حقا ..

فقال عم فرج سليمان مؤمنا على قوله :

ــ كان رحمه الله رحمة واسعة رجلا عظيما ، فلا عجب أن تكون جنازته عظيمة مثله . ولقد امتلأت عطفة نصر الله بالمشيعين من البيت الى شارع شبرا ..

ولم يرتح حسنين لصوت الرجل ، وكان يشعر لوجوده بضيق ، ثم ذكر حانقا انه رأى القبر العارى ، فقال :

ــ العجيب أن والدنا وقد أفنى مالا كثيرا لم يفكر فى بناء مقبرة تليق بالأسرة .

فعاد الصوت الذى لم يرتح اليه يقول :

ــ هل كان يظن انه سيهلك فى مثل هــذه السن ؟ . ان والدك فى الخمسين . وعندنا فى الريف كثيرون يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة فى هذه السن .

وصمت الرجل مليا ثم استدار قائلا :

ــ ولا تنس أن والدك قد هاجر مع جدته من دمياط الى القاهرة وهو فى مثل ســنك يا سى حسنين ، فلستم من أهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلا بعد جيل .

فقال حسنين بامتعاض :

ــ حقا لسنا من أهل القاهرة وان كانت أسبابنا بآلنا فى دمياط قد انقطعت .

وذكر فى حزن أنه لا يعرف لنفسه أقارب غير خالته هذه . وسيبقى هذا القبر المغمور فى العراء رمزا لضياعهم المخجل فى هذه المدينة الكبيرة . وازداد ضيقا بوجود هذا الرجل الذى احتلّ فراشه . فآثر الصمت حتى يقطع عليه سبيل الكلام . وساد الصمت حتى رنق النوم بأجفانهم . وفى الصالة لم تبارح الأم واختها وابنتها مجلسهن ، ولم يتعبن من الحديث عن الفقيد العزيز . وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجرة الأخرى . وقد ارتسمت أماراته على وجه الأم النحيل البيضاوى وعينيها الملتهبتين . وكانت بانفها القصير الغليظ وذقنها المدبب وجسمها النحيل القصير توحى بانها وهبت الأسرة خير ما فيها ، فلم يبق من حيويتها الا نظرة قوية تنم عن الصبر والعزم .

وكان التغير الطارىء عليها من العمق بحيث يتعذر تصور

ما كانت عليه أيام شبابها . الا أن ابنتها نفيسة كانت تعيد حياتها وصورتها بدقة كبيرة . كان لها هذا الوجه البيضاوى النحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدبب ، الى شحوب فى البشرة ، واحديداب قليل فى اعلى الظهر ، فلم تكن تختلف عن امها الا فى طولها المماثل لطول شقيقها حسنين . كانت بعيدة عن الوسامة وادنى الى الدمامة ، وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال امها ، على حين ورث الاخوة خلقة أبيهم . وكان الحزن قد اتى عليها فبدت فى صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب . اما الأم فعلى حزنها الشديد دارت براسها خواطر أخرى . كان يداخلها نحو أختها شعور بعدم الارتياح . ولم تستطع أن تنسى أنها كانت تنغص عليها حياتها ، وانها كان يحلو لها كثيرا أن تقارن بين حظيهما فتقول : ان أختها تزوجت من موظف أما زوجها هى فعامل فى محلج قطن ، وان اختها تقيم فى القاهرة وهى مقضى عليها بالحياة فى الريف ، وان ابناء أختها تلاميذ وأبناءها هى لا حظ لهم الا حظ العمال ، وان كرار أختها لا ينضب معينه أما بيتها فلا يعرف السمة الا فى المواسم . لعلها لا تجد الآن ما تحسدها عليه . وامتلأت نفسها امتعاضا الى ما بها من حزن . أنها تدرك من هول الكارثة ما لا يدركه أحد . انتهى زوجها ، وانها لتتلفت يمنة ويسرة فلا تجد أحدا تعرفه الا هذه الأخت التى لا يعقد بها رجاء . لا قريب ولا نسيب . ولم يخلف الراحل شيئا . وهيهات أن تأمل فى معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يستنفد فى ضرورات الأسرة . وقد وجدت فى محفظته جنيهين وسبعين قرشا هى كل ما تملك من نقود حتى تنتظم الأمور ؟ . ورنا بصرها الى حجرة الأبناء فى سهوم . اثنان فى المدرسة ، معفيان من المصاريف حقا ، ولكن هيهات أن يغنى هذا عنهما شيئا . اما الثالث ففى حكم الصعاليك ! . وتنهدت من الأعماق . ثم حولت عينيها الى نفيسة فتقطع قلبها الما . فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها

بلا مال ولا جمال ولا أب . وهذه هى الأسرة التى باتت مسئولة عنها بلا معين . بيد أنها لم تكن من النساء اللاتى يفضضن همومهن بالدموع . وأن حياتها الماضية وان امست حلما سعيدا موليا الا أنها لم تكن يسيرة خصوصا فى مطلعها حين كان المرحوم موظفا صغيرا ذا جنيهات معدودات ، وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح . كانت دائما قوية ، وكانت محور البيت الأول ، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب ، على حين كان المرحوم ادنى الى حنان الأمهات وضعفهن . والأبناء انفسهم مثال حى على التباين بين الأب والأم ، فكان حسن شاهدا تعيسا على رخاوة الأب وتدليله ، وكان حسين وحسنين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها . أجل كانت أرملة قوية ، ولكنها لم تملك فى تلك اللحظة من الليل الا اجترار الحزن والقلق . . .

٦

فى مساء اليوم التالى لم يبق فى الدار احد غير أهلها . وقد كوم أثاث حجرة الراحل فى ركن منها وأغلق بابها . واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بانه آن لهم أن يسمعوا لها . وكانت الأم تعلم بأنه ينبغى لها أن تتكلم . ولم يختلط عليها الأمر فيما يجب قوله ، فقد كانت فكرت فأطالت التفكير ، ولعله لم يكن يحيرها شىء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقوة ، وباطنها الذى يندى رحمة وعطفا على أسرتها البائسة وخفضت عينيها متحامية النظرات المصوبة نحوها وقالت :

— مصيبتنا فادحة ، ليس لنا الا الله ، والله لا ينسى عباده .

لم يكن بوسعها أن تتساءل « ما عسى أن نفعل ؟ » ، وهيهات أن تنتظر جوابا من احد من المحيطين بها ، حتى كبيرهم حسن .

وليس فى الدنيا احـد تستطيع ان تلقى اليه بهذه الاسـنمانة فتشركه فى بعض همها .

شعرت بالخلاء يكتنفها ، ولكنها ابت ان تستسلم لليأس . واستدارت تقول :

ـ ليس لنا من قريب نعتمد عليه . وقد رحـل العزيز الغالى دون أن يترك شيئا الا معاشه ، ولا شك انه دون المرتب الذى كان لا يكاد يكفينا . فالحياة تبدو كالحة الوجه ، ولكن الله لا ينسى عباده . وكم من اسرة مثلنا صـبرت حتى اخـذ الله بيدها فشقت طريقها الى بر الأمان ..

واختنق صوت نفيسة بالبكاء وهى تقول :

ـ لا أحد يموت جوعا فى هذه الدنيا ، وسيأخذ الله بيدنا، اما المصيبة التى تجل عن العزاء فهى موته هو . أسفى عليـك يا بابا .

ولم تحدث هذه الدموع أثرا عميقا لأن كلام الام انذر بأمور خطيرة استأثرت بجل اهتمامهم ، فثبتت أعينهم على امهم التى عادت تقول :

ـ لا يجوز اذن أن نيأس من رحمـة الله ، ولكن ينبغى أن نعرف رأسنا من قدمنا والا هلكنا ، وأن نوطن نفوسـنا على تحمل ما قدر لنا من حظ بصبر وكرامة ، وربنا معنا .

وأحست بأن معين الكلام العام قد نفـد ، وأنه ينبغى أن تخاطب الأبناء ، كل بما يعنيه ، ورأت عن حكمة أن تبدأ بمن هو أقل خطورة ، تمهد به لمن هو أشد خطورة ، فنظرت صوب حسين وحسنين ، وقالت بصوت هادىء أن تكشف عما لحق قلبها من تأثر :

ـ لن يكون فى الامكان اعطاؤكما اى مصروف يومى ، ومن حسن الحظ أن المصروف ينفق عادة فى وجوه تافهة ..

وجوه تافهة ! . اشتراك نادى الكرة ، السينما، الروايات، أهذه وجوه تافهة !؟ وقد تلقى حسين الحكم فى وجوم ، وتاه عقله متخيلا الحياة بلا مصروف ، ولكن دون أن ينبس بكلمة .

أما حسنين فقد انقض الحكم عليه كالصاعقة . وسرعان ما قال معترضا ، وبلا وعى تقريبا :

— كل المصروف ؟!. ولا مليم ؟!

فحدجته امه بنظرة طويلة ثم قالت بحزم :

— ولا مليم ..

احزنها اعتراضه ، ولكنها رحبت به لأنه اتاح لها ان تؤكد قولها بما لا يدع سبيلا الى الشك فيه ، ولكى يسمعه شخص آخر تخشى متاعبه اكثر من شقيقيه . وفتح حسنين شفتيه ، وهمهم دون أن يبين ، ثم قال بصوت منخفض :

— سنكون التلميذين الوحيدين اللذين تخلو جيوبهما من مصروف ..

فقالت أمه بحدة :

— انك واهم ، المصائب كثيرة ، والتلاميذ المصابون لا حصر لهم . ولو أنك فتشت جيوب التلاميذ جميعا لوجدت اكثرها فارغا . وهبكما الوحيدين الفقيرين فما فى هذا من عيب ، ولست المسئولة عما وقع ..

ولاذ حسنين بالصمت متذكرا انه يخاطب امه . كان دائما يجد عند أبيه من التسامح ما لا يجده عندها ، وكان الرجل يحبه كثيرا فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة الا ابنته نفيسة . أما الأم فلم تكن تتخلى عن حزمها قط . ولما فرغت من الرد على اعتراضه استطردت قائلة :

— كذلك احذركما من ترك نصيبكما من الغداء المدرسى كما تفعلان عادة .

وكان الشقيقان يقنعان من غذائهما المدرسى بلقمات معدودات كى يتناولا وجبتهما الرئيسية فى البيت . وكان التلاميذ الذين يأكلون فى المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة . فتساءل حسنين برقة :

ـ لماذا لا نأكل فى بيتنا كعادتنا ؟

فقالت الأم بامتعاض :

ـ من يدرى فلعله لن يتاح للبيت الطعام الذى تحب !

وارتسمت على شفتى حسن ـ الذى أصغى الى الحديث كله فى صمت عميق ـ شبه ابتسامة ، أخفاها بتقطيبة مصطنعة . ولكنها لم تخف على الأم ، فصممت على ان تواجهه بالحقيقة ـ ان كان حقا فى حاجة الى ذلك ـ بعد هذا التمهيد الطويل . فتساءلت بلهجة حزينة :

ـ وأنت يا حسن ؟!.

هذا أكبر الأبناء ، أول من ايقظ امومتها ، الحبيب الاول .! ولكنه دليل ملموس على أن الأمومة قد تتأثر بأمور لا تمت للفطرة بسبب . لا يعنى هذا بطبيعة الحال انها كرهته . انها ابعد مايكون عن هذا . ولكنها أسقطته من حسابها فتوارى من مرموق آمالها فى حسرة بالغة . انزوى فى ركن مظلم ، ولم يعد حبه يتحرك فى فؤادها الا مصحوبا بالأسف والحزن وقاتم الذكريات . وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة . كان فى البدء ضحية لفقر أبيه وتدليله ، فلم يبعث به الى المدرسة الا فى سن متأخرة . وسرعان ما ظهر تمرده على الحياة المدرسية ، وتكرر هروبه من المدرسة ، وتوالى سقوطه عاما بعد عام ، حتى انقطع عنها ولم يجاوز السنة الثالثة . واستحال ما بينه وبين أبيه الى نقار وشجار ثم الى ما يشبه العداوة الحقة ، فكان يطرده أحيانا من البيت فيقضى اياما متسكعا ثم يعود الى البيت وقد اكتسب شرورا جديدة من مخادنة الأشقياء والغوص فى الاثم والادمان وهو دون العشرين . ولما بلغ اليأس من أبيه مداه الحقه بحانوت بقال فمكث به شهرا ثم طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الحانوت ضحية لها . ثم عمل فى شركة سيارات وطرد منها اثر عراك أيضا . ولم يعد يأبه لا بغضب ابيه ولا بحزم امه ففرض

نفســه على البيت فرضا . يلقى سخطهم باســتهانة او بدعابة او بشجار ولكــنه لا يتزحزح ولا يبحث جادا عن عمل . وبدا وكأنه لا يعمل للمستقبل حسابا ، وظل سادرا مستهترا حتى فاجاه موت الأب . انه يدرك خطورة الحال ، فهو الوحيد الذى عرف مرتب أبيه ، وقدر على وجه التقريب معاشــه . وفهم ما تعنى الأم بتســاؤلها « وانت يا حســن » . « انت تقولين ان الله لا ينسى عباده . وانا عبــدمن عباده . فلننظــر كيف يذكرنا . لمــاذا اخذ والدنا ؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب امثالنا من الضحايا ؟ » ولكنه طالعها بابتسامة مؤدبة ، وشعور ممتلىء عطفا وتقديرا للمسئولية ، ثم قال :

ــ انى أدرك كل شىء ..

فقالت المراة فى ضيق متسائلة :

ــ ما عسى أن يجدى الادراك وحده ؟

ــ لا بد من عمل شىء .

فقالت فى انفعال :

ــ هذا ما نسمعه كثيرا .

ــ الآن تغير الحال .

ــ أليس ثمة أمل أن تتغير انت ؟!

فقال حسن فى نبرات قوية :

ــ مثلى لا يضيع فى الحياة ، انى استطيع ان اشق سبيلى . والفرص كثيرة والأسلحة فى يدى لا حصر لها . اصغ الى يا اماه لن اطالبك بغير المأوى واللقمة !..

هذا اسلوبه !.. يبدأ وكأنه يسلم بكل شىء ، ثم ينتهى وكأنه يطالب بحقوق جديدة . المأوى واللقمة ، وماذا يبقى بعد ذلك ؟! ورمقته باستياء وقالت :

ــ ان حالنا لا يحتمل هذا الهذر ..

ــ الهذر ؟!

ـ اجل . نحن فى حاجة الى من يطعمنا فكيف نهيىء لك اللقمة ؟! لماذا تضطرنى الى مصارحتك بهذا ؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال :

ـ اعنى الى حين . حتى تفرج . لن يضيق البيت بى . أم تريدين ان تطردينى ؟!. وسوف التقط رزقى ما وجدت اليه سبيلا . ولكن هبى اياما انقضت دون ان أجد عملا فلا أحسبك ترضين ان أموت جوعا . وعلى اية حال سأقاسمك رغيفك حتى اجد عملا !

وتنهــدت فى يأس . انها حيال مشكلة حقا ولا تدرى ماذا تفعل . واخوف ما تخاف أن يستسلم لحياة البطـالة والكسل والتسكع خاصة اذا فتر تأثره بموت أبيه فقالت برجاء :

ـ ارجو أن تبحث بجد واخلاص عن عمل ..

فقال بلهجة تنم عن الصدق :

ـ أعدك بهذا ، وأقسم لك بقبر والدنا .

واثار قسمه عاصفة حزن فى الصدور لموقعه الأليم .. وهزتهم « قبر والدنا » هزة عنيفة ، فأجهشت نفيسة فى البكاء ، وغاص قلب حسنين فى صدره ، على حين رمق حسين اخاه بنظرة حيرة وعتاب . ولبثت الأم صامتة مليا تكابد جرحا عميقا ، ولكنها لم تنس ـ حتى فى هذه اللحظة ـ انها لم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله ، فرددت عينيها اللتين انتفخ جفناهما واحمرت أشفارهما بين ابنائها ثم قالت :

ـ أما نفيسة فتحسن الخياطة ، وهى تخيط كثيرا لجاراتنا محبة ومجاملة ، ولست أدرى بأسا فى أن تتقاضى على تعبها مكافأة .

وهتف حسن بحماس :

ـ عين الصواب ..

ولكن حسنين صاح بغضب وقد اصفر وجهه غضبا :

ـ خياطة ؟!

فأجابه حسن معترضا :

— ما عيب الا العيب ، فلتكن ..

فقال حسنين بحدة :

— لن تكون اختى خياطة ، كلا ، ولن اكون أخا لخياطة ..

وقطبت الأم فى غضب وصاحت به :

— انت ثور ، تأكل وتنام ، ولا تدرى عن الدنيا شيئا ، رهيهات أن يفهم عقلك الغبى حقيقة حالنا !

وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به :

— اخرس ..

فنفخ دون أن ينبس بكلمة . ورأت الأم أنها فرغت من معارضته فالتفتت الى حسين ، فالتقت عيناهما برهة قصيرة ، ثم خفض الفتى عينيه وتمتم على مضض :

— اذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله ..!

فقالت الأم بتأثر :

— ما عيب الا العيب كما يقول حسن . لست احب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة أحكام ، ولا حيلة لى ..

وساد صمت مؤلم . وكان حسين أشبه الأبناء بأخلاق أمه فى صبرها وعقلها واخلاصها للأسرة . وقد تألم كثيرا لمصير اخته ولكنه استسخف الاعتراض على اقتراح أوحت به الضرورة . وشعر فى ألمه بأنه تعلم فى هذين اليومين ما لم يتعلم فى حياته كلها . اما نفيسة فسكتت مغلوبة على أمرها . ولم تكن تسمع الاقتراح لأول مرة فقد أقنعتها أمها بضرورته ووجاهته معا . وكانت الخياطة هويتها وملهاتها ، فلم يبق الا أن توطن النفس لقبول الأجر . لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذى لم تعد بعده شيئا . ثم قطع حسن الصمت قائلا بلهجة تنم عن الحسرة :

— من المؤسف حقا أن المرحوم أبى على نفيسة أن تواصل تعلمها فى المدرسة . تصوروا لو كانت اختنا مدرسة الآن !

وحدجوه بغرابة فادرك أنه تورط فيما يشبه الدعابة وهو لا يدرى . أفلم يكن الأولى به ان يعرف للتعليم قيمته فيواصل حياته المدرسية .؟! وقطب مغيظا وقال :

ــ التعليم ينفع امثالها ممن لا حيلة لهم . .

٧

وفى صباح اليوم التالى مضت الام الى وزارة المعارف مصطحبة معها حسن اكبر الأبناء . ولما علم هناك أنها ارملة المرحوم كامل على افنـدى أظهر كثير من زملائه اسـتعدادهم لأن يكونوا فى خدمتها . وطلبت المرأة صرف المستحق من مرتبه فدلها بعضهم على اجراءات اثبات الوراثة . وسالت عن معاشه فذهب معها أحد الزملاء الى ادارة المستخدمين . وتبين أن المرحوم خـدم الحكومة حوالى الثلاثين عاما فبلغ مرتبه ١٧ جنيها واسـتحق معاشا قدره خمسة جنيهات لورثته . لم تكن المرأة تتصـور هذا ، ولا كانت تعلم شيئا عن نصيب الحكومة من معاش المتوفى ، ولكن الذى أفزعها حقا هو ما قيل عن الاجراءات الطويلة التى تسبق صرف المعـاش ، والتى تستغرق اشهرا طوالا . هالها الأمر فلم تملك ان قالت :

ــ وكيف يتيسر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار ؟

وقال حسن مسوغا قلق أمه :

ــ نحن لا نملك الا هذا المعاش المنتظر ؟

وندم حسن على قوله عقب القائه مباشرة لانه بدا غريبا من شخص فى مثل طوله ورجولته ، ولكن الموظف قال دون أن يلقى بالا الى هذا :

ـ اعدك يا سيدتى بالا نضيع دقيقة واحدة بلا عمل . اما اجراءات وزارة المالية فلا حيلة لنا فيها ..

ما جدوى هذا الكلام الطيب ؟. ولكن اية فائدة تنتظرها من التذمر والشكوى ؟!. وغادرا الوزارة فى شبه ظلام من القلق واليأس . وهتفت المرأة :

ـ كيف نلقى الحياة هذه الأشهر ؟!. وكيف نعيش بخمسة جنيهات بعد ذلك ؟!

وخفض الشاب بصره فى وجوم وضيق . ولاح لعينى المرأة المكدودتين بصيص من نور فقالت :

ـ سأزور احمد بك يسرى . انه مفتش عظيم نافذ الكلمة . وكان صديقا عزيزا لأبيك ..

فقال حسن بأمل :

ـ رأى حسن . ان الكلمة منه تغير اجراءات الحكومة .

فنظرت اليه باهتمام وقالت :

ـ لا تضيع وقتك معى . لعلك تدرك حالنا على حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر ..

وعادت الى شبرا بمفردها ، ولبثت فى البيت حتى العصر ثم قصدت شارع طاهر أو حى الأعيان كما يسمونه . وكان يقع شمال عطفة نصر الله بثلاث محطات ، متفرعا من الطريق العام . تقوم على جانبيه الفيلات الأنيقة والعمارات الحديثة . واسترشدت ببعض السابلة حتى استدلت على فيلا البك . وكانت بناء جميلا مكونا من دورين تحيط به حديقة مونقة . وذكرت للبواب صفتها « حرم المرحوم كامل افندى على » فعاد اليها مسرعا وقادها الى بهو استقبال فاخر موصل بفراندة كبيرة ، ثم أخبرها أن البك قادم بعد ارتداء ملابسه . وخيل اليها أن فترة الانتظار قد طالت ، ولكنها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن وجهها . وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس

الذى يكتنفها . بيد انها كانت كبيرة الرجاء فى هـذا الصديق العظيم . طالما ذكرة المرحوم امامها بالحب والفخار . وطالما لمست بنفسها انعم هذه الصداقة فى اقفاص العنب والمانجو تهدى اليهم فى المواسم ، وكان المرحوم يقضى أكثر سهراته فى هذه الفيلا . وربما فى هذا الموضع منها حيث تجلس الآن — وقد القت على ما حولها نظرة حزينة — يلعب بأوتار عوده ، ويسمر هزيعا طويلا من الليل . فليس بعيدا أن تغادر هذه الفيلا مجبورة الخاطر . وانها لمغرقة فى أفكارها اذ فتح الباب الداخلى للبهو وجاء البك بجسمه الطويل العريض ، وشاربه المفتول بعناية بالغة . فقامت المراة فى أدب ، وسلم عليها البك وهو يقول برقة :

— تفضلى يا ست بالجلوس . شرفتنا . رحمة الله على زوجك . كان صديقا عزيزا أحزننى فقده . وسوف يحزننى طوال العمر ..

فاستبشرت المراةخيرابهذا اللقاء ، وشكرت له عطفه . وراح البك يحدثها عن الفقيد حتى اغرورقت عيناها بالدموع ، وزادها الموقف استفاضة فلم تحاول منعها مدفوعة برغبة غريزية فى استثارة عطفه . ثم ساد الصمت حينا فادركت رغم حزنها واضطرابها ان شارب البك وسوالفه مصبوغة . وانه يغالى فى العناية بمظهره ، الى ما تطيب به من روائح زكية عميقة الاثر . ولما تكرم بسؤالها عن طلبتها قالت :

— جئت مستشفعة بسعادتك لاستعجال صرف معاش المرحوم . قالوا لى يا سعادة البك ان اجراءات صرفه تستنفد أشهرا .

فتفكر الرجل مليا . ثم قال :

— لن ادخر وسيلة فى سبيل ذلك ، وسأقابل وكيل المالية بنفسى .

فأثلج صدرها ارتياحا ، وشكرته ، ثم ترددت لحظات وقالت :

ــ الحال يا بك تستدعى السرعة ، والله المطلع .

فقال الرجل باهتمام :

ــ طبعا ، طبعا . انى فاهم كل شيء . هل انت فى حاجة الى مساعدة ؟!

يا له من سؤال !. انها لا تملك الا جنيهين هما ما نبقيا من المبلغ الذى وجدته بمحفظة المرحوم ، ولن تجد سواهما حتى يصرف لها ما استحق من مرتبه حتى تاريخ الوفاة . ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة ؟ لم تتعرض لمثل هذا الموقف من قبل . وانه لموقف يستوجب أن يألفه قليلا ثم قالت بصوت منخفض : وعقل الحياء لسانها فسكتت قليلا ثم قالت بصوت منخفض :

ــ احمد الله على الستر . بوسعى أن انتظر قليلا ..

وارتاح البك للجواب . لقد انزلق الى السؤال متأثرا بالحياء والذوق . ولم يكن ارتياحه لبخل مركب فى طبعه ، ولا لأنه يكره ان يمد يد المساعدة الى ارملة صديقه ، ولكن لأنه كان على ثرائه لا يكاد يبقى على شيء لكثرة نفقاته على نفسه وأفراد اسرته . كان يضايقه ان يأخذ بيد هذه الأسرة حتى تبلغ بر السلامة . ولكنه كان على استعداد للبذل لوسألته المرأة اياه . وقد غاب عن المرأة أن زوجها لم يكن صديقا للبك بالمعنى الذى يفهمه البك من الصداقة . ولعله كان صديقا من أصدقاء الدرجة الثالثة . كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه دون أن يعده ندا له ، أو صديقا كسائر البكوات والباشوات . ولكن نيته صدقت على السعى لخدمة هذه المرأة حتى يصرف لها المعاش ، اكراما لذكرى الراحل ، وتفاديا من التورط فى مساعدتها ، ونهضت المرأة مستأذنة فى الانصراف فودعها بالاحترام . ولما خلصت الى الطريق تنهدت فى أمل ، ولكنها قالت لنفسها فى شبه ندم : « لو أتيت قدرا من الشجاعة لما ضيعت على نفسى معونة أنا فى أمس حاجة اليها .. » .

٨

وخلا حسين وحسنين لنفسيهما أول مرة بعد الوفاة . كانت نفيسة فى المطبخ والأم فى وزارة المعارف سعيا وراء همومها الجديدة ، وحسن لا يعلم بمكانه الا الله ، وكان حسين متربعا على فراشه ، والآخر جالسا الى مكتب المذاكرة بركن الحجرة يرعش بين أصابعه قلما فى نرفزة ويقول :

ـ يبدو أن الحياة لم تعد تطاق ..

وانتظر أن يتكلم حسين ، ولكنه تجاهل ملاحظته فرفع اليه بصره فى حنق . كان حسنين آخر عنقود الأسرة فلم يكن غريبا ان يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين . وضاق صدره بصمت أخيه فسأله :

ـ ما رأيك ؟

فتساءل حسين متجاهلا :

ـ فيمه ؟

ـ فيما قالت ! أتحسب حقا ان حالنا بهذا السوء ؟

فهز منكبيه قائلا :

ـ ولماذا تكذبنا ؟

فتألقت عينا الفتى ببريق أمل وقال :

ـ كى تكسر من حدتنا . كى نخاف ونتئد . وليس هذا عجيبا فالشدة مركبة فى طبعها ، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح !

فقال حسين بحزن :

ـ ليتنا ما عرفناه قط !

ـ ماذا تقول ؟

ـ اقول ليتنا ما عرفنا التدلل ابدا . اذن لهانت علينا الحياة الجديدة المقضى علينا بها !

فقال حسنين وقد ساوره الخوف :

ـ اذن فانت تصدق ما قالت !. احقا لم يترك والدنا شيئا ؟ الا يسد المعاش نفقاتنا ؟

فتنهد حسين قائلا :

ـ انى مؤمن بكل كلمة نطقت بها . هذه هى الحقيقة .

فتساءل حسنين فى جزع :

ـ كيف نطيق هذه الحياة ؟

فارتسمت على شفتى حسين ابتسامة حزينة . كان يشارك أخاه حزنه وقلقه ولكنه رأى من الحكمة أن يقف منه موقف المعارضة فقال :

ـ كما يطيقها الكثيرون . أم حسبت الناس جميعا يحظون باب كريم ورزق موفور ؟!. ومع ذلك فهم يعيشون ولا ينتحرون.

فامتلأ حسنين غيظا وهو يحدق فى وجه أخيه وهتف به :

ـ لشد ما يحنقنى برودك ..

فقال حسين مبتسما :

ـ لو جاريتك فى عواطفك لركبك اليأس وأجهشت باكيا .

فقال حسنين بسخط :

ـ ان من يستسلم للأقدار يشجعها على التمادى فى طغيانها !

فابتسم الآخر ابتسامة ساخرة وقال فى شبه دعابة :

ـ هلم نثر عليها .. دعنا نهتف لتسقط الاقدار كما هتفنا ليسقط هور .

ـ ألم تفدنا ليسقط هور ؟!

ـ هيهات أن تفيدنا الأخرى !

وقطب حسنين فى كدر وتساءل :

ـ من لنا الآن ؟

فابتسم حسين ابتسامة عريضة فرطحت انفه الذى بدا فى تلك اللحظة شبيها بأنف أمه الغليظ ، وقال باقتضاب :

ـ الله ..!

وزاد الجواب من حنقه ! انه لا يشك فى هذا ولكنه لا يقنع به . الله للجميع حقا ولكن كم فى الدنيا من جائع ومصاب ! لم يتنكر يوما لعقيدته ولكنه يتلهف فى خوفه على سبيل محسوس للطمانينة . وتوهم ان اخاه يحرجه ليتخلص منه فتشبث بعناد وقال :

ـ لقد شاء ان يأخذ والدنا ويتركنا بلا معين !

فقال حسين وكأنه يمعن فى اثارته :

ـ هو المعين ..

فانفجر حسنين قائلا :

ـ ان هدوءك الكاذب لا يجوز على .. انت مطمئن حقا !

فأصغى حسين اليه فى امتعاض والم ، ثم قال ولعله كان يدارى عواطفه :

ـ المؤمن لا تخونه طمانينته ..

ـ انى مؤمن وقلق معا !

فقال حسين فى غير ايمان بما يقول :

ـ هذا من ضعف الايمان .

فقال حسنين بحنق :

ـ أوه ، ليكن .. انى اعرف تلاميذ يجاهرون بالشك

ـ اعلم هذا .

ـ هم اذكياء ومطلعون .

ـ اتحب أن تفعل مثلهم ؟

فقال فى خوف :

ـ كلا .. لست من هواة الاطلاع ، انت نفسك تقرأ كثيرا ؟

فقال حسين مبتسما :

ـ هذا حق ولكنى لم أنتزع الله من قلبى . والحق اننا نغالى فى تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة . الا ترى ان الله اذا كان مسئولا عن موت والدنا فليس مسئولا بحال عن قلة المعاش الذى تركه ..

وشعر حسنين أن تطور الحديث نأى به عن مخاوفه الحقيقية فقال بضيق :

ـ دعنا من هذا وخبرنى كيف نعيش بلا مصروف ؟ أى بلا سينما ولا كرة . والأدهى من هذا كله انى كنت شارعا فى تعلم الملاكمة !

فقطب حسين قائلا :

ـ تحام ما يؤلم امنا ، اذا لم يكن فى وسعنا أن نساعدها فلا اقل من أن نريحها من منغصات لا داعى لها . واذكر انها وحيدة فلا اعمام لنا ولا اخوال !

ـ لا اعمام ولا اخوال ! كان هذا يهون لو لم تصبح اختنا خياطة !. رباه ما عسى ان يقول الناس عنا ؟!

وضاق صدر حسنين ، وغلبه الحزن ، ووقعت لفظه « خياطة » من نفسه موقعا مؤلما ، فقال بغضب :

ـ نستطيع ان نعيش دون مبالاة بما يقول الناس .

وأراد أن يقطع الحديث فنهض قائما وغادر الحجرة .

٩

شعرا بحرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأول مرة بعد الوفاة . لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيتغير كل شىء ، وهيهات أن تخفى خافية على أعين التلاميذ . وكانا يعانيان من هذا شعورا مؤلما وان تباينت درجة الهما . ولم يكن قد علم بالوفاة

الا قليل فسرعان ما ذاع الخبر بين الأصـــدقاء واقبلوا عليهما معزين . وقال أحدهم محذرا :

ـ يجمل بذويكما ان يحسنا اختيار الوصى عليكما ، فانني لم أدرك حقيقةالفاجعة بموت أبى حتى ابتليت بوصاية عمى !

الوصى ! وتظاهر حسين بالاصغاء الى نفر يتحدثون عن المظاهرات الأخيرة والمساعى المبـذولة لضم الصفوف ، ولكنه سمعحسنين وهو يجيب صاحبه قائلا :

ـ نحن مطمئنون الى الوصى كل الاطمئنان . .

فقال محدثه :

ـ انى اغبطكما على حظكما ، بيد أن الأمر يتوقف على نوع التركة ، فاذا كانت أراضى زراعية تيسرت سبل الخداع ، واذا كانت عقارا ضاقت السبل على الوصى بعض الشىء ، أو هـــذا ما تقول أمى . .

فقال حسنين بهدوء :

ـ من حسن الحظ أن تركتنا عقارا !

واصغى اليه حسين فى غيظ . لم يحنقه الكذب فحسب ولكنه أشفق من عواقبه . « كيف نواجه الحال الجديدة اذا ظن بنا الاخوان اليسار ؟ ماذا نفعل وماذا نقول ؟ . . انه يكذب بلا مبالاة . سحقا له ! » وصوب عينيه نحو أخيه محذرا فتحاشاه الفتى فى تذمر . ثم تساءل تلميذ كيف مات والدهما فأجاب حسنين فى تأثر قائلا :

ـ قيل لنا انه مات فجأة . ومن عجب أنه لما رآنى خارجا الى المدرسة صباح اليوم الذى توفى فيه ، وقبل ان يتوفى بساعة واحدة ، وضع يده على منكبى ورنا الى فى حنان وقال لى بلا داع ظاهر « مع السلامة . . مع السلامة ! » . .

فمن كان يدرينى أنه يودعنى !؟

لم يكن شىء من هذا قد حصـــل ، ولا يدرى كيف قاله ،

والأعجب من هذا كله أنه قاله بتأثر صادق كما لو كان وفع حقا وقد نطق به ارتجالا مدفوعا برغبة غامضة فى تبجيل والده . وعجب حسين لوصفه ثم دهش لتأثره فكاد يغلبه الابتسام ، ونحى وجهه جانبا فراى عن بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد أن ينفس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى اليه وحياه ثم قال :

- ارجو أن تعفينى واخى من الاشتراك فى نادى شبرا ..

ولاحت الدهشة فى وجه الرئيس ، وازعجه الطلب خاصة فيما يتعلق بحسنين - جناح الفريق الأيمن - فقال معترضا :

- لعل أمرا ضايقكما !

فقال حسين بتأثر :

- توفى والدنا !

فوجم الرئيس مليا ، ثم عزاه برقة ، وصمت لحظات ثم قال :

- الا ترى أن هذا لا يدعو الى حرمان النادى من عضوين بارعين مثلكما ؟

فقال حسين بلهجة خاطفة :

- ان الحداد يقضى بهذا !

فقال الفتى باشفاق :

- ان الحداد لا يتعارض مع الرياضة !

فقال حسين باشا :

- ان ظروفنا تقضى بهذا . انى آسف !

ثم حياه مرة أخرى وغادره متحاميا النظر الى عينيه ، وانضم الى أصدقائه . ووجدهم يتحدثون فى السياسة ، وكان احدهم يقول :

- رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم !

فقال آخر :

- لا بد من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التى نفهمها الانجليز ..

فقال ثالث :

ـ لم يضع الدم الطاهر عبثا ، ألم تسمعوا عن الدعوة الى لإتحاد ؟

ـ وهذه التيمس تلمح الى المفاوضة ..

ودق الجرس فاتجهوا الى الفصول وهم يتناقشون ..

١٠

قطعا فناء البيت فى صمت حاملين كتبهما ، ثم قال حسنين وهما يرتقيان السلم :

ـ عما قليل يبدأ فريق نادى شبرا فى التمرين استعدادا للمباراة القادمة !

فلاذ حسين بالصمت . وجعل يتخيل الملعب واللاعبين ، فكأنه يسمع الرئيس وهو ينبىء الآخرين بانفصالهما « لظروف الأسرة الجديدة ! » . لا لعب ولا مسرة ولا رحمة من شكوى حسنين المتواصلة . وطرقا الباب ثم دخلا . وتسمرت اقدامهما وراء الباب لمنظر غريب لم يتوقعاه . رأيا أثاث البيت مكوما فى الصالة فى اضطراب شامل وقد رصت المقاعد فوق الكنبات ولفت الأبسطة وفكت الدواليب ، ولاحت الأم ونفيسة مشمرتين يعاوهما التراب ويتصببان عرقا على لطافة الجو . وهتف حسنين :

ـ ماذا حصل ؟

فقالت الأم :

ـ سنترك الشقة .

ـ الى أين ؟!

ـ الى الدور التحتانى . سنتبادل السكن مع صاحبة البيت :

شـقة أرضية بمستوى الفناء الترب ، لا شرفة لهـا ،

ونوافذها مطلة على عطفة جانبية تكاد تبدو منها رءوس المارة .
وطبعا محرومة من الشمس والهواء ، وتساءل حسنين في امتعاض ولو انه كان يعرف الجواب مقدما :

ـ لماذا ؟!

فقالت الأم بصوت واضح :

ـ لأن ايجارها ١٥٠ قرشا !

فقال الشاب متذمرا :

ـ فرق الايجار أقل من ٥٠ قرشا لا يتناسب مع الفرق بين الشقتين !

فسألته الأم ساخطة :

ـ هل تتعهد بدفع الفرق التافه ؟

ـ لماذا رضينا اذن بأن تشتغل نفيسة خياطة ؟

فالتهمته الأم بنظرة من نار وصاحت به :

ـ كي نأكل ، كيلا تموتوا جوعا !

وحافظ حسنين على طلاقة وجهه أن يفتضح امتعاضه وسأل امه بلهجة لا اثر فيها للاعتراض :

ـ متى تم هذا يا أماه ؟

فقالت المرأة وهي تمسح جبينها بكم ثوبها الاسود :

ـ عرضت الأمر على صاحبة البيت غير مخفية شيئا من حالنا ، فاظهرت روحا طيبا ووافقت بلا تردد :

فقال حسنين في استياء :

ـ لو كانت ذات روح طيب حقا لنزلت لنا عن فرق الايجار مع ابقائنا في شقتنا !

فقالت الأم في حدة :

ـ للناس أعمال أخرى غير العناية برفاهيتك !

ـ وكيف ننام ليلتنا ؟

فقالت نفيسة بصوت كسير دل على انها لم تفق بعد من صدمة الوفاة :

ـ سننام فى الشقة الجديدة .

وخرج فى تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم حاملا بين يديه المشجب وهى آخر ما بقى من الأثاث فى الحجرات وقال بسرعة :

ـ كفاكم نقارا وهلموا نرفع الأثاث الى الدور التحتانى فليس بيننا وبين الليل الا ساعتان .. وأراد ان يضرب لهم مثلا عمليا فرفع كنبة من جانب وخاطب حسين قائلا :

ـ ارفع ...

وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان بحملهما الثقيل ، وجعل حسين يتساءل وهو يهبط فى السلم بحذر : ترى هل يراهما احد من أسرة فريد افندى محمد جارهم الكريم بالدور الثالث ؟!. « ليس الفراق شر ما فى الموت . أن الفراق حزن المطمئن . متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتا للتفكير فى الحزن . لشد ما نتغير ونتدهور ، ولكن ينبغى أن نصبر أو فى الأقل ان نتظاهر بالصبر . أكبر جريمة فى نظرى أن نضاعف بجزعنا شقاء امنا . ساخاطب حسنين بحزم أكثر ! »

ثم تبعتهما الأم والأخت يحملان ما يقدران على حمله من قطع الأثاث . ولم يستطع حسنين أن يقف متفرجا فانضم للعاملين . وما زالت الأسرة فى نزول وصعود والأثاث يتحول من فوق لتحت . وكانت صاحبة البيت قد أخلت الشقة وجمع اثاثها فى الفناء الى جانب الحمالين الذين وقفوا ينتظرون دورهم فى العمل . وكانت الأسرة جميعا ـ الصامت منهم والساخط ـ سواء فى الحزن والألم . ولم يكن وجه الأم مما تسهل قراءته ، اما نفيسة فابتلت عيناها بالدموع . واشتغل حسن بهمة كأنه يتملق بجهده أمه فلا تلحف فى تأنيبه على تعطله . وكان أقل الأخوة تأثرا للتغير الذى قلب الأسرة كما ينبغى لرجل ذاق

التشريد وألف التسكع . وهمس حسنين فى أذن حسين وهو يلهث من الجهد :

ـ الا ترى ان خسارتنا بموت ابينا لا تعوض أبدا ؟!

وانسابت من عينيه دمعتان .

١١

غادر حسن البيت مبكرا ، عقب خروج شقيقه للمدرسة . لم يكن ثمة داع ضرورى لهذا الخروج المبكر ، ولكنه اراد أن يتفادى من الاصطدام بوالدته ان يصحبها بنقار هى فى غنى عنه بما تكابد من تغير الزمن وتجهم الحظ . انطلق من عطفة نصر الله بلا غاية ولا أمل . « ابحث عن عمل ! لا تفتأ تردد على مسمعى هذه الجملة . اين يوجد هذا العمل ؟ صبى بقال ؟!. هذا معناه الاسعاف ثم البوليس . »ولكنه لم يكن يائسا للحد الذى توجبه حاله . كان كبير الثقة بنفسه ، وكان فى طبعه تفاؤل لا يدرى من أين يأتيه . ولكنه لم يستطع أن يتجاهل دقة موقفه وراح يخاطب نفسه قائلا : « يا أبا على ، مات الوالد رحمه الله ففقدت الركن الذى كنت تأوى اليه . حقا كنت تلتقط رزقك بالشجار والنقار ، وتتحمل فى سبيله السب واللعن ، ولكنه كان على اى حال رزقا مضمونا . هذه البدلة التى تجعل منك افنديا لاباس به من نقوده رحمة الله عليه . أجل أبى أن يبتاعها لك بادىء الأمر ولكنك هددته بأن تمشى فى الطرق باللباس والفانلة وأن تقتحم عليه مجلسه بقصر أحمد بك يسرى شبه عار ، فاذعن على مضض وكلف الخياط بأن يفصلها لك . الآن لو مشيت عاريا بلا لباس ولا فانلة فلن تجد من يسأل عن صحتك الا الشرطى ! » . كانت البدلة حسنة وان لم تخل من بقع باهتة عند ثنية الركبة . وكان يربط رقبته ببابيون فبدا القميص فى

حال لا يحسد عليها . وكان شعره أعجب ما فيه فقد تركه حتى غزر واسترسل ، وتصاعد فى جعودة جعلت منه رأسا مستقلا فوق الرأس الأصلى . اماوجهه فكان حسن كشقيقيه الى جسم طويل مفتول العضلات عريض العظام . سار متفكرا فيماخاطب به نفسه، ثم واتته ثقته بنفسه فجأة فقال « يا سيدى لا تسمح للهم بأن يركبك فما يجوز أن يركب الا البهائم من عباد الله . سوف تعيش طويلا وتلقى الحياة بخيرها وشرها . لم أسمع عن انسان مات جوعا . الأغذية تسد الطرق سدا . ولست طماعا فما تريد الا اللقمة والسترة وكم كأسا من الكونياك ، وكم نفسا من الحشيش، وكم امرأة من النساء، وكل أولئك متوفرة بكثرة، اكثر من الهم على القلب . توكل على الله ولا تحمل هما » ولم يكن خلو الجيب فقد اشرف على جنازة أبيه ، وخرج منها بأربعين قرشا لم يعلم بها احد وقد تساءل ألم يكن الأخلق به ان يعطيها لوالدته ؟ « كلا لو نزلت عنها ما أفادت أمى منها نفعا مذكورا ، ولكن ضياعها يضرنى ضررا لا شك فيه . لا أدرى متى يتاح لى الحصول على مثلها ! » وأخذت قهوة الجمال تلوح لعينيه الحادتين فحث خطاه حتى انتهى اليها . هى قهوة صغيرة لم تؤت من ميزة الا وجودها على الطريق العام . ولم يوجد بها فى هذه الساعة المبكرة الا زبونان جلسا الى مائدة على الطوار يتشمسان ويحتسيان القهوة ، على حين قبع فى ركن بالداخل شبان ثلاثة يدل مظهرهم ونظرات أعينهم الحائرة على الفراغ واليأس ، فلم يكن عجيبا أن يقصدهم الشاب وينضم الى مجلسهم . وما لبث أن طلب احدهم الورق فتهيئوا للعب الكومى . وكان كل منهم يمنى نفسه بأن يربح رزق يومه — خمسة قروش فوق الكفاية — من رفقائه . بيد أن حسن كثيرا ما يكون الصائد لمهارته من ناحية ولخفة يده وعينيه من ناحية اخرى . لهذا قال أحدهم قبل البدء فى اللعب :

— لا نريد غشا .

فقال حسن :

ــ طبعا .

فقال الشاب :

ــ فلنقرأ الفاتحة ..

وقرأوا الفاتحة جميعا بصوت مسموع ، ولعل حسن تعلم حفظها حول هذه المائدة ، ثم لعبوا مقدار ساعة فربح احدهم دورا ، وربح حسن دورين . كان صافى ربحه اربعة قروش ونصف بعد خصم نصف قرش ثمن فنجان القهوة ، واقترح بعضهم أن يمدوا وقت اللعب ، ولكن دخل القهوة شاب ما أن رآه حسن حتى نهض قائما ، واقبل نحوه فى احترام وسرور وهو يقول :

ــ صباح الخير يا أستاذ على صبرى .

فمد له القادم يده فى حركة تشى بشعوره بقدر ذاته ، وقال :

ــ صباح الخير ....

وجلسا الى مائدة متقابلين . واجتاحت نفس حسن موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ على صبرى قهوة ، ثم قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب :

ــ ونارجيلة ...

وغاص قلب حسن فى صدره أن يلزم بدفع ثمن النارجيلة أيضا فيضيع عليه ما ربح باللعب والحظ واليد والعين . ولكنه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ الى استطلاع وجه الأستاذ . وكان على صبرى فى منتصف عقده الثالث ، متوسط القامة نحيل العود ، صغير القسمات ، أما شعره فأشبه ما يكون بشعر حسن ، الى سوالف تزحف حتى منتصف خده . وكان مظهره بوجه عام يدل على سوء الحال ولكنه يغطيه بنفخة كاذبة وغرور غير محدود . قال حسن بأسف وهو يستطلع وجهه :

ــ لم نسمع صوتك من زمان !

وكان أذاع مرات من المحطات الأهلية وبدأ وكأن الحظ يتبسم

له ، فلما ألغيت المحطات الأهلية وانشئت محطة الاذاعةالرسمية حيل بينه وبين أحياء الحفلات ، وضاعت مساعيه وراء هذا الأمل هباء . وكان حسن احد أفراد تخته المعطل ، وطبيعى ان العمل لم يكن يدر عليه أكثر من قروش فى الحفلة ، ولكنه كان يحبه ويؤثره على العمل الجدى الذى لم يصادف فيه توفيقا على مشقته و « حقارته » ! وقال الأستاذ :

ـ سأبدأ نشاطا جديدا عما قريب .

فخفق قلب حسن وقال برجاء :

ـ نحن رجالك ، وفى الخدمة دائما ..

فهز الأستاذ راسه فى رضى لأنهلم يكن يشعر بالعزة الا اذا خاطبه احد أفراد تخته المتسكعين ، خصوصا حسن ، ذلك الشرس الجبار ، الذى ينقلب بين يديه وديعا متملقا ، ثم قال :

ـ طبعا . إنك تردد ترديدا حسنا ، وصوتك لا بأس به ..

فانطلقت أسارير حسن فى بشر وقال :

ـ ولقد حفظت كثيرا من الطقاطيق ...

ـ مثل ماذا ؟!

ـ اللى حبك ، ظالمانى ليه ، لما انكويت بالنار .

فهز الأستاذ منكبيه استهانة وقال :

ـ ان محك الفن الدور والليالى . ماذا يسمع الآن فى الراديو ؟. لا شىء . هذا زعيق فارغ وليس بغناء . ولو كانت المحطة تراعى وجه الفن وحده لكنت المذيع الأول بعد أم كلثوم وعبد الوهاب . وعبد الوهاب نفسه ، يخاف كثيرا أن تخونه حنجرته فتراه يتحامى النفس الطويل ، ويشطره أجزاء قصيرة متواريا وراء ما يسميه بالتجديد ، ثم يغطى ضعفه بضجيج الآلات . اليك كيف غنى « يا ليل » فى الحفلة الأخيرة ...

وتنحنح ثم راح يغنى يا ليل مقلدا عبد الوهاب . وجاء النادل بالنارجيلة والقهوة وهو يغنى فتناول الخرطوم دون أن

يمسك عن الغناء حتى انتهى . وحينذاك هتف رفاق حسن « الله .. الله .. » فأخذ نفسا من النارجيلة دون أن يلتفت اليهم ، ثم قال لحسن همسا :

ــ هذا اعجاب بالصوت لا بالفن . اسمع هذه الليالى فى نفس واحد كما كان ينبغى أن تغنى ..

وانشد بصوت ملأ القهوة الصغيرة حتى رفع صاحب القهوة راسه عن صندوق الماركات وأسارير وجوه تراوح بين الابتسام والاعتراض . وانتهى الأستاذ على صبرى ، وعاد الى النارجيلة وفى نيته أن يشكر فى هذه المرة للرفاق استحسانهم اذا أبدوه ، ولكن ساد الصمت فلم يسمع الا قرقرة الليف فى قنينة النارجيلة ، وقطب الأستاذ وقال فى ثقة :

ــ هذه أصول الفن ..

فقال حسن بحماس :

ــ لا شك فى هذا ..

فقال بلهجة الناصح :

ــ عزز صوتك ، لا تكف عن التمرين . أكثر من الليالى . ولا تن عن مص السكر النبات ..

ــ يا سلام !

ــ مفيد جدا . ويا حبذا لو استيقظت حين الفجر واذنت للصلاة فهو خير مران للحنجرة ، وهو ما كان يفعله سلامة حجازى ..

فضحك حسن وقال :

ــ ولكنى أنام عادة تبيل الفجر ..

ــ اذن قبل النوم .

ــ فى مسجد ؟!

ــ المهم الأذان نفسه فى هذه الساعة المبكرة . فى مسجد ، فى حانة ، كيفما اتفق !

ـ واذا كان الانسان من غير مؤاخذة سكران أو مسطولا ؟

ـ يكون افضل . فما تستطيعه وانت غائب عن وعيك اضعاف ما تستطيعه وانت صاح ..

ـ ينبغى أن نتقابل كثيرا حتى يفتح الله علينا ..

ثم التفت صوب الرفاق الثلاثة وسالهم :

ـ ماذا كنتم تفعلون ؟

ـ كنا نلعب الكومى ..

فقال الأستاذ على صبرى باهتمام :

ـ هلم نجرب حظنا ..

ونهض الرفاق واقبلوا نحوهما بلا تردد ، ثم تحلقوا المائدة والطمع يلعب بقلوبهم جميعا ، بيد ان حسن كان قلقا مشفقا من مغبة هذا اللعب . « ما عسى أن اصنع مع ابن القديمة هذا ؟ اذا كسبت اغضبته واذا خسرت ضاع اليوم هدرا ؟! » .

١٢

ـ لا أدفع مليما واحدا أكثر من الثلاثة الجنيهات .

قالها تاجر الأثاث وهو يلقى نظرة على فراش المرحوم . ولم تعد تجدى مساومة الأم . وكانت قد أجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يثيره وجوده من الأحزان ، ولأنها باتت فى مسيس الحاجة الى نقود . وكانت ترجو له ثمنا أكثر من هذا لعله يسد بعض عوزها الملح الى النقود ، ولكنها لم تجد بدا من الاذعان. فقالت للتاجر :

ـ غلبتنا سامحك الله ولكننى مضطرة للقبول ..

ودفع الرجل اليها بالجنيهات الثلاثة وهو يشـــهد الله أنه المغلوب ، ثم امر تابعين بحمل الفراش .

واجتمعت الأسرة فى الصالة تلقى نظرة الوداع على فراش فقيدها المحبوب . وتمثل الراحل لهم فكأنهم يرونه رؤية العين ، وغلب الحزن نفيسة فأجهشت فى البكاء واطبقت الأم شفتيها كاتمة آلامها . كانت تحرم على نفســها البكاء أمام ابنائها ان تعاودهم حدة الحزن . لم يكن لهم من أحد يعتمد عليه سواها فوجب أن تظهر بمظهر الرجولة . ولو وجد هذا الشخص للاذت بالدموع كسائر النساء ولكن لم يكن لهــا محيد عن التصبر والتجلد . وفضلا عن هذا كله فلم تواتها فرصة للتنفيس عن حزنها بما جبهها من هموم العيش واثقاله ، ووجدت نفسها فى القالب مضــطرة الى تناسى أحزان القلب لتناضــل ما يتهدد أسرتهــا من الضراء . « يحز فى نفسى الا أجــد فراغا الحزن عليك يا سيدى وفقيدى . ولكن ما الحيلة ؟. حتى الحزن نفسه محرم على امثالنا من الفقراء » . ولم يكن حسنين يتصور أن يفرطوا فى مخلفات أبيه ولكنه لم ينكر فى الاعتراض . والواقع أن حال الأسرة لم تعد تخفى على أحد . ومضى التاجر بالفراش واغلق الباب فساد الوجوم حينا ، وأرادت الأم أن تبدد سحابة الحزن التى اظلتهم فقالت مخاطبة حسين وحسنين :

ــ هيا الى حجرتكما للمذاكرة ..

وقبل أن تبدأ حركة قالت نفيسة بانفعال :

ــ لن اسمح لمخلوق بأن يمس ثياب أبى ..

فقال حسن مؤمنا على قولها :

ــ وما من فائدة ترجى من بيعها ..

وساد الصمت حينا ، ثم قال حسن مستدركا وكأنه يواصل حديثه :

ــ وفضلا عن هــذا فلن ينقضى وقت طويل حتى تشــتد حاجتنا الى الملابس !

فتساءلت نفيسة فى ارتياع :

ــ ايمكن أن تستعملوا ملابس ابى ؟!

ولم يجرؤ احد على الاعتراض ، ولكن الرقة مست قلب الأم فقالت :

ــ ما فى ذلك من ذنب . وليس فيه ما يسىء الى المرحوم ، بل لعله مما يطيب ثراه . ولكنى سأحتفظ بها بنفسى حتى تمس الحاجة اليها حقا ..

وتشجع حسن بقولها فقال فى ارتياح :

ــ نطقت عن حكمة . وانى أذكرك بأنى الوحيد الذى لا اكاد اختلف طولا أو عرضا عن المرحوم أبى .

وتناسى الشقيقان الحزن الذى ران على صــدريهما فقال حسنين محتجا :

ــ انى وان كنت أطول منك قليلا الا أنه يمكن مد ثنية البنطلون!

وقال حسين بلهجة ذات معنى :

ــ أو ثنيها مرة أخرى ..

فقالت الأم فى ضيق :

ــ لا داعى للنزاع . توجد اكثر من بدلة فى حال لا بأس بها وسأوزعها تبعا للحاجة اليها ..

ثم بلغ المسامع طرق على الباب فقطع عليهم الحديث ، وخفت نفيسة اليه ففتحته ، فدخلت خادم فريد افندى محمد حاملة سلة مغطاة بغطاء أبيض وضعتها على السفرة وهى تقول :

ــ ستى تسلم عليك يا ستى وتقول ان هذا فطير القرافة .

فحملتها الأم السلام والشكر وذهبت الخادم من حيث أتت. واقترب حسن من السلة وحسر عنها الغطاء فبدت الفطائر بألوانها

الوردية وطار عرفها الشهى الى الأنوف . ولم يكن تهيأ للأسرة طوال الاسبوعين المنصرمين طعام شهى لما اخذت به الأم نفسها من الحذر والتقتير . ولاحت الرغبة فى اعين الاخوة . ولكن الأم كانت تتجهم لها الخواطر ، والحقيقة أن تلك الأيام لم تكن تضمر لها خيرا ، وحتى خيرها لم يخل من نكد ، وبدا التفكير فى تجاعيد وجهها وهى تقول:

ــ هدية مشكورة ولكن الواجب أن نهدى ما يماثلها عقب العودة من القرافة ، فما العمل ؟!

وجد الأخوة خيبة ، واراد حسين ان يخفف عن أمه فقال :

ــ فلنعد الهدية الى أصحابها شاكرين !

فقالت الأم فى حيرة :

ــ يعد مثل هذا العمل معيبا لا أثر للمودة فيه . .

فقال حسن متحمسا لقول أمه :

ــ بل يعد سلوكا عدائيا . .

وتناول فطيرة ، وشمها ثم قال باستهانة :

ــ لا تحملوا هما . انما ترد هذه الهدايا فى أوقاتها ، واذا مات فريد افندى بعد عمر طويل أهدينا الى أسرته سلة فطائر ، ولن يعجزنا صنعه وقتئذ باذن الله .

وراح يلتهم الفطيرة . وتبادل الشقيقان نظرة ثم مدا يديهما الى السلة ، حتى نفيسة سمعت تمطقهم فلم تعد تقاوم . .

١٣

جلست نفيسة على الكنبة فى الحجرة التى تنام فيها مع امها مكبة على ماكينة الخياطة ، وقد نثرت على أرض الحجرة قصاصات من الأقمشة . كانت الأم فى المطبخ ، والشقيقان فى المدرسة ، أما حسن فحيث لا يدرى أحد . وقد باتت الفتاة تضمر لشقيقها الأكبر مر اللوم ، فلو أنه وجد لنفسه عملا لما وجدت نفسها فى

الوضع الذى هى فيه ، لا يزن أحد بانه جاد — كما يقول — فى البحث عن عمل ؛ ولكنه يغيب النهار ونصف الليل ثم يعود كما خرج صفر اليدين . ولم تعد الأيام تطالعهم الا بما يسوء ؛ فاليوم اضطرت الأم الى الاستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفر اجرتها فأصبح عليها — هى واجبان يوميان أن تبتاع حوائج البيت من الطريق لتسد الفراغ الذى تركته الخادم وان تكب سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة . وقد مهدت انها الا سبيل العمل نفسها منذ يومين فقالت لصاحبة البيت التى جاءت بقطعة من القماش لتفصيلها :

— هل عندك مانع من مكافأة نفيسة على عملها ؟

فقالت المرأة بلا تردد :

— أبدا يا ست ام حسن . هـذا حق وعدل . وهيهات ان نوفى ما علينا من دين لست نفيسة .

ما زال سمعها يرجع هاتين الجملتين . وما تذكر انها وجدت نفسها فى مثل هذا الموقف طوال عمرها . لقد تصاعد الدم الى وجهها الشاحب فكاد ينضح به ، وشعرت بأنها تهوى من عل ، وأنها امست فتاة أخرى . ليس بين الكرامة والضعة الا كلمة . كانت فتاة محترمة فانقلبت خياطة . وأعجب شىء أنه لم يستجد جـديد بالنسبة الى العمل نفسه ، فطالما خاطت ثياب صاحبة البيت ، وامرأة فريد افنـدى وابنتها وغيرهن من الجيران . فالخياطة هوايتها ، ولها فيها من البراعة ما يجعلها قبلة الجيران والصديقات ، لشد ما تغير شعورها . أحست بالخزى والهوان والضعة ، وتضاعف حزنها على أبيها ، فبكته بكاء حارا ، وبكت نفسها فيه . مات الفقيد المحبوب فمات بموته أعز ما فيها .

كانت تخيط منقبضة الصدر ، لا ضاحكة الثغر ولا مترنمة كعادتها فيما ولى من أيام . وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين آونة وأخرى لتفصل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها اليها

هذا الصباح . اجل بعثت بها هذا الصباح فحسب ، عقب حديث امها بيومين ، مما جعلها تظن انها ارسلتها على سبيل الاحسان ! وقد افضت بافكارها الى امها فانتهرتها قائلة :

ــ لا تسلطي هذه الأوهام على نفسك والا خاب مسعانا جميعا .

ولم تكن تجرؤ على معارضة امها الى ما باتت تكنه لها من الرثاء في هذه الأيام الأخيرة . « ما اغباني . هل حسبتها راضية عن حالي ؟ انها تكابد حيرة قاتلة وهي أحقنا بالعطف . ان التعاسة تنفذ في لحمنا كما تنفذ هذه الابرة في قطعة القماش . ما كان ابي ليسمح بشيء من هذا ولكن أين هو ؟ . ان حزني عليه يتضاعف يوما بعد يوم لا للضر الذي مسنا بعده فحسب ولكن لأن هذا الضر نزل بمن يحبهم ويحب لهم الخير . انى آلم لأاله . لا بد انه متألم لنا ، لشد ماكان يحبني . كأنه يحدس ما يرصدني من شقاء . اضحكي ، ما احب ضحكتك الى نفسي ، هكذا كان يقول لي كلما تعالت ضحكتي الرنانة . وكان يقول لي ايضا الخفة انفس من الجمال كأنه يعزيني على دمامتي . لله ما الطفه وما اعذبه ، لم يكن مثله احد في الرجال . مات . مات . لن انسى ما حييت ايماءته الى صدره وهو ملقى على الكنبة : ابي يستغيث ولا مغيث . لتندك الجبال على الأرض . حياة بغيضة مفجعة لا خير فيها . أبي ميت وانا خياطة . عما قليل تجيء صاحبة البيت لا ضبفة كما كانت ولكن زبونة . كيف القاها ؟ بأي عين تنظر الي ؟ . حسبي ، حسبي ، داخ رأسي » . وسمعت أمها تخاطب شخصا في الصالة فكفت يدها عن الماكينة وأرهفت السمع فقرع اذنيها صوت تاجر الأثاث وهو آخذ في مساوماته التي لا تنتهي وأمها تحاوره بصوت ملئه الاشفاق واللوم . « ليست أمي بلهاء ، وما كانت لتغلب في مثل هذا الموقف ، ولكنها الحاجة القاسية التي تركبها ، متى يصرف لنا المعاش ؟ لا أدري ، ولا احمد يسري يدري . هيهات أن يكفينا المعاش . خمسة جنيهات ؟! كارثة . جاء الرجل ليحمل المرآة الكبيرة بحجرة الاستقبال

ولما يمض اسبوعان على بيع الفراش العزيز . وسيأتى غدا وبعد غد حتى يترك الشقة ارضا عارية . لماذا خلقنا أسرى اذلاء للغذاء والكساء والمسكن ؟ هذا سر متاعبنا » . وخفت الى باب الحجرة ففتحته ورات التاجر ومعاونيه يحملون المرآة الطويلة الى الخارج وقد فتح باب حجرة الاستقبال على مصراعيه ووقفت امها على عتبتها . وكان الرجل الذى يحمل مؤخرة المرآة قصيرا فحملت المرآة فى وضع مائل ورات سطحها ينعكس عليه ركن سقف الصالة متأرجحا بحركة الرجلين كأنما سرى بأوصال البيت زلزال . وذكرت وهى لا تدرى نعش ابيها . واشتد انقباض صدرها وهى تلقى نظرة الوداع على المرآة التى عاشرتها منذ رات النور . وعادت الى مجلسها . «ينبغى أن تكون المرآة آخر ما أحزن عليه . لن تعكس لى وجها أسر به . الخفة انفس من الجمال ؟! هذا قولك يا أبى وحدك ، ولولاى ما قلته أبدا . لاجمال ولا مال ولا أب . كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبلى ، مات احدهما ، وشغلت الهموم الآخر . وحيدة ، وحيدة ، وحيدة فى يأسى والمى ، ثلاثة وعشرون عاما ! ما أبشع هذا . لم يأت الزوج بالامس والدنيا دنيا فكيف يأتى اليوم أو غدا ؟! وهبه جاء راضيا بالزواج من خياطة فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج ؟. لماذا افكر فى هذا ؟ لا فائدة ، لا فائدة . سوف أظل هكذا ما حييت»

ودق الباب ، ثم جاءت صاحبة البيت متهللة كعادتها ، واحتضنتها وقبلتها . ثم جلستا جنبا الى جنب وتحدثت المرأة برقة ومودة ، ولعلها حرصت على الرقة والمودة أكثر من ذى قبل . وتظاهرت نفيسة بالرضا والارتياح تدارى بهما ارتباكها وخجلها . ولكن من المؤكد أن مبالغة المرأة فى اظهار مودتها آلمها وآذاها وضاعف من ارتباكها وخجلها . وقد جربت المرأة الفستان الذى انتهت نفيسة من خيطه ، وقاست الثياب الداخلية ، ثم جلست لصقها وغمرت يدها بنقود فضية وهى تقول :

ـ هيهات أن نوفر دخلك السابق .

ومكثت معها ردحا من الزمن ثم ودعتها وانصرفت . وبسطت نفيسة يدها فرأت قطعتين من ذوات العشرة القروش . وثبتت عيناها عليهما وصدرها جياش وقلبها خافق . ثم قهرها الحياء والهوان » شيء مؤلم ، ولكن ينبغى أن أفكر فى هذا . ما جدوى وجع الدماغ ؟ روضى نفسك على قبول ما لا بد منه . هـذه حياتى ولا حياة لى غيرها .. » وجاءت الأم وهى لا تزال تنظر الى النقود فأخذتها من يدها وسألتها :

ـ أجرة الثياب كلها أم الفستان وحده ؟

فغمغمت الفتاة :

ـ لا أدرى ..

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها بصعوبة :

ـ أجرة حسنة على أية حال .

وتحاشت الأم أن ينم وجهها على شيء مما يقوم فى نفسها ..

١٤

ومضت أسابيع . وكان الليل قد أرخى سدوله وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت . وكان الشقيقان يجلسان الى المكتب متقابلين ، منهمكين فى المذاكرة ، على حين جلست الأم ونفيسة فى الصالة فى شبه ظلام قانعتين من النور ـ على سبيل الاقتصاد ـ بما ينبعث من حجرة الأبناء . وتناجيتا فى صوت منخفض شأنهما كل مساء ، وكانت هموم العيش أكثر ما يستأثر بحديثهما . لم تزل الحاجة همهما الأكبر ، وما انفك الخوف يقض مضجع الأم ويجعلها ترمة المستقبل بقلق وحزن عميق . بيد أن العادة كانت تحدث أثرها الملطف فى تهوين الخطب وأساغته ، فلم

بعد التقشف فى الغداء مزعجا كما كان بادىء الأمر ، وأخذت نفيسة تألف مهنتها الجديدة ، وتتطلع الى زبائن جدد ، فى شىء من الانكسار وكثير من الرجاء . حتى الشقيقان ، تعودا أن يجعلا من غداء المدرسة وجبتهما الرئيسية ، وأن يبيتا بلا عشاء فى صبر وجلد . كانت العادة تحدث أثرها ، وكان حزم الأم يسيطر على ضبط أعصاب الأسرة المنكوبة . وفى ذلك المساء جاء فريد افندى محمد وزوجته يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم ونفيسة بترحاب وقادتاهما الى حجرة الاستقبال .

وكان فريد افندى يرتدى جلبابا ومعطفا ، أما حرمه فقد التفت بالروب ، وكأنهما فى شقتهما بغير ما كلفة . وجلس الرجل على الكنبة ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديثه الودود فى لطف وايناس . وكانت زوجه — ست أم بهية — بدينة مثله مع ميل الى القصر ، الا أنها كانت تعد أجمل امرأة فى العمارة لبياض بشرتها وزرقة عينيها . وقد قالت تخاطب أم حسين متسائلة فى لهجة تنم عن العتاب :

— لماذا تلزمان البيت هكذا ؟ لماذا لا تروحان عن نفسكما بزياتنا كما كنتما تفعلان ؟

فقالت الأم :

— هجم برد الشتاء وما أن يأتى المساء حتى يركبنا الكسل . أما نهارنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت ..

فقال فريد افندى :

— نحن أسرة واحدة ، وينبغى أن نمضى جل فراغنا معا .

كان فريد افندى ممن لا يبرحون بيوتهم بغير داع قهار . ويرى طيلة فراغه متربعا على الكنبة ومن حوله زوجه وبهية ابنته وسالم ابنه الصغير ، يسمرون ، ويمصون القصب أو يشوون أبا فروة . وكانت الأم تكن مودة صادقة لعطفه ومروءته ، ولا تنسى له ما تجشم من تعب يوم وفاة زوجها . وفضلا عن هذا

كله فقد اقرضها بعض المال لحين صرف المعاش ، ولم يكن ينى عن الذهاب الى وزارة المالية للاستعلام والاستعجال . بيد انه كان موظفا تافه الشأن وهو ما غاب عن تقدير المرأة . ولم يرق الى الدرجة السادسة الا حديثا على بلوغه الخمسين . وكانت جيرته للأسرة ترجع الى عهد بعيد . وتوثقت أواصر الصداقة بينهما لطيب معشرهما وقرب أسباب المعيشة بين الأسرتين . وكانت حياة لا بأس بها ، ولا تخلو من ألوان الترفيه . ثم نعمت أسرة كامل افندى برفاهية جديدة حين رقى المرحوم الى الدرجة السادسة قبل وفاته بخمسة اعوام . واستقبل فريد افنــدى عهدا جديدا منذ عامين ، فورث بيتا بالسيدة زينب يدر ايجاره عشرة جنيهات شهريا ، وبلغ به دخله ثمانية وعشرون جنيها أو ما يعد ثروة فى عام ١٩٣٣ . وبات فريد افندى سيد عطفة نصر الله ، وزاد ترهلا على ترهل ، واولا حرص زوجه على الاقتصاد لمواجهة مستقبل فتاتهما وابنهما الصغير لنفذ الرجل ما اراده يوما من الانتقال الى شقة بشارع شبرا .

وتنقل بهم الحديث من واد لواد ، ثم قال فريد افنــدى مفصحا عن رغبة لعلها كانت أول ما بعثه الى هذه الزيارة :

— يا ست أم حسن ، انى قاصدك فى رجاء ..

فقالت الأم :

— مر يا سيدى ..

— ابنى سالم ، وهو فى السنة الثالثة الابتدائية ، ضعيف فى الانجليزى والحساب . وقد رايت على سبيل الاقتصاد ـ لأن المدرسين طماعون كما تعلمين — أن أعهد الى حسين وحسنين بالقيام بهذه المهمة ، ساعة كل يوم أو يوما بعد يوم ، هذا رجائى يا ست أم حسن ..

وأدركت المرأة ان الرجل يهيىء سبيلا غير ماس بالكرامة لنفح

ابنيها بمصروف شهرى يرفه عنهما هذا واضح كالنهار ويتفق مع ما طبع الرجل عليه من دمانة ورقة . وقالت برقة وحياء :

— ان حسين وحسنين ابناك ، وهما طوع أمرك ..!

فقال الرجل بسرور :

— فليسعفانى بسرعة اذن ، وليبدءا يوم الجمعة القادم ..

وعادوا الى حديثهم الطويل ، ثم غادر الرجل وزوجه الشقة حوالى التاسعة . وهرعت نفيسة الى حجرة أخويها حاملة خبرا سارا لأول مرة منذ عهد ليس بالقصير ، وقالت بمرح وقد استردت شيئا من طبيعتها الأولى :

— مفاجاة !

فرفعا راسيهما اليها فى استطلاع فقالت :

— فريد افندى راغب فى اختيار مدرس لسالم ..

— وما شأننا فى ذلك ؟

— منكما ؟

— لأى مادة ؟

— الانجليزى ..

فصاح حسنين :

— انا طبعا !

فقالت مبتسمة :

— والحساب أيضا .

فقال حسين وهو يتنهد :

— أنا ..

فقالت فى مكر :

— يريدكما معا ، وطبعا بالمجان !

فهتفا معا فى سرور وقد أدركا ما وراء كلامها :

— طبعا !

١٥

لم يكن ثمة ما يدعو الى ارتداء البدلة فى ذهابهما الى شقة فى نفس العمارة فارتديا معطفيهما على البيجامتين . والى هذا كانت أمهما تحرم عليهما ارتداء البدلة - ان يبليها طول الاستعمال - الا للضرورة القصوى . وكان الضحى بسام الشمس فلطفت حرارتها من برودة الجو . وارتقيا السلم يملأهما السرور والأمل . ومرا فى صعودهما بباب شقتهما القديمة فالقيا عليها نظرة صامتة ، وانتهيا الى الشقة العليا فوجدا الباب مواربا ووقفا لحظات مترددين . ثم اقترب حسنين من الباب ورفع يده لينقر عليه ولكن يده جمدت فى الهواء ورنت عيناه الى الداخل على رغمه . رأى فتاة مولية الباب ظهرها ومنحنية على شىء بين يديها - لعلها تبحث فى درج من أدراج البوفيه - وقد برز ردفاها اللطيفان ، وانحسر الفستان عن ساقيها وباطن ركبتيها ، ساقان مدمجتان يكسوهما بياض ضاحك تكاد العين تحس طراوتهما . وثبتت عيناه على المنظر فلم يبد حراكا . وعجب حسين لموقفه فدنا منه فى اهتمام والقى ببصره من فوق كتفه وهو يشرئب بعنقه فغمرته دهشة ، ولكن سرعان ما ارتد عن فرجة الباب كالهارب وجذب أخاه من ذراعه وهو يرميه بنظرة حادة كأنما يقول له « أمجنون أنت » . ولبثا حينا وقد ركبهما ما يشبه الشعور بالذنب ، وكان المنظر ذر فى شقوق صدريهما الشطة . ومال حسنين على أذن حسين وهمس :

- بهية ..

فغمغم الآخر متظاهرا بعدم الاكتراث :

- لعلها ..

فتردد حسنين رفى عينيه بسمة شيطانية ثم قال :
ـ الا نسرق نظرة أخرى ؟
فلكزه فى كتفه ونحاه جانبا ثم اقترب من الباب وطرقه . وسمعا وقع اقدام آتية ، وفتح الباب عن وجه جميل ، مستدير ، ممتلىء أبيض مشوب بشحوب خفيف ، تزينه عينان زرقاوان صافيتان . وما ان رأت القادمين حتى تراجعت فى خفر . ثم جاء من بعيد صوت فريد افندى وهو يهتف :
ـ تفضلا يا حضرتى الأستاذين الكبيرين !
ودخلا الى الصالة ـ حجرة السفرة أيضا ـ فرأيا فريد افندى جالسا على كنبة فى مواجهة البوفيه ، فى جلباب فضفاض ، جعل منه كهيئة المنطاد . وسلما عليه وهو يتصفح وجهيهما باهتمام وترحيب ، ثم نادى سالم ، فجاء الغلام ووقف فى حياء وارتباك ، فقال فريد افندى :
ـ سلم على أستاذيك . انت تعرفهما طبعا ولكنهما من الآن فصاعدا شخصان جديدان . هما أستاذاك فتأدب فى محضرهما كما تتأدب أمام معلميك . .

فاقترب منهما الغلام فى أدب وهو يغالب ابتسامة حيال الشابين اللذين لم يألف احترامهما بعد ، وأشار الأب الى حجرة الى يسار الداخل وقال :
ـ حجرة الاستقبال أوفق حجرة للدرس ، وبها الشرفة اذا أراد أحدكما أن يتشمس . .
ومضى الأستاذان الى الحجرة يستقبلهما التلميذ ، وبادر الغلام الى الشرفة ففتح بابها ، ثم أغلق باب الحجرة . وكانا يدخلان الشقة لأول مرة لأنه لم يكن لفريد افندى ابن فى سنهما فتدعوهما صداقته الى التردد عليها . ووجدا حجرة الاستقبال بمنزلة حجرتهما بوجه عام فهى مكونة من طاقم قديم ذى كنبتين أفرنجيتين وستة كراسى ، ومرآة كبيرة ذات حوض مذهب يحوى

وردا اصطناعيا بيد أن حجرتهما بقيت على قدمها وبيعت مرآتها ، اما هذه فيبدو أن يد النجاد قد جددت حشوها وكساءها . وجلس حسين على كنبة فجاء سالم بكرسي وجلس قباله واضعا بينهما خوانا صفت عليه الكتب والكراسات ، على حين خرج حسنين الى الشرفة فى انتظار دوره . وجعل حسين يتصفح كراسات الغلام وكتبه ، ثم قال له :

ــ سأعيد الدروس من الأول شارحا ما يغمض عليك على ان نبدأ فى الدرس التالى بتسميع ما تم شرحه .

وبدأ الدرس فى اهتمام جدى .

ووقف حسنين فى الشرفة مرتفقا حافتها كما كان يفعل أيام كان لهم شرفة . وكان المنظر الذى أثاره لا يزال ناشبا فى مخيلته . الساقان البديعتان ، والوجه البدرى ذو العينين الزرقاوين . نظرة هادئة رزينة توحى بالثبات لا بالخفة . جمال يبهر وان شابه شيء من ثقل الدم ولكنه لم يترك أثرا سيئا فى نفسه . لا يزال دمه يتدفق حارا فى عروقه ، وقلبه يخفق بنشوة المنظر ، ورأسه لا يمسك عن خلق الصور والأحلام . هذه أسطح البيوت المحدقة به وهذه عطفة نصر الله فى اسفل ، وهؤلاء خلق كثيرون ذاهبون آئبون ، كل أولئك يلوح وراء غلالة حمراء نشرها خياله المحتقن الدم ، متى تعود السكينة الى نفسه ؟ انه يذكر بهية . كان يراها كثيرا وهى صغيرة تحجل فى فناء العمارة . ولكنها اختفت منذ الثالثة عشرة ، وانقطعت عن المدرسة أيضا قبل أن تلتحق بالمدرسة الثانوية . ولعلها فى الخامسة عشرة ، ولكن كان كأنه يراها لأول مرة . « انى بحاجة الى مثل هذه الفتاة . نذهب الى السينما معا ، ونلعب معا ، ونتحدث كثيرا . وما من بأس فى أن اقبلها واعانقها . ليس فى حياتى وجه جميل يجذبنى اليه . وحسبى ما صادقت من فتيان المدرسة ونادى شبرا . اريد فتاة . أريد هذه الفتاة . فى أوربا وامريكا ينشأ الفتيان

والفتيات معا كما نرى فى السينما . هذه هى الحياة . اما هذه فما أن رأتنا حتى توارت عن الباب كأننا وحوش نروم التهامها . وكان اجدادنا يقتنون الجوارى . لونشأت فى بيت ملىء بالجوارى لعرفت حياة أخرى على رغم أمى وانذاراتها ولكماتها . حتى الخادمة الصغيرة طردت لفقرنا . ما يخبىء لنا المستقبل ؟ اظن أكبر ذنب يؤخذ به فى الآخرة هو أن نترك هذه الدنيا دون ان نستمتع بحلاوتها . اجمل منظر حقا هو بطن ركبتها . فى وسطه عضلة رقيقة مشدودة تشف بشرتها عن زرقة العروق . لو انحسر الفستان قليلا لرأيت مطلع الفخذ . أجمل منظر فى الدنيا منظر امرأة تخلع ثيابها . اجمل من المرأة العارية نفسها . يقولون أن مدرس التاريخ زير نساء . متى أجد نفسى رجلا حرا !؟. عندنا غدا حصة تاريخ ويجب أن أحفظ هذه الليلة القبائل الجرمانية . انكحوا ما طاب لكم من النساء ، هذا أمرك يا رب ولكن هذا البلد لم يعد يحترم الاسلام . » وتابع أحلامه فى نشاط حتى ترامى اليه صوت حسين يدعوه الى درس الانجليزى فغادر موقفه ..

وعند انصرافهما بدت لهما الفتاة جالسة فى الحجرة القابلة لحجرتهما ، أما حسين فقد غض بصره فى وقاره المعهود . وأما هو فقد رنا اليها بنظرة قوية فخفضت عينيها فى حياء .

١٦

— كم تظن أن يكون أجرنا ؟

فقال حسين متظاهرا بعدم الاكتراث :

— لا تكن شحاذا ثقيلا ..

فقال حسنين بأمل :

— نحن ندرس لسالم يوما بعد يوم وقد مضى زمن لا بأس به

فلعله ينقدنا اجرنا اول الشهر ، نينة لا تستبعد ان يعطى كلا منا نصف جنيه وهو مصروف عال ! ستعود ايام الكرة والسينما وشيكولاتة المقصف فى الفسحة ..

كانا يرتقيان السلم وقد غاب نهار الشتاء القصير فى ظلمة المساء المبكر . وطرقا الباب كعادتهما وانتظرا أن يجىء من يفتحه وهما يطويان فى صدريهما أملا يتجدد مساء بعد مساء دون أن يتحقق . وجاءت الخادم وقادتهما الى حجرة الاستقبال . كانت الصالة خالية والضوء ينبعث من حجرة نوم الوالدين فى نهاية الصالة فسار حسنين وهو يلحظ المكان بجانب عينيه دون جدوى ثم جاء سالم واغلق وراءه الباب وجلس أمام حسين وبدأ الدرس. وشعر حسنين بخيبة وملل . وكان أحضر معه كتابا يذاكره حتى يجىء موعد درسه فراح ينظر فيه بعينين غائبتين . وجعل يرفع بصره الى الباب المغلق بحنق شديد ، ثم تساءل بمكر :

ــ ألا يحسن بنا أن نغلق الشرفة اتقاء للبرد ونفتح الباب ؟

وهم سالم بالنهوض ولكن حسين أشار له بالجلوس وقال :

ــ اغلق الشرفة اذا أردت على أن يبقى باب الحجرة مغلقا .

ورمقه بنظرة ذات معنى فتلقاها حسنين باستياء مكتوم . وضاق بمجلسه فقام الى الشرفة متناسيا انه كان يقترح اغلاقها منذ لحظات . ووجد حيال الظلمة كآبة مثل تلك السحب التى كانت مرنقة بصفحة السماء تزيد الظلمة عمقا ووحشة ، لم يكن بالآفاق نجم واحد ، ولاحت أضواء المصابيح خافتة تحت غاشية من الضباب ، وخيم على الكون سكون ثقيل وبرودة صامتة كانما كتمت انفاسه . « حنبلى ، حنبلى . يجب أن يكون رجلا وقورا قبل الأوان . ولا يبدو أنه يريد أن يعاوننى . من يدرى لعلها لو كانت لها أخت لتغير سلوكه . انه كأمه جاد صارم . ينبغى ان افض هذه المشكلة بالحل الموفق » وراح يتفكر باهتمام حتى سمع صوت سالم يناديه فغادر موقفه الى الحجرة . وقال له الغلام:

ــ تفضل شايا .

ورأى قدحين من الشاى على الخوان فتناول أحدهما رقد حفف منظر الشاى من توتر أعصابه . وقبل مضى دقيقة سمعا صرير الأكرة فنظرا صوب الباب ففتح قليلا وبدت بهية !. كانت تحمل السكرية فاعطتها لسالم وهى تقول :

ــ خذ هذه فربما لم يكف ما بالشاى من سكر ..

كانت ترتدى فستانا بنيا تكاد تمس أهدابه أعلى القدم فأضفى طوله على قامتها المائلة للقصر ملاحة . وحملق الشقيقان فى وجهها وهى لا تحول عينيها عن الغلام . ثم غض حسين بصره ولما يفق من وقع المفاجأة بينا ظل حسنين يحملق فى وجهها كأنه عجز على استرداد بصره . ورأى الغلام يجىء بالسكرية ، واخذت الفتاة ترد الباب فملأ الجزع قلبه الخافق ، وعز عليه أن تختفى وهو غارق فى ذهوله وجموده ، وطفرت من أعماقه رغبة فى الافصاح لا تقاوم ، فقال بعجلة :

ــ شكرا . الشاى به الكفاية ..!

وتحولت عيناها اليه فى ارتباك ، ثم اختفت دون أن تنبس بكلمة ، ولعل عينيها نمتا عن ابتسامة مكتومة . وتحاشى النظر صوب أخيه فحصر بصره فى قدح الشاى . « مفاجأة لم أكن انتظرها . حلم سعيد . على الرغم من الباب المغلق ! » ورشف رشفة كبيرة من السائل الساخن فلسعت لسانه وسقف حلقه وجعلته ينفخ فى جزع . ولكن سخونة الشاى لم تغيبه طويلا عما يعانى من اغراء . « جسم لدن . عينان جذابتان . هيهات ان يخفى هذا الفستان الطويل ما انطبع فى حسى من صورة الساقين . وبطن الركبة خاصة . لا الفستان ولا الباب ولا الظلام أعظم واجب فى هذه الدنيا أن تلاعب فتاة جميلة تحبها . انى أعجب كيف أن فتاة يمنعها الحياء من التحديق فى وجه حبيبها تستطيع يوما أن تنزع ثيابها بين يديه دون مبالاة !. هذا التطور

خاصة خليق بأن يبعث بهيج الأمل فى موات النفوس . أو لعلها العادة ؟!. يجوز . هذه العادة التى جعلتنا نألف المبيت على الطوى ! كيف يحق لى ان افكر فى الحب على ما نكابد من قساوة الحياة !. شكرا ، الشاى به الكفاية !. احسنت بشكرها صنعا . لا يحب طبعى الجبن والتردد . وبذلك يمكن أن اقتنص فرص الحب وسط برودة الفقر . الفقر !. لو كان الفقر رجلا لقتلته!. ولكنه امرأة . تقتلنا ونحن راضون . ترى هل يتألم ابى لحالنا ؟ ترى ما هيئته الآن ؟ لهفى عليك يا ابى . حقا ان الحياة اكذوبة ضخمة . ولكنها جاءت بنفسها بالسكرية !. جاءت لى أنا فى الواقع . اريد ان اكون شارلمان عصرى . لو عدت يوما الى عطفة نصر الله محاطا بعظمة فروسيته لألقت بنفسها على من الشرفة .. » وما يدرى الا وحسين يقول له :

— دورك ..

اللغة الانجليزية !. وحل محل اخيه ، والقى درسا ممتلئا عطفا وحبا للغلام الذى يجرى فى عروقه الدم الذى يجرى فى عروقها . ذلك الدم الذى استشفه فى بطن ركبتها . وانتهى بعد زمن لم يدرك له طولا ، ثم غادرا الشقة معا الى السلم المظلم ، ولم يعد يطيق صبرا فقال :

— كان ظهورها اليوم مفاجأة بديعة !

فقال حسين بلهجة تنم عن الانتقاد :

— حاذر لا تكن وقحا . هذا بيت محترم !

— ماذا فعلت فاستحق هذا التأنيب ؟

— لا تفعل شيئا لا تقدم على فعله اذا كان فريد افندى معنا

وغلبه السرور فقال وكأنه يناجى نفسه :

— جاءت بنفسها !. لله ما الطفها !

— ليس فى هذا ما يعجب ..

— ترى أكلفها ابوها باحضار السكرية ؟

فقال حسين بملل :

ـ من أدرانى بذلك !

ـ ام جاءت من تلقاء نفسها ؟

ـ ليكن هذا او ذاك .

ـ واذا كان من تلقاء نفسها فهل جاءت تحت بصر والديها ؟

فلم يجبه الآخر وان ظل منتبها لما يقول فى اهتمام شديد ، فعاد حسنين يتساءل :

ـ لو جاءت خفية !؟

فهتف حسين :

ـ خفية ؟!.

فضغط الشاب على ذراع أخيه وقال وهما يغادران آخر درجات السلم :

ـ الا يقولون « من القلب للقلب رسول !؟ » .

١٧

ـ جئت الآن وحدى ، وسيجىء حسين بعدى ، حتى لا يضيع وقتنا بلا ضرورة !

فقال سالم بأدب :

ـ هذا افضل ..

واتخذ كلاهما مجلسه ، ولكن حسنين قال قبل ان يبدأ درسه : الأوفق ان تغلق الشرفة وتفتح الباب !

ونهض سالم فحقق رغبة استاذه . ورأى الصالة مظلمة صامتة ولكن لم يفتر أمله ، فلا يزال فى الوقت متسع للشاى ، ثم للسكرية! . واراد سالم أن يتودد الى مدرسه بأن يفضى اليه بما فى نفسه فقال:

ـ بابا وماما عند ستى ..

فخفق قلبه بعنف ، ونظر الى الغلام طويلا . ثم سأله :
— متى ذهبا ؟
— بعد العصر ..
وساوره القلق أن تكون قد ذهبت معهما فتساءل :
— وكيف تبقى وحدك فى البيت ؟
فقال الغلام :
— معى ابلة بهية ..
وابترد صدره بلذة الارتياح والأمل . « الشاى والسكر . السكر خاصة . بل السكرية . ساتحقق اليوم مما اذا كانت تتعمد الظهور امامى ! » . وامر الغلام أن يطالع وبدأ الدرس ، واصغى اليه دقائق ثم مضى يغيب عنه . « هل أطلب شايا ؟ . فلة ذوق . ! ولكن اذا تأخر الشاى فلا بد من طلبه . انى مضطرب اكثر مما ينبغى . اننا وحيدان فى الشقة انا وهى . لا يخدش هذه الوحدة سالم أو الخادم الصغير ، فنحن وحيدان . فلأنعم طويلا بهذه الوحدة الخيالية . لو كانت الدنيا بسيطة كبساطتها الخلوة الأولى لقمت اليها واخذتها بين ذراعى ، وسألتها باطمئنان كامل أن تكشف لى عن ساقيها . ما الذى يجعلنى احجم عن رغبة كهذه ؟ هـذا سخف الدنيا الذى قتل أبى وانزل بنا ما نحن فيه » . وانتبه الى سالم وهو يسأله عن معنى كلمة فذكر له معناها ، وأمره أن يواصل المطالعة . وقبل أن يغيب عنه صوت الغلام سمع وقع أقدام تقترب فاتجه بصره ناحية الباب المفتوح ، ثم رأى صينية الشاى تتقدم حاملها ، ووقع بصره على الساعدين اللتين تحملانها فخفق قلبـه خفقة عنيفة ونهض قائما كمن به مس . وجاءه صوت رقيق وهو يخطر نحو الباب يقول بصوت كالهمس :
— سالم ..
فظهر حيالها وهو يتفحصها بنظرة عارمة ثم همس :
— الف شكر ..

وتورد الوجه الأبيض المائل للشحوب واملة لم يتوقع فوزه . ثم غضت بصرها فى ارتباك . ومد حسنين يديه فتناول الصينية ، فانطبقت يده اليمنى على أصابع يسراها ، وسرى مسها فى يده . وذراعه ، وجسمه ، وروحه ، فى أقل من الثانية . ولم تقف به جراته عند حد فضغط على أصابعها ضغطة غير خافية ، فاستخلصت يدها فى استياء ، وفى وجهها عبوسة . وتحولت عن الباب فى حدة الغضب . وعاد الى الخوان بالصينية شديد التأثر ، ثم جلس على مقعده وهو يقول للغلام فى ارتباك :

ــ استمر ..

« ترى هل تعجلت الأمر قبل أن ينضج ؟. ما أقل صبرى ، هكذا انا دائما . يا لها من عبوسة !. عبست وتولت . ان يكن حياء فهو عز المنى ، وان يكن حنقا فلعله الختام . هيهات ان اتراجع. هيهات ان يطيب لى التردد ابدا ، لماذا جاءت بنفسها ؟ لماذا لم تكلف الخادم بحمل الصينية ؟. جاءت لى انا . هذا واضح . لا داعى للخوف » . وكان ينتبه الى سالم فى أويقات متقطعة . ويملى عليه بعض الأسئلة ، ثم يغيب عنه فى قلق يراوح بين الاشفاق والسرور . ولما أن انتهى الدرس خطرت له فكرة فصمم على تنفيذها دون تردد . ونهض قائما ، وغادر سالم الحجرة ليوسع له الطريق فأخرج منديله من جيب معطفه وتركه على المقعد ، ثم غادر الشقة . ولكنه لم يبرح مكانه بعد اغلاق الباب . وقف يرهف السمع الى خطوات الغلام حتى ضاعت ، وتريث لحظة ثم نقر على الباب . وانتظر وقلبه يثب وثبا من شدة الخفقان . « اذا جاءت الخادم ضاع تدبيرى هباء . ولكن من المحتمل ان تأتى هى . امرى لله » . واضاء نور الصالة وسمع وقع أقدام قادمة ثم فتح الباب . هى . ولم يبال ما ارتسم على وجهها من آى الدهشة ، ولم يضيع وقته سدى فتساءل فى رقة واشفاق :

ــ أخاف أن أكون اغضبتك !

فتراجعت خطوة دون ان تفتح فاها فقال بعجلة :

ـ لا اطيق ان تغضبى ابدا ..

فغمغمت فى استنكار كانها لا تحتمل أن يوجه اليها خطابا :

ـ لا ، لا ، لا ، هذا كثير !

ولم يستطع ان يتكلم لأن سالم ظهر على عتبة الغرفة اليسرى وهو يتساءل :

ـ جاءت ماما ؟

فقال حسنين بصوت مرتفع :

ـ نسيت منديلى فى الحجرة !..

وجرى سالم الى الحجرة ، وسارعت الفتاة بالعودة الى الداخل ، ثم جاءه الغلام بالمنديل فتناوله ومضى وقد نسى أن يشكره ..

١٨

ورفع حسين راسه عن المكتب وتفحصه بدهشة ثم ساله :

ـ مالك ؟

فضحك حسنين ضحكة قصيرة دون أن يجيب ، فسأله الآخر بلهجة ذات معنى :

ـ أأعطيت درسك ؟

فارتمى حسنين على فراشه وتساءل :

ـ هل أبدو متغيرا ؟

ـ بلا ريب .

فتنهد الشاب قائلا :

ـ يحق لى أن أحمد الله على أن أمنا تجلس فيما يشبه الظلام .

ـ ماذا حدث ؟

هل يخبره بما حدث ؟. ولكن هل يلقى منه الا زجرا ؟. قال :

— لم يحدث شىء ؟

— واضطرابك ؟!. انك اذا اضطربت توتر انفك كالحمار .

قال حسين ذلك ثم تساءل فى نفسه هل يتوتر انف الحمار حقا . كيف اختار هذا التشبيه ؟ ولكن الآخر تضاحك قائلا :

— هيجان شعور . هذا كل ما هنالك ..

— وبعد ؟

— ولا قبل !

فقال حسين بجد واهتمام :

— اريد ان اعرف مقصدك .

— لا افهم ما تقول .

— لا تتجاهل ما اعنى أنت تفهم كل شىء . لماذا لا تتركها وشأنها ؟ الا تخاف أن يفطن فريد افندى الى عبثك أو أن يبلغه امرك عن طريق الفتاة نفسها ؟. سترمى بنا الى مركز حرج ..

فقال حسنين مبتسما :

— والله يا أخى لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اتركها ما تركتها أو اهلك دونها ..

فضحك حسين على رغمه ، ثم قال وهو يستعيد مظهر الجد والرزانة :

— ماذا تريد منها ؟

يا له من سؤال !. يبدو غاية فى البساطة ولكن من له بأن يجيب عليه ، ولم يكن طرح على نفسه هذا السؤال فلم يدر له جوابا . كان اندفاعه بوحى من عواطفه وغرائزه دون حاجة الى تفكير . ثم قال فى حيرة :

— فى مثل حالتى لا تفرق بين الباعث والغاية .

— لا أفهم ما تقول .

— ولا أنا بفاهم !

— اذن دعها وشأنها كما قلت لك .

— لن ازال وراءها حتى ..

فتفحصه حسين بنظرة كئيبة وتمتم متسائلا :

— حتى ماذا ؟

— حتى تقع كما وقعت .

— ثم ؟!

فقال الشاب الحائر :

— حسبى هذا !

فهز حسين رأسه فى حدة وقال :

— أنت مخطىء . انها فتاة مهذبة ، ومن اسرة طيبة . وان ترضى عن سلوكك ..

— هى ما قلت وأكثر ولكنى لن اتخلى عن املى ..

وقام الى المكتب فاخذ كتبه وكراساته وعاد الى الفراش ثم وضعها على حافة النافذة المغلقة التى تلى فراشه مباشرة ، وجلس متربعا حيالها كأنه جالس الى مكتب ، فسأله حسين متعجبا :

— لم لا تجلس الى المكتب ؟

— أريد أن أتربع لأدفىء ساقى .

وكان يفكر فى أمر ذى بال ففتح كراسة واقتطع منها صفحة وأمسك بالقلم وراح يعمل ذهنه فى اهتمام ووجد واضطراب . « سأكتب لها كلمة . لن تتاح لى فرصة لمخاطبتها فلا حيلة لى الا هذه . ولكن ماذا أكتب ؟ » . وركز فكره مستعينا بالسكون الذى يغشى الحجرة لا يخدشه شىء الا خشخشة أوراق الكراسة اذا قلبها حسين ، ولكن اخذت أذناه تستبين صوت راديو يتسلل من النافذة المغلقة وانيا من بيت من بيوت العطفة . وقطب متظاهرا بالضجر ولكنه ارتاح الى سماعه هربا من حيرة أفكاره . وأصغى الى « عادت ليالى الهنا » فسلم سريعا بمجامع نفسه وجاش صدره بالحنان وندى بالعطف وهفا قلبه نشوة للحب والحياة . وغمرته موجة حماس فامتلأ نشاطا وتمنى لو ينطلق

الى الخلاء ملتفعا بالظلام . وجعل يغيب عن النغم رويدا بعد ان فتح لروحه أبواب جنة عامرة بالاحلام والرؤى . « يجب أن اكتب كلمتين . جملتين فحسب . حتى لا اسود الا ورقة صغيرة اذا رميت بها عند قدميها لم يستبنها أحد » . وحرك القلم كاتبا : عزيزتى بهية انى آسف جدا لانى اغضبتك . « أليس الأفضل أن أقول : لا تغضبى يا عزيزتى ؟ .. سيان . ثم ماذا ؟ ينبغى ان أعترف لها بحبى . أريد جملة غير مبتذلة . اللهم عونك . » وقطع حسين عليه تفكيره متسائلا :

ـ ماذا تكتب ؟

ـ موضوع انشاء .

ـ ما هو ؟

فقال بلا تردد :

ـ أثر الموسيقى فى نهضة الامم ..

عزيزتى بهية ، انى آسف جدا لانى اغضبتك . أيحق لك الغضب لأنى أحبك ؟. « يكفى هذا فخير الكلام ما قل ودل . كلا لا يكفى . النغمة ناقصة . استشهد ببيت من الشعر . كلا فهذا يثير الضحك عادة . وضحكة واحدة خليقة بأن تفوت على الغرض . جملة أخرى مؤثرة . يا رب يا معين ! » ووثبت الى ذهنه عبارة لا بأس بها فشرع يكتب : والله ما فعلت ما فعلت .. ولكن حسين قاطعه مرة أخرى قائلا :

ـ هل انتهيت من نقط الموضوع ؟

فانزعج حسنين فى غيظ مكترم :

ـ تقريبا .. عن اذنك لحظة واحدة !

وعاد الى الخطاب فى تصميم من يريد الفراغ منه فكتب : والله ما فعلت ما فعلت الا لأنى أحبك . وسأحبك ما حييت ، ولا حياة لى الا برضاك عنى .

وأعاد قراءتها بعناية ، ثم تنهد فى ارتياح عميق ، وطواها وثنى

طرفيها ثم أودعها جيبه . « سأنتهز فرصة اقترابه من الباب . او مروري بها فى الصالة . ثم أرمى بها اليها . وليكن ما يكون » .

١٩

وجدت نفيسة نفسها فى حجرة متوسطة الحجم . قامت على جانبيها كنبتان كبيرتان وبضعة مقاعد ، أما أرضها ففرشت ببساط اسيوطى ، وفى جدارها المواجه لمدخلها شرفة تطل من الدور الرابع على شارع شبرا . كان الأثاث قديما والظاهر أن الحجرة كانت معدة لجلوس الأسرة فى أوقات الفراغ كما يمكن أن يستدل عليه من وجود الراديو بداخلها على كثب من الباب . وقد لاحظت الفتاة مذ وطئت قدماها الشقة أنها على قدر وافر من الجاه يبدو فى الصالة الصغرى التى أثثت كمدخل للبيت ، والصالة الكبرى الفاخرة المعدة للسفرة ، فحق لها أن تصدق صاحبة بيتهم بعطفة نصر الله حين قالت لها « جئت لك بزبونة ملآنة ، عروس ومن أسرة كريمة ، فأرجو أن تخيطى ثيابها بما تستحق من عناية علها تفتح لك مغلق الأبواب » . وكانت نفيسة مضطربة لدخولها بيتا غريبا للعمل أول مرة . وجلست على مقعد قريب من الباب تنتظر . وكانت ترتدى ثوب الحداد وقد ارسلت شعرها الأسود فى ضفيرة قصيرة فبدا وجهها العاطل من الزواق والحسن شاحبا بائسا . « بيت غريب وأناس غرباء . خطوة جديدة فى سبيل المهنة . لست الا خياطة . ليست كرامتى التى تعز على ولكن كرامتك أنت يا أبى » . ولم يطل بها الانتظار اذ جاءت من الحجرة فتاة فى العشرين على حسن ورشاقة . فقامت تستقبلها ، وسلمت عليها القادمة وهى تلقى نظرة متفحصة ثم قالت :

ــ أهلا وسهلا . حضرتك الست نفيسة التى أرسلتك ست زينب ؟

فقالت الفتاة فى حياء :

ــ نعم يا هانم . وحضرتك العروس ؟

فأومأت بالايجاب مبتسمة ، ثم جلستا . وهى تقول :

ــ ست زينب تثنى عليك جميل الثناء . وانى أتوسم فيك الخير ..

فابتسمت نفيسة ابتسامة باهتة وانفرجت شفتاها دون أن تنبس بكلمة . « لعلها قالت انى خياطة ماهرة . هذا حسن . امدح أم ذم . لا ادرى . ترى هل قصت عليك نبأ أسرتنا ؟. كان أبى كأبيك . وكنت سيدة مثلك . وطالما انتظرت العريس ولكنه لم يأت . ولن يأتى » . وسألت العروس فى رقة وهى تعلم الجواب :

ــ لماذا ترتدين السواد ؟

فأجابتها فى حزن :

ــ توفى والدى منذ شهرين . وكان رحمه الله موظفا فى وزارة المعارف .

ــ حدثتنا بذلك ست زينت . البقية فى حياتك .

ــ حياتك الباقية . نحن من بنها ، وخالتى تقيم هناك مع زوجها الذى يملك محلجا للقطن .

ودخلت عند ذاك خادم حاملة بقجة فوضعتها الى جانب سيدتها وذهبت . وحلت العروس عقدتها فانحسرت عن كوم من الحرائر مختلفة ألوانها . وأدركت نفيسة من النظرة الأولى انها أقمشة للثياب الداخلية . ولعلها أرسلت بالفساتين الى خياطة كبيرة ، وارتاحت لهذا لأنها كانت تشفق من أن تعرض سمعتها لتجربة شاقة لا قبل لها بها ، عمل فى حدود طاقتها وربح

مضمون . وقامت الى مجلس العروس وراحت تتفحص الأقمشة وتتحسسها قائلة :

— مبارك عليك . يا له من حرير نفيس .

فافتر ثغر العروس عن ابتسامة سعيدة وقالت :

— نبدأ الآن بالقياس . وعلى فكرة اعندك مانع من مباشرة العمل هنا فى بيتنا ؟ عندنا ما تحتاجين اليه من الأدوات كلها . وليس ثمة أطفال فى البيت ، وفضلا عن هذا كله فبيتنا غير بعيد من عطفتكم فتستطيعين الحضور كل يوم فى غير مشقة .

ولم تر نفيسة بدا من أن تقول :

— لك ما تشائين يا هانم ..

وقامت الفتاة ووقفت أمامها ، وجعلت نفيسة تقيس الأقمشة عليها . امتلأ أنفها الغليظ برائحة الحرير الجديد . وشعرت لمسه وهو ينزلق بين أصابعها باحساس غريب ، فيه اشتهاء وفيه ألم . بيد أنها أحست كذلك ، حيال استسلام الفتاة وما تعقده على مهارة يديها من رجاء بنوع من السيادة . فكأنها ظفرت بأمل فى العزاء ، ولكنه سرعان ما فتر وأخلف وراءه يأسا قاتما « عروس وحرير أحقا أخيط هذه الثياب لهذه العروس ؟. كلا هذه الثياب الداخلية تهيأ للعريس قبل العروس !.. ستداعب أنامله أهدابها الناعمة ومادتها اللطيفة . انى اشارك فى هذا الزواج . وسأشارك فى زيجات كثيرة دون أن أتزوج ، قانعة من هذا كله بأحلامى المحرقة . يا لها من فتاة مليحة وسعيدة . تكاد السعادة تتوهج فى عينيها ، اليوم تجهز الحرير ، وغدا تنتظر الحبيب ، وتتنسم أنفاس الأمومة الحارة تهفو عليها من أفق وردى . طالما حلمت بهذا وأبى يقول لى ان الخفة أنفس من الجمال ، ثم بلغت الثالثة والعشرين بين الاشفاق والرجاء ، وبموته مات الرجاء . لماذا خلقت هكذا دميمة ؟. لماذا لم أخلق كأخوتى الذكور ؟ ما أجمل

حسنين . وحسين . حتى حسن . انى مينة كابى . وهو فى باب النصر وأنا فى شبرا » وسمعت العروس تسالها :

ــ اتحبين أن تتسلمى بعض أجرك مقدما ؟

فقالت بعجلة :

ــ لا داعى لذلك مطلقا .

ثم عضها الندم على ما قالت فتضاعف حنقها ويأسها .

وسمعت أطيط حذاء يقترب فرفعت رأسها نحو الباب فرأت شابا يدخل الحجرة هاشا . واقبل على العروس فالتحمت يداهما ، وتبادلا ابتسامة سعيدة ، ثم سألها :

ــ أين والدتك ؟

ــ فى حجرتها .

ثم التفتت الى نفيسة وقالت تقدم لها الشاب :

ــ حسان خطيبى .

ثم عطفت رأسها اليه قائلة :

ــ ست نفيسة الخياطة ...

٢٠

وغادرت بيت العروس قبيل الأصيل متعبة . وكانت عطفة نصر الله تبعد عن البيت محطتين فشقت طريقها بين السابلة على مهل وتراخ . وأنعشها الهواء البارد فحثت خطاها .. ووجدت ذكريات مما مر بها فى بيت العروس تنثال على مخيلتها فى لذة والم معا : كانت تجلس على كنبة وقد جلس الخطيبان على الكنبة المقابلة . كانا ملتصقين . وكانا يتحدثان فى صوت مسموع حينا . وينخفض حينا فيصير مناجاة وهمسا . وكم ودت وقتذاك أن ترفع رأسها عن الماكينة اليهما ولكنها خافت

وعقلها الحياء أن تلتقى عيناهما بعينيها . ومر فرفعت عينيها من تحت رأسها المنحنى فوقع نظرها على ساقين ملتصقتين ، ثم انتبهت على العروس وهى تضربه على يده قائلة فى لهجة تنم على الدلال والوعيد : — حذار !

استغرقها الخيال حتى كادت تصطدم بالمارة . ثم دخلها احساس نهم بالتحرق الى الحب . لم تحظ طوال حياتها بقلب يحبها ويعطف عليها ، ولم تجد من متنفس عن توتر اعصابها الا فى الضحك والسخرية من نفسها واخوتها والناس فاشتهرت بالعبث الضاحك الذى تتوارى خلفه مرارة فى الأعماق . ولم تكن لها حيلة فى احساسها فالواقع ان غريزتها الأنثوية كانت الشىء الوحيد بها الذى سلم من النقص والضعف واستوى ناضجا حارا ، فلم يخل صدرها من عذاب سجين وقفت له تربيتها وكرامتها واسرتها بالمرصاد . ولكن منظرا كالذى رأته اليوم ببيت العروس كان خليقا بأن يهزها هزة عنيفة قاسية . ولما تخايلت لعينيها عطفة نصر الله عابثها أمل جديد داعبها كثيرا فى الأيام الأخيرة . هنالك بقالة عم جابر سلمان التى تقع قبل عمارتهم بقليل ، أو هناك سلمان جابر سلمان ابن عم جابر وصبيه . ولقد اعتادت التردد على البقالة بعد طرد الخادم لابتياع ما يلزمهم فعرفت الفتى معرفة أخذت تزداد بكرور الأيام . واستحضرت صورة الفتى بقامته الطويلة المائلة للامتلاء ووجهه البيضاوى الأسمر ، وعينيه الضيقتين ، وتساءلت ترى هل حقا يبدى نحوها اهتماما او أنها واهمة ؟. خيل اليها كثيرا انه يبتسم اليها فى تردد ولعله لم يستطع ان ينسى بعد انها كريمة كامل افندى على . وكانت على جفوة طلعتها تحظى بمظهر الفتيات المحترمات ، أما سلمان فما هو الا ابن بقال بسيط ، ولا تعلو منزلته فى دكان ابيه عن صبى . وكانت تعلم بهذا كله ولكن لم يكن بوسعها ان تنفر من انسان أيا كان اذا أبدى نحوها

ميلا . لا يسعها الا أن تحب من يحبها . بيد أنها ردت فجأة الى فتور وامتعاض واطبق عليها شبح اليأس القديم ! وكان قلبها يقول لها : لا تغررى بنفسك ولا تسمحى لكواذب الآمال أن تعبث بعقلك . ارتضى اليأس ، واقنعى منه بالراحة وهى السلوى الوحيدة لفتاة مثلك لا مال ولا جمال ولا أب لها . ولكنها كانت تعلم انها لن تطيع قلبها او — على الأصح — صوت مخاوفها . وكانت تزداد استسلاما كلماقربت من عطفة نصر الله وعاودها الأمل والحنان . الله قادر على كل شىء . وكما يفضى عليها بالأحزان يهب اذا شــاء الأمل والعزاء ؛ ما لى من رجاء سواه . ولن يخيب عنده رجاء .. لم أجن ذنبا أســتحق عليه الهوان . ولم تجن أسرتنا ذنبا . فلابد أن تنكشف هذه الغمة . ولكن من سلمان ؟ هــل يرضى به حسنين ؟ انهم جميعــا ذوو كبرياء ولا اظن الفقر بغالب على كبريائهم . وحسن ليس له من الأمر شىء . حسن !! ليته يغير من طبعه وينتشــلنا مما نحن فيه . لا معاش ابى ولا علمى بكافيين فماذا صنع هو ؟. لن يرضى أحد بسلمان ولن يأتى من هو خير منه .. ومن أدرانى أنه يفكر فى حقا !؟. » ومالت الى العطفة تسبقها عيناها الى بقالة عم جابر سلمان حتى بلغتها . وخطر لها ان تمضى اليها لتبتاع شيئا ، اى شىء ، ومضت اليهــا دون تردد . كان عم جابر سلمان العجوز جالســا الى مكتبه الصــغير عاكفا على دفتر الحسابات ، بينا وقف ابنه الشاب جابر سلمان وراء الطاولة التى تعترض مدخل الدكان . وانتبه الفتى اليها حال وقوفها أمامه فنظر اليها متهلل الوجه وقد لمعت عينــاه الضيقتان . كانت قسماته تشى بالغباء والحيوانية والجبن ، وكان شــاربه الصغير الشىء الوحيد الذى يمكن أن يتصف بالجمال فى وجهه . وأبى الا ان يبادرها بالكلام فقال :

— اى خدمة يا ست نفيسة ؟

فقالت الفتاة وهى ترمش ارتباكا :

ــ حلاوة طحينية بقرش .

فتناول السكين وقطع لها قطعة وافية ، ثم قشط قطعة صغيرة وهو يقول بصوت منخفض :

ــ هذه الزيادة اكراما لك يا ست نفيسة .

ولف الحلاوة فى ورقة وقدمها لها ، ثم أخذ القرش وهو يلحظ أباه بطرف خفى . ولما وجده مكبا على الدفتر ، تشجع وقال همسا :

ــ ساحتفظ بقرشك بركة !

فابتسمت ابتسامة خفيفة وذهبت . ابتسمت عمدا كأنها تشجعه وترحب به . وقد كلفها هذا جهدا كبيرا . « لم يعد يقنع بلغة العيون فتكلم ، وحسنا فعل » . وعلى رغم ضآلة شانه ومنظره اهتز قلبها سرورا ، وجاش صدرها بالانفعال . وكانت تخيلت هذا الموقف ــ قبل أن يحدث ــ وهى عاكفة على عملها ببيت العروس فلم يفترق الواقع عن الخيال الا قليلا . تخيلت نفسها واقفة أمامه لتبتاع الحلاوة فجعل يلتهمها بعينيه ثم قال لها وهو يتناول القرش « أنت أحلى من الحلاوة » . حقا لم يقل هذا ولكنه قال قولا يضاهيه . وتنهدت بارتياح ثم طار خيالها الى ذكريات عشاقها الغابرين . ! كان أولهم وزيرا وقد رأته فى صفحة من مجلة المصور ثم راحت تنسج حول صورته وشيا من أحلامها حتى أنجبت له غلاما فريدا وكان فريد افندى محمد نفسه العاشق الثانى ، وبسببه خاصمت فى الخيال زوجه وأسرته . أما سلمان فهو أسوأهم حالا ولكنه العاشق الوحيد الحقيقى . ولما بلغت منتصف الفناء خافت أن تلومها أمها على قضاء النهار خارج البيت فضاق صدرها وقالت كأنما ترد عليها :

ــ كفى عن لومك فما عدت أحمل أكثر مما بى .

وعلا صوتها ورن فى بئر السلم فنظرت فيما حولها بحذر ، وكتمت بأصابعها ضحكة كادت تفلت من شفتيها !!

٢١

غادر حسنين شقة فريد افندى محمد، واغلق الباب وراءه.
كان من الكآبة فى غاية . واتجه نحو السلم طاويا صدره على
اليأس والقهر ولكنه توقف ويده على الدرابزين ، ورفع رأسه
متتبعا حفيف ثوب . فرأى طرف فستان أو معطف وقد عبر
صاحبه بسطة السلم الاخيرة المفضية الى سطح العمارة . من ؟! .
من عسى أن يرتدى هذا اللون الاحمر من سكان العمارة الذين
يعرفهم حق المعرفة ؟. ودق قلبه بعنف وشعر بقوة تدفعه الى
اعلى فألقى على الباب المغلق نظرة حذر وانصت فى انتباه وقلق
ثم تحول عن موقعه وقطع الردهة أمام الشقة على أطراف مشطه
متجها صوب السلم الأخير الصاعد الى السطح : لعلها هى . لم
يعد يراها منذ القى برسالته المطوية تحت قدميها ، لا فى الحجرة
ولا فى الصالة . اختفت غاضبة ولا شك غير عابئة برسالته
وعواطفه ، ولم تعد ساعات الدرس بعدها الا عذابا وضجرا .
وقد ارتقى السلم دون أن يحدث صوتا حتى بلغ البسطة الأخيرة
فرأى شعاع الشمس المائلة للغروب فى مستوى عينيه ، ونسمت
على جبينه موجات لطيفة من الهواء ، وألقى على السطح نظرة
شاملة ما بين سوره المطل على عطفة نصر الله وسوره الخلفى
فلم يجد أثرا لانسان ، ولم يكن به من قائم الا حجرتان خشبيتان
للدجاج ، احداهما فى مواجهة باب السطح ، والأخرى فى ركن
السطح عند طرف السور الخلفى وهى الخاصة بأسرة فريد
افندى ، واقترب من الحجرة البعيدة فى سكون ووقف قريبا
من بابها مرهف السمع ولم يسمع بادىء الأمر الا قوقأة الدجاج ،
ثم سمع صوتا يدعو الدجاج «ك ك ك ك» فلم يستطع أن يتبين
حقيقة صاحبه ، وخاف أن تكون الأم التى بالداخل فتراجع

خطوة مضطربا ، وهم بالهرب ، ولكن فتح الباب وبدت على عتبته بهيـة فى معطف احمر . واتسعت عينـاها الزرقاوان دهشة ، وثبت بصرها عليه فى ذهول ، ثم تضرج وجهها بحمرة شديدة كأن صفحته استحالت رقعة من مخمل المعطف . ولكن لم يدم هـذا الا لحظات ، ثم تمالكت نفسـها فجاوزت العتبة واغلقت الباب ، وابتعدت عن موقفه متجهة الى الباب . ولم يسمح لها بالافلات فوثب خطوتين ووقف معترضا سبيلها ، فحدجته بنظرةغضبى واستقام رأسها فى حدةوقالت مستنكرة:

ـ هذا كثير !

فقال الشاب بجراة ورقة معا :

ـ دائما غضبى ! . . انى اعجب لحظى فما اجد منك غير الغضب!

فلاح فى وجهها الضجر وقالت باستياء :

ـ دعنى أمر من فضلك . .

فبسط ذراعيه كانه يريد سد الفراغ كله وقال :

ـ هذه فرصة لم يكن بوسعى ان احلم بها فلا يمكن ان ادعها تفلت من يدى . ويحق لى أن أستبقيك بعض الوقت بعد اختفائك المتعمد الذى عذبنى أشـد العذاب ، لماذا تختفين ؟ أو دعينى أسألك ماذا وجدت برسالتى ؟

فقطبت فى استياء وقالت بحدة :

ـ أتذكر هذه الورقة !. يا لها من جراة غير محمـودة لا أوافق عليها . . !

وكان يرنو اليها بين الأمل والخوف . « هل أصدق هذا الغضب الظاهر ؟ .. قلبى يحدثنى بأنه مبالغ فيه . لعله عرض من أعراض الحياء . انه كذلك حتما . لو أرادت أن تشق طريقها ما وسعنى منعها . لا أريد أن أصدق . ولكن لماذا أصرت على الاختفاء ؟ » وقال باستعطاف :

ـ جراة حملت عليها بعد أن أعيانى الصبر !

فهزت راسها متبرمة وتمتمت :

ــ الصبر! لا تعبث بهذهالألفاظ . ودعني اذهب من فضلك.

فقال فى صدق وحرارة :

ــ ما قلت الا الصدق . والصدق وحده كان محرضى على كتابة رسالتى الصغيرة . فكل ما بها صدق . وانه ليسوءنى كل الاساءة الا تلقى عواطفى منك الا الغضب والنفور !

وازدرد ريقه وهو يلهث ثم استدرك قائلا بصوت متهدج :

ــ اجل انى أحبك ..

وادارت وجهها جانبا وهى لا تزال مقطبــة كما بدا من انقباض حاجبها وزمة شفتيها ، ولكنها لاذت بالصمت قليــلا ــ مما بعث فيه روحا جديدا من الأمل ــ ثم قالت بصوت بدا الطف موقعا مما سبقه :

ــ دعنى أذهب .. الا تخشى ان يقتحم السطح علينا احد ؟!

رباه ! الم يعد يضايقها شىء الا ان يقتحم السطح عليهما أحد ؟! وتمشت فى جوارحه نشوة سرور ، فقال بحماس وعيناه العسليتان تضيئان بنور بهيج :

ــ دعينى افصح لك عن شــعورى . انى احبك . احبك أكثر من الحياة نفسها . بل ليس فى الحياةمن خير الا انى احبك . هذا ما كتبته . وما أقوله وما أعيده . صــدقينى ولا تلزمى السكوت فما أطيق هذا السكوت ..

فعطفت وجهها نحوه فطالع فى صفحته النقية الرزانة والجد ولكن خيل اليه انه يرى نوعا من التأثر لعلها بالغت فى كتمانه . ثم سمعها تقول بصوت منخفض كالهمس :

ــ حسبك ! .. هلا تركتنى أذهب ؟!

تأبى أن تجلو هذا القناع !. لشد ما تستكين لحيائهــا . وتنهد بصوت مسموع وتمتم :

ــ لا اريد أن أعود لعذابى بغير نفحة امل . لقد فتحت لك

صدرى وأريتك قلبى ولا اطمع فى أكثر من كلمة طيبة ترد الى روحى ..

ولكنها بدت اعجز من أن تقول هذه الكلمة . واشتدت عليها وطأة الارتباك فندت عنها هذه العبارة :

— رباه ! .. كيف اغادر هذا المكان !

فغلبه التأثر ، ولكن زاده التعلق بالأمل عنادا والحاحا فقال بحرارة :

— لا تجزعى هكذا ؛ انى أحبك . الا يثير هذا الاعتراف فى نفسك الا الضيق !؟ لن أعود يائسا الى العذاب . لن . لن ..

— وبعده !؟

وتفحص وجهها المورد فى سمرة المغيب الهادئة فاستفزته عاطفة هيام جامحة فشعر بأن الهلاك أهون من التراجع وقال باستعطاف منبعث من الأعماق :

— كلمة واحـــدة !. اذا لم تستطيعى فايماءة . واذا تعذر هذا فحسبى صمت استشف منه الرضى !

فتحركت شفتاها دون أن تنبس ، ثم التصقتا ، ثم عطفت عنه وجهها وقد اشتد تورده عمقا . ووثب قلبه فى صدره من حرارة النشوة ، وهتف فى طمع متزايد :

— أهذا الصمت الذى أريده !؟. انى احبك ، واعاهدك ان أكون لك حتى الموت ..

ومال وجهها الى الوراء أكثر دون أن تخرج عن صمتهـا المحبوب فسرت فى جسده هزة سرور طاغية حتى سكر بصره ، وما يدرى الا وهو يهفو اليها ، ولكنها تراجعت فى جفول كمن يستيقظ من حلم عميق على هزة عنيفة ، وتفادت منــه فيما يشبه الوثب ، ثم ولت مسرعة . وتسمر فى مكانه مرسلا وراءها بصرا هائما حنونا حتى غيبها الباب . وتنهد من القلب وأطلق بصره بعيدا فى سمرة المغيب ، والأفق أطياف وشيات ، فأحس

بزوجه تذوب فى الكون وتفنى فى بهائه . ثم تحرك فى بطء مخمورا متوهجا حتى شارف الباب . ولكنه شعر وهو يمر بالحجرة الخشبية الأخرى بشىء يجذب احساسه فلاحت منه التفاتة الى يساره فرأى اخاه حسين واقفا وراء جدار الحجرة ..

٢٢

وقال بدهشة :

ـ حسين !

وسرعان ما لاحظ تغير لونه . كان الشاب غاضبا مكفهر الوجه . وكان يبذل غاية جهده ليضبط اعصابه ويتمالك نفسه . وتساءل حسنين عما جاء به الى السطح ورجح أن يكون ـ حين صعد لاعطاء درسه ـ لمحه وهو يرتقى السلم محاذرا الى السطح فشك فى الأمر وتبعه !.. هذا هو التفسير المعقول . بيد أن التوارى وراء الجدران لاستراق النظر والسمع ليس من شيمه !. ولم يدر له بخلد أن يسأله عما جعله يقف هذا الموقف ، وعلى العكس من هذا تولاه الحياء والارتباك . ولم يكن الآخر ـ على تغيره ـ بأقل منه حياء وارتباكا . ولعله أراد أن يدارى حياءه وارتباكه بالتمادى فى الغضب فقال :

ـ رأيت أمورا ساءتنى كثيرا . كيف تطارد الفتاة هذه المطاردة الوقحة ؟! هذا سلوك شائن لا يليق بجار يحترم واجبات الجيرة !

ووجد حسنين فى لهجة أخيه القاسية ما أنقذه من حيائه وارتباكه فقال عابسا :

ـ ما أتيت منكرا !! . ولعلك سمعت ما قلت !

فأغضى حسين عن ملاحظته الأخيرة وقال بحدة اشد :

ـ وهل من منكر وراء اعتراضك لسبيلها على هذا النحو غير اللائق ؟!

ـ لا احسبها تعده كذلك !

فقال حسين :

ـ ستخبر أباها ..

ـ لن تخبره .. !

فتناهى الحنق بحسنين وقال بحدة :

ـ لشد ما خفت أن تتهجم عليها ، ولو فعلت لأدبتك تأديبا قاسيا ! ..

ودهش حسنين لهذا الوعيد المتأخر فكاد يطيح الغضب براسه ، ووثبت كلمات شديدة الى طرف لسانه ولكنه نجح بأعجوبة فى القبض عليها . وصمت مليا حتى ذهبت عنه وقدة الغضب ثم قال :

ـ ما كان لك أن تخاف حدوث شيء كهذا ..

فتفكر حسين قليلا ثم قال متراجعا :

ـ يسرنى على أية حال أن اسمع هذا القول . واذا حق لى ان انصحك فنصيحتى اليك أن تلزم دائما جادة الشرف .

فقال الآخر ببرود :

ـ لست فى حاجة الى مثل هذه النصيحة ..

وغادر موقفه فتبعه حسين ، ونزلا معا دون أن ينبس احدهما بكلمة . ولم يذهب حسين الى شقة فريد افندى ، ولاحظ حسنين هذادون تعليق .. أما الأم فقالت لحسين متسائلة:

ـ ما الذى عاد بك سريعا ؟

فقال حسين :

ـ لم يحفظ سالم درسه السابق وسأعود اليه غدا ..

وذهبا الى حجرتهما فجلس حسين الى كرسيه من المكتب، ومضى حسنين الى النافذة ففتحها وجلس على حافة الفراش . « أسوأ نهاية لأحسن بداية : ما أحمقه ! كيف سولت له نفسه

التجسس على . أفسد على شاعرية الموقف السعيد . كلا لا يمكن ان يفسدها شيء . سيزول كل شيء وتبقى هى وضيئة سعيدة باهرة . هيهات أن انسى لحظة الصمت الناطق . قالت كل شيء دون ان تنبس بكلمة .. » .

ـ اغلق النافذة هل انت مجنون ؟!

افزعته صيحة أخيه ، ثم ركبه الحنق والعناد فقال :

ـ الجو محتمل ولطيف ..

فصاح به حسنين :

ـ اغلق النافذة بلا مكابرة ..

فحملته لهجة اخيه على التمادى فى العناد فقال :

ـ انتقل الى الكرسى الآخر تبتعد عن تيار الهواء ان كان ثمة تيار !

فنفخ حسنين متغيظا وقام الى النافذة فأغلقها بشدة ففرقعت فى السكون طقطقة مزعجة وتحطم لوح من الزجاج . وساد صمت ورعب ، وسرعان ما أعماه الغضب فلطم حسنين صارخا : ـ انت السبب !.

وجن جنون حسنين فضربه بقبضة يده فى راسه ، ثم اشتبكا فى عراك . ومالبثت الأم ونفيسةان هرولتا الى الداخل، وبحضور الأم كف كلاهما وهو يدمدم ويهينم . ووقفت الأم حيالهما تردد بينهما بصرا غاضبا ، ثم استقرت عيناها على الزجاج المحطم . وتساءلت فى هدوء ينذر بالعاصفة :

ـ ما خطبكما ؟

فقال حسنين بعجلة ولهوجة :

ـ كان يغلق النافذة بقوة فتحطم الزجاج ثم لطمنى ..

وقال حسين بصوت متهدج :

ـ فتح النافذة فى هذا الجو البارد فطلبت اليه ان يغلقها فأبى بوقاحة فقمت لأغلقها بنفسى وحصل ما حصل ..

فزفرت الأم قائلة : ـ رحماك يا ربي الا يكفيني ما بي !
وقبضت بيديها على منكبيهما وجذبتهما الى وسط الحجرة، وصاحت في وجه حسين قائلة :
ـ الا تخجل من نفسك وانت في سن الرجال .
ودفعته في صدره بقبضة يدها مرتين ، ثم لطمته ، وانقضت على حسنين الذى تراجع وهو يصيح :
ـ هو البادىء بالضرب ، وهو الذى حطم الزجاج ..
ولكنها هوت بكفها على فمه ، ثم كيلت له الضربات على رأسه ووجهه حتى حالت بينهما نفيسة . وصاحت المرأة :
ـ حذار أن أسمع لأحدكما صوتا . أما النافذة فستبقى مكسورة حتى تصلحاها بنفسكما ..
وغادرت الحجرة منكفئة الوجه تملأها تعاسة لا حد لها . ولبثت نفيسة بينهما برهة محزونة ثم تمتمت :
ـ زمن العراك انتهى . أنتما رجلان الآن !
ثم خاطبت حسين مبتسمة :
ـ ضقت بالهواء لحظة فماذا أنت فاعل الآن وقد فتحتها الى الأبد؟!. الصقا جريدة مكان الزجاج والا فعليه العوض فيكما ..
ولما لم تجد لقولها الأثر الذى انتظرت غادرت الحجرة . وعاد حسين الى كرسيه صامتا على حين ارتمى حسنين على الفراش منفعلا . كثيرا ما ينتهى الشجار بينهما بتدخل الأم على هذا النحو . ولم تكن حياتهما تخلو من ملاحاة وشجار على صداقتهما الوطيدة . وصحبتهما التى لا غنى لأحدهما عنها . وكانت الغيرة كثيرا ما تعكر عليهما صفوهما ولكنهما ظلا رغم هذا صديقين يتبادلان الأخوة والحب ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه . وكان حسين أعقل الأخوين وحسنين أقواهما ، فكان الأول يقوم بمهمة الأرشاد والتوجيه فيما يعرض لهما من مشكلات يتعلق أغلبها باللعب والمسائل الاقتصادية الصغيرة ، وكان الآخر

يحمل عبء الدفاع الأكبر فيما يشتجر بينهما وبين الآخرين من عراك . خصوصا وانهما كانا يتفاديان من الاستعانة بحسن اذا اشتد الخصم عليهما أن يتحول النزاع من عراك بين تلاميذ متخاصمين الى معركة حقيقية دامية وخيمة العواقب ، بيد انه اصبح من النادر جدا أن يتشاجرا في الأعوام الأخيرة ، وندر بالتالى ان تؤدبهما الأم بالضرب ، وقد سبقت المعركة الأخيرة بفترة سلام طويلة كادت تقارب العام . ومهما يكن من أمر فلم يكن اثر الخصام ليحول بينهما أكثر من يوم . ثم يبدأ المعتدى بمخاطبة اخيه في شيء قليل من الارتباك ، ولا يلبثان أن يتناسيا العراك كأنه لم يكن . شخص آخر كان يعانى من شجارهما أكثر مما يعانيان ، هى الأم ، فكان يترك في نفسها ألما عميقا ونكدا متغلغلا . ولم تجد من وسيلة لتأديبهما خيرا من الضرب لعله يصلح ما أفسد الأب بتدليله لهما . ولم يكن أبغض لنفسها من ان يشذ احد أبنائها عن حدوده ، أو أن يبدر منه ما يعد افتئاتا على رابطة الأسرة المقدسة . وكان لها من حسن عبرة بذل الحياة أهون عليها من أن تتكرر . وحسن نفسه لم ينج من لكماتها ولكن بعد فوات الأوان وضياع الفرصة . وكانت لا تفتأ تلوم نفسها وأباه على تلفه ، ويعذبها أشد العذاب أنه كان ضحية للتهاون والفقر . ومر شطر من الليل والشقيقان صامتان جامدان ، واشتد السكون بعد أن آوت الأم ونفيسة الى حجرتهما . ثم بدأ حسين يطالع في كتاب محاولا أن يركز انتباهه المشتت . وراح حسنين يراقبه اختلاسا وهو يتساءل ترى ماذا يجد نحوه ؟ وكان يحظى بذكريات جميلة خليقة بأن تعزيه عما أصابه ، وبأن تثيبه الى طمأنينته . وسرعان ما رفت على شفتيه ابتسامة . « كل شيء حسن . لاذت بالصمت ، ومعناه انها تحبني . حقا !؟. لشد ما يشوقني أن أسمعها قولا تتحرك به الشفتان الشهيتان . رويدك . كل آت قريب . الصمت

بداية اما النهاية ؟!.. » ولاحت منه التفاتة نحو أخيه فعاوده الابتسام . « ما كان ضرنى لو اغلقت النافذة ؟!. يبدو أنه لا يستطيع متابعة القراءة . لو وهب مثل حظى السعيد لما أعياه النسيان ! » وداخله نحوه شيء من العطف .

٢٣

عادت نفيسة الى عطفة نصر الله عند الغروب ، كعادتها فى هذه الأيام الأخيرة . وكان يبدو عليها أنها اخذت تعير نفسها اهتماما وعناية ، وهو ما أهملته طويلا حدادا على وفاة والدها ، فكحلت عينيها وصبغت خديها وشفتيها بحمرة خفيفة . شيء خير من لا شيء بل ان دأبه على التودد اليها ومغازلتها خلق بها بعض الثقة بنفسها ، والطمأنينة والأمل . ولم تعد تذكر انه ابن بقال وانها ابنة موظف فاهتمامه بها انزله من نفسها منزلة أثيرة رفعته فوق مقام أفضل الناس فى نظرها . وانساقت الى تشجيعه بدافع من عواطفها المشبوبة المكبوتة ، ويأسها الخانق ، والرغبة فى الحياة التى لا تموت الا بالموت . وبات مع الأيام صورة مألوفة ، بل محبوبة ، انبتت لها فى جدب الحياة زهرة مترعة بالأمل ، فلم تعد تستقبل يومها بعين خابية لا تنتظر جديدا . وهاهى تنقل خطاها فى عطفة نصر الله بعد نهار حافل بالعمل فيهزها سرور حار دافق يسرى من القلب وينتشر مع دمها فى الأعصاب والأعضاء . قال لها مرة « تريدين جلاوة ؟ ما الحلاوة الا انت ! » . وغزا قوله نفسها فابتسمت فى بهجة ومرح . وقد حدثتها نفسها أن تقول له « لا تكذب ، لست من الحلاوة فى شيء » ولكنها امسكت فى حيرة وشك ، وذكرت نفسها بقول القائل « لكل فوله كيال » من يدرى فلعلها ليست بالقبح الذى تظن .

وجعلت تطوى الطريق وعيناهـا الى الدكان حتى وقفت امامه وجها لوجه . ولاح السرور فى وجه سلمان فقال :

ــ اهلا وسهلا كنت أتساءل متى تأتين ؟

ورمت بنظرة الى مقعد الأب فوجدته خاليا . ثم لمحته يصلى وراء العمود القائم وسـط الدكان محملا بالعلب والبطرمانات فداخلتها طمأنينة وقالت فى دلال :

ــ ولماذا تتساءل ؟

فضيق عينيه الضيقتين وقال مبتسما :

ــ حزرى !.. اسألى قلبى ..

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت :

ــ اسأل قلبك ؟؟.. ماذا وراءك يا قلبه !؟

فقال الشاب همسا :

ــ يقول قلبى انه سر لرؤياك وينتظره على لهفة !

ــ حقا ؟ !

فاستدرك فى جد اكثر من ذى قبل :

ــ ويقول أيضا انه يرغب فى أن يلقاك الآن فى الشارع ليفضى اليك بأشياء هامة ..

والتفت صوب ابيه فسمعه يقرأ التحيات فقال لها بعجلة :

ــ فى وسعى ان اغيب عن الدكان دقائق فاسبقينى الى الشارع العام !

ونظرت اليه فى اضطراب وحيرة . وجدت فى نفسها رغبة الى ملاقاته ، ولكنها أبت أن تذعن دون ممانعة من جانبها والحاح من جانبه فقالت :

ــ اخاف ان اتأخر ..

فقال بجزع وهو يومىء صوب ابيه محذرا :

ــ دقائق معدودات . اسبقينى قبل أن يختم الرجل صلاته .

ولم تجد فى الوقت متسعا للتمتع والدلال فتحولت عن موقفها

وقلبها يدق ثم اتجهت بعد لحظة تردد الى شارع شبرا . ركبها الاضطراب والقلق والخوف . ولكنها أمعنت فى السير دون أن تفكر فى العدول . خطوة جديدة هون من وقعها طول ما حلمت بها . وما لبثت ان تغلبت على الخوف فارغة للأمل الحلو الذى يتخايل لعينيها فى نهاية الطريق . ولما انتهت الى الشارع نظرت وراءها فرأته يحث خطاه وقد ارتدى جاكتته على جلبابه . فمالت الى اليمين واوسعت خطاها مبتعدة عن حيها . ولحق بها مهرولا فقال بسرور :

— استأذنت من ابى دقائق ..

وألقت على زيه نظرة لم يخف عنه معناها فقال كالمعتذر :

— لا يمكن أن أرتدى البدلة الا ساعات العطلة !

وكان يبدو فرحا مسرورا . لم تكن عينه العاشقة من العمى بحيث تراها جميلة ولكنه كان من ابيه المستبد فى ضيق وحرمان فرحب بهذه الفرصة التى تتيح له الممكن من الحب . فتى فى مثل حالها من اليأس والدمامة والعجز ، ووجد فيها — مهما تكن — أنثى تنتسب للجنس المحبوب العزيز المنال . وخاف أن تمضى الدقائق دون أن يقول ما يريد فقال بعجلة :

— الدكان يغلق عادة عقب ظهر الجمعة . فقابلينى عصر الجمعة ومن ثم نذهب معا الى روض الفرج .

فقالت باستنكار :

— نذهب معا ..؟.! هذه طريقة لا أرضاها .

— ماذا علينا لو فعلنا ؟

— لست من أولئك الفتيات !

— حاشاى أن أظن بك السوء . ولكن ينبغى أن نجد مكانا آمنا للحديث .

— أخاف أن يرانا أحد من اخوتى .

— من السهل أن نتفادى من هذا !

فهزت رأسها وقالت فى حيرة :

ـ لا احب هذه الحياة المليئة بالمخاوف .

ـ ولكن ينبغى أن نتقابل .

فتفكرت مليا ثم تساءلت :

ـ لماذا ؟

فنظر اليها فى دهشة ثم قال :

ـ كى .. كى نتقابل !

فقالت بقلق :

ـ لا .. لا .. لست لهذا !

ـ أليس لدينا ما نقوله ؟

ـ لا أدرى .

ـ لدى الكثير .

ـ فما هو ؟

ـ ستعلمينه فى حينه . ليس لدى الآن متسع من الوقت .

فساورها الشك حينا ثم قالت وقد تورد وجهها :

ـ قلت لك انى لست من أولئك الفتيات !

فقال الشاب بلهجة تنم عن الأسف :

ـ يا سلام يا ست نفيسة ! أنا رجل سوق وأفهم الناس !

فداخلها الارتياح . وان تساءلت لماذا لا يقول الكلمة التى تتلهف على سماعها ويريح قلبها ؟ وعاد وهو يسأل :

ـ هل نتقابل اذن يوم الجمعة القادم ؟

فترددت قليلا ثم غمغمت :

ـ ان شاء الله .

وعادت الى البيت كثيرة الفكر . هذا بدء الحب الذى طالما تلهفت عليه . نفض قلبها الغبار عن جوهرة ودبت فيه حياة مفعمة بالنشوة والحرارة والأمل . كل هذا حق ، بيد أنها قلقة متحيرة لا تدرى شيئا عما يمكن أن يتمخض عنه ، ولا عما يمكن أن يقابل به نبأه فى أسرتها !

٢٤

انتهى حسنين الى باب السطح ثم تنهد بصوت مسموع ليبلغها صوته ولكنها تجاهلته وسارت متمهلة صوب الحجره الخشبية ، فتنحنح ، ثم اندفع نحوها بجسارة والشمس تلقى عليها أشعة الوداع ، فدارت على عقبيها وطالعته بوجه كتوم يأبى ان يعلن عن غضب أو رضى ، ثم تمتمت :

ــ أما لهذا من آخر ؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

ــ انك تؤدبينني أدبا لن أنساه ..

فقالت وهي تحافظ على سكون وجهها :

ــ ليتك تزدجر .

ففرقع بأصبعه وهتف :

ــ هيهات !

ثم تنهد بصوت مسموع وكان يتطاير من الفرح لما آنسه من رغبتها في محادثته .

ــ هيهات أن أنثنى عن حبك .

فتورد وجهها ، وعبست قائلة :

ــ لا تردد هذه الكلمة .

فقال بعناد وهدوء وتوكيد :

ــ احبك !

ــ أتروم اغاظتى !

ــ لا أروم الا حبك .

فقالت بحدة :

ــ سأصم أذنى .

فرفع صوته قليلا قائلا :

ــ أحبك . أحبك . أحبك !

فلاذت بالصمت . وجعل يلتهم وجهها بعينيه فى شوق وانجذاب حتى لم تعد تحتمل وقع نظراته فولته ظهرها مبتعدة ولكن اندفع وراءها فالتفتت نحوه مقطبة . وقالت :

ــ ارجو ان تدعنى وتذهب .

فقال بدهشة :

ــ لا محل لهذا القول الآن . مضى زمنه وبات قديما . نحن الآن فى « أحبك » !

ــ وماذا تريد ؟

ــ ان أحبك !

وهمت بانتهاره فغلبها الابتسام الذى اعياها كتمانه ، ثم ضحكت ضحكة مقتضبة مكتومة خرجت من انفها نفخة لطيفة . ولم تملك أن خفضت رأسها فى حياء . وهزته هذه الحركة فهاجت صبوته واقبل نحوها متشجعا طامعا ومد يده ليمسك يدها ، ولكنها تراجعت فيما يشبه الرعب ، وخاطبته بلهجة جادة لا تترك ريبة فى جديتها :

ــ لا تمسنى !

فغاضت ابتسامة الظفر فى شفتيه ولكنها لم تباله واستطردت قائلة بنفس اللهجة الجدية :

ــ لا تحاول ان تمسنى ابدا . لا أسمح بهذا ولا اتصوره !

فوجم قليلا ثم قال بدهشة :

ــ انى آسف . ما قصدت سوءا . انى أحبك بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى صحيح ..

فقالت وهى تنظر الى قدميها وقد نم مظهرها على شعورها بخطورة ما تقدم على قوله !

— انى شاكرة لك هذا . ولكن ليس « انا » الذي أملك الرد عليه !! .

ووقع قولها من نفسه موقع المفاجاة والدهشة . كان يجرى وراء عاطفته مستغرقا فيها دون أن يفكر فيما عداها . كان يحب ولا يرى الا الحب . فأعاده قولها الى رشاده . وفهم ما فاته فهمه ، وأدرك ان الامر جد لا لهو ولعب . ولم يأسف على هذا بل زاد سرورا ولكن غشيته غاشية خوف وقلق لم تخف عليه دواعيها . وخرج من حيرته بأن قال :

— انى أدرك وجاهة رايك ، واوافق عليه . ولكن ليس هذا كل شيء . انى أسأل قلبك أولا .. ؟

ولانت ملامحها ولكنها لم تفقد السيطرة على ارادتها ، فقالت :

— ارجو ألا تستدرجنى لحديث لا احبه !

— لا تحبينه !

ولم تكن تعنى ما قالت بالضبط ولكنها لم تر بدا من أن تغمغم قائلة بصوت ضعيف : — أجل ..

فقال حسنين بارتياع :

— هذه طعنة دامية فى قلبى !

فقالت بحيرة وارتباك وحياء :

— لا أحب أن أسلك سلوكا أو اقول قولا يستوجب الاخجاء !

فلم يملك أن ابتسم قائلا :

— ولكن هذه ضرورة لا بد منها ، وما فيها من عيب !

فلم ترتح لقوله ولا لابتسامته واشتد تورد وجهها فقالت بشيء من الحدة :

— كلا !. لا أحب المداعبات ولا الغزل !

— ولكنى أحبك حبا صادقا ..

— اف . لا تقسرنى على سماع ما لا اطيق سماعه !

فتساءل مبتسما :

ــ هل أقتل نفسى ؟

فابتسمت افكارها دون أن يبدو شىء على وجهها وقالت :

ــ لا داعى مطلقا لقتل نفسك . لقد قلت ما عندى !

واعادته العبارة الاخيرة الى حيرته وخوفه، فقال بعد تردد:

ــ لست الا شابا فى السابعة عشرة . وتلميذ بالسنة الثالثة الثانوية . فكيف أفتح هذا الحديث ؟

فنحت عنه وجهها قائلة ببرود :

ــ انتظر حتى تصير رجلا !

فقال فى دهشة ممزوجة بالاستنكار :

ــ بهية !

فقالت فى هدوء :

ــ ما من سبيل الا هذا ..

شعر بغيظ . وضاق بما تلقاه به من حزم ، ولكنه أحس فى الوقت نفسه بحبها يغلبه على أمره ويطيح بخوفه وقلقه ، فقال باستسلام :

ــ لك ما تشائين . سأحدث من بيدهم الأمر ..

فرفعت اليه عينيها لحظة ثم خفضتهما ، وبدت حينا كأنها تهم بالكلام ولكن غلبها الصمت فقال :

ــ سأحدث فريد افندى .

ــ أنت !

ــ نعم .

فلاح فى وجهها الاعتراض دون ان تنبس ، فتساءل :

ــ هل من الضرورى أن تقوم أمى بهذه المهمة ؟

فترددت قليلا ثم قالت بصعوبة ووجهها يتضرج بالاحمرار:

ــ أظن هذا !

وضاق صدره بهذا القول الصريح الذى يساوره الاعتراف

فى قلقه . تخايلت لعينيه صورة أمه الحزينة وهى قابعة فى الصالة التى لا يضاء مصباحها توفيرا للنفقات فاضطرب صدره ، وقال بصوت منخفض :

— سأحدثه واقنعه بمفاتحة أمى فى الأمر .

فتساءلت الفتاة فى دهشة :

—ولماذا لا تحادثها بنفسك ؟!

أوشك أن يقول « لا أستطيع » ولكنه اطبق فاه . ثم قال متجاهلا سؤالها :

— لشد ما أخاف أن يسخر منى ، أو أن يعترض على استبقائك فى الانتظار حتى أتم مرحلة التعليم الطويلة .

وقالت بصبر نافد وبلا وعى تقريبا :

— سيوافق على الانتظار ما دمت أوافق عليه !

وعضت على شفتيها فى حياء وألم فتطلع اليها فى لهفة وشغف ، ومد اليها ذراعيه وقلبه يضطرم اضطراما . ولكنها تراجعت عنه ، مقطبة لتخفى تأثرها ، وتمتمت :

— كلا ، كلا ، انسيت ما قلت لك ؟!

٢٥

كان الشقيقان يجلسان حول المكتب كعادتهما كل مساء . وكان حسنين يعتمد وجهه بيده غائبا فى أفكاره تنم نظراته وقضمه لأظافره من آن لآخر على قلقه وتوتر أعصابه . وحسين نفسه لم يبد عليه أنه يجنى ثمرة تذكر من نظرة فى كتاب مفتوح أمامه ، وكان يختلس من وجه أخيه نظرات متقطعة فلا يتمالك نفسه من التبسم ، وعواطف شتى تتناوب قلبه ، وضاق بالصمت فقال بلهجة ذات معنى :

ـ طالت المفاوضات !

فانتبه اليه حسنين فى فزع ثم تنهد قائلا :

ـ مرت ساعة ، بل أكثر . ترى ماذا هنالك ؟

فقال حسين ساخرا :

ـ انقلبت الآية . فالمتبع ان يذهب آل الشاب لطلب يد الفتاة ، ولكن فى حالتك يجيء والد الفتاة لطلب يد الفتى !

فقال حسنين بنرفزة وحنق :

ـ يحق لك ان تسخر منى فلا خوف عليك . ترى ماذا يقال الآن فى حجرة الاستقبال ؟ ماذا تقول أمى ؟!

فقال حسين فى هدوء :

ـ عما قليل ستعلم بكل شيء !

ـ أتظنها ترفض رجاء رجل كفريد افندى ؟

ـ من يدرى ؟ الذى أعلمه علم اليقين أننا سنخسر ـ فى حالة الرفض ـ مرتبنا الشهرى الذى لم نحلم به !

فرماه حسنين بطرف حائر ثم تساءل :

ـ الام يطول هذا الانتظار الموجع !

وعادا الى الصمت وكانا قلبا المسألة على جميع وجوهها ،وطال حديثهما عنها فى أوقات متقطعة منذ افضى حسنين الى شقيقه بما كان من حديث بينه وبين فريد افندى محمد . وقد رحب الرجل بطلب الشاب ترحيبا وقع من نفسه موقع الدهشة ، فلم يكن ينتظره ، ولم يكن ينتظر بعضه ، ثم وعد بمخاطبة الأم ، وتذليل أية عقبةمهماتكن خطورتها ! ولمح حسين ـ تفسيرا لهذا ـ الى أزمة الزواج من ناحية ، وطيبة فريد افندى وحبه المأثور لأسرتهم من ناحية أخرى . ولم يبق الآن الا ان ينتظر النتيجة الوشيكة الظهور ! وجعل قلق حسنين يتزايد بمرور الوقت .

« بعد دقائق أعلم كل شيء . هل تكون بهية لى أو أذفن هذاالأمل الوليد ؟. لا سبيل اليها الا بهذا . انى أريدها ولا غنى لى عنها.

ترى فيم تفكر هى فى هذه اللحظة .؟ ألا يتوزعهـا القلق على مصيرنا .؟ انها تحبنى بلا ريب . حسبى هذا من الدنيا جميعا . تبا له انه يطالع فى هدوء ، ويستمتع بمراقبة المعركة من بعيد لا حب ولا قلق . لشد ماتسومنا هذه العاطفة الطاغية من عناء. من قال انها تقيم فى القلب ؟ الأرجح أنها تعشش فى العقل؟ ! وهذا سر الجنون ! » واستيقظ على صوت حسين وهو يقول :

ــ انهما خارجان !

وارهف حسنين السمع فبلغه ما يتبـادل الرجل وزوجه وامه من عبارات المجاملة المألوفة . ومضوا الى الباب الخارجى الا نفيسة قد جاءت الى باب الحجرة ووقفت تنظر الى أخيها بغرابة ثم قالت :

ــ يا ما تحت الساهى دواهى ! اتريد حقا ان تتزوج ؟!

وغمغم حسين :

ــ اول الغيث قطر !

وانتقل حسنين مدفوعا بغريزةالدفاع عن النفس من كرسيه الى فراشه فى أقصى الحجرة لصق النافذة التى حل ورقالصحف محل زجاجها المفقود . ثم سمعوا وقع أقدام الأم وهى قادمة ، ودخلت تسير فى خطا ثقيلة صلبة القسمات جامدة النظرة ، وبحثت عيناها عن حسنين حتى استقرتا عليه فى آخر الحجرة ولبثت تنظر اليه حينا ثم مضت الى الكرسى الذى تركهوجلست عليه فى شبه اعياء . ساد الصمت مليا فلم يجرؤ أحـد على خرقه حتى نظرت المرأة الى حسين وسألته فى هدوء :

ــ ألا تدرى فيم كان يحادثنى فريد افندى وزوجه ؟

فارتبك الشاب الذى لم يكن يتوقع اسـتجوابا وظن انه بالنسبة للمسألة كلها ــ من المتفرجين ، فلم يحر جوابا ، حتى قالت الأم بخشونة :

ــ أجب ..

فتحول بصره صوب حسنين فى حيرة واستغاثة . فاقتنعت الأم بهذه الحركة وسألته :

— متى علمت ؟

قال فى اشفاق :

— أول امس !

— ولماذا أخفيت عنى ؟

فلاذ بالصمت لاعنا أخاه وحظه اللذين اورطاه فى المسئولية بلا ذنب جناه ، وتنهدت عند ذاك وقالت بأسى :

— الأمر لله فان شقائى بكما فاق ما الاقى من زمانى الأسود!

وكانت نفيسة تكره جو الشقاق بطبعها فأرادت أن تلطف من حدته . ولا يعنى هذا أنها كانت تشجع اخاها على رغبته ؛ ولعلها كانت أشد غضبا من أمها ، بل انها عدت الأمر كله تدبير دنيئا لاختطاف شقيقها ، ولكنها رغبت صادقة فى تحامى نزاع لم يعد يجدى ، فقالت مخاطبة أمها :

— لا تهيجى دمك . ما كان كان ، فارحمونا من وجع الدماغ.

فانتهرتها أمها بحدة قائلة :

— اخرسى !

والتفتت الى حسنين قائلة بازدراء :

— لعلك ملهوف على معرفة ما انتهى اليه مسعاك الذى دبرته بليل ؟ ..

وهزت رأسها فى أسى ثم قالت :

— لك قلب تحسد عليه ، فانه يستطيع رغم فجيعتنا وتعاستنا أن يعشق، وأن يستهين بنا جميعا فى سبيل سعادته والحق انى ذهلت حين حدثنى فريد افندى عن آمالك الواسعة وهيامك العجيب . ولكنى حدثته بدورى عن كفاحنا وتعاستنا حدثته عن أثاثنا الذى نبيعه قطعة قطعة لنحصل على الضرورة من القوت وعن شقاء أختك التى تمتهن الخياطة وتقطع النهار

بين هذا البيت وذاك ، ثم صارحته بأن احدا من ابنـائى لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة .

وسكتت المراة وعيناها لا تتحولان عن وجهه وهو خافض العينين تعلوه كآبة وقنوط ، ثم استطردت قائلة بحزن :

ــ ومهما يكن من أمر فلا يسعنى الا ان اشكر لك عطفك وانسانيتك !

وقامت المراة وغادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الغضب والحزن وخلفت وراءها صمتا ثقيلا . وبلغ التأثر من نفيسة فتناست غضبها الدفين واقتربت من حسنين وقالت متظاهرة بالمرح :

ــ نينة لم تقل كل شيء . واؤكد لك ان ثمة ما يدعو حقا لحزنك . وما كان بوسعها الا ان تبقى على صداقة فريد افندى ومودته ، ومنذا يستطيع ان ينسى جميله ومروءته ؟!. قالت له انها تعد موافقته على طلبك شرفا كبيرا بيد انها ذكرت له حالنا الذى يعرفه حق المعرفة وسألته أن ينتظر حتى تنهض أسرتنا من عثرتها مكتفيا بكلمتها على أن تعلن الخطبة فى حينها اذ أنت رجل مسئول . وقالت له أيضا انه يسعدها أن تختار بهية زوجا لابنها ، فلا داعى للحزن على الاطلاق ..

ونظرت الفتاةالى وجه أخيها والاشراق يعاوده فدخلها غيظ مفاجىء ولكنها احسنت كتمانه وقالت بلهجة لم تخل من حدة :

ــ اعذر نينة فهى مسكينة حزينة ، ومما يعزيها ولا شك أن نشاركها همومها أما اذا وجدت منا ... ما علينا ، لا احب أن أعود الى هذا . وحسبى أن أقول لك أن الأمور تسير كما تحب (ثم ضاحكة) لعنة الله عليك وعلى الحب معا ..!

٢٦

قال سلمان جابر سلمان :

ـ فلا يداخلك شك فى هذا . سنتزوج كما قلت لك . وهذا عهد منى أمام الله .

فانصتت نفيسة باهتمام وقلبها يتابع ضرباته ، لم يعد جديدا ان تسير متأبطة ذراعه فى شارع من الشوارع المتفرعة عن شارع شبرا حيث يغلب الظلام على جنباتها ويقل المارة . وكان يبدو لها دائما ، على دمامته وحقارته ، فتى رائعا لحرارة عاطفته وشدة انكبابه عليها ، وكانت لهذا تحبه من أعماقها ، بل باتت مجنونة به.

واعتقدت انه الحبيب الأول والأخير ، ليس لها سواه ، ولن يكون لها سواه ، فتعلقت به بقوة الأمل ، وبقوة اليأس ، واحبته باعصابها ولحمها ودمها ، ووجدت فيه غرائزها المشبوبة العارمة اداة نجاة تنتشلها من الأعماق .

كان أول رجل بعث فيها الثقة ، وطمأنها الى انها امرأة كبقية النساء ، وكان اذا قال لها « أحبك » تخلق خلقا جديدا فترى الدنيا ـ على كثافة الظلام المحيط ـ نورا وبهاء . بيد أنها لم تقنع بكلمات الحب ، تلهفت الى شيء آخر ليس دون الحب منزلة ، أو لعلهما شيء واحد فى نظرها ، فلم تفتأ تستدرجه حتى قال ما قال ثم تشجعت بالظلمة وتساءلت :

ـ وماذا أنت فاعل !؟

فقال بلا تردد :

ـ كان من الطبيعى أن أعلن أبى برأيى ثم نذهب معا الى والدتك لنطلب يدك ، أليس كذلك ؟

ـ أظن هذا ..

فتنهد بصوت مسموع وقال :

ـ يا ليت ! هذا أمل بعيد المنال فى الوقت الراهن ..

فانقبض قلبها وتساءلت فى انزعاج :

ـ لماذا ؟

فقال بغيظ :

ـ أبى !.. لعنة الله عليه . رجل عجوز أحمق عنيد . ويطمع ان يزوجنى من ابنة جبران التونى البقال عند تقاطع شبرا بشارع الوليد . ولست فى حاجة الى ان اقول لك اننى لم اوافق ، ولن اوافق ، ولكننى لا استطيع ان اقترح عليه الزواج من اخرى فى الوقت الحاضر ، والا كان جزائى الطرد ..

واحست جفافا فى حلقها ، ورمقته بازدراء ، ثم تساءلت فى قلق :

ـ والعمل ؟ !

ـ نصبر ، ثم نصبر . ولن تحولنى قوة فى الأرض عن غايتى ، بيد انه يجب ان نأخذ حذرنا ان يفطن الرجل الى علاقتنا ..

ـ والام نصبر ؟

فتردد فى حيرة ثم تمتم : ـ حتى يموت !

فهتفت بانزعاج :

ـ يموت ؟! هبنا متنا قبله !

فضحك ضحكة جافة فى ارتباك وقال :

ـ دعى هذا لى وللزمن . لم تضق بنا الحيل بعد !

كلام عائم لا يروى غلة . « لا استطيع ان اقول له انى اخاف ان يتقدم لى احد فى اثناء الانتظار لطلب يدى . هذه حجة وجيهة فى يد غيرى ممن يحظين بقسط من الجمال او المال . اما انا فمن عسى ان يتقدم لى فى هذه الأيام التى لا يتزوج فيها احد . رضيت بالهم ولكن الهم لا يرضى بى . ابن بقال !. ان البدلة تبدو على جسمه قلقة نابية » . وشعرت بيد القهر تقبض على عنقها . وزادها الخوف تعلقا به فلو وزن فى هذه اللحظة بالدنيا كلها

لرجح بها فى قلبها . انها لا تدرى على وجه الوضوح كيف يمكن ان تتزوج منه حتى ولو ذلل ما يعترضه من عقبات ، فان أمها لا تستطيع أن تقدم لها شيئا ، فضلا عن أن الأسرة باتت لاتستغنى عن القروش التى تربحها لهـا ، ولكنهـا تريده ، تريده من الأعماق ، وبأى ثمن . وتجهم وجهها ، وفتحت فاها لتتكلم ولكن لاحت منهـا التفاتة الى شـبح قادم فجمد الدم فى عروقها ؛ وشهقت شـهقة فزعة وكادت تطلق ساقيهـا هاربة لولا أن مر القادم تحت المصـباح فتنور وجهه وتنهدت تنهد الأمان بعـد الرعب ، وعجب سلمان لشأنها فسألها :

ـ مالك ؟

فقالت وهى تلهث : ـ حسبته اخى حسن !

وانتهز الشاب الفرصة ليفصح عن رغبة طال احتضانه لها فقال :

ـ لن نأمن الخوف ما دمنا نخبط على وجوهنا فى هـذه الطرق . أصغى الى ، لماذا لا نذهب الى بيتنا فنمكث فيه قليلا بعيدا عن الأنظار ؟

فصاحت به فى دهشة :

ـ بيتك ؟ !

ـ نعم أبى يقضى مساء الجمعة حتى منتصف الليل عند شيخ الطريقة الشاذلية ، وأمى فى الزقازيق عند اختى التى جاءها المخاض اليوم ، ليس فى البيت احد !

فقالت فى ذهول وقلبها يدق بعنف :

ـ كيف اذهب معك الى بيتك ؟.. أجننت يا هذا !؟

فقال بضراعة حارة :

ـ انى التمس مكانا آمنا . بيتى آمن ودعوتى بريئة . أريد ان أخلو اليك فى أمان فنعالج همومنا فى روية بعيدا عن المخاوف والعيون ..

كان يتكلم وكانت تصغى مقطبة . وكانت تتخيل على رغمها البيت الخالى فى قلق وخوف ،وحاولت أن تطمس خياله بالتمادى فى الغضب ولكنه ظل قائما فى راسها . وقالت فى حدة :

— ليس فى بيتك ...

فقال الشاب باستعطاف وهو يشد على راحتها :

— لم لا ؟! ظننتك ترحبين بدعوتى . اليس لك ثقة فى ؟ اليس لك ثقة فى نفسك ؟ أريد أن نخلو لذاتنا ، وأن نتحدث ، وأن اطلعك على مدى حبى وآمالى وخططى . ليس فيما أدعوك اليه من عيب ولن يدرى بنا أحد .

فهزت راسها فى عناد وقلبها يوالى ضرباته الشديدة .ودت لو تستطيع أن تخلو الى نفسها لتتفكر طويلا ، وشعرت برغبة فى الهروب . ولكنها لم تبد حراكا ، وسارت الى جانبه وراحتها فى يده وعبثا حاولت أن تبعد خيالها عن البيت الخالى المنتظر . ثم جاءت لحظة فشعرت بأن باطنها ينقلب راسا على عقب وانها تغوص فى أعماق ما لها من قرار . وازدادت اضطرابا وقلقا فقالت فى ضيق : — ليس فى بيتك !

فشد على يدها بيد مرتجفة وقال :

— بل فى بيتى . فكرى قليلا . ماذا تخافين ؟ انى احبك وأنت تحبينى ونريد أن نتحدث عن حبنا ومستقبلنا فى أمن عن العيون . هذه فرصة وهيهات أن نجد البيت خاليا مرة أخرى . انى أعجب لترددك ...

وانها تشاركه عجبه من ناحية أخرى . انها تتردد حقا . ولو ارادت أن ترفض رفضا حاسما لما أعياها البيان . ولكنها يبدو انها تداب على الرفض المتردد الذى لا يحكم اغلاق الباب . انها فى الغالب خائفة وخجلة ولكن لم تعد تستطيع تجاهل الانقلاب الذى حدث فى باطنها . وفاضت نفسها بالقلق والاضطراب والتوتر ، ثم قالت بصوت ضعيف :

ـ الأفضل أن نواصل المشى ..

فجذبها باغراء وهو يقول :

ـ قد تنشق الأرض فى اى موضع وفى اية لحظة عن اخيك حسن !

فوجدت نفسها تجاريه فى تخوفه قائلة فى استسلام :

ـ انى أخاف هذا !

فقال وهو يتنهد فى ارتياح زافرا من صدره شواظا من نار:

ـ لنذهب الى البيت ..

فقاومت يده فى وهن وهى تقول :

ـ كلا .. لن أذهب .

ـ دقائق معدودات . عطفتنا معتمة ولن يرانا احد .

وسار بها وهى تتبعه فى تثاقل قائلة :

ـ كلا ..

وكان قلبها يدق بعنف يكاد يتصدع له الضلوع ..

٢٧

وفتح الباب بمفتاح معه وهمس فى أذنها « تفضلى » فقالت بتوسل :

ـ لنعد ..

فدفعها برقة وهو يقول :

ـ لابد ان تشرفى البيت ..

ودخل وراءها وأغلق الباب فوجدت نفسها فى ظلام دامس، وارتفع وجهها الى السقف فى انتظار النور ، ولكنها شعرت بيده تتحسس منكبيها فسرت بها قشعريرة وهمست فى خوف :

ـ النور .

فقال معتذرا : ـ مصباح الصالة تالف ..

فقالت بضيق :

- اشعل اى مصباح نستضىء بنوره .

فأحاط خاصرتها بذراعه وجذبها معه وهو يقول :

- انى أعرف الطريق الى حجرتى ..

وحاولت ان تتملص من ذراعه ولكنه شد على خاصرتها فلم يتخل عنها وسار بها ببطء وجنباهما ملتصقان ، فجثم على صدرها ضيق خانق وجعلت تتساءل فى نفسها « ماذا فعلت بنفسى ؟ » ثم أخذت تألف الظلمة رويدا فلاحت لها فى الظلام اشباح كراسى وصوان واشياء أخرى لم تتبينها . وقطعا الصالة فى بطء وحذر ، ثم مد يده الأخرى ففتح بابا مزق صريره الصمت المخيف ، ودفعها أمامه من خاصرتيها ثم رد الباب بقدمه ، وسرعان ما تخلصت من يديه وقالت بحدة :

- اشعل المصباح فقد ضقت بالظلمة ..

فجاءها صوته يقول برقة وحذر فى لهفة تنم عن الاعتذار :

- آسف يا ستى فان شقة عمى ملاصقة لشقتنا ولا آمن اذا رأوا نورا بها أن يطرق احد منهم بابنا !

فسألته فى دهشة واستنكار :

- هل نبقى فى الظلام ؟

فقال متوددا :

- فى نورك الكفاية ..

فقالت فى توسل :

- دعنى أخرج ...

فتلمس يدها فى الظلام حتى عثر بها ورفعها الى فمه فقبلها مرة مرة ثم قال بصوت مضطرب :

- بل تجلسين لتستريحى ، وستألفين الظلمة فلا تزعجك .

ومال نحوها - فيما يشبه الانقضاض - فرفعها بين يديه ،

وسار بها الى نهاية الحجرة واجلسها على كنبة وجلس لصقها وهى مستسلمة من شدة الاضطراب والذهول ، ثم قال :

ــ دعينا من الأخذ والرد . ينبغى ان نجلس فى هدوء وان نتحدث . لقد تجشمنا مشقة كبيرة فى سبيل المجىء الى هنا وسيان أن نمكث فى الظلام او النور . ليس هذا بذى بال ولا يصح أن يكدر صفونا ..

وتناول ساعدها وامطره قبلات من شفتيه الغليظتين وهى ترتجف وتحاول عبثا أن تجمع شتات أفكارها . ثم تزحزحت بعيدا عن جنبه الملتصق بها لتسترد انفاسها فمال نحوها ولكنها حالت دونه بيديها وهى تقول لاهثة :

ــ دعنى وحدى ، انى تعبة ..

فاسترد انفاسه وقال ضاحكا :

ــ تشجعى . مالك خايفة مرتجفة !!.. انت فى بيتك فى بيت زوجك .

وكانت نبضات قلبها تدق فى اذنيهــا وتقرع راســها ، فتنفست من الأعماق . وشعرت بيده تتناول يدها فهمت بجذبها ولكنها عدلت عنه وكأنها استسخفت نفسها ، فأبقاها بين يديه وقال بصوت تغيرت نبراته :

ــ كل شىء هادىء ولطيف . انى أرى جمالك رغم هذه الظلمة .

فقالت بلا وعى تقريبا :

ــ لست جميلة ..

فدلك يدها براحتيه وقال :

ــ دعى تقدير هذا لى ، انى لا أجن للا شىء ...

وساد الصمت مليا فتركز انتباهها وهى لا تدرى فى راحتها التى تلتهمها كفاه، وسرت فيها دغدغة بثت فى ساعدها وذراعيها وصدرها تخديرا فاقشعر بدنها وهمست :

ـ حسبك ..

فقال بصوت متهدج :

ـ اعطيني شفتيك اقبلهما ، ساقبلهما كثيرا مائةقبلة او الفا ، ساقبلهما حتى اموت ..

واندلق عليها وقبل شفتيها قبلة طويلة شرهة حتى مال راسها الى مسند الكنبة ثم أمطرها قبلا نهمة حامية ، ورفع وجهه عن وجهها انملة وهمس :

ـ قبليني .. اريدان أشعر بشفتيك تأكلان شفتى .. هه.

وكانت بحال من الاعياء لم تدع لها قدرة على العصيان فرفعت وجهها قليلا وقبلته ، ثم غمغمت :

ـ لم نجيء هنا لهذا ..

ـ اذن لماذا ؟

ـ لنجلس ونتحدث !

فأطبق شفتيه على شفتيها ، ثم عطف وجهه فجعل يده على فيها وهمس فى اذنها :

ـ هذا افضل . لقد تكلمناكثيرا . واعيد عليك انك زوجى. زوجى ولو ناصبتنى الدنياالعداء . هى مسألة وقت لن يطول..

لعله يظن انها جزعة متعجلة . فلندعه فى وهمه . ولعل الأنتظار أوفق لحال أسرتنا التى لا ترحب بزواجها الآن ، ولا تستطيع أن تعد العدة له . ليس فى الانتظار ضرر ولكنها لن تعلن عما فى ضميرها . وعاد سلمان يقول :

ـ مسألةوقت . ولكن ما أحوجنا فى فترة الانتظار الى الترفيه.

ومد يسراه وراء ظهرها ، ويمناه حول صدرها ، فشعر بثدييها تحت ساعده ناهدين صلبين فغلى دمه وضمها اليه بوحشية، وانهمرت انفاسه على خدها وعنقها . وغاودها الذهول والتخدير والرغبة والخوف ، وامتزج فى صدرها القلق واللذة

واليأس ، ثم اشتدت الظلمة ، ظلمة عميقة غريبة ، كأنها تنشر اجنحتها على فضاء لا نهائى ، فلا مكان ولا زمان ..

***

قالت لها أمها :

ـ تأخرت اكثر من كل يوم .

فقالت واجمة :

ـ اردت أن انتهى من عملى وقد انتهيت ..

ثم وضعت فى يد الأم خمسة وسبعين قرشا واستطردت قائلة:

ـ اعطونى الحساب كله وسأحتفظ لنفسى ببقية الجنيه .

وسكتت الأم فمضت الفتاة الى حجرتها وأخذت تخلع ملابسها . وفى السكون الشامل ترامى اليها صوت حسنين وهو يطالع فترك فى نفسها اثرا عجيبا لم تدر ان كان خوفا أم حزنا خالصا ..

٢٨

ـ بهية ولطافة المغيب هما شىء واحد فى نفسى ..

قالها وهو يومىء الى الشمس الغاربة ، رانيا الى وجهها الأبيض البدرى ، وقد افتر ثغرها عن در ، فقالت :

ـ لن تفتأ تتبعنى الى هنا حتى يرانا احد !

فقال حسنين بزهو :

ـ انى خطيبك ، ولى الحق فى كل شىء !

ـ لا حق لك على الاطلاق !

فضحك من قلب جذل ضحكة من لا يصدق قولها ، وملأ عينيه العاشقتين من منظرها . كانت ملتفة فى معطفها الأحمر ، ينحسر جيبه فى أعلى الصدر عن فستان رمادى ، وتتهدل على ظهره ضفيرتان مكتنزتان . وكان عمق حمرته يضفى على بشرتها

البيضاء وعينيها الزرقاوين نقاء وبهاء . « هى ميالة الى القصر، فلو التصقت بها لمس مفرق شعرها ذقنى . ولكنها بضة ريانة فتبا للمعطف الذى يخفى قسمات هذا الجسم وثناياه ، حريصة محافظة . تعجبنى بقدر ما تغيظنى ! » وقال متعجبا :

ـ لا حق لى على الاطلاق !!

فقالت فى هدوء ينم عن القوة :

ـ طبعا ..

اتعنى ما تقول حقا ؟!. يا لها من جميلة . لقد سما بها هذا السطح عن الدنيا وجعل من آفاق السماء اطارا لصورتها . وما من شىء يشابهها كهذا الاطار فى هدوئه وحشمته وتنائيه . تقول نفيسة عنها انها ثقيلة الدم ، وما هى بالخفيفة ، ولكن هيهات ان يقلل هذا من قيمتها . انه يحبها بعقله وجسمه ، او لعل احساسه غالب عما عداه . أتعنى حقا الا حق له ؟! عجبا ، لقد حسب أن الخطبة ستملكه حقوقا؟ . وحقوقا؟ . قال بدهشة:

ـ يخيل الى فى بعض الأحيان انه لا قلب لك !

فتورد وجهها ، وخفضت عينيها فى حياء ، ثم رفعتهما قائلة فى خشونة :

ـ ما دليل القلب عندك ؟

فقال فى حماس :

ـ أن تصرحى لى بأنك تحبيننى ، .. وان ..

ـ وان ..

ـ وأن نتبادل قبلة ..

فقالت بحدة :

ـ اذن حقا لا قلب لى .

ـ يا عجبا الا تحبيننى يا بهية !!

فلاذت بالصمت فى ارتباك وضيق .

ـ الا تحبيننى ؟

فتنهدت قائلة :

ـ اذن لماذا تم ما تم ؟!

فابتل صدره المحترق وهتف برجاء :

ـ احب ان اسمعها باذنى ..

ـ لا تكلفنى ما لا اطيق !

فتنهد بدوره فى شبه يأس ، ثم قال بلين :

ـ ان اعياك الكلام فلن تعييك قبلة .

ـ يا خبر اسود ..

ـ يا خبر وردى كالشهد ! من غير هذه القبلة اموت كمدا .

ـ اذن فليرحمك الله !

ـ لا تطيقينها ايضا ؟! . لن تكلفك شيئا . ابقى كما انت ثم اتقدم خطوة واضع شفتى على شفتيك فتكون الحياة التى ما بعدها حياة ..

ـ او الفراق الذى ليس بعده تلاق !

ـ بهية !

ـ افندم !

ـ انت لا تعنين ما تقولين ..

ـ اعنى ما اقول تماما .

ـ ولكنها قبلة وليست جريمة !

ـ جريمة فى نظرى ..

ـ ما سمعت هذا قبل الآن ..

فتفكرت قليلا ثم تمتمت :

ـ ولكنى سمعته كثيرا ..

ـ اين ؟

فعاودها التفكير ، ترددت مليا ، ثم قالت بصراحة وسذاجة :

ـ الم تقرأ ما تنشره الصباح عن فتيات مهجورات لاستهتارهن ؟ الا تسمع الراديو ؟

ففغر فاه ، وندت عنه ضحكة ، ثم صاح :

ـ من يقول أن القبلة استهتار ؟ ألم تقرئى ما قال المنفلوطى فى القبلة وهو الشيخ المعمم ؟ انك تحرمين على نفسك ما أحل الحب الطاهر لنا . الصباح ؟.. الراديو ؟.. كلام فارغ !

فرمقته بريبة وحذر وقالت :

ـ لا تضحك منى . هو الحق . قالت أمى لى مرة « ان الفتاة التى تتشبه بالعشاق كما يظهرون فى السينما فتاة ساقطة خائبة الأمل » ..

بنت الكلب !.. أهى التى قالت لك هذا ؟.. القصيرة الماكرة . افسدتها علي وافسدت حياتنا . ان الغيظ يقتلنى . ماذا أفدت من الخطبة التى تجرعت بسببها تقريعا ولوما مرا ؟! لا شىء . فتاتى عنيدة مجنونة . السبب أمها بنت الكلب «حمالة الحطب» وتساءل فى يأس :

ـ اتأخذين نفسك بهذا التقشف حقا ؟

ـ طبعا .

ـ اذن هو حب اسمى فحسب ؟

ـ ليكن .

وتفحصها بنظرة طويلة فرآها ثابتة عنيدة قوية . وجرى بصره مع عنقها الرقيق ، وتخيل أصله المتوارى تحت الفستان ، والمنكبين ، والصدر الناهد ، فركبته عاطفة جامحة حارة ، وأفلت زمامه من يده ، فانقض عليها وهو يسدد ثغره صوب شفتيها . ولم تكن تتوقع انقضاضه فتقهقرت فزعة وتلقته براحتيها ثم هتفت به لاهثة :

ـ حسنين ، اياك ..

لمح فى عينيها غضبا يتقد فخمدت حدته ، وارتد خجلا مرتبكا ، فغمغمت :

ـ احذر أن أغير رأيى فيك ..

ثم استدركت فى جزع :

ـ اظن آن لك ان تعود ..

وداري ارتباكه بضحكة قصيرة وتمتم :

ـ على شرط الا تكونى غاضبة .. ؟

فسكتت هنيهة قبل أن تقول بلهجة رقيقة :

ـ وعلى شرط ألا تعود لهذا مرة أخرى ..

وتحول فى خطوات ثقيلة ، يلوح فى مظهره الارتباك واليأس ، فرق قلبها له وقالت وهى لا تدرى :

ـ ان سعادتى فى أن أصون لك ..

وكأنما تنبهت الى نفسها فعضت على شفتيها ولم تنبس بكلمة .

٢٩

وجاء عيد الأضحى فجذب أفكار الأسرة وعواطفها الى واد واحد تلتقى فيه ذكريات الأمس واليوم ، واجتمعت الأسرة ليلة الوقفة فى الصالة حتى حسن كان بينهم ، واستعرت فى الصدور رغبة كظيمة فى الاحتفال بالعيد . وطافت برءوسهم ذكريات الأعياد الماضية فى حنين دافق لم تعلن عنه السنتهم . كان الخروف ـ فى مثل هذه الليلة ـ بمربطه فى شرفة شقتهم الأولى يشرئب بعنقه بين قضبانه ثائجا ، مذيعا بثؤاجه فى عطفة نصر الله احتفال الأسرة بالعيد . ولم يكن الشقيقان ليفارقانه ، فهما أما يعلفانه ويسقيانه ، أو يناطحانه أو يحلمان بالغد القريب فى أمل وفرح .

وفى الصباح وعقب ذبح الضحية يبدأ سباق الى شى اللحوم والتهامها ، والأم مشغولة بهذا وبتوزيع الصدقات على بعض الفقراء كالكناس وصبى الفران وغيرهما ، أما الأب فيتناول فطوره من الشواء على السفرة ثم يأوى الى حجرته فى انبساط فيضم عوده الى صدره ويمضى فى مداعبة أوتاره . وهناك ـ غير هذا ـ العيدية والملابس الجديدة ونزهة الصباح فى الخلوات وفسحة

الليل فى السينما وما بين هذا وذاك من الوان الحلوى واللعب والمفرقعــات . وها هى الأسرة مجتمعة ولــكن بلا اب . وانهم لينظرون فيما حولهم فلا يجدون بشيرا بمقدم العيد ولا املا فى بهجته ، ثم يسترقون النظر الى امهم المتلفعة بالســواد بأعين مستطلعة والسنة قلقة مشفقة . كلا ، لا عيد ، ولا بشيرا به . وتساءل حسنين فى سره « ترى هل يمكن أن يمضى العيد كما كان يمضى غيره من الأيام !؟ » . وقال حسين لنفسه « لا عيد . انى أعلم ذلك . انتهى ، انتهى » . حسن وحده كان ادناهم الى التفاؤل . ولعل كثرة تغيبه عن البيت جعلته بمنأى بعض الشىء عن نوع الحياة التى يحياها اهله . وكان الى هذا ــ شانه شأن بقية الأخوة ــ يعد امه قادرة على كل شىء ، وكثيرا ما يتعزى عن كسله وتلفه فيقول لنفسه « لديهم المعاش وارباح نفيسة ! » وقد اعتاد دائما اذا رجع الى البيت أن يخلو الى نفيسة فيسألها « كيف الحال ؟ » فكانت تجيبه بالشكوى المرة ولكن قلبها لم يكن يطاوعها على تجاهل يده اذا مدها لها طامعا فى بضعة قروش . كان متفائلا رغم ما يحدق به من تجهم ، ومنته نفسه بنصيب هائل من اللحم يعوض عليه أياما طوالا انقضت دون أن يذوق للحم طعما ، وضاق بالجو الكئيب الصامت فمال على اذن نفيسة وسألها همسا :

ــ ماذا أعددتم للعيد !؟

وفطنت الأم الى همسه فعاجلته متسائلة :

ــ ماذا أعددت للعيد يا رجل الأسرة ؟

فضحك قائلا :

ــ لنا أم نحسد عليها ! خفيفة الروح وبنت نكتة ولطيفة . ما أقول يا أماه ؟ لم يأمر الله بالرزق بعد . وحسبكم انى كفيتكم شرى فلم آكل لقمة فى بيتكم منذ وفاة أبى الا مرات معدودات . .

وكانت يئست من نصحة ولومه معا فتنهدت سامته ، وتشجع حسنين بفتح باب الكلام فتساءل :

ـ ماذا سنأكل فى العيد ؟

فتطوع حسن بالاجابة قائلا :

ـ لحما طبعا . هذا أمر ربنا لا حيلة لنا فيه !

وندت عن نفيسة ضحكة ولكنها لم تسترسل خشية أن تتهم بتشجيعه وقالت الأم بحزن :

ـ هذا أمر ربنا حقا ولكن كيف لنا بتحقيقه ؟

فقال حسن فى ملق بارع :

ـ نحققه بفضلك انت . انت الخير والبركة . انت الحزم والتدبير . ثم انك أعظم طاهية فى الدنيا . كيف يمضى العيد دون أن نشبع من الشوى والسلوق والمحمر والكفتة والكستليتة والمبار والموزة ؟. سفرة الست أم حسن ، انعم بها واكرم ..

وسرى فى الجو القاتم نسيم مرح لطيف، وجرت على فم الأم الجاف بسمة خفيفة ، ولكنها قالت بأسف :

ـ طاهية ماهرة ولكنها مقطوعة اليدين !

ونظرت نفيسة الى أمها نظرات ذات معنى ثم قالت لاخوتها:

ـ اسمعوا ، علمنا أن فريد افندى سيهدى الينا نصف خروف !

وتطلعت اليها الأبصار فى دهشة ووجوم . ولم يعد فى وسع المراة السكوت فقصت عليهم كيف حادثها فريد افندى فى الأمر بلباقة وكيف رفضت شاكرة فتأثر الرجل لحد الغضب وذكرها بأنهم اسرة واحدة . الخ . وكانت تلوح فى عينى حسنين نظرة كئيبة ، وبدا حسنين وهو يزدرد ريقه بصعوبة أما حسن فقال :

ـ يا له من رجل فاضل وفى !

فهتف حسنين فى ضيق وألم :

ـ مستحيل .. لن يقع هذا ..

فبادره حسن قائلا :

- ليس فى الأمر ما يمس الكرامة ، ان هى الا تقاليد مرعية، وليس فريد افندى بالرجل الغريب ..

وخافت نفيسة أن يفضى تصريحها الى فتنة فقالت :

- لا داعى للنزاع ، فاذا ابيتم قبول الهدية فلنشتر بضعة ارطال من الضان .

فتساءل حسن فى حدة :

- كم رطلا ؟

- ما يسعنا شراؤه . عشرة ارطال مثلا !

فصاح حسن فى انزعاج :

- عشرة ارطال على اربعة أيام !. اياكم ان ترفضوا الهدية. النبى قبل الهدية يا هوه . أم تريدون أن تغضبوا أسرة تود مصاهرتكم !

فصاح به حسنين :

- هذه شحاذة !

فقال حسن بيقين :

- كلا . الشحاذة شيء آخر اسالنى انا عنه . اما هذه فهدية ، هدية ، هدية !

وتكلم حسين لأول مرة فقال :

- هدية من النوع الذى كنا نهديه فى الأعياد الى الكناس وصبى الفران ..

وغضب حسن لأنه كان يطمع أن يضم حسين الى رأيه أو أن يبقى على الحياد فى الأقل ، وقال محتدا :

- لا تخلط بين الهدية والصدقة ، اذا أعطيت الكناس فهى صدقة ، اما اذا أعطيت صديقا فهى هدية ..

وكان حسنين يعلم بان مناقشة حسن هذر غير مجد فخفض عينيه وقال فى حياء والم :

ـ الواجب أن يكون المهدى هو الخطيب لا الخطيبة ..

فقال حسن ساخرا :

ـ هذا اذا كان هو الذى طلب يد الخطيبة ، أما اذا كانت هى التى طلبت يده ..

ـ حسن ! ..

ـ أرحنا من الفلسفة التى لا تشبع من جوع . لا عيب فى قبول هذه الهدية . كانت هدايا أحمد بك يسرى تحمل الينا فى المواسم ، على فكرة ما باله قد نسينا هذا العام ابن الكلب ؟!. هذا رجل غير وفى . فريد افندى رجل الوفاء حقا . من حسن الخلق أن نقبل هديته . ثق بأنه اذا كان فى القبول ما يمس الكرامة لكنت أول الرافضين .

فقال حسين بكآبة :

ـ تصور ماذا يقولون عنا !

ـ تصور الشواء وأنت تقلبه على النار والرائحة الشهية تملأ البيت .

والتفت حسنين الى أمه وسألها :

ـ علام نويت ؟!

فقالت المرأة دون أن تنظر اليه :

ـ لم يسعنى الا القبول ..

وساد الصمت ، لا لأن أحدا لم يجرؤ على الاحتجاج فحسب ولكن لأن هذا القبول أنقذهم من النزاع القائم فى صدورهم بين غضبة ضمائرهم ورغبتهم فى الاستمتاع ببهجة العيد ولذائذه . وهم الى هذا كله كانوا يؤمنون بأمهم ايمانا كبيرا ، كأنها لا يمكن أن تخطىء ، فاذا كانت قد ارتضت قبول الهدية فلا ضير من قبولها. هذا ما قالوه لأنفسهم ، أو هذا ما قاله لنفسه الحائر منهم لينجو من حيرته . وكانت الأم أسوأ حالا منهم . ولم تجد من عزاء الا فى هذه الحقيقة وهى أن فريد افندى اضطرها الى القبول بالحاجه

وحرارة صداقته وقد رحبت باثارة نفيسة للموضوع لعلها تجد في قبول الأبناء عزاء ، فلما انست من الابنين المهمين معارضة تضاعف المها وصرحت بالحقيقة فيما يشبه الاعتراف بالذنب ، وضاعف من آلامها أنهم باتوا لا يشبعون الا فى الأعياد شأن المساكين الذين كانوا يقصدونهم فيمن يقصدون من اهل الخير . انحدار يعقبه انحدار ولا تدرى أين يقف . أما حسن فقد اطمأن. ولم ير باسأ من أن يتفلسف فقال بلهجة الوعظ :

ـ قبل النبى مرة هدية اهداها اليه يهودى فهل يكون فريد افندى شرا من اليهود ؟!

فتساءل حسين فى دهشة :

ـ من قال هذا ؟

ـ التاريخ ! ـ أى تاريخ !

فصاح به حسن : أحسبت أنهم يقولون لك كل شىء فى المدرسة؟

فقال حسنين بحدة :

ـ حدثنا عن التاريخ الذى تعلمه الشوارع ..!

فتظاهر حسن بالغضب وقال :

ـ قسما برب العزة لولا انك سبب هذه الهدية لكسرت رأسك

ثم استدرك قائلا :

ـ وعلى هذا كله كان الواجب يقضى بأن يهدوا الينا خروفا كاملا لا نصف خروف" « ثم ملتفتا الى نفيسة » احذرى أن تقبلى الهدية الا اذا كان فيها نصف الكبد أيضا ..

٣٠

وقفا متقابلين ينتظران الترام . هى فى معطفها القديم الذى تود أن تستبدل به أحسن منه ولو نصف عمر ، وهو فى البذلة التى تبدو عليه قلقة جافية . وكان يلوح فى وجهه التردد ،

والرغبة المعذبة فى الافصاح عن شىء يثقل عليه الافصاح عنه ، ثم خاف أن يجىء الترام قبل أن يتكلم فقال فى ارتباك :

ـ نفيسة .. يخجلنى جدا ان أصرح لك بأمر ..

فتساءلت الفتاة :

ـ ماذا بك ؟

فقال همسا :

ـ أمرنى ابى أن أصحبه اليوم الى حضرة شيخ الشاذلية فرفضت حتى أثرت غضبه ..

وشعرت بخوف لم تدر كنهه ، لعل ذكر أبيه الذى هيجه ، وتوقعت خبرا غير سار ، فرمقته بعين متسائلة دون أن تنبس ، فقال بصوته الهامس :

ـ ثار غضبه لعنادى وحرمنى أجرة يومى !

وخلت الدهشة محل الخوف وسألته :

ـ أليس معك نقود ؟

ـ كلا . أبى رجل جبار ، ربنا يأخذه ..

فقالت لنفسها « آمين » ثم تمتمت :

ـ معى بعض النقود ..

فسكت لحظات فى قلق ثم سألها فى خجل :

ـ هل تدفعين ثمن التذكرتين أمام الجالسين ؟

وفطنت الى ما يريد ، فرقت له ، وفتحت حقيبتها وتناولت شلنا وأعطته اياه فأخذه وهو يلحظ الواقفين بحذر ثم قال :

ـ شكرا لك . سأرده اليك فى اللقاء الآتى ..

ثم قال مستطردا بعد تردد :

ـ أو خذى اذا شئت به حلاوة أو جبنا .

فتساءلت مدفوعة بغريزة الحرص :

ـ الا تخاف أن يلاحظ أبوك أننى لا أدفع ثمن ما آخذه ؟

فضحك قائلا :

ـ انه لا يرى ابعد من موضع قدميه ..

وجاء ترام روض الفرج فصعدا اليه وجلسا متجاورين ، « كيف ابذر نقودى على هذا النحو ؟. البيت فى شديد الحاجة الى كل مليم مما اجنى من عملى الطويل . أمى لا تفتأ تبيع قطع الأثاث . حتى أخى حسن أحق بهذا الشلن من هذا المفلس . ماذا افعل بنفسى ؟. انى أبعثر نقودا أخرى لابتياع البودرة والأحمر . اواه . انه ليس رجلا . لو كان رجلا لما تعلق بأبيه هذا التعلق المضحك ، ولما خافه هذا الخوف . حرمه الرجل يوميته كما يحرم الطفل مصروفه . بيد أنى احبه واريده . انى له نفسا وجسدا . ليس لى سواه . من اين لى هذه النفس التى تسيمنى هذا كله ؟! » وسمعته يهمس فى اذنيها :

ـ من المؤسف حقا ان أمى عادت من بلدة أختى فلم يعد البيت خاليا ..

ليست بحاجة الى من يذكرها بهذا ، فهى تعلمه حق العلم . بيد أنها سرت فى أعماقها بفتحه هذا الباب . ودبت فى جسمها يقظة فتنشط خيالها وتذكرت الظلمة الشاملة والأصوات الهامسة ، تذكرت هذا فى حرارة مشوبة بخوف . ولم تشأ أن تعلق على قوله فتجاهلته عن حياء ، وتورد وجهها الذى جعله الزواق مثيرا للنظر . أمى عادت ، وأبى لا يرضى !، متى ينتهى هذا كله ؟..! متى تملكه بلا خوف ، وبشرع الله ؟!. آه ثم آه ، لشد ما يركبها الخوف أحيانا فتود الموت نفسه والراحة من الحياة جميعا . وعاد صوته الهامس يقول :

ـ ولكنى سأخلق الفرص بنفسى . لا بد أن تعاد الفرصة . وأن يخلو البيت ..

فقالت بصوت بارد :

ـ لا .. لا .. لا داعى لهذا ..

ـ الله يسامحك .. انسيت ؟.. انسيت حقا ؟!. لا يجوز

ان نموت فى فترة الانتظار . لا احب الانتظار ...

اليس الانتظار خيرا مما فعلت بنفسها ؟. بلى . كلا . بلى . كلا . بلى بلى . كلا كلا . بلى بلى بلى . كلا كلا كلا . وتنهدت فى حيرة ، وعاودها شعور اليأس الذى الفته ، ولكنها قالت :

ـ لا احب الانتظار مثلك ، ولكنى لا احب هذا ايضا ..

فقال بمكر :

ـ كاذبة . تحبينه وتحبينه . هل نسيت ..؟ محال ..

ـ لا اذكر شيئا ..

ـ لن انسى ما حييت !.. انت غاية فى الحرارة والحياة كأن حرارتك لا تزال تلفحنى ..

ـ هس . انت مجنون ولا شك !

ـ مهما يكن من أمر فسنجد حتما طرقات خالية مظلمة ..

ـ حذار . بصرك ضعيف كأبيك ، وقد تحسب الطريق خاليا والشرطى امامك !

ـ البركة فى عينيك انت ..

ثم قال متنهدا بعد لحظة صمت :

ـ متى يتاح لنا الزواج ؟!

فآلمها تساؤله واغاظها ، واخجلها فى الوقت نفسه ، ولازمها فتور ووجوم بقية الطريق .

٣١

انتصف الليل ولم يكد يبقى فى قهوة الجمال الا نفر قليل ، وكان حسن يجلس الى مائدة خالية بعد ان فارقها اصحابه تاركين فى جيبه ما استطاع ان يظفر به من قروشهم . كان يجلس كالمتفكر ملقيا على المقهى نظرة جامدة من عينيه المتعبتين . هذا صاحب القهوة وقد اخذ يراجع حساب اليوم مكوما الماركات فى طبق صاج كبير ، على حين وقف النادل مستندا الى احدى ضلف الباب

واضعا احدى يديه فى جيب المريلة يعبث بالقروش فيتصاعد وسواسها فى اغراق شهى . « رحمك الله يا أبى ، الا تعلم بأنى تعبت كثيرا بعد موتك ؟. كان نزاعنا لا يهدأ ، وكنت اشعر احيانا بأنى أمقتك ، ولكن اين ايامك ؟ فيما عدا أيام العيد لم اتناول لقمة فى بيتنا . وماذا يأكلون ؟. الفول غذائى الوحيد ، فول ، فول . الحمير تجد شيئا من التنويع . » لماذا لا يبحث جادا عن عمل ؟. جرب حظه مرتين فانتهى فى كل مرة بمعركة كادت تودى به الى السجن : كلا ليست هذه الأعمال التافهة بمتغاه . ولا يزال يؤثر عليها حياة التسكع والمقامرة الحقيرة . الواقع انه يتعيش من السرقة ، انه ورفاقه يعلمون ذلك حق العلم . انهم يتصيدون الزبائن الأغراب ويوهمونهم بأنهم يلاعبونهم على حين انهم يسرقونهم . حياة شاقة محفوفة بالمخاطر فى سبيل قروش ، كيف يستنيم الى هذه الحياة !. لم يكن لا سعيدا ولا راضيا ، وكأنه كان ينتظر معجزة تنشله من وهدته الى حلم من الأحلام . كانت حياته عادة ضارية كالخدر المهلك ، اعتاد أن يعيش بلا عمل حقيقى حائرا — رغم هذا — مركزا مرموقا مرجعه الرهبة والخوف فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صانعا بسيطا أو عاملا مطيعا ولم يكن يغيب عنه مدى حاجة أمه الى جده ؛ ولا تزال تطن فى أذنيه شكاتها المكروبة ، تطارده كلما أفاق الى نفسه . انه يحب أمه ويحب أسرته ، ولكنه ينتظر ، وينتظر ، دون أن يحرك ساكنا . لا ازال فى البداية . عمل حيوانى طويل بقروش . حماقة خير منها ..

— مساء الخير يا سى حسن .

ورفع رأسه منفتلا من سحابات أفكاره فرأى الأستاذ على صبرى يجلس قبالته فى هدوء وكبرياء فاهتز صدره فرحا وهتف به :

— مساء الخير يا أستاذ .

ونادى الأستاذ النادل وطلب نارجيلة ثم التفت الى حسن وقال دون تريث :

ـ قررت أن نعمل معا !.. اعنى ان اضمك الى تختى ..!

واتسعت عينا حسن ولاح فيهما بريق خاطف . ان التخت هو العمل الوحيد الذى يحبه ، لا لميل فنى مركب فى طبعه ، ولكن لأنه يسير ولذيذ وينسم جوه عادة بأريج الخمر والمخدرات والنساء . ومع أن أمله فى على صبرى كان دائما محدودا الا انه كان يراه شيئا خيرا من لا شيء ، ولعله عتبة لما بعده ، اجل من يدرى ؟! قال :

ـ حقا يا أستاذ ؟

ـ بدون شك .

ـ هل نعمل فى صالة او قهوة ؟

فتخلل الأستاذ شعره الثائر بأصابعه الطويلة النحيلة وقال :

ـ سترسى الى هذا يوما قريبا . وربما غزونا الراديو نفسه . ولكننا سنقتصر بادىء الأمر على الأفراح ..

وسرعان ما خمد الحماس . ولو كان على صبرى شخصا لا يعقد به رجاء ولو ضئيلا لصعقه بضربة تجعل عاليه سافله . لقــد عمل معه بالفعــل فى بعض الحفلات العائليــة نظير ريال والعشاء ، وما كان هذا ليحدث الا مرات فى العام ، فما الجديد فى هذا ؟!. وشعر بأن وراء هذه الدعوة أمرا وداعبه أمل جديد ، فتظاهر بالسرور وقال :

ـ ستحتل المكانة التى تليق بك يوما بلا شك . انت لك بحة ليست لعبد الوهاب نفسه .

فانبسطت أسارير وجهه ، ثم سأله :

ـ ماذا تختــار من آلات التخت ؟.. كنت حــدثتنى عن المرحوم والدك كعواد بارع ؟

ـ لم أتعلم آلة على الأطلاق .!

ـ ولا الدف ؟

فقال حسن بقلق :

ـ سبق أن جربتنى كسنيد ، اظننى أنفع « سنيدا » ..

فهز الأستاذ رأسه قائلا :

ـ كما تشاء .. هل تحفظ أدوارا كثيرة ؟

ـ مواويل وأدوار وطقاطيق ..

ـ احب أن اسمعك منفردا ..

وشعر حسن فى أعماقه بسخرية . نفخة كذابة وامتحان لحساب أمل ضعيف ! . ولكنه كان مصمما على مجاراته الى النهاية . كان يحلم بأن يغنى لحسابه الخاص يوما ولو فى المقاهى البلدية . وانتظر حتى جاء النادل بالنارجيلة واستمتع الأستاذ بالأنفاس الأولى ، وتنحنح ثم سأل الأستاذ :

ـ ما رأيك فى موال : يا عينى ليه بتبكى ؟

ـ عال ..

وراح حسن ينشد الموال فى صوت غير مرتفع . مجسدا ما وسعته الاجادة ، والآخر يذهب معه برأسه ويجىء متظاهرا بالاستغراق ، حتى انتهى حسن ، فقال :

ـ هذا فوق الكفاية بالنسبة لسنيد . أحب أن أسمعك فى الهنك أيضا ، هل تحفظ « فى البعد يا ما كنت أنوح ؟ » .

فتنحنح الشاب مرة أخرى وقد حميت حنجرته واشتعل حماسه واندفع يغنى الدور حتى أتى عليه ، فقال الأستاذ :

ـ عال ، عال ، هل تعرف أصول النغم ، السيكا والبياتى والحجاز وغيرها ؟

وكان لا يداخله شك فى جهل الأستاذ بهذه الأصول فقال بجرأة ندر أن توجد فى غيره :

ـ طبعا .

ـ أسمعنى ليالى رست ..

فانشــد بعض الليالى كيفما اتفق ، فهــز على صــبرى راسه قائلا :

ــ برافو .. هات اخرى نهاوند ..

وانطلق يغنى وهو يغالب سخريته القلقة فى صدره والآخر يتابعه باهتمام ظاهرى ، ثم لاح فى وجهه التفكر فجاة وبدا كانه يريد الافصاح عن شيء هام . وكان حسن ينتظر هــذه اللحظة بغريزته فتســاءل متحيرا ترى هل يريد أن يندبنى الى معركة ؟.. ماذا يريد على وجه التحقيق ؟.. وقال الأستاذ :

ــ صوتك حسن . بيد أن العمل فى التخت يتطلب مهارة اخرى . ينبغى أن نتفاهم تماما . وعلى سبيل المثال اقول لك انك يجب أن تأخذ بقسط وافر من أساليب الدعاية ..

ــ الدعاية ؟!

ــ نعم . كأن تنوه بفنى فى المناســبات . أن تسعى لاغراء البعض بطلبى لاحياء الأفراح ولك جزاء طبعــا . ان تكون فى حفلة يحييها مغن ما فتعلن نقدك لصوته وتقول لمن حولك آه لو كان على صبرى فى مكان هذا المغنى . وهكذا ..

فابتسم حسن قائلا :

ــ هذا هين ، واكثر منه ..

فقال على صبرى بعد فترة تفكر :

ــ ثم انك شاب قوى وجريء وينبغى أن تستغل مواهبك الى اقصى حد . ولكن دعنى أسألك سؤالا قبل كل شيء : أى المخدرات أحب اليك ؟

ما الذى يدعوه الى هذا التحقيق ؟ ايريد ان ينفحه بهدية ؟! انه يجيد قبول الهديات ، اما الجود بها فهذه عادة لم يمارسها . ام يرمى الى اشراكه فى عمل هام ؟ ودق قلبه لهذا الخاطر . طالما حلم بتجارة المخدرات . على انه آثر الحرص والحذر فقال بمكر :

ــ اظن المخدرات تؤذى الحنجرة ..

فضحك على صبرى ، ثم انطلق يغنى من الليالى ما شاء فى صوت كالرعد وفى نفس طويل قوى ، ثم تساءل :

ـ ما رأيك فى هذا ؟

ـ لم أسمع له مثيلا !

فقال ساخرا :

ـ هذا نتيجة خمسة عشر عاما من تعاطى الحشيش والأفيون والمنزول ، منها خمسة اعوام ادمنت فيها الكوكايين ..

ـ يا سلام !

ـ المخدرات دم الغناء ، وما من مغن يستحق هذا الاسم الا وقد تعاطى من المخدرات مثلما التهم من الملوخية والفول المدمس.

فضحك حسن وقال بلهجة تنم عن التسليم :

ـ هذا لو تيسرت ..

ـ صدقت ، وهذا ما خمنته . انك لا تكره المخدرات ولكنك لا تستطيعها . واذن فاعلم أنه من اليسر أن نجعل الأنهار خمورا والجبال حشيشا . انك جرىء قوى ولكنى لا أخفى عليك بأنى خفت كثيرا ..

ـ خفت ماذا ؟

فضحك على صبرى ضحكة قصيرة كشفت عن أسنانه الصفر وقال :

ـ أكره الناس الى من يقول « أخلاقى لا تسمح لى بكيت وكيت » أو من يقول « اتق الله » أو من يتساءل فى خوف « والبوليس ؟! » .. فهل انت أحد هؤلاء ؟

فقال حسن مبتسما وهو يشعره بأن صبره الطويل يوشك ان يظفر بحسن الجزاء :

ـ انى أعيش فى هذه الدنيا على افتراض أنه لا يوجد بها أخلاق ولا رب ولا بوليس ..

فضحك على صبرى بقوة زلزلت القهوة كفنائه وقال :

- فلنقض بقية الليل فى بيتى فما زال فى الحديث بقية ..

ولبث حسن متفكرا دون أن تخونه ثقته بنفسه لحظة واحدة. كان قليل الثقة فى محدثه ولكنه لم يكن يائسا منه كل اليأس . وكان يشعر فى أعماقه بأن ثمة انتظارا طويلا لا يزال امامه قبل أن تثبت الأرض القلقة تحت قدميه .

٣٢

كانت الأم ونفيسة جالستين بالصالة قانعتين من النور بما يشع من حجرة الاخوة حين زارتهما صديقتهما صاحبة البيت . ورحبا بها ترحيبا يليق بأيادبها البيض على نفيسة . وجلست المراة بينهما على الكنبة . أبت حتى أن يضيئا مصباح الصالة ، وجعلت هى والأم تتسليان بالحديث على حين ذهبت نفيسة الى المطبخ لاعداد القهوة . وكانت الأم تنتظر دائما من وراء زيارة صديقتها عملا مربحا لنفيسة ، وقل أن خيبت لها رجاء . لم يكن عقلها يخلو أبدا من هموم العيش ، خاصة بعد أن استدار العام واقتربت العطلة المدرسية ، وبات من المتوقع قريبا أن يضاف الى واجباتها واجب جديد هو تغذية ابنيها بدلا من المدرسة . كانت تشكو الى صاحبتها ما عانت من حياتها فى الأشهر المنقضية والمراة تواسيها وتشجعها ، حتى عادت نفيسة بالقهوة . وأرادت المراة أن تعلن عما دعاها الى هذه الزيارة فقالت وهى تبتسم ابتسامة حلوة تنم عن طيبة قلبها :

- جئتك بعروس جديدة ..

فضحكت نفيسة ضحكة سرور وقالت :

- يحق لى أن اطلق على نفسى خياطة العرائس !

- أسأل الله أن تعدى ثياب عرسك بنفسك قريبا .

فتمتمت الأم قائلة :

- آمين .

وامنت نفيسة على الدعاء بقلبها ، على ما أثار فى نفسها من قاتم الذكريات . «متى يمكن أن أكون عروسا ؟ ليس قبل أن يموت عم جابر سلمان . يا للسخرية . أمل كلفنى نفسى وجسدى . هل يدور هـذا لأمى فى خلد ؟!. انها تحسب أن هموم المعيشة اكبر الرزايا . يا لها من جاهلة بائسة . » وتساءلت الأم :

- من تكون الزبونة الجديدة ؟

- العروس الجديدة هى كريمة عم جبران التونى البقال . .

وتنبهت حواس نفيسة لهذا الاسم الذى لا يمكن أن تنساه فدق قلبها بعنف وقالت متسائلة :

- دكانه عند تقاطع شارعى شبرا والوليد ؟

- بالضبط .

وضحكت الأم قائلة :

- أصبحت جوالة يا نفيسة كشيخ الحارة . .

فضحكت الفتاة ضحكة آليـة وقالت لنفسها « هى دون غيرها » .. هى الفتاة التى كان عم جابر سـلمان يرغب فى أن يزوجهـا لسلمان كما قال لها الفتى . فلتتزوج ولترفـع عن صدرها كابوس ذكراها . وتساءلت الأم :

- وهل جبران التونى هذا غنى ؟

- على جانب من اليسار لا بأس به . .

- ومن العريس ؟

فضحكت المراة وقالت :

- انه أقرب مما تتصورين . هو سلمان ابن عم جابر سلمان البقال .

- سلمان !

ندت عن نفيسة كالصرخة ، فالتفتت المرأتان صـوبها فى

دهشة . وظنت الضيفة أنه كبر على الفتاة أن يحظى بمثل هذه العروس شاب تافه كسلمان فقالت :

ـ نعم سلمان . والظاهر ان عم جبران لم يمانع لصداقته لعم جابر سلمان . وربك يعطى الأرزاق بلا حساب . .

ادركت رغم هول الصدمة انها كادت تفضح نفسها فتماسكت في جهد شديد . لقد انفجرت الصرخة فى صدرها بلا وعى وانطلقت من فيها دامية . ولم تعد تستطيع أن تتابع حديث المرأتين وشعرت بأنها تموت موتا سريعا منقضا . وساعدتها الظلمة على اخفاء معالم وجهها فشدت على أصابعها حتى لا تصرخ مرة أخرى . ماذا قالت المرأة !. ليس ما بها كابوس أو جنون ، انه حقيقة بلا ريب ، سلمان جابر سلمان ، دون غيره . وعاودتها ذكرى مخاوف قديمة كانت تنتابها من حين لآخر فى ساعات انفرادها ، مخاوف غامضة أحيانا كقلق ينشب أظافره فى صدرها ، أو واضحة أحيانا اخرى تتبدى فى صورة بشعة يقشعر لها البدن . وخالت فى ذهولها لحظة ان ما بها ليس الا حالة مرعبة من هذه الحالات ، ولكن لم تكن الا لحظة واحدة ثم عاودها هذا الشعور الثقيل الرهيب بأنها تموت . لقد ذاقت قساوة الدنيا مع أسرتها جميعا ولكنها لم تصدق أنها قاسية الى هذا الحد ، وعضت على شفتيها وهى لاتدرى كيف تقاوم هذا الانحلال والتهدم ، الساريين فى روحها وجسدها . ما هى بخيبة الحب ، هى خيبة الحياة كلها ، ولكن يجب أن تتمالك نفسها ، وعسى ان تدعوها الضيفة الى الحديث لأية مناسبة فلا يصح أن ترتعش نبرات صوتها ، أو تختنق من شدة التأثر . ولعله من الخير أن تلوذ بالفرار الى حين . ولم تن عن تحقيق نيتها فتناولت قدح القهوة ومضت الى المطبخ . هنالك زفرت من الأعماق ، وشدت بيديها على ضفيرتيها القصيرتين بشدة وهى تحملق فى سقف المطبخ الملوث بالهباب وقد عشش العنكبوت بأركانه ، ولبثت فى جمود كالذاهلة . ولم يكن أملا ، ولكن خدعة ،

كذبة مفزعة ، ضربة قاضية . سرقة ، ، لطخة . جرحا لا يندمل ، وحلا ، لقد انتهت . انتهت بلا ادنى ريب . لا يمكن أن تتخيل امها هذا ، اما حسين وحسنين فهيهات . رباه كيف استطاع خداعها الى هذا الحد لا كنا معا يوم الجمعة الماضى فأى مجرم هذا واى اجرام . ماذا يجدى الغضب او الحقد ، او الكراهية ؟. شعرت نحوه بالكراهية تقتل اى اثر للخير فى النفس . ما أشد حاجتها الى التفكير والتدبر ، انها تتلهف على مكان قصى خال ينأى بها عن هـذا المحيط الذى باتت تضمر له البغض أشـد البغض ، مكان تستطيع أن تسأل فيه نفسها كيف هوت بمثل هذه السهولة ، وبمثل هذه السرعة ، وبمثل هذا الهوان ..

ـ نفيسة ..!

بلغ نداء أمها مسامعها فانتفضت فى ذعر ، ثم حنقت عليها حنقا شديدا كأنه المقت ، ولم تأت حراكا فأعادت الأم النداء فذهبت وهى تعض على نواجـذها ، ووجدت الضيفة متأهبة للذهاب وامها تودعها عند الباب الخارجى . وقالت لها وهى تسلم عليها :

ـ تعالى الى بعد غد فنذهب معا الى بيت العروس ..

فأومأت برأسها بدلالة الايجاب دون أن تنبس ، ولما أغلق الباب قالت الأم :

ـ سلمان !. والله ما يستاهل هذا الحظ ..

فشعرت بخنجر ينغرس فى شغاف قلبها ، ولم تعلق بكلمة . وضاق صدرها بالمكان والجو وأيقنت بأنها أعجز من أن تتجمل المكث الى جانب أمها ، وخطر لها خاطر كلسان من لهب انشق عنه صـدرها فمضت بقدم ثابتة الى حجرتها ، ثم عادت وقد ارتدت معطفها فسألتها امها بدهشة :

ـ أذاهبة الى الخارج ؟

فقالت وهى تتوجه صوب الباب :

ـ نعم سأشترى شيئا للعشاء وربما ذهبت الى شقة فريد افندى ساعة ..

٣٣

ومالت نحو فناء البيت وأنفاسها تتردد فى تقل وصعوبة ، كانت السماء صافية مرصعة بالنجوم ، والجو باردا بعض الشىء تتخلله نسمات لطيفة من طلائع الربيع . وسارت الى الباب الخارجى ثم عرجت فى هيابة الى دكان عم جابر . كان الرجل العجوز عاكفا على مراجعة الحساب الختامى لليوم ، على حين وقف سلمان مرتقبا الطاولة ناظرا فيما بين يديه فى شرود . واقتربت منه وهى تلقى عليه نظرة حادة ملتهبة فرفع اليها عينيه الصغيرتين ولم تلبث ان لاحت فيهما نظرة جفول وارتباك ثم قال ببلاهة :

ـ اى خدمة يا ست نفيسة ؟

فقالت بعزم وثبات :

ـ الحق بى فى الحال ..

فأومأ لها بالايجاب وهو يتظاهر بأنه يقدم لها شيئا من الدكان. ومضت الى الشارع ووقفت تنتظر عند رأس عطفة نصر الله وهى تتفحص ما حولها بعناية وحذر . وطابت نفسها بما فعلت ، فما كان فى وسعها أن تصبر دون حراك حتى مطلع الصباح . وجعلت تنظر داخل العطفة حتى رأته قادما بجلبابه وجاكتته مسرعا فى خطاه الملهوجة . حقير تافه ، شىء تعافه النفس ، مخادع مختال كذاب . ما احقر هذا . ماذا هى فاعلة به ؟. اترتمى على قدميه باكية مستعطفة ! هل تضرع اليه أن يظل لها وحدها ؟ بدا أن هذا كله شىء فظيع مستنكر ، وعلى هذا فقد وشى بمشاعر عميقة صادقة لا تدرى كيف تفصح عن نفسها ، فقبل ساعة

واحدة كانت تعده رجلها وتعد نفسها امرأته ، والهلاك اهون من ان تنفصم هذه العروة بين يديها . كانت شيئا وليست الآن شيئا على الاطلاق . عدم مخيف ويأس قاتل . واقترب منهـا فى حذر وغمغم دون أن يلتفت اليها :

— خير ؟

وأثار صوته حنقها ولكنها كظمت نفسها وقالت وهى تسير :

— اتبعنى الى شارع الألفى .

ومضت الى الشارع الجانبى بعيدا عن الأعين المستطلعة ،ثم ابطات الخطو حتى لحق بها ، وبادرته قائلة وقد نفد صبرها :

— أليس عندك ما ترى اخبارى به ؟

فتساءل متجاهلا فى قلق وخوف :

— عما تسألين ؟

فغاظها لدرجة الجنون وقالت بحدة مخيفة :

— اتدرى حقا عما اسأل .!. هات ما عندك وكفاك خداعا !

فتنهد فى تسليم وغمغم فى خوف :

— تقصدين مسألة الزواج ..

فقالت فى سخرية مريرة :

— أظن هذا . الا تراها مسألة تستحق السؤال !؟

فقال بصوت شاك :

— أبى .. ؟

فصاحت بحدة وجسمها ينتفض غضبا وهياجا :

— أبى ، أبى ، أرجل انت ام امرأة ؟ !

فقال بذل وخنوع وتسليم :

— رجل ولكن كعدمه !

— يعنى أمرأة !

— سامحك الله . لا اسمع الا نهرا وتقريعا سواء منك أو منه . ماذا اصنع ؟

ورمته بنظرة حامية وصدرها يستعر حنقا وغيظا . امرأة. جبان ، حقير . كيف أحبته ، كيف هانت عليها نفسها فسلمت له ! ان سعيها اليه ، وتعلقها اليئس به ، وحرصها الدليل على استرجاعه ، هى شر ما تسيمها الدنيا من بؤس وعـذاب . وصاحت به :

ــ يا لك من شاك باك حقير . كيف سولت لك نفســك الغدر بعد ما كان . كيف أخفيت عنى الأمر ؟ أجب ..

فنفخ قائلا :

ــ مضى أبى الى هدفه على رغمى ، غير مقيم لرأيى وزنا حتى وجدت نفسى بين أمرين لا ثالث لهما : فاما النزول عند ارادته ، واما الموت جوعا .

ــ لماذا لا تبحث عن عمل فى غير دكان أبيك ؟

فتمتم فى نبرات يائسة :

ــ لا أستطيع ، لا أستطيع ..

فاحتدم الغيظ فى صدرها وقالت :

ــ يا لك من جبـان حقير ، ألا تعرف ماذا يعنى هـذا بالنسبة الى ؟!

فقال بلهجة تقطر أسفا وحزنا :

ــ أعرف وا أسفاه . الله وحده يعلم بحزنى وأسفى ..

فألقت عليه نظرة حامية وقد أثارتها لهجته الأسيفة لحد الكراهية القاتلة وقالت بصوت مرتعش :

ــ حزين وآسف ، يا لك من مسكين ! وماذا تظننى صانعة بحزنك وأسفك ؟!. ان الحزن وحده لا يصـلح الخطأ ، فماذا تظننى صانعة بحزنك ؟ لقد أوقعتنى فى ورطة قاتلة فلا يجوز أن تدعنى وحدى وتهرب : ألا تفهم هذا ؟

وبدا وكأن الحيرة تمسك بلسانه ، ونظر صوبها فى خوف

دون أن يحرى جوابا . واثارها صمته كما أثارها تظاهره ـ كانت متأكدة من هذا ـ بالأسف . فقالت بحدة :

ـ ما عسى أن أصنع ؟!

فازدرد ريقه وقال بصوت متقطع منخفض :

ـ وا أسفاه .. انى ادرك حرج موقفك .. لشد ما يؤلمنى هذا .. ولكن .. أعنى .. ما عسى أن أصنع أنا ؟!

فقالت بحقد وهى تكظم عواطفها الثائرة :

ـ أرفض هذا الزواج . لا نجاة لى الا بهذا ..

فقال بعجلة ضاعفت حنقها :

ـ أرفضه ؟!.. فات الوقت ..

ـ يجب أن ترفضه . لم يفت الوقت بعد . يجب ان تفكر فى .. لا نجاة لى الا بأن ترفضه ..

وقال بلهجة اليائس وهو يشعر بخوف :

ـ ليس فى وسعى هذا ..

وتولاها القنوط ، ولم يوح لها الشخص الخائر الماثل امامها بأقل رجاء . وصاحت بانفعال :

ـ كان فى وسعك أن تفعل ما فعلت . وكان بوسعك أن تقبل الزواج من هذه الفتاة . ولكن ليس بوسعك أن تصلح الخطأ ، ليس بوسعك أن تمد يدا لانقاذى ..

ـ ما أشد ضيقى . ان أسفى لا حد له ..

ـ ماذا يفيدنى هذا الأسف ؟

ولما وجدته صامتا صرخت فى وجهه :

ـ ما يفيدنى أسفك ؟

فغمغم :

ـ ماذا عسى أن أصنع ؟

وركبها شيطان الغضب واليأس فالتفتت نحوه ، وانقضت

عليه بسرعة البرق وامسكت بتلابيبه وهى لا تدرى ماذا تفعل . وصاحت فى وجهه :

ــ اتسألنى عما تصنع ! . هل حسبتنى لعبة تلهو بها حين تشاء وتحطمها حين تشاء ؟!

فقال وهو يحاول عبثا ان يخلص سترته من يديها :

ــ نفيسة . اعقلى . نحن فى شارع ..

فصاحت به وقد فقدت وعيها :

ــ جبان . سافل . وغد ، غادر ..

وسحبت يدها بسرعة وهوت بقبضتها على وجهه بقسوة جنونية ، مرة ، واخرى ، حتى رات الدم يسيل من انفه ، وجعلت تلهث وصدرها يضطرب فى عنف وعدم انتظام ، وتحسس سلمان أنفه بيده وبسطها أمام ناظريه فى صمت . ثم أخرج منديله من جيبه ووضعه على فمه وانفه . وبدا هادئا ساكنا على غير ما كانت تنتظر . شعر بادىء الأمر بخوف ، ثم حل محل الخوف ارتياح غريب ، كأنه جاز منطقة الخطر ، ولم يعد ثمة ما يخافه . انفرجت الأزمة ، وزال الخطر ، وسقط ما كان لها من شبه حق عليه بعد هذا الدم المسفوح ، وقال فى هدوء وصبر :

ــ سامحك الله يا نفيسة ، أنا عاذرك .

وهيجها حديثه فجأة فعاودها الجنون ، وانقضت عليه مرة أخرى بدافع غريزى ، ثم أمسكت بتلابيبه كشىء يريد الافلات وتأبى عليه ــ بكل قواها ــ أن يفلت . وركبه الذعر فانحل تماسكه ، ونتش سترته فجأة فخلصها من يدها وتراجع صارخا :

ــ أياك وأن تلمسينى . ابعدى عنى . ابعدى لا حق لك على .

وهجمت عليه ولكنه دفعها فى صدرها وصاح بها فى هياج أحدثه الذعر :

ــ لا تلمسينى . لم أجبرك على شىء . لقد ذهبت معى الى البيت راضية . لا تلمسينى والا ناديت الشرطى !

وواصل تراجعه حتى ابتعد عنها مسافة غير قصيرة ثم دار على عقبيه ومضى مهرولا كأنه يفر فرارا ..

وتسمرت فى مكانها وجسمها ينتفض انتفاضا . ففقدت سلطان الارادة على جسدها وروحها وعواطفها . وبدا لها الأمر كحلم . او هذيان مرض . او حال لا تمت بصلة الى عالم الحقيقة . هذا شارع وهذه شجرة وهذا مصباح وهؤلاء بعض السابلة . أشياء هذه ام اشباح ؟! انها لا تدرى . بدا كل شىء بعيدا عن الواقع والحقيقة . ولعلها لم تنتبه الى وعيها الا حين انفجرت باكية بدموع حارة ملتهبة صاعدة من اعماق صدرها ..

٣٤

كان سلمان يمسح الطاولة حين رأى ظل شخص ينعكس عليها فرفع رأسه فرأى حسن واقفا حياله . وسرت فى جسده قشعريرة رعب فكأن صاعقة انقضت على رأسه . وكان حسن يقف بقامته الطويلة ، منفوش الشعر ، وقد حال لون بدلته من كثرة الاستعمال ، ينبعث من عينيه نور حاد ينم عن العنف والجرأة . وقال سلمان لنفسه « انى هالك . اذا كانت نفيسة قد أفضت اليه بسرها فساعتى قد دنت ولا شك » ونظر اليه كما ينظر الفأر الى القط دون أن ينبس . وقال حسن بصوت مرتفع رن فى اذنيه رنينا مؤلما مخيفا :

— السلام عليكم ..

ورد عم جابر سلمان من وراء مكتبه قائلا :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . كيف حالك يا سى حسن ؟ ..

وذهل سلمان فى خوف عن رد التحية وقال لنفسه « ما هذه

بتحية . هي نذير . ربّاه كيف تعرضت لفتاة لها مثل هذا الأخ؟!» .

وقال حسن :

ـ الحمد لله . لقد جئتكم لأحدثكم فى أمر هام جدا ..

انه يعلم بهذا الأمر . وعما قليل يعلم أبوه بالفضيحة . ها هو الشيطان يقترب . لقد رفع طرف الطاولة ومرق الى الدكان . لا يفصله عن قبضة يده شبر . أية حماقة جعلته يعتدى على نفيسة ؟! ليته يمهله حتى يرفض الزواج ويصلح خطأه .. ومال حسن على المكتب معتمدا حافته بكلتا يديه ، وردد بصره بين الأب والابن ، وسلمان مطرق فى توقع مروع للضربة المجتمعة . وقال حسن :

ـ علمت ان زواج سلمان قريب ؟

فقال عم جابر :

ـ ان شاء الله . العقبى لك ..

ـ وليلة الفرح ؟

ـ قريبا جدا ان شاء الله .

فنقر حسن بأصبعه على المكتب وقال بجرأة :

ـ نحن جيران يا عم جابر وأحسبنى خير من يحيى هذه الليلة .!

واتسعت عينا سلمان الصغيرتين . انه لا يصدق أذنيه .. ألهذا الغرض جاء ؟! كيف غاب عنه أن نفيسة تفضل الموت نفسه على البوح بسرها لهذا الأخ الجبار ! وندت عنه ضحكة . وأردفها بأخرى . ثم انفجر ضاحكا ضحكا عصبيا لم يتمالك معه نفسه حتى التفت حسن وأبوه نحوه فى دهشة وانكار ، وسرعان ما أمسك . ثم خاطب حسن قائلا فى أريحية وسرور :

ـ لا كانت الليلة ان لم تحيها أنت ..

.. وابتسم حسن فى رضا وخاف الأب عواقب هذا الوعد الأحمق فقال :

ــ على العين والراس يا سى حسن . لا يمكن ان يوجد مانع من ناحيتنا . ولكننى اخشى ان يكون لوالد العروس رأى آخر . .

فرمقه حسن بريبة ثم قال :

ــ الراى رأى والد العريس .

فقال عم جابر برقة :

ــ انت من نفضل يا سى حسن . ولكن امهلنى حتى اشاور عم جبران التونى . .

فتفكر حسن مليا وقد اخذ دم الغيظ يجرى فى عروقه ؛ ثم قال بلهجة ذات معنى :

ــ شكرا لك يا عم جابر . ولكنى احب أن أذكرك بالفوائد التى تقترن باحيائى ليلة الفرح . وأهم هذه الفوائد فى نظرى أن شخصا مهما بلغ من القوة والشر لن تحدثه نفسه بالاعتداء على الحفلة كما يحدث كثيرا .

فلاح الاهتمام فى وجه الرجل العجوز . وادرك بسهولة ما وراء هذا الكلام الطيب من الوعيد ، ونظر فى وجه الشاب الخيف مبتسما وتساءل فى لين ورقة وابنه يتابعه فاغرا فاه :

ــ لا تخلو ليلة من حفلة فرح تمر بأمن وسلام .

فضحك حسن ضحكة غريبة وقال :

ــ يوجد كثيرون لا هم لهم الا الشر والاعتداء ، وهم يتصيدون الأفراح عادة للنهب والاعتداء . .

فقال العجوز بحذر :

ــ كان هذا فى الزمن الغابر . اما الآن فلعلهم يخافون الشرطة .

فقال حسن وهو يهز راسه مبتسما :

ــ انهم لا يحسبون للشرطة حسابا . وينتهون من عدوانهم عادة قبل حضور الشرطة . وما أيسر عملهم الذى يتوجه بادىء الأمر الى تحطيم المصابيح ، فاذا انقلب الفرح ظلاما وركب الخوف

النفوس اتم المدعوون عملهم وهم يتخبطون فى الظلام لا يدرون اين تقع ارجلهم . فتنهار الزينات وتنقلب المقاعد ويندلق الطعام وتسرق الملابس ويصاب أهل العروسين بجروح خطيرة . واذا انجابت موجة الشر يجد القوم أنفسهم اشد حاجة الى رجال الاسعاف منهم الى رجال الشرطة . وأين الفاعل ؟.. مجهول.. واذا أرشد اليه أحد عرض نفسه لخطر اكبر يحول القضية من محكمة الجنح الى محكمة الجنايات . واعطنى عقلك ما جدوى العقاب على فرض نزوله بالجانى بعد ضياع الأنفس والأموال ؟!

وأنصت عم جابر بانتباه ، وفى تشاؤم ثقيل . وشعر بعجزه حيال الشر الماثل أمامه الذى يعرف من سيرته ما يعرف الجميع . ولم يدر كيف يدفعه فتعزى قائلا انه على اية حال يحسن الغناء لدرجة لا بأس بها ، وابتسم الرجل ابتسامة باهتة وقال :

ــ مهما يكن من أمر هؤلاء الأشرار فلن تسول لهم نفوسهم الاعتداء علينا وأنت مطرب ليلتنا !

فابتسم حسن فى ارتياح وقال :

ــ انك رجل كريم يا عم جابر ، ولعل الأيام تسعدنى باحياء فرحك انت اذا نويت الزواج مرة أخرى .

فضحك سلمان ضحكة من ينعم بلذة النجاة بعد الخطر المحقق . اما الأب فابتسم ابتسامة صفراء وغمغم :

ــ عفا الله عنك ..

وسعل حسن سعالا مصطنعا وقال بلهجة جديدة ودون تلعثم :

ــ لا احب ان أطيل عليك . آن لى أن أذهب شاكرا بعد قبض مقدم الأتعاب ..

فقال العجوز بجزع :

ــ الآن ..؟!

ــ خير البر عاجله . لست الا مغنيا متواضعا لا تتعدى أتعابه ــ هو وتخته ــ الخمسة جنيهات ، وأقنع الآن بجنيه واحد ..

وصمت الرجل متحيرا حينا . ثم قال لنفسه « الأمر لله من قبل ومن بعد » وفتح درج المكتب وتناول جنيها ووضعه على المكتب فأخذه حسن وذهب وهو يقول :

– ربنا يتم بالخير ..

٣٥

جاء الترام فركبت نفيسة وتبعتها على الأثر صاحبة البيت. ارادت المراة ان تصحبها الى بيت عم جابر التونى لتقدمها الى آله بنفسها وقد اخذت نفيسة زينتها وصنعت من وجهها خير ما يمكن ان يصنع منه وارتدت احسن ما عندها من الثياب . ولم يكن يغيب عن شعورها لحظة واحدة ما فى رحلتها من غرابة . وقد قالت لنفسها كثيرا انه من الجنون أن تذهب الى هذا البيت ولكنها لم تدر كيف تنبذ هذه الفرصة السعيدة التى فرحت بها امها ايما فرح . والحق الذى لا مرية فيه أن حديثها لنفسها هذا لم يعبر عن حقيقة رغباتها . أو أنه دارى هذه الرغبات مداراة لم تخف عنها . كانت تود رؤية العروس مهما كلفها هذا من عناء ، وكانت رغبتها من القوة والتغلغل بحيث لا يمكن مقاومتها . وليس يمكن القول بأنها كانت تريد ان تقيس جمالها بجمالها ، فهى تعلم بالبداهة أنها – العروس – أجمل منها ، وليس فى هذا من جديد ، ولكن على رغم وضوح هذه الحقيقة ظلت رغبتها فى رؤية الفتاة مشتعلة لا تقاوم ، وكأن رباطا وثيقا يصل أسبابها بأسبابها، ويقرن مصيرها بمصيرها . ولم تكن أفاقت من أثر الصدمة العنيفة التى هرست نفسها وجسدها هرسا ، ولكن انقضاء أيام أخمد الثورة الهائجة ، فى ظاهرها على الأقل ، وأحل محلها مرارة سامة ويأسا مميتا ، وشعورا معذبا بالوحشة ، كأنها غريبة بين أهلها ،

شاذة عن المخلوقات ، الى احساس بالظلم طاغ بعث فى نفسها رغبتين متناقضتين تناوبتاها تناوبا متواصلا . رغبة فى التمرد والجموح ورغبة فى الاستزادة من الظلم والتعذيب حتى الموت .
وقد ركبت الترام وهى على هـذه الحال ؛ وتلهفت على اللقاء القريب وهاتان الرغبتان المتناقضان تتعاورانها . وغادرتا الترام بعد محطات أربع . واتجهتا الى شارع الوليد ، ثم مالتا الى عمارة كبيرة تقوم فى اسفلها بقالة عم جبران التونى . وصعدتا الى الدور الثانى ودخلتا شـقة به . واستقبلتهما سـيدة فى الخمسين متوسطة القامة مفرطة فى السمنة ، بيضاء البشرة ، فدخلن جميعا حجرة الاسـتقبال ، وما ان استقر بهم المجلس حتى قالت الست زينب — صاحبة بيت نفيسة :

— هـذه ست نفيسة ، وستشهدين لها بالمهارة والذوق .

فقالت السيدة :

— حدثتنا ست زينب عنك كثيرا . اهلا وسهلا . .

وآلمهـا الثناء كأنه سب وهجاء ، وأغاظها وأحنقها لسبب لا تدريه ، وتزعزعت ثقتها فى أعصابها أن يفلت زمامها من يدها . اما السيدة فمالت نحو باب الحجرة ونادت بصوت مرتفع «عديلة» ودق قلب نفيسة ، ورجحت أنها تنادى العروس وخيل اليها أنها تسمع سلمان وهو يهتف بهذا الاسم ، وخالته يضمها الى صدره وقد اذهلتـه حرارة العاطفة وراح يقول لها بصـوته المتهدج « عديلة ... أحبك ، احبك اكثر من الدنيا والآخرة معا » ، فهذا قوله عادة اذا اذهلته حـرارة الاحساس . وهـو قول كاذب او هكذا كان بالنسبة اليها ، والغالب ان الدنيا كذبة كبيرة . وتوجه راسها نحو الباب ، متألمة قانطة خانقة ، وعندما سمعت وقع اقدام آتية داخلها احساس آخر بالخوف فودت لو كان بوسعها ان تختفى ، ولعله كان أحساسا عارضا سطحيا . وجاءت فتاة فى مقتبل العمر ، متوسطة القامة كأمها بيضاء البشرة ، بيضاوية

الوجه . كبيرة القسمات ولكن فى تناسق حسن . بيد أنها سمينة لحد الافراط . وتساءلت نفيسة فى نفسها كيف تصير اذن اذا تزوجت ! واضطربت فى اعماقها ضحكة ساخرة متوتوة لم يتح لها التنفس . وذهب عنها الخوف العارض وشعرت باضطراب عصبى بذلت جهدا شديدا للتغلب عليه . وتم التعارف وتبادل السلام دون أن تنبس خشية أن تخونها نبرات صوتها . ولدغتها الغيرة بغتة فمزقت قلبها شر ممزق . هذه التى سلبتها رجلها . رجلها دون غيرها بعد ما كان . فلا توجد امرأة لها مثل ما لها عليه من حقوق . فكيف تكون هذه الجاموسة عروسة وتكون هى الخياطة التى تعد لها ثياب العروس ؟!. من اجل هذا تستحق الدنيا ان تكون طعمة للنيران . ولن تكون احمى من النيران التى تلتهم قلبها . رباه كيف تستطيع العمل بهذه الأعصاب المريضة ؟!. وغادرت المراتان الحجرة تاركتين الفتاتين معا . وجاءت خادم بالأقمشة ووضعتها الى جانب نفيسة على الكنبة فوجدت فيها مهربا من افكارها وراحت تتفحصها باهتمام ظاهرى وعيناها المنكستان تسترقان النظر الى قدمى العروس . وسألتها العروس قائلة :

— هل سبق ان خطت ثياب عرائس ؟

ورفعت اليها عينيها فيما يشبه الدهشة كأنها لم تكن تتوقع أن توجه اليها خطابا وقالت باستهانة :

— كثيرا جدا ..

— اظن هذا يجعل العمل يسيرا عليك .

— لا أجد فيه أثرا لصعوبة ..

كانت اجابتها تعبيرا عن احساس بالتمرد والثورة يتجمع فى اعماقها لم تعبأ معه بالحقيقة والواقع . وصمتت العروس هنيهة ثم عادت تسألها قائلة :

— هل تسكنين فى عمارة ست زينب ؟

فقالت مدفوعة بالاحساس نفسه :

ـ نعم . منذ أعوام طويلة . كان المرحوم أبى موظفا بوزارة المعارف ..

ـ اخبرتنا بهذا ست زينب . الا تعرفين ان بقالة العريس قريبة من عمارتكم ؟

ووجدت شكة دامية فى قلبها . وخفضت عينيها ان ترى الاخرى ما ارتسم فيهما . ثم تمتمت :

ـ تعنين عم جابر سلمان ؟

ـ هو نفسه . العريس ابنه . الا تعرفونه ؟

« أعرفه أكثر منك !.. لن تعرفيه مثلى قبل اشهر !.. وستجدينه حيوانا وغدا » . قالت :

ـ نعرفه حق المعرفة . الم تريه ؟

ـ قابلته هنا مرة واحدة ..

وسالتها بدافع لم تستطع مغالبته :

ـ هل أعجبك ؟

فضحكت ضحكة كرهتها على اثر سماعها اضعافا ، وقالت:

ـ كانت الحجرة مزدحمة بالمدعوين ، وانت تعرفين هذا الموقف طبعا !

فقالت بلهجة باردة : ـ لست أعرفه .

فضحكت العروس قائلة :

ـ دعينى أسألك انت التى تعرفينه حق المعرفة ، ما رايك فيه ؟

ودهمها السؤال . لم تكن تتوقعه . وانهارت القوة التى تغالب بها أعصابها . انهارت بغتة كأنما انفجرت فيها قنبلة خفية . واجتاحتها موجة طاغية من التمرد والجموح والجنون ، فقالت بصوت غريب :

ـ ليس هو من النوع الذى يعجبنى ..

وغاضت آثار الضحكة فى عينى العروس ، واتسعت عيناها

فى دهشة وانكار . وجعلت تنظر الى نفيسة لحظة ساهمة واجمة كأنها لا تصدق أذنيها ، ثم تساءلت بغرابة :

ـ حقا ؟! ترى ما النوع الذى يعجبك ؟

فقالت ببرود دون ان تفارقها هذه الروح الجنونية :

ـ دعك من هذا . المهم أن يعجبك انت ، أليس كذلك ؟

فقالت ولما تفق من دهشتها :

ـ اظن هذا ..

ـ مبارك عليك ..

ولكن الفتاة لم تقبل ان ينتهى الحديث عند هذا الحد . افاقت من دهشتها وكبر عليها قول الأخرى فثار بها الغيظ وقالت متسائلة فى تهكم :

ـ وزبوناتك الأخريات من العرائس ألم يكن أزواجهن من النوع الذى يعجبك ؟

وادركت نفيسة ما فى قولها من التهكم والتحدى فتمادت بها روح الشر التى ركبتها واندفعت قائلة وكأنها تلقى عبئا ثقيلا عن كاهلها :

ـ جميعهم جديرون بالاعجاب حقا ، فهم موظفون محترمون!

فاستنكرت العروس هذه الوقاحة التى لم تكن تتوقعها وتساءلت بغضب :

ـ الا يكون الانسان محترما الا اذا كان موظفا ؟

فقالت نفيسة بصوت مرتعش النبرات أعياها التحكم فيه :

ـ أعتقد هذا ..

فصرخت العروسة قائلة :

ـ واذا كان خياطة ؟

فقالت نفيسة بحقد وغضب :

ـ لا على أن اكون خياطة . اخوتى طلبة مثقفون ، وكان أبى موظفا محترما ..

ـ حقاً لا يستاهل الرحمة كل المساكين ما دام يوجد بينهم ن هو فى فلك ادبك !

ـ لا يدهشنى هذا السباب من ابنة بقال ..

نهبت العروس واقفة وهى تنتفض غضبا وصاحت :

ـ يا مجرمة ، يا قليلة الأدب ، اغربى عن وجهى قبل أن ادعو الخدم ليرموك خارجا ..

ونهضت نفيسة فاقدة الوعى . وتناولت بقجة الاقمشة وقذفتها فى وجهها فانتثرت الحرائر على كتفى العروس وتحت قدميها . وتلوت على الأرض فى ألوانها الزاهية ، ثم غادرت الحجرة مهرولة وصراخ الفتاة ينطلق وراءها بأقذع انواع السباب ، وتركت الشقة فى لهوجة الفرار . وتراخت اعصابها المتوترة وداخلها ارتياح غريب . وكاد يغلبها الضحك ولكن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما انقلبت واجمة متفكرة وبدا لها سلوكها على حقيقته . « ما هذا الذى فعلت ؟. سيقولون كل شىء لست رتب وستقول هذه بدورها كل شىء لأمى . لا بد أن تغضب أمى وستحزن كثيرا على الربح الذى أضعت بحماقتى . ولكننى أقول لها ان العروس خاطبتنى بعجرفة ، واهانتنى بلا سبب حتى ثرت لكرامتى . واذا لم تقبل عذرى ابث شكواى بصوت مرتفع فيبلغ مسمعى حسنين فيغضب لغضبى ويثور لكرامتنا وينتهى كل شىء . هذا حسن . ولكن كيف اندفعت الى هذا !. أى جنون !. لم يكن فى نيتى شىء من هذا فكيف حدث ؟. وضاع عمل مربح . ولكن لا داعى للأسف . لدى عمل لا بأس به فى هذا الشارع نفسه . لست آسفة على ما وقع » . وانتهت الى شارع شبرا ولم يعد يرى من شعاع الشمس الا اثر خفيف فى أعلى الدور . وسارت على الطوار فى اتجاه المحطة فمرت فى طريقها بجراح لاصلاح السيارات ، وكانت غائبة عما حولها فى تيار أفكارها ، فما تدرى الا وشخص يعترض سبيلها وهو يقول

« أهلا وسهلا » ورفعت راسها فرات شابا ذا بنطلون وقميص خاكيين . مشمرا عن ساعديه . يدل مظهره على أنه من عمال الجراج . فالقت عليه نظرة شذراء وتنحت عن موقفه . ولكنه اعترض سبيلها مرة اخرى وقال :

ـ حلمك يا ست هانم ، انظرى الى يسارك . هذه السيارة ملك العبد لله . وهى على قدمها تستطيع أن تحملنا الى اى مكان شئت . محسوبك محمد الفل صاحب هذا الجراج ولا فخر !

فصاحت به :

ـ ابعد والا ناديت العسكرى ..

فضحك الشاب وقال :

ـ لا داعى لذلك . انا أحب النسوان ولا أحب العساكر ..

٣٦

فى الأسابيع التالية ادى الشقيقان امتحان النقل ختام العام الدراسى . وكلل اجتهادهما بالنجاح فانتقل حسين الى السنة الخامسة . وحسنين الى السنة الرابعة . كانا يعلمان أنه لا بد لهما من النجاح ، وأن حال الأسرة لم يعد يحتمل العثرات ، فواصلا العمل بعزيمة صادقة وجاءت النتيجة كما يحبان . وبدأت العطلة الصيفية التى تمتد حوالى الخمسة الأشهر فاستجدت متاعب جديدة للأم تتعلق بغداء الشابين . وكانت الأم وابنتها تقنعان عادة بأبسط الطعام ، وتعتمدان فى الغالب على ما تجلبان من السوق من طعام جاهز اقتصادا لنفقات اللحم والسمن والوقود ، فوجدت المرأة نفسها مضطرة الى تعديل هذا النظام القاسى مهما كلفها الأمر من عناء وتدبير . وهكذا لم يسر أحد بالنجاح الا قليلا ، وبدت الحياة وكأنها تزداد مع الأيام تجهما وتطالعهم

بعبوس بعد عبوس . وفى ذات مساء جاء حسن بعد انقطاع دام ثلاثة أسابيع متواصلة . واقبل على أسرته ضاحكا . كعادته . وكثيرا ما يدارى بضحكته حرجه وارتباكه . وقال :

ــ مساء الخير يا امى . مساء الخير يا اولاد . اوحشتمونى كثيرا ..

ورد اخوته التحية وهم يرمقونه بدهشة . اما أمه فلبثت تنظر فيما بين يديها معلنة على سخطها بالصمت والتجاهل . بيد أنها عدلت عما كانت تلقاه به من التعنيف والحساب أو الحث على العمل . هيهات ان يجدى الكلام بعد ما كان . والح عليها الحزن الذى يغشى نفسها كلما فكرت فى امره او وقعت عليه عيناها . حتى السؤال عن غيابه الطويل لم يخطر لها على بال . وانها لتعلم سلفا بما أعد ــ طبعا ــ من جواب : سيقول بصوت مؤثر انه يختفى حتى يوفر عليها نفقة اطعامه وايوائه ، وانه لا ينى عن البحث عن عمل الخ . اما اخوته فالحق أنهم سروا برؤيته بعد اختفائه الطويل . كانوا يحبونه كما كان يحبهم ، وسألته نفيسة :

ــ حمدا لله على السلامة . أين كنت طوال هذه الأسابيع ؟

وخلع الشاب سترته وطرحها على المكتب ، ثم جلس على الفراش وقال باسما :

ــ أكل العيش يحب التعب ! (ثم ملتفتا الى امه) .. ابشرى يا ست أم حسن . اخذت تفرج !

فرفعت الأم رأسها ونظرت صوبه بريبة واهتمام معا ، ثم تمتمت فى شىء من الأمل :

ــ حقا ؟!

فضحك سرورا باثارته لاهتمامها بعد ما لاقى من تجاهلها وقال :

ــ سبق ان اخبرتكم بأن الأستاذ على صبرى ضمنى الى تخته ..

فتنهدت الأم فى جزع وقالت :

ــ لا اعتقد ان هذا عمل جدى ..

ــ لقد دعى الأستاذ منذ اسبوع الى احياء ليلة فرح ببولاق وذهبت معه لقاء ريال غير العشاء طبعا . انى اعلم انه مبلغ تافه ولكن الرزق دأبه التمنع بدىء الأمر ..

فقالت الأم فى ضيق :

ــ اتوسل اليك للمرة الألف ان تبحث لك عن عمل جدى لخير نفسك ان لم يكن لخيرنا نحن . ما عسى أن أقول يا حسن ! الا تعلم باننا لا نكاد نشبع أبدا ؟

وخفض عينيه فى ارتباك . كان حب أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التى يخفق بها قلبه ، ولعلها الأثر الوحيد الذى تركته امه فى خلقه . وغمغم قائلا :

ــ صبرك ، لم افرغ من كلامى بعد ..

وهنا قاطعه حسنين قائلا :

ــ اتظن أن على صبرى هذا يمكن أن يكون يوما مغنيا حقا ؟!

فرفع حسن حاجبيه الكثيفين فى انكار ، وأراد أن يزيل أثر حديث أمه فقال فى مرح :

ــ سفخص على هذا البلد الذى لا يقدر ! الأستاذ على صبرى فنان كبير . ان « يا ليل » منه شفاء ودواء . هل سمعته وهو ينتقل من البياتى الى الحجاز ثم يعود الى البياتى ؟ لم يفعل هذا الا الحمولى ، وسلامة حجازى مرة أو مرتين . أما محمد عبد الوهاب فاذا خرج من البياتى فقل أن يعود اليه الا فى حفلة تالية . وليس يعيبه أنه أحيا ليلة بجنيهات معدودات فلا يزال فى أول الطريق ، والتاريخ يحدثنا بأن من كبار الفنانين من أحيا أولى لياليه لقاء بضعة أرغفة ..!!

وضحك اخوته لهذره أما الأم فتنهدت قائلة :

ــ سلمت أمرك لله !

فألقى عليها نظرة من عل وقال :

ـ لنــدع حديث الفن جانبا . المهم ان نعلمى انى ـ حيى حفلة عرس غدا ..

ـ فى تخت على صبرى ؟

ـ وحدى ! . سأحييها بنفسى !

ونظرت الأم نحوه بانكار ، وسألته نفيسة :

ـ ااصبحت مطربا حقا ؟

ـ يحدث أحيانا أن يختار احد افراد التخت من المشهود لهم لاحياء حفلة كمطرب . خطوة لها ما بعدها .. !

وسألته امه بلهجة لا تخلو من تهكم :

ـ ومن الذى دعاك لاحياء ليلته ؟ !

ـ عم جابر سلمان لاحياء ليلة زفاف ابنه سلمان .

وخفضت نفيســة عينيها وقد خبا حماسها ، وران على نفسها كدر خانق ..

ودهشت الام وخاطبت حسن متســائلة وهى تومىء الى نفيسة :

ـ بعدما حدث ؟ !

فضحك حسن قائلا :

ـ تم الاتفــاق بيننــا قبل معركة ست نفيســة فى بيت العروس ، ولم يجرؤ الرجل على خرقه !

وساد الصمت قليلا والأعين تحدق فيه فى غير تصديق ، كان فى صوته حلاوة ولكن ليس للدرجة التى تجعل منه مطربا . واخيرا سألته امه فى حيرة :

ـ احقا ما تقول ؟

ـ نعم ورحمة أبى ..

ـ أجر ؟ !

ـ خمسة جنيهات ، لك منها جنيه كامل .

وسكت حتى يتغلغل اثر كلامه فى النفوس ثم ردد عينيه بين شقيقيه وتساءل :

ــ ما رأيكما فى أن تعملا معى سنيدين فى التخت وكلاكما ذو صوت لا بئس به ؟!

وانفجر الشقيقان ضاحكين . وواصلا ضحكهما . حتى قال:

ــ يا لكما من غبيين . هذه فرصة نادرة للاشتراك فى البوفيه الحافل بما لذ وطاب من المآكل والمشارب .

ولم يكف الشابان عن الضحك فى استهزاء ، ولكن تمثل لعينيهما منظر المائدة وقد صفت عليها الأطباق . وراح خيالهما يثب من طبق الى طبق . فى عجلة . وبلا رحمة . حتى صاحت به نفيسة بحدة وغيظ :

ــ أتريد أن تجعل من شقيقيك متسولين فى بيوت البقالين؟

فقهقه الشاب قائلا لأخته :

ــ انى أدرك سر تغيظك يا ست نفيسة فان اعتداءك على العروس حرمك حق الدعوة الى هذه الليلة ، ولكن ما ذنب هذين المسكينين ؟! ليس الأمر لهوا ولعبا ولكن طيورا ولحوما وفطائر وخضرا وفاكهة وحلوى . . ففكرا ثم فكرا . .

ولم يجد لدعوته من صدى فهز منكبيه استهانة ولم يعد الكرة . كان حسن النية وأراد لأخويه خيرا ولكن حماقتهما ضيعت عليهما هذا الخير . هكذا قال لنفيسة فى أسف . ولم يشاركه الشقيقان أسفه ولكن نفسيهما اهتزتا فى حنان لذكر الطيور واللحوم والفطائر والخضر والفواكه والحلوى . ونشط خيالهما فى حسرة وألم زاد من شدتهما اقتراب وقت العشاء الذى يندر أن تعترف به أمهما . لم يكن للأسرة عشاء عادة ، وكانوا يتحامون أن يجهروا بالجوع أن يضاعفوا من تعاسة أمهم وسخطها ، فلاذ الشابان بالتخيل دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، على حين عكفت نفيسة على أفكارها . وهى أبعد ما تكون عن لذة الطعام ، ولذة الحياة عامة . ردها حديث حسن الى أشجانها ويأسها ومخاوفها ، وتساءلت فى دهشة أحقا يحيى حسن ــ شقيقها ــ ليلة الزفاف . .؟!

٣٧

وحوالى التاسعة من صباح اليوم التالى لليلة الزفاف كان حسن يسير فى ميدان الخازندار متجها الى كلوت بك حيث دعاه الأستاذ على صبرى الى مقابلته . وكان متعبا عقب سهرة الأمس التى لا زالت ذكرياتها تدور برأسه . كانت ليلة وكان جريئا ليس كمثل جرأته شيء . وقد شق طريقه فى السرادق الذى اقيم على سطح بيت عم جابر سلمان بقدمين ثابتتين حتى بلغ المنصة بين ايد تصــفق وحناجر تهتف للمغنى الجديد ، ورد تحياتهم برزانة وجلس وسط تخته المكون من عواد وقانونجى وكمانجى عملوا معه كعازفين وسنيدة معا . ثم غنى « قد ما أحبك زعلان منك » وما لبث أن لمس بنفسه الفتور الذى استحوذ على الجميع ، ولكنه واصل الغناء دون مبالاة ، واكثر من الشراب . وعند بدء الوصلة الثانية تصايح كثيرون يطلبون «فى الليل لما خلى» ولم يكن يحفظها فغنى « بستان جمالك » وسرعان ما انقطعت الأسباب بين المدعوين والمطرب ، هذا يذبح صوته بغناء لا غناء فيه وأولئك يشربون ويضحكون ثم بلغ الحرج غايته حين وقف سكران مترنحا وقال بلسان ثقيل موجها خطابه للمطرب :

ــ والله لو لم تكن فتوة لقلت لك اسكت . .

وعرفه حسن ، كان حداذا فى أول عطفة نصر الله ، وتوعده شرا ولكنه واصل غناءه « والله زمان ، زمان والله والله زمان ، زمان والله » ذكر هــذا ضاحكا وهو يحث خطاه ثم قال لنفسه : « ما كان كان . ولا داعى للأسف ما دمت قد انتزعت الخمسة جنيهات » . وليس هذا فحسب ، وهل يمكن أن ينسى البوفيه ؟ ، لشد ما أبلى فيه بلاء حسنا وقد بلغ القمة حين ازدرد حمامة

بعضهما . لم يعن اكلا ولكن كان التهاما وخطفا وسلبا وعراكا .
وبلغت المعركة ذروتها حين فرغت صحيفة اللحم البقرى فما كان منه الا ان قبض على يد المدعو الذى يليه واستصفى ما فيها من شرائح . اما حسن الختام فكان عقب انتهاء الحفلة وقد التف حوله افراد التخت يطالبونه بأجورهم فقال لهم ببساطة :

ـ أليس حسبكم ما التهمتم من طعام ؟!

ـ والأجرة ؟!

فقال بوحشية :

ـ خذوها بالقوة ان استطعتم !

وانفصلوا عنه ساخطين غاضبين يائسين . شيء واحد اسف له اشد الأسف هو ان اسرته لم تشاركه طعامه الشهى ، امه وتفيسة وحسين وحسنين . وكان بوده ان يعطى امه فوق ما اعطى ولكن تشرده الطويل علمه الحرص . على الاقل ما دامت هذه الحال . وها هو يقصد كلوت بك ، بل درب طياب بالذات حيث ينتظره على صبرى الذى مناه بضروب من العيش توافق مزاجه وتلهب حماسه . وكان على صبرى قد أخبره بأنه ينتظره فى قهوة وسط الدرب امام بيت زينب الخنفاء ، فارتقى السلم المفضى الى الدرب وحث خطاه بين بيوت مغلقة لم تستيقظ بعد . وجد الدرب كالقفر حتى المقاهى الصغيرة كان عمالها ينفضون عنها رماد سهرة الأمس . وبلغ وسط الدرب ورأى الأستاذ على صبرى جالسا امام باب القهوة فاتجه اليه وسلم وجلس على كرسى الى جانبه . لم تعد قهوة كما كانت يوما ما ، ولكنها باتت مشروع قهوة جديدة اذا صدق ظنه ، فبعض العمال يعكفون على تبييض الجدران واعدادها للحال الجديدة . قال على صبرى مزهوا :

ـ هنا حيث ترانى جالسا سنبدأ حياة جديدة ..

فتولت حسن الدهشة لانه لم يكن سمع عن هذا المشروع على كثرة ما سمع عن مشاريعه وتساءل :

ـ والتخت والافراح !

فبصق الأستاذ بصقة أصابت جدران بيت زينب الخنفاء ... بهما ـ وكان لا يزال مغلقا ـ ثم قال :

ـ سيعمل التخت فى هذه القهوة . أما الأفراح فربنا يجعلها مآتم . انتهى زمان الأفراح . ولا نسمع الآن الا عن « حفل عائلى اقتصر على آل العروسين » والراديو احتكرته أم كلثوم وعبد الوهاب وشرذمة من المطربين المختصين بالنشاز ، وهيهات أن يكون لنا عيش فى هذا البلد ..

فقال حسن متظاهرا بالاستياء :

ـ صدقت يا أستاذ (وسكت لحظة ثم تساءل) ولكن ماذا يفعل التخت هنا ؟

فمد الأستاذ ساقيه فبلغتا منتصف الطريق الضيق وقال مشيرا الى القهوة التى يعدها العمال :

ـ اليك قهوة بالنهار ، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان ... ست زينب الخنفاء ـ وهى على فكرة شريكتى ـ وبين ساعة وأخرى اغنى ، مجال العمل واسع ، والرزق مضمون . ولكن عليك بحفظ اغانى عبد الوهاب يا جلو ..

ـ لا اكاد احفظ منها شيئا !

ـ لا بد مما ليس منه بد . وطقاطيق أم كلثوم ايضا ، هذا حكم الزمان !

فقال حسن ضاحكا :

ـ ربنا معنا .

فقال على صبرى باطمئنان :

ـ انى متفائل خيرا . هذا المكان مبارك ، وهو أصل ثروة محمد العربى نفسه .

وتساءل حسن من أين للأستاذ الثروة التى يبدأ بها هذه الحياة الجديدة ؟... زينب الخنفاء ؟!. هى فوق الأربعين على

احسن العروض. وليس بها من جمال فيما عدا جسمها البقرى. ولكنها لقية وذات ساعدين مثقلين بالذهب . لا داعى للحسد ما دام سيحظى بنصيبه من هذه الثروة . فرجت . ولعل ليالى التسكع والجوع قد غارت الى غير رجعة . ثم سمع الأستاذ يقول :

ــ ولكن عملك كسنيد ثانوى بالقياس الى ما ينتظر منك !

ــ وماذا ينتظر منى ؟

القى سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقا بما ينتظر منه . فقال الأستاذ :

ــ انك أدرى الناس بهذه الأحياء ، ففى كل متر مربع بلطجى او برمجى او سكير عربيد فمن لهؤلاء ؟ .. انت ! وهناك المخدرات وتجارتها فن هائل يتطلب مهارة وقوة وجراءة فمن لها ؟ .. انت !

وابتسم حسن ابتسامة عريضة ، ظلت مرتسمة على شفتيه طويلا . وداخله سرور وحماس وفخار . هذه هى الحياة حقا ، حياة تدب تحت مهاوى النبابيت ومساقط الكراسى وفى دهاليز الغرز ، حيث السماء ذهب والأرض أشواك والطريق مسارب شتى يفضى بعضها الى اللذة والعزة وبعضها الى السجن والموت فهاهنا وطنه ومراحه ، وما هو بالغريب فى هذا الدرب المتعرج المتلاطم الشرفات ، حيث تختلط آهات الدلال بعواء العربدة ، وأريج البخور بعرف الخمور ، وسباب المتعاركين بقىء المخمورين ، الى غناء وعزف وقصف . بوسعه أن يقضى بين احضانه أعمارا دون ملل ، يأكل ويشرب ويربح ويسكر ويحشش ويغنى . واشرق وجهه بنور الأمل والقى على ما حوله نظرة . كان السكون يتبدد تحت وقع اقدام القادمين ، فهذه ضحكات ممطوطة ، وأرداف متأرجحة ، ونظرات فاجرة عارمة . وفتحت الأبواب وأحرق البخور ، وصفت المقاعد ، وطقطقت ضحكة ولعلعت أخرى .. صباح الخير ..

قال حسنين بتأثر :

ــ شكرا للصيف !

فتساءلت فى حياء وهى تدرى ما يعنى :

ــ لماذا تشكر الصيف ؟

ــ لأنه جردك من معطفك السميك فتبديت فى فستان يجلو محاسنك ومفاتنك ..

فتورد وجهها . وقطبت تدارى لمعة السرور الذى يبعثها الثناء . وقالت :

ــ ألم انهك عن هذا ؟!. لا تفتأ تتمادى فيما يضايقنى ..

واصغى اليها على شفتيه ابتسامة حائرة ، وعيناه تلتهمان جسمها البض بارتياح . فستان مؤدب محتشم ولكنه على تحفظه يكشف عن الساعدين وأسفل الساقين والعنق الرقيق الشفاف . ويشى بقسمات الجسم اللدن المدملج .. ثم علق بصره بالشربية الدفيقة المكورة فوق الصدر صورتها الخياطة حقا لثديين ناهدين تكادان لشدة نهوضهما تطيران لولا ما يمسكهما من صدر أبيض صاف ، تخيل أنه يدغدغهما بأنامله فانبعث فى جسده قشعريرة الرغبة . وتخيل أنه يشد عليهما وانهما يقاومان الشد بصلابتهما فازدرد ريقه فى ظمأ . ولكنها لا تريد ولا تتسامح وتصر على عنادها بغير هوادة . وكان يظنها تلين مع الزمن ولكن لم يعد ثمة أمل وقال بحزن :

ــ بهية، انك تتكلمين بقسوة شأن من لم يذق قلبه الحب..

ولاحت فى عينيها نظرة اعتراض وقالت :

ــ انى أنكر الحب الذى تريد ، وانك تسىء فهمى عمدا ..

ـ ولكن الحب واحد لا يتجزأ ..

فقالت باصرار وحدة :

ـ كلا . كلا . لا اوافقك على هذا الرأى ..

فتنهد فى قهر والقى بنظره الى الأفق البعيد . كانت الشمس قد توارت سخلفة وراءها هالة حمراء مترامية . أقصاها حمرة دامية . تخف عند الوسط كأنها تقطر من ورد مصفى . ثم تشحب عند أطرافها الدانية حتى تبتلعها زرقة عميقة صافية تنمنمها هنا وهناك سحائب رقاق كتنهدات وانية . وارتد بصره الى وجهها وقال برجاء :

ـ انى أحبك ، وانى خطيبك . وما أريد الا ان يحظى حبنا بحقه من الحياة البريئة ..

فتجلت فى عينيها الحيرة . وبدت حينا وكأنها تتعذب . ثم قالت :

ـ لا أستطيع ولا أريد ..

فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال :

ـ انك تدفعيننى الى أحضان وحشة غريبة لا أطيقها . انى أتحرق الى ان أطبع قبلة على شفتيك وأن أضمك الى قلبى . هذا حقى ، وحق حبنا ...

ـ كلا ، كلا انك تخيفنى .

ـ الا تحبيننى ؟

ـ لا تسأل عما تعلم ..

ـ انى اعجب الا تودين حقا أن تنطبع شفتاى على شفتيك ؟

فنفخت فى غيظ قائلة :

ـ يسرك بلا شك أن تغيظنى !

ـ وان تستنيمى الى دقات قلبى وذراعاى تشدان على خاصرتك ؟

فأعرضت عنه عابسة ، فقال فى ضيق :

ـ اذا لم يكن هذا هو الحب فما هو ؟

فغمغمت فى توسل :

- كما كنا طوال العهد الماضى ..
- لقاء وحديث واحتراق ؟!
- لقاء وحديث فحسب .
- تكذبين على نفسك .
- سامحك الله .
- او تحبين بلا قلب !
- سامحك الله .

فضرب الأرض مغيظا محنقا وجعل يذهب ويجىء أمامها فى حيرة وعبوس . فبدا فى وجهها القلق وقالت :

- اعتقد أنك تناسيت طلباتك المزعجة وطبت نفسا بحياتنا الوديعة اللطيفة فما الذى ينزع بك اليوم الى الحاحك المخيف القديم ؟. كن طفلا مهذبا وامسك عن الالحاح والطمع . الحب الحقيقى لا يعرف هذا العبث ..

فهز راسه فى قهر ويأس وعجب . وما أدراها بالحب الحقيقى!؟ أى لغز !؟ اتحبه حقا ؟ لا يسعه ان يشك فى هذا ، ولكنه حب لا يفهمه ، او انه لا يستطيع فهمها هى . يا لها من شابة رزينة هادئة . عينان زرقاوان صافيتان ، ليس فيهما ذرة من شيطنة أو خفة ، ولا حرارة ، باردتان . ومن عجب أن يكون هذا الجسم الفتان لصاحبة هاتين العينين الهادئتين الباردتين . ان نار الحب لا تروى بالماء ولكن بنار مثلها أو أشد منها . وهكذا يمضى اليوم كما مضى الأمس وكما يمضى الغد ، بلا أمل . وكثيرا ما يبدو له أن حديث الحب يزعجها ويقلقها ، وانها تسترد طمأنينتها حين يئوبا الى الصمت ، أو الى حديث آمالهما البعيدة ، وهى لا تمل الحديث عن هذه الآمال ، وبه تنسى نفسها والزمان والمكان ، فتشع عيناها نورا بهيجا ، وتندفق فى أطرافها حيوية جديدة . وفى هذه الساعة يحبها بمجامع قلبه بيد أنه حب لا يخلو من كدر ، أو من غيظ وحنق فى بعض الأحيان ، وينقلب متسائلا

لماذا لا ينسرح صدرها أيضا بالحب نفسه ؟ لماذا تخافه وتجفل من ذكره واشارته ؟ والام يبقى هذا الحجاب قائما بينه وبينها ؟.

وتفرس فى وجهها طويلا فيما يشبه الخنق ثم تساءل :

ـ هل أكابد هذا الحرمان الى الأبد ؟

وابتسمت ـ على رغمها ـ وقد زادت الإبتسامة من حقده وقالت :

ـ ليس الى الابد . . !

وشعر برجفة فى قلبه . رنا اليها لا يحول عنها عينيه ثم قال باقتضاب :

ـ الزواج ؟!

فخفضت عينيها حتى لم يعد يرى الا جفنين مسدلين وخدين موردين . وحينذاك شبت بنفسه رغبة فى الانتقام والايذاء ولو باللسان فقال :

ـ واذا تم الزواج بذلت لى ما تتمنعين عنه بنفس راضية أليس كذلك ؟ تهبيننى شفتيك وصدرك وجسدك وتنزعين عنك ثوبك فتبدين عارية كالبلور . .

ولكنها كانت قد غادرته كأنها تفر وحثت خطاها نحو باب السطح . وكانت الكلمات تقذف من فيه بحرارة وحنق وتشف .

٣٩

اصبحت قهوة على صبرى ملهى صغيرا بما تحفل به من غناء ورقص وخمر ؛ وقد ركبت على هامتها لافتة كبيرة سطر عليها بالخط العريض «على صبرى» . وأقيمت فى نهايتها من الداخل منصة للتخت . ونضدت الموائد والكراسى على الجانبين وبحذاء مدخلها . وكان الأستاذ على صبرى قد انتهى من الوصلة الأولى

وآنس الجلوس بكئوسهم وسمرهم . حين جاء زنجي — طويل رشيق مفتول العضلات بتطاير الشرر من عينيه — فوقف على عتبة القهوة وصاح بصوت وقح مرتفع :

— أين صاحب القهوة ؟

فجاءه الأستاذ على صبرى مداريا دهشته بابتسامة باهتة وتساءل :

— أفندم ؟

فقال الزنجى بتحد :

— سمعت أن لديك أقدر خمر توجد فى هذه الناحية . ولما كانت الخمر الجيدة لم تعد تؤثر فى .. فقد قصدتك لأسكر ..!

وأزاحه عن سبيله بحركة غليظة واتجه صوب مائدة يجلس اليها نفر من الأفندية فالقى عليهم نظرة وحشية وقال بلهجة آمرة:

— اخلوا هذه المائدة !

ولم يسع الأفندية الا أن ينهضوا صامتين وغادروا القهوة . فجلس الزنجى على كرسى وطرح ساقيه على كرسى آخر وهو يتفرس فى الوجود بتحد وقحة . واقترب صبى القهوة من الأستاذ على صبرى وهمس فى أذنه قائلا :

— محروس الزنجى . فتوة رهيب يعرفه الحى كله ..

فسأله الأستاذ بقلق :

— ترى هل يمكث طويلا ؟

— انه يرتاد ما يشاء من القهوات فيأكل ويشرب دون أن يجرؤ أحد على مطالبته بثمن شىء مما يلتهمه ، ولعله جاء ليعرفك بنفسه ، أو لعل ..

وتردد الغلام قليلا فحثه الأستاذ قائلا :

— تكلم ..

— لعل أحد أصحاب المقاهى فى الدرب اتفق معه على تخريب قهوتنا !..

واختلس على صبرى نظرة من الزنجى فرآه كالنائم . آمنا مطمئنا كأنه في بيته . وقد اخلى الزبائن الموائد القريبة منه ، فانقبض قلبه خوفا واشفاقا . ثم تراجع فى سكون الى منصة التخت حيث يجلس حسن مع بقية الأفراد . وأومأ اليــه ثم انتحى به وراء المقصف ، واسر اليه ما قال الغلام ثم سأله :

ـ الا يحسن بنا أن نستدعى المعلمة زينب الخنفاء لتعالج هذه المصيبة بحكمتها ؟

فقال حسن وهو يتفحص عن بعد الزنجى محروس :

ـ لا اوافق على أن نستغيث بامرأة . لن تجــدى هــذه السياسة فى هذا الدرب ، دع الأمر لى ..

ـ يقولون انه فتوة شديد البأس .

فابتسم حسن قائلا :

ـ هذا ما يقال عنى ايضا ولكن أهل الدرب لا يعلمون . دع الأمر لى ..

.. وخطر له خاطر فقال لنفسه ساخرا « ليست أمى وحدها التى تكابد من حياتها المر فى سبيل العيش ! » ثم قال للأستاذ :

ـ ستكون معركة شديدة . لكن هيهات أن يكون لنا عيش هنا بلا معركة ظافرة !

ـ واذا لم تكن ظافرة !

ـ اعتمد على الله وعلى ..

لن يفر من المعركة مهما تكن النتيجة ، وهل من سبيل الى رفع مكانته عند الأستاذ وفى الحى كله اذا تفادى من هذه المعركة ؟. ولعل على صبرى على حق فى تخوفه ، فالقهــوة قهوته والمال ماله . ولكن مستقبله هو يتوقف على نتيجة هذه المعركة ، وفى سبيل هذا فليذهب على صبرى نفسه الى الجحيم . ولا ينبغى ان ينسى الى هذا كله فتيات زينب الخنفاء فما من سبيل اليهن الا بنصر ان آجلا أو عاجــلا ، فحظه فى الحيــاة ، وربما حظ

أسرته المنهارة ـ خطرت له هذه الخاطرة كالمعنى المداعى ـ يتوقفان على خوض المعركة .

وتحرك الزنجي محروس وهو يتمطى ويتجشأ ثم صاح بو حشية:

ـ أين الكونياك القذر الذى حدثونا عنه كثيرا ؟!

وغادر حسن موقفه فى ثبات وهدوء واقترب من الزنجي بخطو وئيد حتى وقف امامه ، ثم قال بهدوء :

ـ سلام عليكم !

فرفع الزنجي عينيه الملتهبتين صوبه فى تكبر ، وتفحص جسمه الصلب وعينيه البراقتين بريبة وشر ، ثم عبس فى حنق فاستحال وجهه هيئة غير آدمية وصاح به :

ـ وعليك وعلى أمك اللعنة ، ماذا تريد ؟

وحافظ حسن على هدوئه الظاهرى ، وقال بنبرات واضحة:

ـ سمعتك تهتف طالبا كونياك فرأيت من واجبى ان اخبرك بأن الدفع هنا مقدم . .

فسحب محروس ساقيه من الكرسى امامه واغرق فى ضحك طويل مفتعل وهو يضرب على ركبته من شدة الانفعال ، ثم اخذ يهدىء من انفعاله حتى ذهب عنه الضحك ، ورمى ببصر هازىء الى الشاب ، وتساءل ساخرا :

ـ حامى القهوة ؟.. هه ؟

فقال حسن بهدوء :

ـ واحب ان أقول لك ايضا ان هذه المعاملة خاصة بالزبائن غير المحترمين ..

ومرت ثوان . وفى اثنائها كان الزبائن القريبون يتدافعون الى خارج القهوة ، وامتلأ الطريق فيما يلى مدخل القهوة بالمارة والنسوة من كل لون وسن ، على حين نشط عمال المقصف الى اخفاء القوارير وما يخافون عليه التلف من الأكواب والآلات الموسيقية وغيرها . وجمد محروس وعلى شفتيه الغليظتين بسمة هازئة ،

ثم دفع قدمه بغتة بقوة فاصابت ساق حسن اليسرى فمال مترنحا الى الوراء . كان يراقبه بيقظة وحذر بيد انه ركز انتباهه فى يديه متوقعا ان يقذفه بشيء او يشهر عليه خنجرا فلم يتنبه الى قذيفة قدمه حتى كانت منقضة عليه. فانكمش متماسكا . وتفادى بهذا من السقوط . ولكنه مال الى الوراء مترنحا وهو يعض على نواجذه ليتغلب على الالم الذى بعث جنون الغضب فى دمه . ولم يدعه الزنجى ثانية واحدة فوثب عليه كمن يثب الى الماء . وخاف حسن ان يؤخذ فريسة سهلة فامسك عن مقاومة الميل الى الوراء وقفز الى الخلف بسرعة عجيبة فاصطدم بجدار القهوة زائغا من خصمه الجبار . ولم يسمح له الزنجى بثانية يتمالك فيها توازنه فانقض عليه موجها ضربة الى بطنه فحال الآخر دونها بيديه . ولكنها كانت ضربة خادعة قصد بها محروس ان يكشف خصمه عن عنقه . وبسرعة البرق قبض بيدين حديديتين على رقبته وضغط بوحشية ليكتم انفاسه . وبدا للجميع أن المعركة فى حكم المنتهية . ودارت الأرض بعلى صبرى . وابيضت وجوه رجال التخت والعمال ، وتبادلوا نظرات زائغة لا تخلو من دعوة الى العمل . ولكن احدا منهم لم يحرك ساكنا . أما الفتيات فشرعن فى الصوات استقبالا للجثة التى ستقع . وتأكد حسن بعد تمكن خصمه من عنقه — وفى بدء غيبوبته — بأنه لا قبل له بفك الحصار القاتل . وانه مائت لا محالة اذا توانى . فعض على نواجذه وشد على عضلات رقبته ليركز فيها قوته . ثم ثنى ساقه اليمنى وطعن اسفل بطن خصمه بركبته بكل ما تبقى فيه من قوة . وشعر فى اللحظة التالية بتراخى قبضة الزنجى حول رقبته فاستطاع أن يتنفس وهو يرتجف حقدا وحنقا ، ثم ثناها بطعنة اخرى. حدث هذا كله فى نصف الدقيقة الأولى لمحاولة كتم انفاسه . وانفك الحصار . وتراجع محروس بوجه تنعقد فى عبوسته الضغينة وعينين تغشى نظرتهما الحمراء سحابة ذهول قاتمة . ولم يضع

حسن وقنا مطمئنا الى سيطرته على الموقف فانقض على خصمه الذى بذل مجهودا جبارا للتغلب على آلمه ونطحه بجبهته بقوة خارقة فى رأسه . مرة أخرى . فكان لاصطدامهما طقطقة تقشعر لها الأبدان . دون ان يثنيه عن هدفه ما كال له الآخر من اكمات مزلزلة . وتفجر الدم من رأس محروس وسال على وجهه كأنه لهب ينبعث من قطران . وبدا وكأنه يترنح من دوار ، وتغلب حسن على آلام ساقه وعنقه وصدره ووجه لعنق خصمه المكشوف ضربة من حافة كفه — كالسكين — فشهق الزنجى وسقط على الأرض غائبا عن الوجود . وقف حسن عند رأس خصمه وصدره يعلو وينخفض . تهزه نشوة الظفر . وتهرس عظامه آلام قاسيةأخذ صراخها الباطنى يتعالى بعد زوال الخطر . ولعله لو غابت الأعين لارتضى أن يرتمى الى جانب خصمه ولكن اقام ظهره الأبصار المتطلعة اليه فتجلد وتماسك ، وانثال على اذنيه صراخ وغوغاء وضجيج ، وشعر بحركة غريبة تسرى فى القهوة كلها ، ثم احس بيد توضع على كتفه ورأى الأستاذ على صبرى يبتسم اليه بوجه تعلوه صفرة الموت ، وسمعه يهمس فى اذنه :

— تعال معى أقدم لك كأسا من الكونياك ..

فسار معه دون أن ينبس ، وجلس على كرسيه على منصة التخت وجاءه الرجل بكأس مترعة فتجرعها ، وطلب أخرى فاحضرها له ، ثم قال باشفاق :

— لشد ما تعبت !

فغمغم حسن بثقة :

— كانت معركة لا بد منها .

وجاء النادل يقول ضاحكا :

— أطلق الناس عليك لقب « الروسى » لانك صرعته برأسك!

وشعر حسن برغبة فى تحاشى الأنظار ، فقال لعلى صبرى :

— دعنا نمح أثر المعركة فابدأ الوصلة الثانية ..

٤٠

استعاد حسن توازنه بفضل قوته وحيويته واعتياده العراك يوما بعد يوم . وكان الليل قد جاوز منتصفه بساعة أو أكثر ، وأخذت قهوة « على صبرى » تلفظ آخر المترنحين من روادها . واطفئت الأنوار الخارجية فى الدرب فساده شبه ظلام ومضت البيوت تغلق أبوابها مفتتحة سهراتها الداخلية التى لا تنتهى عادة قبل الفجر ، على حين مر شرطيان يهزان الارض بوقع اقدامهما الثقيلة . وكان حسن يجلس على كثب من على صبرى فى نهاية القهوة يعلقان على ايراد الليلة حتى قصدهما غلام يعمل نادلا ببيت زينب الخنفاء فحياهما ثم مال على اذن حسن وهمس باسما :

ـ بعضهم يريدك ..

وسمع على صبرى ما همس به الغلام فلاح الاهتمام فى وجهه وتمتم :

ـ امرأة ؟ !

فقال حسن بعدم اكتراث :

ـ اظن هذا ..

ـ الا تفضل مثلى الحب الطيارى ؟

فابتسم حسن ابتسامة ذات معنى وقال :

ـ لكنه حب لا نفع فيه . انتظر وسنرى ..

وودع الأستاذ وقام ثم تبع الغلام الى البيت الذى يواجه القهوة ، وطرق الغلام الباب ففتح عن شق فى حذر فمرق منه الغلام وتبعه حسن ، ثم أغلق الباب . ووجد حسن نفسه فى مدخل البيت وقد انتشرت على الكنبات بأركانه فتيات ، انتحت كل برجل تشاربه وتداعبه ، وعلى كرسى فى الصدر جلس رجل

ضرير ينفخ فى الناى ، على حين اتخذت المعلمة زينب الخنفاء مجلسها على أريكة عالية ملتفعة بملاءتها السوداء وعلى وجهها برقع ذو عروس ذهبيـة كبيرة تخفى به انفها المتآكل . والقى حسن على الحاضرين نظرة متفحصة فلم ير فتاة خالية . ولكن الغلام مال الى الستار المسدل على مدخل السلم وأزاحه ودخل فتبعه . وارتقيا الأدراج معا فى سكون حتى تساءل حسن :

ـ من هى ؟

ـ الست سناء ..

وذكرها لتوه ، امرأة عرفت بسمرتها العميقة وشعرها الجعد وجسمها المكتنز ، واشتهرت بشفتين غليظتين وعينين دعجاوين وكانت تجلس سحابة النهار على كرسى عند مدخل البيت واضعة ساقها على ركبتها كاشفة عن فخذها حتى السروال الحريرى الأبيض . وانتهيا الى الدور الثانى وسارا فى دهليز طويل يفضى الى صالة صغيرة تحدق بها أبواب ثلاثة ، ومضى الغلام الى الباب الأوسط وطرقه ثلاثا فجاء صوت له رنين النحاس يهتف :

ـ ادخل ..

ودفع الغلام الباب قليلا وتنحى جانبا فتقدم حسن الى الداخل وقبل أن يرد الباب وراءه شعر بيد الغلام تربت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد :

ـ اقرأ لنا الفاتحة ..

واغلق الباب فوجد نفسه فى ظلام دامس . وحدثته نفسه أن يتحسس وضع الزر الكهربائى ليضىء الحجرة ولكن سرعان ما عدل عن خاطره ، ووقف مستندا الى الباب منتظرا أن تألف عيناه الظلام . وساد صمت شامل حينا ثم مضت أذناه تلقطان حس انفاس تتردد ، فصغى اليها مبتسما ، وتوقع قولا أو فعلا ولكن لم يحدث شىء . واتجه على مهل الى يساره متسمتا الأنفاس المترددة حتى مست ركبته شيئا صلبا ، جسه بيده ،

فادرك انه حافة فراش خشبى . ووقف ينظر الى اسفل بعينين رافتين حتى شفت الظلمة الشاملة عن كتلة مظلمة ممتدة لا تبين لها معالم . وهوى بابهامه رويدا رويدا حتى انغرست انملته فى لحم طرى ثم انبعثت تحت اصبعه رجفة وندت عن الظلمة ضحكة مكتومة . .

***

ثم اضاء النور واخذ يرتدى ثيابه . وأخرج من جيبه نصف ريال ووضعه على الفراش والمرأة تراقبه بعينين ضاحكتين ، ثم وثبت الى أرض الحجرة وسارت بجسمها العارى الى صـــوان ففتحتـــه وعادت بورقة من ذات الخمسين قرشا وحطتها فوق نصف الريال دون أن تنبس بكلمة ، فتساءل ضاحكا :

ـ أهو الباقى ؟

فقالت بهدوء :

ـ أجرك !

وأتم ارتداء ثيابه فى هدوء متظاهرا بعدم الاكتراث ضابطا عواطفه حتى لا ينم وجهه عن فرحه ، ثم تناول النقود ودسها فى جيبه . وسألته وهى ترمقه بنظرة عميقة :

ـ ترافق ؟

فقال مستعينا بالكذب :

ـ لى رفيقة !

فتساءلت فى اهتمام بدا فى لمعة عينيها :

ـ فى هذا الدرب ؟

ـ فى الآخر .

ـ افرنجية ؟

ـ بنت عرب !

وساد السكون دقيقة . ثم سألته :

— الا تزال لك فيها رغبة ؟

فلم يشأ ان يجيب بلا أو نعم . قانعا بابتسامة ذات معنى . فسألته ضاحكة :

— اين تقطن ؟

— شبرا .

— ما ابعدها عن مكان عملك . هل ثمة ما يضطرك الى المبيت هناك ؟

— كلا ..

— مسكنى قريب فى عطفة جندب بكلوت بك . تعرفها ؟

— سوف اعرفها من الآن فصاعدا ..

٤١

كانت الشمس تميل الى الغروب حين غادرت نفيسة بيت احدى زبائنها بشارع الوليد ، وكان يلوح فى وجهها الضيق ، وهى حال لاتفارقها اذا خلت الى نفسها ، ولكن زادها تعاسة انها لاتجنى من عملها الا مبالغ زهيدة تبتلعها حاجة أسرتها الشديدة فلا تكاد تبقى لها على شيء . وكانت الى هذا تبدو فى مظهر جديد ينم عن تغير ذى بال ، فتزينت فى فستان برتقالى مزخرف بأزهار البنفسج أعلن عن جسمها الطويل النحيل ، وأخذت زينتها فى غير تحفظ . وسارت وشارع الوليد حتى انتهت الى شارع شبرا ، وانعطفت مع الطوار وهى ترمى ببصرها الى الجراج عن بعد فدبت فى قلبها يقظة وحيوية . وأعادها منظر الجراج — وصاحبه محمد الفل — الى ذكريات صراع عنيف نشب فى نفسها فى غير ما رحمة ولا هوادة

طوال الاسابيع الماضية . وجعلت تقدم رجلا وتؤخر أخرى حتى توقفت عن السير تماما ، وعقل الخوف قدميها ، ومع أنها كانت قد انتهت من ترددها المعذب الى نهاية ، الا أن الخوف ركبها وهى تخطو الخطوات الأخيرة . « الا يحسن بى ان استزيد من التفكير ؟ كلا . كلا ، لن أجنى من التفكير الا وجع الدماغ . سيعترض سبيلى كما يفعل كل مساء . لا استطيع ان أنكر اننى ابتسمت لدعاباته فماذا بعد هذا . فات اوان التراجع . وهو لا يخفى دواعيه ولا مقاصده ، ولست أجهلها ، انى أدرك كل شىء ، أدرك لماذا يدعونى الى سيارته ، لا يحاول خداعى كما فعل غيره ، فالأمر واضح ، فهل اقدم على هذا ؟. لماذا يتعلق بى ؟ لست جميلة ، وهيهات ان يغير هذا الزواق من الحقيقة شيئا . ولكن الدمامة نفسها سلعة لا بأس بها فى سوق الخلاعة ، وعشاق اللذة — أو بعضهم — لا يرعوون عن مطلب . هذه هى الحقيقة . الزواج أمره مختلف اما اللذة فلا اختلاف عليها . هل أدع نفسى تهوى ! ولماذا امنعها ؟. لن اخسر جديدا . ليس ثمة ما اخاف عليه . ولكن الا يحسن أن أمد لنفسى حبل التفكير ؟ » وعاودتها ذكريات اليأس الذى أمرت غصصه ريقها ، وكيف لم يعد ثمة أمل على الاطلاق . على ان الأمر لم يكن مجرد يأس فحسب ، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التى تشتعل فى دمها ولا حيلة لها فيها . وكلما استنامت الى قبضة اليأس شكتها فى الأعماق كشوكة مستعرة . هذه الرغبة وحدها تأبى عليها ان تعتزل الحياة وتتوارى حتى كرهتها فيما تكره من حياتها . بيد أنها لم تعترف بهـا أمام شعورها ، وأنكرتها ، وقالت لنفسها انها ترضى «الهوان» فى سبيل النقود التى تمس حاجة اسرتها اليها . ولم تكن فى هذا كاذبة ، فانه حق لا شك فيه ، ولكنها صارحت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى ، وسرها — ان كان ثمة سرور — أن تبدو لعينيها شهيدة ، وضحية لليأس والفقر . وبرز الفتى عند ذاك من

الجراج ووقف يحدث بعض العمال فخفق قلبها ولم تحول عنه عيناها . وادركت بغريزتها أنها لن تتراجع فسلمت - على البعد - وهو مولبها ظهره : سلمت تسليما نهائيا ، وانتهى فى تلك اللحظة الصراع العنيف المحزن الذى نشب فى قلبها منذ أسابيع . وزفرت فى ياس وحرارة وغادرت موقفها . واقتربت منه فى خطوات وئيدة متجاهلة اياه ، حتى أحست به يعترض سبيلها قليلا بجراته المألوفة :

ـ الصخر نفسه يلين يا ست . هاك السيارة عند منعطف الطريق تنتظرك منذ اجيال .

ثم سار الى جانبها متشجعا بابتسامتها وهو يقول :

ـ كفاك تدللا ، لو كان لى صبر أيوب لنفد ..

ما ألذ الغزل ولو كذب . حال مخزية ولكنها ترد اليها اعتبارها وكرامتها كانثى مهيضة الجناح . « ليته يدرى من انا ، ومن كان ابى » . ثم سمعته يقول بلهجة تنم عن وعيد :

ـ هاك السيارة فاذا لم تصعدى اليها رفعتك بذراعى أمام الرائح والغادى .

وكانا بلغا موقف السيارة فى العطفة الثانية فقبض على يدها وفتح بالأخرى باب السيارة ، وازدردت ريقها واندفعت الى الداخل فى حركة عصبية ، وجلست ، فأغلق الباب وراءها ، ودار حول السيارة ودخل من الباب الآخر وهى لا تكاد تدرى به ، ومالت الى الوراء لتباعد بين وجهها وبين النافذة المشرفة على الطريق ، ثم غشيتها غرابة . بدا لها كل شىء غريبا خياليا لا يمت للواقع بسبب ، الطريق الذى تساقط عليه ظلمات المساء وأشباح المارة ، والسيارة الهرمة الهلهلة ، ونفسها ، وأصوات الناس ، ودوى عجلات الترام ، واستعدت ارادتها بقوة لتعود الى وعيها واسترقت نحوه نظرة وهو جالس امام عجلة القيادة بقوام فارع ووجه معروق صلب ووجنتين بارزتين وأنف ضخم صخرى

وهو عريض كفم البولدج فاعادها منظره الى عالم الحقيقة ، والوعى والأعصاب . والدم والخوف . واستخرج الرجل قارورة من تحت مقعده وفض سدادتها ثم نظر فيما حوله فى شىء من الحذر . ورفع فوهتها الى فيه وأفرغ فى جوفه جرعات غزيرة . والتفت اليها بوجه متقلص العضلات وسألها :

ـ الا تشربين قليلا من النبيذ ؟

فقالت بعجلة واضطراب :

ـ كلا . لا اتعاطى الخمر ..

فرفع حاجبيه دهشة وهو يمصمص ، واعاد القارورة الى موضعها . وبدات السيارة تتحرك وهو يقول :

ـ من الحكمة ان أشرب الآن حتى اذا بلغنا مقصدنا بلغته فى سلطنة ..

وانطلقت السيارة مقرقرة تشق سبيلها بسرعة مستهترة ، وعجبت نفيسة من جراته وبدا لها قويا جسورا ، وفى الوقت نفسه غير أهل للثقة أو الشرف . ولكن ما حاجتها الى الرجل الشريف ؟ لم تعد أهلا له ؛ ولم يعد ضالتها ، ولا تخاف شيئا فى الوجود قدر ما تخافه على نفسها . وسمعته يقول ضاحكا فى زهو :

ـ ما أطول نفسك فى التدلل !.. ولكن طالما قلت لنفسى مصير الحلو أن يقع ، وها هو قد وقع ..

ورحبت بالكلام لتهرب من أفكارها واضطرابها ، فارتسمت على شفتيها ابتسامة وتساءلت :

ـ ومن أدراك انى وقعت ؟!

فضحك ضحكة وقال :

ـ سنرى ما يكون فى صحراء الماظة ..

وتساءلت فى قلق :

ـ صحراء الماظة ؟.. هل نغيب طويلا ؟

- حتى منتصف الليل ..!

فتملكها فزع شديد تراءى لها خلاله وجه امها وشقيقيها ، وقالت بلهجة المستصرخ :

- يا خبر اسود ، يجب ان اعود الى البيت قبل العشاء !.. اوقف السيارة بربك ..

فقال بدهشة وفتور :

- حقا ؟!. لاتخافى ، سنعود قبل العشاء ، ولكن ماذا تخافين؟

- أهلى ..

فلحظها بارتياب ساخر وسألها بلهجة ذات معنى :

- اهلك !.. الا يعلمون ؟!

ووخزها قوله حتى خرم قلبها كالطعنة الحادة . اهلها يعلمون ؟ . ماذا يظن بها ؟! واندفعت تقول :

- كيف يعلم اهلى !. اخوتى طلبة بالجامعة ، وكان أبى موظفا .

وهز راسه متظاهرا بالتصديق ، وقال لنفسه ساخرا : «لا أم غسالة الا امى ، ولا اخوة صعاليك الا اخوتى ، الأمر لله» وضاعف من سرعة السيارة ليبلغ هدفه فى أقصر وقت . ومضى يستشعر حميا النبيذ فطاب نفسا وسألها :

- ما اسمك ؟

- نفيسة .

ولم يعجبه الاسم فسألها :

- لماذا لم تنتقى اسما أرشق منه ؟

ولم تفهم قصده ، وأساءت فهمه فقالت باستياء :

- انه يعجبنى !

- عاشت الأسماء يا ست نفيسة ، لا مؤاخذة ..

وأخيرا مالت السيارة الى الطريق الصحراوى تغوص فى ظلمة شاملة ، ولاحت المدينة عن بعد فى أنوارها الموصوصة كأنها مارد

جبار ذو اعين نارية لاحصر لها . واخذ يهدىء من سرعة السيارة حتى أوقفها . واطفأ مصابيحها ، وبغتة مد ذراعه حول خصرها وجذبها نحوه بعنف لم تتوقعه . فاندلقت عليه متأوهة ، ففغر فاه العريض وأطبق على فمها حتى منتصف ذقنها ، وضمها الى صدره بوحشية وأنفاسه تتردد فى انفه فى نخير محشرج ، فشعرت بادىء الأمر بألم وقلق ، ثم مضت آلامها تغيب فى ظلمة باطنية غريبة كما غاب شبحاهما فى الظلمة المحيطة الشاملة وآمنت بانها مدينة للظلام بالشىء الكثير ؛ فقد شجعها ، وفى الوقت نفسه أخفى عيوبها ، وبذلت قصارى جهدها — مدفوعة بحافز فطرى — لارضائه . ولعلها وجدت بادىء الأمر حياء الى ما تجد من قلق وخوف ولكن سرعان ما شملتها حرارة جنونية تذيب الخوف والقلق والحياء .

ثم قال لها باغراء :

— الا يحسن بنا أن ننتظر ثمرة أخرى ؟

فقالت بضراعة وهى تجفف العرق المتصبب من جبينها :

— لا استطيع ، ارجو أن نعود فى الحال . .

وتناول القارورة وأروى ظمأه بجرعات متتابعة ، ثم انطلق بالسيارة بوجه جامد ، وظل صامتا حتى بلغا ميدان المحطة ، وقال بغلظة :

— توجد ثمرة دانية ، الا نعود ؟

فقالت برجاء وجزع :

— كلا ، كلا . . لا أستطيع . .

وقطب ساخطا فجأة ، وقال بفظاعة لم تتوقعها :

— الله يقرفك ، هذه رحلة لا تستاهل البترول الذى احترق .

ووقع قوله من نفسها موقع السوط فانعقد لسانها ، وأفعم فؤادها خيبة ومرارة وخجلا ، ونظرت نحوه فى ذهول ، ولكنه لم يلتفت اليها ، ودفع السيارة صامتا ساخطا الى شبرا .

عسى أن تكون رغبته فى المزيد عـذرا ولكن أما كان يجمل به ان يترفق بها أو فى الاقل ان يمسح خشونته بكلمة رقيقة ؟. وواصل انطلاقه صامتا ، ثم عرج الى شارع جانبى لينزلها فى أمن من الأعين . وأوقف السيارة الى جانب الطوار . وتساءلت وهى تغادر موضعها عما تفعل اذا سمى لها موعدا آخر اتقبل رغم اهانته أم ترفض على رغمها ؟ وجابهتها حيرة لم تستعد لها ؛ بيد انه مد لها يده بنصف ريال وهو يقول :

ـ هذا يكفى لمرة واحدة ..

ولما رأى جمودها ترك القطعة الفضية عند قدميها وانطلق بالسيارة مخلفا وراءه ذيلا من دخان خانق ، وقرقرة مزمجرة . وركبها جنون غضب أعمى فتسمرت فى موقفها وجسمها ينتفض. واتصل انتفاضها وهى تعض على نواجذها ، ثم مضت تزفر فى عجلة كأنما تنفس عن صدرها أن ينفجر . لم يتكلف موعدا آخر . مرة عابرة . كأننى .. رباه ، مرة عابرة . ثم يرمى لى بنصف ريال ! وخطر لها خاطر فباخ غضبها وخمد ؛ وحل محله خجل وخيبة ، أجل ، ألا يجوز أنها لم ترق له ولم تعجبه ؟! هـذا محتمل . هذا مرجح . هذا مؤكد !. وامضها شعور أليم بالحزن والقهر ، ثم تنبهت لموقفها من الطوار فهمت بمغادرته ولكنها ذكرت القطعة الملقاه عند قدميها فنظرت اليها بغرابة دون أن تدرى ما هى فاعلة ، ثم ذكرت لتوها القطعة ذات الخمسة قروش التى اقترضها سلمان منها يوما على محطة الترام ، ثم يوم قادها الى مسكنه ، والظلام الدامس وشجارها معه فى الطريق ، وتغزل أبيها بخفة دمها ، ثم عاد انتباهها الى القطعة الفضية تحت عينيها ، فرنت اليها طويلا دون أن تتحول عنها . أى شىء ثمة يدعوها الى تركها ؟!..

٤٢

وفى ذات ليلة زار حسن الاسرة زيارة غير متوقعة بعد انقطاع غير قصير . وكانت الأسرة مجتمعة بحجرة الاخوة التى تتخذ منها مجلسا مختارا فى شهور الصيف . جاء هذه المرة وبيده قفة فوضعها وراء الباب واقبل عليهم مسلما ضاحكا فاستقبلوه بترحاب كالعادة . اعلنه الاخوة فى غير تحفظ ؛ أما الأم فرمقت القفة بنظرة متسائلة وغمغمت ساخرة « ايش جاب الغراب لامه » فقال ضاحكا وهو يتخذ مجلسه بينهم :

ـ لا تتعجلى . الصبر طيب ..

بيد انهم لم يلقوا بالا لقفته . ولم يكن من عادتهم أن ينتظروا خيرا منه . قالت له نفيسة :

ـ لا نراك الا كالزائر !

ـ أخوك سائح فى أرض الله الواسعة ؛ يلتقط رزقه فى جهد ومشقة . ولكن لا تعجبى اذا لم ترينى الا زائرا فقد وجدت لنفسى مسكنا !

وتطلعت اليه الأبصار فى اهتمام وسألته امه :

ـ هل هداك الله أخيرا ووجدت عملا ؟

ـ تخت على صبرى ولا شىء غيره ولكن الله فتح عليه وعلينا .

فقالت الأم بامتعاض :

ـ لا يدخل عقلى بحال أن هذا عمل بالمعنى الصحيح ..

فقال حسن مستنكرا :

ـ لم لا يا أماه ؟!!، انى فى التخت أغنى بينا فى المهن الأخرى نتشاجر كما تعلمين ..

وسأله حسين :

ـ وهل وجدت لنفسك مسكنا حقا ؟ .. أين ؟

فسكت مليا ثم سأله :

ـ ولماذا تريد أن تعرف ؟

ـ كى نزورك بدورنا !

ـ كلا . ليس مسكنى معدا للزيارة . وليس هو خاصا بى اذ يقطنه أفراد التخت جميعا . دعونا من هذا وخبرونى متى اكلتم اللحم آخر مرة ؟

فقال حسين ساخرا :

ـ الحق انا نسينا ، دعنى اتذكر قليـــلا .. تتخايل لعينى شريحة لحم فى ظلام الذكريات ولكن لا ادرى أين ولا متى .

وضحك حسين قائلا :

ـ نحن أسرة فلسفية على مذهب المعرى .

فتساءل حسن :

ـ ومن يكون المعرى هذا ؟.. أحد اجدادنا ؟

ـ كان فيلســـوفا رحيما ، ومن آى رحمته انه امتنع عن اكل اللحوم رحمة بالحيوان ..

ـ انى أدرك الآن لماذا تفتح الحكومة المدارس ، انها تفعل كى تبغض لكم اللحوم فتأكلها دون منافس ..

ونهض حسن وذهب الى حيث ترك القفة وعاد بها ووضعها امام أمه ، ثم نزع عنها غطاء من الورق فبدت تحته فخذ خروف مكتنز تتصل على سطحها حمرة اللحم ببياض الدهن . والى جانبها علبة من الصفيح متوسطة الحجم . وصاح حسنين :

ـ لا اصدق عينى ، وما هذا داخل العلبة ؟

ـ سمن !

ودبت فى الاخوة حيوية ولمعت أعينهم ، وسرت عدوى الفرح الى قلب الأم فابتسمت وتمتمت :

ـ ضمنا للغد غداء فاخرا !

وهتف أكثر من صوت :

ـ بل عشاء فاخرا الساعة .

ـ متى ينتهى طهيه ؟

ـ ننتظر حتى الفجر ..

ونهضت نفيسة فحملت القفة وسبقت امها الى المطبخ .

وكفت الأم عن المعارضة وقامت أيضا فغادرت الحجرة وهى تومىء الى حسن أن يتبعها فتبعها على الأثر مبتسما ابتسامة ذات معنى . فانتبذت به ركنا فى الصالة وسألته بلهفة :

ـ هل تيسرت سبل الرزق حقا ؟

ـ بعض الشىء ! لا أدرى ما يأتى به الغد ..

ـ هل اطمئن الى أنك ستمد لنا يد المعونة ؟

ـ كلما واتانى الرزق . أرجو هذا ..

وصمتت لحظة ثم سألته :

ـ أين تقطن ؟

وكان يعلم أنها تفهمه فهما لا يجدى معه الكذب فقال :

ـ عطفة جندب بكلوت بك رقم ١٧ .

فسألته بعد تردد :

ـ امرأة ؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال :

ـ نعم .

ـ زواج ؟

فضحك مرة أخرى وتمتم :

ـ كلا ..

ولم ير فى الظلام ما ارتسم على وجهها من امارات الامتعاض، ولكنها كانت قد يئست منه من زمن بعيد فأعفت نفسها من لومه أو نصحه ، بيد أنها سألته باهتمام وحرارة :

ـ أليس رزقا شريفا ؟

فقال بلهجة مطمئنة وتوكيد :

ـ بلى . لا نشكو فى هذا .. اننا نحيى أفراحا كثيرة ونغنى فى المقاهى والصالات ..

٤٣

وانقضى عام آخر . وواصلت الحياة سيرها لا تلوى على شىء ، ومضى كل فرد من افراد الأسرة فى سبيله بما يلقى من خير وشر . ولو أتيح للأب ان يعود الى الحياة لأزعجته الدهشة لما طرأ من تغير على أسرته شمل الأرواح والأجساد والصحة ونظرات الاعين . ولكن كان حتما سيعرفهم ، سيعرف أن المرأة هى زوجه وأن الأبناء أبناؤه ، أما الذى كان ينكره ، ولا يعرفه مهما اجهد ذاكرته فهو البيت . اختفى الأثاث أو كاد ، فلم يبق بحجرة الاستقبال الا كنبة وبساط باهت ناحل كان مفروشا بحجرة نوم الأم ثم وضعوه بحجرة الاستقبال بعد بيع سجادتها ، واقتصرت غرفة الأم على كنبتين يستعملان نهارا للجلوس وليلا للنوم ، وخلت الصالة ـ حجرة السفرة قديما ـ فبيع البوفيه والمائدة والكراسى ، وانتهى بهم الحال الى تناول طعامهم على صينية مقتعدين الأرض ، بل بيع فراش حسن . ولولا الضرورة القصوى لبيع الفراشان الباقيان . كانت حياة شاقة عسيرة ، ولولا حزم الأم ، وحسن تدبيرها ، لما نهض المعاش وكسب نفيسة القليل بضرورة المسكن والمأكل . اما حسن فلم تتعد معونته لأسرته زيارات متباعدة كانت للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها الطعام والأمل ، وربما ابتاع لأمه من آن لآخر جلبابا أو منديلا أو بعض الثياب الداخلية ، وفيما عدا هذه الأويقات فلم يكن يراه أو يسمع به أحد . وكان يعتذر لأمه بمشاق الكفاح وقلة الرزق ، ولم يكن فى اعتذاره غلو دائما . والحق أنه وجد الحياة أشق مما كان يتصور . كان يغنى فى تخت على عسرى ، وينبرى للعراك اذا دعا الداعى ، ويتجر

بالمحدرات فى حدود ضيقة . وفى حوزته امرأة لا بأس بجمالها ونقودها . ولكن ظل كسبه دون ما كان يحلم به بكثير فضلا عما أوجبته حياته عليه من الانفاق السخى ليظفر بقلوب أعوانه ، وليظفر بالمظهر اللائق به . وكان النزاع بين ضروريات حياته وانانيته من ناحية وحبه لاسرته من ناحية اخرى لا يهدأ بنفسه ؛ تتغلب ذاك حينا . ويتغلب هذا فى أغلب الاحيان ، يمسك يده مستسلما لتيار حياته الجارف . ثم يجود بما فى طوقه ، ويتمنى كثيرا لو يرد اسرته الى سابق عهدها بالحياة ، ثم ينسى أسرته فى خضم مغامراته . ثم يعود الى تذكرها فى ندم وألم ، وهكذا الى غير نهاية . ومهما يكن من أمره فلم تجد فيه الأسرة الرجل الذى يقبل عثرتها او يأخذ بيدها وان تنسمت فى زياراته نسائم الترفيه والراحة . الأم وحدها كانت عصب حياة الأسرة . وفى سبيل الأسرة انهد حيلها وهرست فى عامين كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان . فنحلت وهزلت حتى استحالت جلدا وعظاما ، بيد انها لم تستسلم للمحنة . ولم تعرف الشكوى ، ولم تتخل عن سجاياها الجوهرية من الصبر والحزم والقوة . وكانت تعمل النهار كله . تطبخ وتغسل وتكنس وتمسح وترتق وترفو ، وترعى ابنيها خاصة . تراقب لهوهما ، وتحثهما على العمل ، وتفض نزاعهما التافه . وتكبح من نزواتهما . خصوصا طفلها المتقلب حسنين . وبين هذا وذاك تعكف على التفكير فى الحاضر والمستقبل ، وتجتر كثيرا من الآلام التى تبعثها فى نفسها ابنتها نفيسة فى تجوالها الدائم بين بيت وبيت ، تعمل كثيرا وتربح قليلا وتواصل سعيها فى مشقة ويأس . لشد ما تتجرع غصص الألم فى سكون متجملة بصبر لا يهن . لائذة بايمان لا يتزعزع ، متشبثة باهداب أمل لا بد أن يتحقق وان طال انتظاره . وبفضلها عرف الشقيقان سبيلهما . فلم يحد أيهما عن جادته ، وأمكنهما — على ما يكتنفهما من تقشف وحرمان — ان يواصلا اجتهادهما

فى مسابرة تدعو للاعجاب . وكان حسنين بعد ما يلقاه من ظروف العيش أهون مما يجد فى حبه من حرمان . ولكن فتاته لم تكن دون امه عنادا . فأرغمته على الرضى بحب ظاهر متقشف لا يستسيغه طبعه الحامى . وأوشكت الحياة الخاصة أن تلهى الشقيقين عما انتاب حياة الوطن فى تلك الفترة من التطورات الهامة . والحق ان حسين لم يبد اهتماما يستحق الذكر بالسياسة العامة ولعل حسنين كان أكثر اهتماما بالسياسة من أخيه ؛ ولكن ليس الى القدر الذى يجعل منه تلميذا سياسيا ، واقتصر اهتمامه فى الغالب على النقاش الحزبى او الاشتراك فى المظاهرات السلمية . وكانت الأم أيضا الحائل بين ابنيها وبين الاشتراك فى الحياة السياسية ؛ فلم تكن لتفقه حرفا فى السياسة ؛ واستغرقت الأسرة مشاعرها فلم تترك نصيبا للوطنية . ولما ذاعت الأخبار المحزنة عن ضحايا المظاهرات من الطلبة أصابها الفزع وراحت تقول مخاطبة الشابين :

— قتلوا يا ولداه فهل تغنى عنهم السياسة أو المظاهرات ؟! . فجعوا أهليهم وخربوا بيوتهم وضاعوا هباء . .

وقال لها حسنين منفسا عن شعور مكبوت لتخلفه عن الثائرين :

— ان الأوطان تحيا بموت الأبطال . .

فرمته بنظرة صارمة فخفض عينيه وقد عدل عن مواصلة حديثه الحماسى . ثم جدت أحداث فتكونت الجبهة الوطنية ، وشرع فى المفاوضات ، وانتهت المفاوضات الى الاتفاق ، وسرى فى البلد ارتياح عام ، وحينذاك عاد حسنين الى حديثه ؛ وكان أجرأ على أمه من أخيه ، فقال لها يوما :

— أرأيت أن الأرواح التى زهقت لم تذهب تضحياتها عبثا .

ولم تغضب هذه المرة لشعورها بأن الخطر قد زال وحل محله السلام ولكنها لم تنثن عن رأيها فقالت :

— هيهات أن يعوض شىء عن هلاك روح شابة .

فقال حسنين ضاحكا :

ــ لقد عشت يا اماه نصف قرن فى ظل الاحتلال فلندع الله ان يمد لنا فى عمرك نصف قرن آخر فى كنف الاستقلال ..

فقالت الام ممتعضة :

ــ احتلال . استقلال . لا ادرى اى فرق بينهما . خير لنا ان ندعو الله أن يكشف عنا الغمة وأن يبدلنا من عسرنا يسرا ..

فقال حسنين بحماس وايمان :

ــ لو لم يكن الاحتلال لما تركت اسرتنا بعد موت ابى بلا معين ،

« ثم مخاطبا حسين » أليس كذلك ؟

فقال حسين بأمل :

ــ اعتقد هذا !

ورددت الأم نظرها بينهما فى شك كثير . لم تكن تحفل بهذه الاحاديث العامة التى تساق اليها احيانا من حيث لا تدرى . ثمة امر واحد يهمها ، وتنسى من اجله الدنيا وما فيها ، هو أن تبلغ بهذين الشابين اللذين تحبهما أكثر من الحياة نفسها بر الأمان ، وان تراهما رجلين ناجحين سعيدين قد امنا شر الحياة ، وآوت الأسرة منهما الى ركن ركين ..

٤٤

وفى نهاية العام حصل حسين على البكالوريا . وقد ذاقت الأسرة فى فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة مرارة الاشفاق والشك . ولم يكن أحد يجرؤ على أن يتكهن بما يجد فيما لو أخفق حسين وحرم من المجانية . ولم تكن الأم تتصور أن ينتهى صبرها هذه النهاية ، ولا أن تنكشف آمالها عن مثل هذا القنوط . وعندماتناول حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزائغ فى صفحاتها باحثا عن نمرته ، التفت به أخوه وأخته وامه ،

بقلوب خافقة ينبض فى أعماقها الأمل ويظلها الخوف والعذاب . فانطبعت اللحظة الرهيبة على نفوسهم الى الأبد . ثم كان يوم سعيد : أو يوم سعيد منذ عامين كئيبين ، فطابت النفوس ، ولهجت الألسن بالشكر لله . وراحوا يفحصون عن سعادتهم بالحديث اللطيف حينا ، وبالتسمت المطمئن الباسم حينا آخر . ثم وجدوا انفسهم يطرقون باب المستقبل . ويفكرون فى الغد القريب والبعيد معا . فنسوا سعادتهم وهم لا يشعرون ، وتخايلت لأعينهم مرة اخرى الصعاب التى تكتنف حياتهم ، فحل التفكير وهمومه محل السعادة الصافية العابرة ، عرفه حسنين حقيقة جديدة فى حياته وهى أن السعادة قصيرة الأجل وانها لا تعمر فى النفس طويلا كالحزن او الحسرة . ولم يكن التفكير فى مستقبله بالأمر الجديد عليه ، كان بطبيعة الحال ذا آمال واحلام ، ولكن الحقائق لم تكن لتغيب عنه كذلك ، وكأنه أراد ان يستدرجهم الى اعلان آرائهم فتساءل :

ـ ماذا لديكم عن الخطوة التالية ؟

وكان للأم رغبة ، فهى تود ان تنتهى الحال التى يكابدونها بأى ثمن . وكانت تعلم ـ وقد خلا البيت مما يمكن الانتفاع بثمن بيعه ـ انهم لن يستطيعوا مواصلة هذه الحياة بعد الآن . بيد انها لم ترتح الى املاء رغبتها عليه ، ونفرت من التحكم فى مستقبله كما تتحكم فى حياته . اجل لم يعد طفلا ، فاذا وافق على رأيها مختارا فبها والا فليقض فى أمر نفسه بما هو قاض ، وليمدوا هم فى حبال التصبر والتجلد ، بل والجوع حتى يأمر الله بالفرج . لذلك قالت باقتضاب :

ـ فلنتدبر الأمر طويلا .

ولكن حسنين كان يفكر بسرعة مدفوعا بعواطفه كعادته ، وكانت انانيته تتوارى خلف ما يظنه الصالح العام ، فقال :

ـ لم تعد الحياة تطاق . غذاؤنا سيىء ونحن فى حكم الجياع

وثيابنا مداعية ممزقة أو مرفوة ، وبيتنا عار ، فلا يصح أن نطيل امد العذاب . لا سبيل الا ان نبدأ حياتنا العملية ..

وكان حسين يفهم أخاه خير الفهم ، فأدرك لتوه ما يرمى اليه ، وكان مقتنعا بما يريد أن يذهب اليه ولكن ساءه مكره فتغيظ عليه وقال :

ـ لماذا تقول « نبدأ » ؟ .. لماذا تستعمل صيغة الجمع بينا الأمر يتعلق بى وحدى ؟

وادرك حسنين ان أخاه نفذ كعادته الى ما وراء كلامه فقال باشفاق :

ـ انى اقرر مبدا عاما يجوز عليك اليوم وعلى غدا .

ـ تعنى انه يجب أن اجد وظيفة ؟

فزاغ عن الجواب الصريح وتساءل :

ـ ما رأيك انت ؟

فالتفت حسين صوب امه وسألها مبتسما :

ـ ما رأيك يا أماه ؟

واثرت ابتسامته فى نفسها تأثيرا عميقا ، وأدركت أنه يضع مصيره بين يديها . وأنه يحملها وحدها مسئولية مستقبله . ولكنها لن تقضى عليه بما لا يحب ، لن تفعل ولو ذاقوا الهوان اربع سنوات أخرى . انه الوحيد الذى يذعن لمشيئتها بلا تردد أو تذمر فهل يكون جزاؤه الفداء ؟! وقالت الأم بوضوح :

ـ رأيى رأيك يا حسين ..

فابتسم حسين ابتسامة غامضة وقال مدفوعا برغبة عابثة فى مضايقة حسنين :

ـ أرى أن أكمل مرحلة التعليم العالى ..

فقالت نفيسة بسرور :

ـ أحسنت ..

وقال حسنين بعد تردد :

ــ امامنا أربعة أعوام عجاف أخرى . .
فقال حسين مبتسما :
ــ عام واحد فحسب ثم تتوظف أنت فى نهايته ان شاء الله . !
فضحك حسنين مغلوبا على أمره وقال بلهجة المعتذر :
ــ لعلك تظن أننى اريدك على ان تتوظف لتتيح لى فرصة أكمل فيها تعليمى العالى فى هدوء وطمانينة ، ولكن الحقيقة اننى اود ان أرحم أسرتنا مما تعانيه ، وفضلا عن هذا وذاك فاذا كان على احدنا ان يضحى بذاته ــ اذا اعتبرنا التوظف بالبكالوريا تضحية ــ فأنت الذى يجب ان تبذل هذه التضحية ، لا لأنى أريد لك ما لا أريد لنفسى ، ولكن لأن أسرتنا تستطيع ان تنتفع بتضحيتك الآن على حين يجب أن تنتظر عاما آخر حتى يمكنها الانتفاع بتضحيتى أنا .
فضحك حسين قائلا :
ــ منطق زائف . انى أعلم علم اليقين انك لن ترضى بالتضحية لا العام القادم ولا الذى بعده . .
وقالت الأم حسما للجدل :
ــ افعل ما تشاء يا حسين ، ولا اعتراض لنا . .
فابتسم اليها فى صفاء وقال :
ــ لم أعن مما قلت حرفا واحدا ولكنى أردت أن يعرف حسنين انى أحسن فهمه . ولست ألومه أيضا على تفكيره فله عذره . ينبغى أن يضحى أحدنا ويرضى بالتوظف الآن ، وهذا هو واجبى أنا ، أنا أخوه الأكبر ، وأنا صاحب البكالوريا . انى أدرك الحال على حقيقتها ، وأعلم أنه من القسوة الشريرة أن أفكر فى تكملة تعليمى ، فلأرض بحظى ، ولندع الله جميعا أن يوفقنا الى ما نريد ..
وقرأ الارتياح فى أعينهم جميعا رغم ما تنطق به ألسنتهم من عبارات الأسف ، فداخله شعور طيب بالسرور والارتياح على

حزنه وأسفه . « أسرتنا كادت تنسى معانى الارتياح والطمانينة . هاأنا اعيد الى نفوسها بعض هذه المعانى . علام آسف !. مدرس أو كاتب سيان . لو كنا نقتصد فى احلامنا . او كنا نستلهم الواقع فى خلق هذه الأحلام . لما ذقنا طعم الأسف أو الخيبة » .

٤٥

وقالت الأم :

— لدينا احمد بك يسرى صديق المرحوم والدكم . وهو يستطيع ان يوظفك فى غمضة عين ..

وتفكرت الأم مليا ثم واصلت حديثها قائلة :

— لن استطيع الذهاب اليه بنفسى لأن معطفى لم يعد لائقا للظهور أمام الناس المحترمين ، فامض اليه انت ، وخذ معك اخاك تتشفع به . وما عليكما الا أن تقولا للبواب أنكما ابنا المرحوم كامل افندى على ..

وذهب الشقيقان عصرا الى شارع طاهر وقصدا بيت البك وطلبا مقابلته كما اوصتهما امهما فغاب البواب دقائق ثم جاء ليدعوهما الى حجرة الاستقبال . ودخلا يسيران فى ممشى الحديقة الوسط وهما ينظران الى شتى الأزهار التى كست الأرض بألوان بهيجة بدهشة ، ثم صعدا الى السلاملك ، ثم الى بهو الاستقبال الكبير ، واتخذا مجلسهما بارتباك على كثب من الباب بالموضع الذى اختارته امهما قبل ذلك بعامين . وجرى بصرهما سريعا على البساط الفزير الذى يغطى أرض الحجرة الواسعة ، والمقاعد الكثيرة الأنيقة ، والطنافس والوسائد ، والستائر التى تنهض على الجدران كالعمالقة ، والنجفة المتدلية فى هالة لألاءة من سقف عال انتشرت بجوانبه المصابيح الكهربائية . وأشار حسنين الى النجفة وقال بسذاجة :

- مثل نجفة سيدنا الحسين !

وكان حسين يفكر فى أمور أخرى فقال :

- نعم .. دعنا من النجفة ، ما عسى ان نقول ؟ .. ينبغى أن تساعدنا بلسانك !

فقال حسنين هازئا :

- أتظن انك ستحادث شيطانا ؟.. تكلم بشجاعة . وسأتكلم انا أيضا . ملعون ابوه !

وندت عنه اللعنة - لا لحنق - ولكن ليشجع أخاه ، وليتشجع هو نفسه . وألقى نظرة ذاهلة على ما يحيط به من آى الثراء ثم تساءل بصوت منخفض :

- هل يثير موت رجل كأحمد بك حزنا فى نفوس ورثته ؟

فقال حسين بنصف وعى :

- أما كنا نحزن لوفاة والدنا لو كان غنيا ؟

فقطب الشاب متفكرا ثم قال :

- أعتقد هذا . ولكن لعل الحزن انواع ودرجات . آه .. لماذا لم يكن أبونا غنيا ؟!

- هذه مسألة اخرى ..

- ولكنها كل شيء . خبرنى كيف صار هذا البك غنيا ؟

- لعله وجد نفسه غنيا ..

فالتمعت عينا حسنين العسليتين وقال :

- يجب أن نكون جميعا أغنياء ..

- واذا لم يكن هذا ؟!

- اذن يجب أن نكون جميعا فقراء ..

- واذا لم يكن هذا ؟!

فقال بحنق :

- اذن نثور ونقتل ونسرق ..

فابتسم حسنين قائلا :

ـ هذا ما نفعله منذ آلاف السنين ..

ـ يعز على ان اتصور أن تمضي حياتنا فى عناء وقذارة الى الموت ..

فقال حسين مبتسما :

ـ لا قدر الله ..

وقبل ان يفتح حسنين فمه سمعا وقع اقدام آتية من الفراندا ، ثم دخل البك بجسمه الطويل العريض فى بدلة بيضاء حريرية ، وسلم عليهما مرحبا وهو يتفرس فى وجهيهما بعينين ضاحكتين ، ثم سألهما وهو يجلس :

ـ اهلا بابنى الحبيب المرحوم ، كيف حال والدتكما ؟

فشكرا له بلسان واحد ، وقد نسى حسنين فى طيب اللقاء حنقه على حين عاود حسين ارتباكه ، وتوجس أحمد بك خيفة من هذا اللقاء الذى لا بد أن يسفر عن بذل وعطاء ، وكان يسلم سلفا بأنه لن يستطيع أن يرفض لهما رجاء اذا سألاه . والحق أنه لم يكن بخيلا ، بل كان جوادا ، ولكن لا عن طيب خاطر ، كان يجود فى برم وضيق دون أن يستطيع أن يقول « لا » . وتغلب حسين على ارتباكه وقال بصوت رقيق مؤدب تغنى نبراته عن ألفاظ الرجاء والضراعة .

ـ حصلت يا بك على البكالوريا ، وظروف أسرتنا تضطرنى الى البحث عن وظيفة ، لذلك رأت والدتى أن ترسلنى الى سعادتك لما لنا جميعا فيك من عظيم الرجاء ..

فجعل البك يعبث بشاربه الغزير المصبوغ ، ثم قال :

ـ وظيفة ؟! .. باب الحكومة ضيق فى أيامنا هذه ، ولكنى سأبذل ما فى وسعى يا بنى . لا أعتقد أنى سأجد لك وظيفة فى الداخلية ولكنى صديق لوكيل المعارف ، وكذلك وكيل الحربية ، جهز طلب استخدام وسأكتب لك توصية قوية ..

وشكرا له كرم اخلاقه ثم سلما وغادرا الفيلا ، والقى حسين

على الفيلا نظرة توديع وهما يبتعدان عنها، وعاد ببصره الى وجه اخيه فوجده راضيا حالما فساءل نفسه فى دهشة : ترى هل نفرح الآن بما عده بالأمس تضحية ؟. ثم قال :

ـ ايقنت الآن فحسب . وبعد ان تنسمت عبير الحياة الحقة فى هذه الفيلا . انه من الظلم ان نعد انفسنا بين الأحياء ..

وكان حسين مشغولا بالتفكير فى طلب الاستخدام والتوصية القوية فلم يعن بالرد على اخيه ، فقال حسنين حانقا :

ـ انى أعجب لما تتحلى به من رضى وهدوء .! ولكنه تظاهر لا يمكن أن يخدعنى ..

فغمغم حسين مبتسما :

ـ وما جدوى الحنق ؟.. لن نغير الدنيا !

ـ يجب أن تتغير . من حقنا ولا شك أن ننعم بالسكن النظيف والمأكل الصحى والمركز المرموق . ولكنى اراجع حياتنا جملة فلا أجد بها خيرا أبدا ..

فحدجه حسين بنظرة غريبة لم يفهم معناها وقال له :

ـ ولكنك تتمتع بالحب ، وستكمل تعليمك . اليس هذا خيرا ؟

ونظر اليه ثم نظر فيما أمامه ، ترى ماذا يعنى ؟. وشعر بعدم ارتياح ، وتضاعف ضيقه . ثم روح عن صدره متسائلا :

ـ ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك ؟. ان لنا حقوقا بديهية ولا يجوز أن يضيع شىء منها ، فأين نحن من هذا ؟.. كيف نعيش ؟ .. ماذا تكابد امنا ؟ .. أين أخونا حسن ؟ .. كيف انقلبت اختنا خياطة ؟ ..

وقطب حسين وقد تنغص عليه صفوه ، وتناسى جوهر الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حانقا ، وصاح بأخيه فى لهجة تنم على العتاب :

ـ خياطة ..

فقال حسنين فى هياج وانفعال :

— نعم خياطة ؛ هل تكره هذا حقا ؟ . اتتمنى حقا لو كانت تزوجت كأمثالها من الفتيات !؟. كذب . او كانت تزوجت ؛ بل لو لم تكن خياطة لاضطر كلانا الى الانقطاع عن المدرسة والبحث عن مهنة حقيرة . هذه هى الحقيقة ..

واشتد الغضب بحسنين . لا لانه لا يسلم بما قال أخوه ، ولكن لانه يسلم به فى أعماقه ؛ ولأنه ما كان يرحب حقا بزواج الفتاة وسعادتها . « اننا نأكل بعضنا بعضا ، ينبغى أن نسر بتهريج حسن وعبثه ما دام يجيئنا كل شهر بفخذ خروف ؛ وينبغى أن نسر بأختنا الخياطة ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة . وهذا الشاب المتذمر ينبغى أن يسر بانقطاعى عن التعليم ما دام سيتم تعليمه هو . يأكل بعضنا البعض . أى وحشية . أى حياة ! لعلى لا أجد الا عزاء واحدا وهو أن قوة أكبر منا جميعا تطحننا طحنا وتلتهمنا التهاما وأننا نصمد ونقاتل . » وتركز تفكيره فى الخاطر الأخير ، فيما سماه العزاء الوحيد ، فسكنت نفسه ، وسكت عنه الغضب وقال وكأنه يخاطب نفسه :

— نحن لا يأكل بعضنا البعض . لا تقل هذا (لم تكن هذه العبارة من قول شقيقه ولكنه لم يفطن لهذا) .. لا تقل هذا ابدا . نحن أسرة بائسة ولنا نظائر واشباه لا يحيط بهم حصر . وواجب كل واحد منا ان يجود بما يقدر عليه من البذل والتضحية ..!

ثم طلب الى اخيه فى حزم أن يمسك عن الجدل ، وكانا بلغا محطة الترام ..

٤٦

وتبين لحسين ان الوظيفة ـ او التضحية التى رضى ببذلها عن طيب خاطر ـ لم تكن منالا يسيرا . فقد انصرمت ثلاثة أشهر وهو يتردد فى هم ويأس ما بين ڤيلا احمد بك يسرى ووزارتى المعارف والحربية . واخيرا اخبره البيك بأنه امكن الحاقه بوظيفة كاتب بمدرسة طنطا الثانوية ، وحثه على تقديم نفسه للقومسيون والاستعداد للسفر لتسلم عمله فى أول اكتوبر . وسر الفتى . وسرت الأسرة ، ولكنه سرور لم يكن خالصا ، وشابته مرارة . كانت الأم تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر كى تنتشل الأسرة من وهدتها وتبدلها حالا بعد حال، فجاء السفر مخيبا لهذا الرجاء، وتحيرت الأم بين فرحها وحسرتها . وايقنت أن الوظيفة لن ترفه عن الأسرة الا قليلا ، وان خيراتها ستتبدد مابين طنطا والقاهرة. والى هذا كله فقد لاح فى افق الأسرة شبح فراق جديد لم تألفه، فتوجعت قلوبها ، وعجبت الأم لهذا الحظ الذى يأبى أن يمنحها ابتسامة الا تحت عبوسة متجهمة ، والذى يمد يد النوى بينها وبين الابن الوحيد الذى لا يخلق لها المتاعب . كانت ترى فى حسين صورة من نفسها الهادئة الصابرة ، وكانت تجد عنده من الانس والراحة ما لا تظفر به عند غيره . أجل لم يكن أحب الجميع الى قلبها ، اذ كان حسنين الطفل المشاكس الذى يحظى بهذه المنزلة ، ولكنه بدا لعينيها وقتذاك كأنفس ما تملك فى حياتها . ووقع الفراق من نفس حسنين موقعا سيئا، وحزن له حزن رجل لم يبتعد عن بيته يوما واحدا فى حياته ؛ وضاعف أثره فى نفسه تعلقه الشديد بأمه واخوته وبما كان يأمل من الترفيه عنهم بوجوده بينهم . وكان يقول لنفسه كثيرا «ساعيد نفيسة الى بيتها سيدة محترمة حال تسلمى أول مرتب من الحكومة » ولكنه رأى حلمه

يتبدد . وغدا يذهب الى بعيد مخلفا أسرته المحبوبة وراءه على حال ليست افضل كثيرا مما كانت عليه . ولعل هذا ما جعله يمضي الى احمد بك يسرى مستشفعا بنفوذه على ابقائه فى القاهرة ولكن البيك ــ وكان ضاق به ــ اخبره بأن رغبته بعيدة عن التحقيق فى الوقت الحاضر . ثم اعترضته مشكلة جديدة تتعلق بالنقود التى يجب ان تتوافر له ليقيم بها أسباب معيشته فى طنطا حتى يتسلم اول مرتب له فى نهاية الشهر ، من أين له بهذه النقود ، واتجه نحو اخته نفيسة ولكن الفتاة كانت تنزل لأمها عن جل ارباحها المحدودة ولا تكاد تبقى لنفسها على شيء الا ما يلزم لكسائها ، والى هذا فما تبقى من اثاث البيت لا يفى ثمنه ــ اذا بيع جميعه ــ بمطلبه ، فلم يجد من ملاذ أمامه الا أخاه حسن وخاطب أمه فيما تراءى له فوافقت عليه ولم يداخلها شك فى نجدة ابنها الأكبر اذا وسعه ذلك . واطلعته على عنوان اخيه لأول مرة فمضى من توه الى شارع كلوت بك وراح يبحث عن عطفة جندف . وكان غادر البيت كبير الأمل ثم تسلل القلق الى نفسه رويدا رويدا حتى تساءل فى النهاية ترى هل يعطينى حسن ما اريده حقا ؟!. واذا لم يفعل فهل تضيع الوظيفة من اجل بضعة جنيهات لا يجدها ؟!. ثم اهتدى الى عطفة جندف وهو على حال من التشاؤم مؤلمة ، ووجدها عطفة ضيقة متعرجة ، تقوم على جانبيها بيوت متداعية ، وتسطع فى هوائهاالفاسد رائحة السمك المقلى ، وتكتظ بالمارة وعربات اليد ، وتتجاوب فى جوها نداءات الباعة تتخللها شتائم ونحنحات محشرجة وبصقات غليظة ، ثم تأخذ ارضها المغطاة بالأتربة ونفايات الخضر وروث الدواب فى الصعود تدريجيا حتى خيل اليه فى النهاية انها مقامة على سفح تل . ومضى الشاب الى البيت رقم ١٧ وهو بيت قديم من دورين يلفت الأنظار بضيقه فكأنهعمود ضخم ، وقد جلست غير بعيد من مدخله بائعة دوم ولب وفول سودانى فدخل كالمتردد وارتقى

سلما حلزونيا بغير درابزين وقد زكمت انفه رائحة نتنة صاعدة من بئر السلم ، حتى انتهى الى الدور الثانى وطرق الباب . كانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحا ، وكان اخوف ما يخافه الا يجد أخاه فى الشقة . وزاد من خوفه أن احدا لم يلب الطارق . وعاود الطرق بشدة ويأس حتى كلت يداه ، ثم وقف يائسا لا يدرى ماذا يصنع ، وقبل أن يتحول عن موقفه جاءه صوت غليظ من الداخل يهتف بحنق :

— من ابن الكلب الذى يطرق الباب فى هذه الساعة المبكرة ؟!

ودق قلبه بسرور ، وقال يجيب الصوت الذى عرفه حق المعرفة :

— أنا حسين يا حسن ..

وقال الصوت بدهشة « حسين » ، ثم سمع خشخشة المزلاج وهو يرفع ، وفتح الباب فرأى اخاه بشعر هائج مشعث وعينين محمرتين منتفختين فمد له يده وهو يهتف بدهشة :

— حسين !.. أهلا وسهلا ، ادخل ، خيرا ان شاء الله ، ماذا وراءك ؟

فدخل حسين فى شىء من الارتباك ، وسرعان ما تطاير الى انفه عرف بخور طيب بدا عذبا مريحا عقب رائحة السلم ، ووجد نفسه فى دهليز شبه مظلم تكتنفه حجرتان واحدة الى يمين الداخل والأخرى فى مواجهته والى اليسار المرافق . وابتسم حسين الى اخيه وقال كالمعتذر :

— هل أتيت مبكرا ؟.. الساعة الحادية عشرة !

فتثاءب حسن طويلا ثم قال ضاحكا :

— انى أستيقظ عادة حوالى العصر . المغنون ليلهم نهار ونهارهم ليل . ولكن خبرنى قبل كل شىء كيف حالكم ؟

— بخير والحمد لله .. وكيف أنت ؟

فقال وهو يسير به الى الحجرة التى الى يمينه :

- نحمده ..

دخلا حجرة صغيرة تكاد تقسم مناصفة بين فراش وصوان بينهما الى الجدار الداخلى كنبة علقت فوقها على الحائط صورة كبيرة تجمع بين حسن وامرأة لحيمة عميقة السمرة قد اعتمدت منكبه بساعديها المشتبكتين ، فثبتت عينا حسين عليها فى دهشة لفتت نظر اخيه فتساءل ضاحكا :

- ماذا يدور براسك ؟

فسأله حسين بسذاجة :

- هل تزوجت يا اخى ؟

فاجلسه على الكنبة ووثب الى الفراش وتربع عليه وهو يقول :

- تقريبا ..

- خطبت ؟

- الثالثة ..

- الثالثة ؟!

- اعنى الفرض الثالث !

فرفع الشاب اليه عينين داهشتين فى وجوم ثم ابتسم ابتسامة آلية على الرغم منه ولاح فى وجهه ما يشبه الحياء. فضحك حسن عاليا وقال باستهانة :

- هى زوجة فى كل شىء الا العقد ..

فسأله حسين فى خوف :

- الست وحدك الآن ؟

فحنى رأسه دلالة الايجاب ، ثم تثاءب بصوت مرتفع كالنهيق ، ثم قال محذرا :

- طبعا لن تخبر احدا ؟

- طبعا ..

فضحك حسن وقال :

— لا أحب ايذاء مشاعرهم ، هذا كل ما هنالك .. وبهذه المناسبة ألم تجرب النساء ؟

فهز الشاب رأسه سلبا فى حياء فسأله مستطردا :

— وحسنين ؟

فارتج قلبه فى خوف وألم لم يدر لهما سببا ، ثم قال :

— ولا حسنين ..

فتفكر حسن مليا ثم قال :

— هذا أفضل بالنسبة لكما .. (ثم ضاحكا) اذا نويت الزواج يوما فاقصدنى أزودك بنصائح عظيمة .

فقال حسين بهدوء :

— لست أفكر فى الزواج كما تعلم ..

— أمن الممكن أن يتزوج حسنين قبلك ؟

فخفق قلبه ، ولكنه قال بهدوء :

— هذا مؤكد لأنه مرتبط بوعد قديم ..

فقال حسن بتأثر :

— على أية حال اذا انتهى حسنين من دراسته فليس ثمة عائق . آه ، على فكرة ، ماذا جد من أنباء الوظيفة التى تبحث عنها ؟

وسر حسين بما هيأ له من فرصة يلج بها موضوعه فقال :

— لقد جئتك لأخبرك بأننى تعينت كاتبا بمدرسة طنطا الثانوية ، وبأننى سأتسلم عملى فى أول أكتوبر ..

فقال حسن بدهشة :

— هل تسافر الى طنطا ؟ .. وما الفائدة التى تجنيها أمك اذا فتحت بيتا جديدا فى طنطا ؟

— فائدة قليلة ، ولكن ما الحيلة ؟

— هذا سوء حظ فارح ؛ وهذه هى نتيجة المدرسة !

فابتسم حسين يغالب ارتباكه ، ولم أطراف شجاعته وقال :

— سأسافر فى نهاية سبتمبر ، وانت تعلم ان الحكومة تصرف المرتبات مؤخرا !

وادرك حسن ما يعنيه قبل ان يتم كلامه ، فتفكر دون أن يبدو على وجهه شيء مما يدور فى نفسه . ثم سأله :

— وما المرتب الذى تنتظره ؟

— سبعة جنيهات .

— يا خيبتها يوم أرسلتك الى المدرسة !.. وطبعا لا تملك من نفقات السفر ومعيشة شهر اكتوبر مليما ؟

فابتسم حسين فى تسليم وهو يعجب لما شعر به نحو أخيه — فى هذا الموقف — من الارتباك والحياء كأنه يسأل رجلا غريبا . وجعل حسن ينظر اليه صامتا وعقله لا ينى عن التفكير . « جاء حسين فى ظرف غير مناسب . انى أنتظر نقودا لا ادرى متى تأتى ولكن يدى الآن فارغة . مصفاة لا يبقى فيها شيء . تبا لها ! لا يمكن ان أصارحك بالحقيقة ، لتقم القيامة قبل ذلك . انه فى حاجة ملحة الى النقود ، ولا بد أن يحصل عليها . مستقبل الأسرة يتوقف على هذه الجنيهات ؛ وليست فى الواقع بالكثير ، ثمن أوقيات حشيش ، وينفق مثلها أى فتى ارعن فى أسبوع بدرب طياب . سناء مفلسة ايضا ، لم أعد أبقى لها على شيء . ولكن لا بد أن اعينه ، كيف ؟ ولماذا لم يحضر الا اليوم ؟ ، الام تبقى أسرتنا شوكة فى جنبى ؟! » . وظل ينظر الى أخيه صامتا حتى امتلأ حسين قلقا وخوفا . ثم غادر حسن الفراش فجأة وذهب الى الصوان ففتح درجا وعكف عليه دقائق ثم عاد الى مجلسه ومد يده الى أخيه فاذا فيها أربع أساور ذهبية ، وقال بسرعة :

— خذ هذه الأساور ، وبعها فى الحال وانتفع بثمنها ..

وجمدت يد حسين فلم تتحرك ، واتسعت عيناه انزعاجا وانكارا ، وهتف وهو لا يدرى :

— ما هذا ؟! اساور من هذه ؟

فقال حسن ببساطة وقد ضايقه انزعاج الآخر :
ــ اساور سناء ، امراتى !
ــ وبأى حق آخذها ؟
ــ ان اخاك يعطيك اياها . لا شأن لك بصاحبتها . .
واشتد انزعاجه وتساءل فى امتعاض كيف يعيش اخوه ؟ ثم تمتم :
ــ لست مرتاحا الى اخذها ، اما من سبيل آخر ؟
وحنق حسن على هذا « التعفف » فقال بجفاء :
ــ اذا كنت حنبليا حقا فما عليك الا أن ترفضها ؛ وليس عندى غيرها !. .

فرمقه بارتياب ، ولكنه قرأ فى وجهه الصدق فأحس بضيق وقهر . « أساور امراة !.. وأى امراة !.. محال . شىء لا يصدق . ولا يمكن أن يدور لى بخلد ، ولم أعلم ــ ولو فى كابوس ــ بأنه وقع لى . كيف يمكن أن أحترم نفسى بعد ذلك ؟!. ارفض ؟. والعمل ؟!. ليس لديه نقود أخرى ، ينبغى أن أصدقه . ولكن محال ايضا أن أضيع الوظيفة ، وما عسى ان أصنع لو أفلتت الفرصة ؟ كلا لا يمكن أن أرفض . لا يمكن أن اقبل . لا يمكن ان أرفض . لا يمكن أن أقبل . أرفض . أقبل . أرفض . أرفض . أقبل . أقبل . شىء واحد يستحق اللعنة ، هو الحياة . الحياة والحظ . . والوالدان اللذان أتيا بنا الى هذه الدنيا . كان يلعب بأوتار العود ولا يبالى شيئا !. سحقا لى ، كيف أفكر ؟. هيهات أن اذهب من مخيلتى صورة جثمانه .. رحمة الله عليه ، ليس الذنب ذنبه . كالدجاج نلتقط رزقنا بين القاذورات . حجرة الدجاج على السطح ملتقى حسنين وبهية . شىء تشمئز منه النفس ؛ فلأرفض . ولكن لا حياة الا بالاذعان . لن يدرى احد . ولكنى سأذكره ما حييت ، وسأخجل منه ما حييت . انه ينتظر الجواب فاما الاذعان واما الموت . فلآخذها كدين ثم

اقضيه عنـد الميسرة . انك تخادع نفسك . بل انى صـادق ولاقضين دينى . ارفض او لا تزعم بعد الآن انك رجل شريف . انى جائع . شريف وجائع . ولن ارفض . تبا للحياة . انى ادرك الآن ماذا ساق اخى الى هذا الوكر . اسرة ضائعة وحياة قاسية. يجب ان ابت فى الأمر والا تفجر راسى . كالدجاج ..

ـ ماذا قلت ؟

ورفع اليه عينيه فى ذهول وقد اثر فيه صوته تأثيرا مخيفا . وكانت الأساور ما تزال فى يده ، فخفض عينيه وقال بخجل :

ـ انى اشكر لك كرمك ، واقبله على العين والراس ، وأرجو أن تعده دينا أقضيه عند الميسرة باذن الله ..

ـ اقبله هـدية اذا شئت ، ولا تنس أن تخبر أمك بأننى اقترضت النقود من الأستاذ صبرى ..

واثار ذكر امه الما حادا فى نفسه فوجد امتعاضا ، وتضاعف هذا الامتعاض وهو يتناول الأساور ويدسها فى جيبه ، ثم قال :

ـ يؤسفنى اننى ازعجتك ، واظن انه ينبغى أن اذهب كى تواصل نومك ..

فمد حسن له يده بالسلام ، وضغط على يده باسما ، ثم قال :

ـ مع سلامة الله . بلغ تحياتى للجميع ، وقل لأمك بأننى سأزورها قريبا ..

وغادر الشـقة شاعرا بغرابة وانكار ، وهبط السلم الذى لا درابزين له فى حذر ، ولكنه لم يتنبه للرائحة النتنة من شدة اغراقه فى تيار أفكاره ..

٤٧

كانوا يجلسون بحجرة الاخوة التي ستصبح من الآن فصاعدا حجرة حسنين وحده . ورنت نفيسة الى وجه حسين فغمر الألم قلبها وهتفت :

ـ رباه ، هذه آخر ليلة تجمعنا معا !

أحست الأم بطعنة تصيب فؤادها الذي علمه الدهر من الصبر فنونا ؛ ولكنها ابتسمت ؛ أو رسمت ابتسامة على شفتيها الجافتين ؛ وقالت بعطف :

ـ حسين رجل كامل ، وسيعرف كيف يعيش وحده دون ارتباك أو اضطراب . واني مطمئنة كل الاطمئنان الى أنه لن ينسانا ، فسيذكرنا دائما كما سنذكره دائما . وهذه هي الحياة يا عبيطة ، ومصير كل اسرة الى التفرق السعيد ـ على ما به من حزن ـ حيث ينهض كل بدوره الجديد ..

وكان حسين يعرف امه جيدا فأدرك أنها تداري حزنها بالحكمة والحزم كعادتها دائما ، فصمم على أن يعالج وحشة قلبه بالحزم كذلك . لقد بكى مرة كالأطفال لكنه لن يبكي مرة أخرى ، وتمتم مقلدا امه في ابتسامتها :

ـ سوف نلتقي في الأجازات ، ولعلي أنقل يوما الى القاهرة .

فقال حسنين بأمل :

ـ لا بد أن يحدث هذا يوما ما ..

وكان حسنين يجد كآبة وحزنا . لم يفترق عن شقيقه مذ رأى نور الدنيا فلم يدر كيف يلقى الحياة بدونه . كان شقيقه وصديقه معا ، اجل كثيرا ما نشب النزاع بينهما ؛ وبلغ الشجار احيانا ،

ولكن لم يكن لأحدهما غنى عن الآخر . لو كانت بهية أقل عنادا لما شكا الوحدة قط ، بيد انه بوسعه ان يتعزى عن الفراق بالرسائل يحبرها له من آن لآن فتصل ما ينقطع بينهما من اسباب العشرة والحديث ؛ ولعله يستطيع ان يسافر اليه فى العطلة . ترى هل يمكنه ان يجرى عليه راتبا شهريا ؟ خمسون قرشا أو ثلاثون خصوصا وهو يعلم بأن راتب الدروس الخصوصية ينقطع بانتهاء السنة المدرسية ! ليت شجاعته تؤاتيه الآن فيحدثه بأمانيه !.. ولكن صبرا ، وليؤجل هذا الى فرصة أوفق .

وكانت الأم تواصل التفكير بلا توقف . لقد وفقت الى الظهور بالمظهر الذى تحب أن تظهر به ، أو الذى اعتادت أن تظهر به ، ولكنها كانت تعانى ألما عميقا بلغت شدته ذروتها هذا المساء ، كانت تكابد تأنيبا خفيا لشعورها بأنها تؤثر حسنين بأكبر جهاد ، والآن ماذا ترى ؟.. ترى الأخ الوديع يضحى بمستقبله ويرمى بنفسه بين احضان النوى فى سبيل الأسرة ، بل فى سبيل حسنين بالذات . وضاعف من آلامها أنها كانت ترى الواجب يحتم عليها خوض حديث ابعد ما يكون عن العواطف ، حديث ان دل ظاهره على الحدب على الفتى المسافر فباطنه يرمى الى الدفاع عن الأسرة قبل كل شيء . وجعلت تؤجله وهو يلح عليها حتى اقتنعت بأنها اذا لم تسقه الآن فقد تفلت منها الفرصة الى الأبد ، ونظرت الى حسين باشفاق وحنان - وكان يرتب ثيابه فى حقيبة ابيه - وقالت :

- انك رجل عاقل ، وهذا ما يجعلنى جديرة بالاطمئنان . ولست اطمع فى شيء اكثر من أن تواصل سيرتك الحميدة فى بلدك الجديد ، وأن تحذر صحبة السوء ..

فابتسم حسين قائلا :

- اطمئنى كل الاطمئنان يا أماه ..

على أن عبارة « صحبة السوء » استدعت الى مخيلته صورة

عطفة جنـدب والبيت الذى لا درابزين له والاساور الذهبية فشعر بفتور أغاض الأشراق الذى رسمته الابتسامة على وجهه فانحنى على الحقيبـة ليـوارى وجـومه عن الأعين ؛ اما الام فاستطردت قائلة باهتمام :

ــ ولا تنس اسرتك . حقا ليس ثمة حاجة الى تنبيهك لهذا ؛ ولكننى أحب أن اذكرك بأننا سنظل فى حاجة الى رعايتك حتى يتوظف حسنين وتتزوج نفيسة !

ــ ما توظفت الا لهذا .

وسرت فى نفس نفيسـة قشعريرة رعب ، ونفـذت كلمة « تتزوج » الى أعماقها وخالتها تنبش ما استتر من خبيئتها . الا يزال هذا الأمل يداعب أمها ؟.. الا تدرى ان الموت احب اليها منه ؟. ونظرت الى وجه حسين بغرابة ، انه لا يدرى ؛ وهيهات ان يخطر لهم هذا على بال . هيهات هيهات . وغابت الحجرة عن عينيها فخيل اليها انها تراهم وقد احدقوا بهـا فى ثورة جنونية وقد جحظت أعينهم ملتهبة بنار الغضب ثم انقضوا عليها كالوحوش . وهزت راسها لتطرد عنها اشباح هذه الأوهام المرعبة فعادت الى حاضرها ، ولكن سرعان ما وجدت نفسها تتذكر على الرغم منها ساعات ضعفها تلك الساعات التى تذهل فيها عما يدفعها الى تسليم نفسها من دواعى اليأس والفقر ، هنالك تنسى كل شىء الا الرغبة المحرومة الجائعة فتمثل بنفسها أفظع تمثيل . تذكرت ساعات الضعف هذه وهى بينهم صامتة فعلاها خجل أليم وخوف لا قبل لها به ، وعادت تردد بصرهـا بين أمها وشقيقيها بغرابة . ما يزال أمامها فرصة للتراجع ، لا لرأب الصدع طبعا فقد ولى أوانه ، ولكن ... ، رباه لا تدرى ماذا تقول ، ما الفائدة ؟، أى أمل قد بقى فى الحياة ؟.. لقد قضى عليها بان تقضى على نفسها ..

واصلت الأم حديثها قائلة :

ـ انظر ماذا يلزمك من نقود كي تنهض بضرورات المعيشة وارسل الينا الفائض من مرتبك . لا بد من هذا يا حسين لأنه لم يعد يبقى لدينا ما يستحق البيع .

ـ سأبذل قصارى جهدى .

وتبدد امل حسنين ـ أو كاد ـ من الفوز براتب شهرى من اخيه بعد أن طالبت الأم بالفائض من مرتبه . أجل لا يبعد أن تحس الأسرة بشيء من الترفيه ولكنه لن يروى جفاف يده ، خاصة فى العطلة الصيفية الطويلة . ترى هل تطالبه أمه اذا وظف يوما ما بما تطالب به حسين ؟. غير معقول . اذا انتهى هو من دراسته فستتخفف أمه من أثقل واجبات الأسرة ، ويسعه وقتذاك أن يتزوج وأن يعنى بأمر نفسه . ان نفيسة وحسين يتصديان للزوبعة فى ابانها ، وقد وجد نحوهما عطفا ورثاء دون أن يمنعه هذا من الفرح بحظه .

ولم تفرغ الأم من الافصاح عما يدور بنفسها كله ، فودت لو تحذره من ان يستدرجه أحد الى الزواج . ولم تكن تجهل أن كثيرا من الآباء والأمهات يتصيدون العزاب امثاله فى غربتهم بسهولة : ولكنها لم تدر كيف توجه اليه هذا التحذير وعن يمينه أخوه الأصغر قد خطب وتهيأ للزواج وهو ما يزال تلميذا !.. عدلت عن رغبتها كارهة ، ولكن مطمئنة فى الوقت نفسه الى رجاحة عقله وحسن تقديره . وتحدثوا طويلا ما شاء لهم الحديث . ثم جاء فريد افندى محمد وأسرته لتوديع حسين . واستقبلوهم كما يستقبلونهم عادة بالترحيب والسرور ، فليس ثمة أحد الا ويقدر مودتهم وكرمهم وحسن جيرتهم . أجل لعله طرأ على بعض النفوس تغير باطنى منذ تمت خطبة حسنين لبهية غير الرسمية ، فالأم مثلا آمنت بأنهم رموا شباكهم حول الفتى قبل أن ينهض ، وانهم راموا باستئثارهم اشد آمالها تألقا ، أما نفيسة فلم يكن بوسعها أن تحب شخصا يطمح الى

امتلاك حسنين خاصة . ولكن هـذه المشاعر الصامتة لم تكن لتؤثر فى رابطة الود والاخاء التى تجمع بين الأسرتين ، ولم يكن من الهين أن تنسى الأم ايادى فريد افندى ومروءته . وقد سر حسنين بزيارة التوديع سرورا كبيرا ، ووجد نحو الأسرة التى يحبها ــ الأب والأم والفتاة وتلميذه السابق ــ امتنانا عميقا . وجرى الحديث بين ذكريات الماضى وآمال الحاضر لطيفا صادقا ، مباركة عليك الوظيفة ، تسافر مصحوبا بالسلامة ، ستترك وراءك وحشة ، لقد خسر سالم أستاذا لا يعوض ، الخ وبهية نفسها على حيائها وتحفظها قالت برقة « تعود بالسلامة قريبا ان شاء الله » فشكر لها تلطفها بلسانه وقلبه « فتاة حسناء حقا ، مهذبة محتشمة ، وحسنين شاب رائع وسيكون زوجا رائعا . ترى ألم يقبل هذا الثغر ؟. طالما شكا تحصنها متذمرا فيالهـا من فتاة نادرة حقا . سأسافر غدا وتمسون صـورا وذكريات ، وستجتمعون كاجتماعكم هذا ، وربما لا تذكروننى الا قليلا ، أو لا تذكروننى بتاتا ، ولكن كيف أكون ؟ وأين ؟ وهل أملك مع وحـدتى الا ان اذكركم ؟ كلما اشـتد الدهر أزددت قوة وصبرا ، ولأظلن هكذا الى الأبد !.. » .

٤٨

غاب وجه حسنين فى زحمة المودعين ، وتراجع سقف محطة مصر الهرمى حتى بدا من الداخل مظلما ، كل شىء يتراجع بسرعة متزايدة ، وداعا يا مصر . وعاد حسين برأسه الى الداخل واعتدل فى جلسته وهو يغمض عينيه ليخفى دمعة رقيقة غالبت ارادته طويلا ورمش سريعا لينفض نداها عن أهدابه . وكان الى يساره افندى يتصفح جريدة على حين جلس قبالته قرويان يتجاذبان الحديث ومع أن العربة كانت نصف ممتلئة الا ان ضجة الراكبين

كادت تعلو على صلصلة عجلات القطار ، وذكر فى حزن مرطب بسرور انه رأى دمعة فى عينى حسنين ، اجل لقد تجلدا وهما يتحادثان على طوار المحطة ، ولكن حين تحرك القطار واخذ الفتى يلوح له بيده اغرورقت عيناه بالدموع . وفى البيت كانت نفيسة تبكى صراحة حتى التهبت عيناها ، لشد ما يذكر وجهها — الذى حرمه الله نعمة الحسن — بعطف ورثاء وحنان . اما أمه — وقد ابتسم على رغمه — فقد ضمته الى صدرها وقبلت خديه ، ولعلها تفعل هذا لأول مرة ، او فى الأقل فهو لا يذكر انها قبلته قبل هذه المرة .! لشد ما تأخذ نفسها بالحزم حيالهم ، هذا طبعها ، ولكن هيهات أن يطمس حنانها العميق . ولم تشأ أن تبكى وهى تودعه اذ انها تتشاءم من دموع التوديع ، ولكنه قرأ فى تقلص جفنيها نذيرا بالبكاء لا يلبث أن يستفيض دموعا اذا واراه الباب عن عينيها . قال لنفسه لعلها بكت طويلا ، ولعلها لا تزال تبكى ، وشعر لهذا بكآبة وحزن . ولم يكن رآها تبكى قبل وفاة والده فاشتد تأثره ، « يا لها من امرأة عظيمة . شاءالله ان يبتلى أسرتنا بمصيبة قاصمة ولكن سبق لطفه فقدر أن تكون هذه المرأة أمنا . ماذا يكون مصيرنا لولاها ؟. كيف غذتنا وكستنا ؟كيف سيطرت على توجيهنا ؟ كيف نهضت بضرورات أسرتنا فى هذه الظروف القاسية ؟ يا لها من معجزة تحير العقول . حتى حسن أخى ففى ظنى انه لولا المرحوم أبى لأمكن أن تجعل منه رجلا غير الرجل . آه .. لأقتصدن فى الكلام عن حسن . لولاه ما عرفت سبيلى الى وظيفتى ، نقوده هى كل مالى حتى آخر الشهر . الأساور ؟. يا للذكرى !. انس ، ينبغى أن أنسى كى أعيش . سأقضى الدين يوما وأسدل الستار على أسوأ الذكريات » . وأرسل بصره من النافذة فارا من افكاره فرأى الحقول تترامى حتى الأفق ، والخضرة يانعة ناضرة بهيجة تميل رءوسها مع الهواء فى موجات متصلة ، وهنا وهناك فلاحون وثيران تلوح كالدمى تكاد تبتلعها الأرض ،

وسوائم ترعى ، وفوق هذا كله سماء الخريف متلفعة ببياض شاحب ينحسر فى أكثر من موضع عن بحيرات من زرقة صافية . ومر القطار بجدول صاف ذابت اشعة الشمس على سطحه زئبقا يبهر الأعين . ورأى أسلاك البرق فى أمواجها المتواصلة تشملها حركة منتظمة كأنها تسبح فى الفضاء على وقع طقطقة القاطرة الرتيبة . ثم مد بصره كرة أخرى الى الأرض المنبسطة ، الصامتة الصابرة ، الخيرة ، فذكر دون وعى أمه ! . . كهذه الأرض الخضراء صبرا وجودا والدهر يحرثها بسنانه !. لم يعد بوسعها أن تقوم بزيارة محترمة لأنها لا تجد الثياب اللائقة !. وتغيمت عيناه فغابت عن ناظريه بهجة المنظر ودعا الله أن يرزقه حتى يرفه عن أمه المتصبرة وأسرته المتجلدة . « يا للعجب . أن مصر تأكل بنيها بلا رحمة . مع هذا يقال عنا اننا شعب راض . هذا لعمرى منتهى البؤس . أجل غاية البؤس أن تكون بائسا وراضيا. هو الموت نفسه . لولا الفقر لواصلت تعليمى هل فى ذلك من شك ؟. الجاه والحظ والمهن المحترمة فى بلدنا هذا وراثية . لست حاقدا ولكنى حزين . حزين على نفسى وعلى الملايين . لست فردا ولكننى أمة مظلومة ، وهذا ما يولد فى روح المقاومة ويعزينى بنوع من السعادة لا أدرى كيف أسميه . كلا لست حاقدا ولا يائسا أيضا ، وإذا كانت فرصة التعليم العالى قد أفلتت من يدى ، فلن تفلت من يد حسنين ، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب . سوف ترد الروح الى أسرتنا فنذكر أيامنا السود بالفخار » ولاحت منه التفاتة الى يساره فوجد الأفندى الذى كان يتصفح الجريدة قد طواها ونظر اليه نظرة من ضاق بالوحدة والصمت ، وكأنه كان ينتظر هذه الالتفاتة العارضة فقال بلا داع ولا تمهيد وهو يلوح بالجريدة المطوية :

ــ لولا الطلبة ما ائتلف الزعماء ، من كان يتصور أن يجلس صدقى مع النحاس على مائدة واحدة ؟

ورحب حسين بالحديث ليريح راسه من أفكاره وقال :

ـ هذا حق يا سيدى .

ـ ومن كان يصدق ان يعترف الانجليز بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وان ينزلوا عن التحفظات الأربعة ؟ .. اتظن أن تلغى الامتيازات حقا ؟

ـ اعتقد هذا .

فقال الرجل بسرور :

ـ سيحكم النحاس الى الأبد . انتهى عهد الانقلابات . حضرتك وفدى .

ـ نعم ...

ـ قرات هذا فى سماحة وجهك . الوطنى هو الوفدى ، وما الأحرار الدستوريون الا انجليز بطرابيش بصرف النظر عما يقال عن الائتلاف وفوائده .

ـ هذا حق لا شك فيه ...

ـ حضرتك مسافر الى الاسكندرية ؟

ـ الى طنطا فقط .

ـ شى لله يا سيد يا بدوى ، لقد عشت فى طنطا اعواما ..

ولاح الاهتمام فى وجه حسين فسأل :

ـ انى موظف جديد ، فهلا دللتنى على فندق معتدل الأسعار يصلح للاقامة ؟

فجعل الرجل يدعك ذقنه بيده متفكرا ثم قال :

ـ عليك بفندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق لصاحبه ميشيل قسطندى .

يمكن أن تقيم فى حجرة نظير جنيه ونصف شهريا ..

ثم تحدثا طويلا عن الاقامة فى الفنادق وسكنى الشقق والمفاضلة بينهما ..

٤٩

كانت حجرته بالفندق صغيرة ، ذات فرش لشخص واحد وصوان ومقعد خشبي ومشجب ، وكان جوها يشي بالرطوبة الكامنة ؛ اذ كان بها نافذة واحدة تفتح على عطفة جانبية ضيقة ويحول بينها وبين الفضاء جدار بيت قديم ، فلم تجد الشمس سبيلا اليها . وكان يوجد بالفندق حجرات تطل على شوارع الأمير فاروق ولكنها مرتفعة الايجار فعدل عنها الى هذه الحجرة البسيطة قائلا لنفسه : « من العدل أن أعيش كما يعيشون فى عطفة نصر الله » . وكان أول ما فعل أن فتح النافذة وأطل منها مدفوعا بحب الاستطلاع فوقع بصره على عطفة حقيرة تقوم على جانبيها بيوت قديمة فعجب للفارق الكبير بينها وبين الشارع الذى تتفرع منه ، ثم رأى جدار البيت الذى يحجب عنه الفضاء فداخله ضيق وايقن بأنه لن يظفر فى وحدته بتسلية . وتحول عن النافذة الى مرآة الصوان فطالع صورته فى هيئة غريبة ، بدا وجهه طويلا وقسماته شائهة الى ما تناثر على صفحتها الباهتة من افرازات الذباب ، فتضاحك وقال مخاطبا صورته « انى أجمل منك بفضل الله ورحمته » ثم مضى يخلع ثيابه ، وارتدى جلبابه ، ورتب ملابسه القليلة فى الصوان الذى بدا على صغره فارغا ، والواقع انه لم يكن يملك غير بدلة وجلبابين وملابس داخلية من نسختين ، وجميعها قديمة عملت بها يد الرفو والترقيع ، وعلى سبيل الاطمئنان دس يده فى جيب الجاكتة واخرج رزمة الجنيهات وعدها ثم أعادها الى مكانها وقد عاودته ذكرياتها الأليمة ، ثم ذهب الى الفراش وتربع عليه . لا يدرى ماذا يفعل فى بقية النهار ، ولما لم يجد أحدا يحادثه ولا عملا يعمله فقد استسلم بكليته الى التأملات

والأحلام . وشعر بالوحدة والدهشة ، وادرك انه سيعانى من العناء من فراغه . اجل انه يحب القراءة ولكن حتى اذا أمكنه ابتياع ما يريده من الكتب فسيظل لديه من الفراغ ما يضيق به. لم يألف الحياة فى هذا الصمت الثقيل ، وشعر فى وحدته الصامتة بأنه شيء ضائع تافه لا يحفل به أحد ولا يأبه له أحد . أين صوت حسنين الحاد العصبى الذى لا يفتأ يضج بالضحك او بالشكوى ؛ اين صوت نفيسة الرفيع وتعليقاتها اليومية الساخرة على الجيران والحوادث . ولكنه لم يشأ الاستسلام لشعوره ، وآثر أن يبحث شئون ميزانيته التى سينظم معيشته على أساسها . مرتبه سبعة جنيهات ، مبلغ لا بأس به فى ذاته لولا ما يحدق به من ظروف . منه أجرة سكن ١٥٠ قرشا ، و ٢٠٠ قرش للأكل لا يجوز له أن يتعداها بحال ، فول للفطور ، وطبق خضر باللحم وأرز ورغيف للغداء ، وحلاوة طحينية أو جبن للعشاء ، واذا دعا الأمر أقلع عن العشاء كما اعتادوا أن يفعلوا طوال العامين المنصرمين ، ومهما يكن من أمر فلن يسمح لمعدته بأن تكون مصدرا للمتاعب والارتباك، انه اعظم من هذا وبوسعه ان يقرر هذه الحقيقة الآن ، وهو فى مأمن من معارضة حسنين ، وأن تحمل المضايقة فى سبيل الحياة التى يرضى فيها عن نفسه لألذ من شهوة الطعام . ثم ٢٠٠ قرش لأمه ، وهو قدر زهيد ، وكان بوده لو يضاعفه ولكن لاحيلة له فلم يبق لنفقاته النثرية وكسائه الا ١٥٠ قرشا فيما عدا الضرائب التى تخصم عادة من المرتب . ثم تساءل فيما يشبه الحيرة الا يمكنه ان يقتصد ولو مبلغا قليلا فى صندوق التوفير ؟! . انه لا يطيق الحياة بلا اقتصاد من أى قدر كان ، ولا يظن أن انسانا احتضنته أم كأمه يستطيع أن يمارس الحياة بلا اقتصاد . والحق ان أمه بين النساء كألمانيا بين الدول قادرة على الاستفادة من كل شيء ولو كان زبالة . ! كانت ترقع البنطلون حتى اذا بلغ اليأس قلبته ، فاذا أدركه اليأس مرة أخرى قصت أطرافه وجعلت منه سروالا داخليا ، ثم تصنع من

بعضهطاقية وتستعمل بقيتهممسحة . ولا يلفظه البيت الا فتيتا !
لابد من الاقتصاد مهما كلفه الأمر ، وان قسوة الحياة التيعضتهم
بلا رحمة لحرية بأن تجعل من الاقتصاد عقيدة لهم . وعندما بلغ
هذا الحد من التفكير نداعت الى نفسه مشــاعر الخوف التى
كانت تعذب أسرته بسبب وبلا سبب والتى لم يكن من باعث
لها الا الفقر . اجل كانوا فى خوف دائم من أن تزيد النفقات
الضرورية على الايراد المحدود ، كأن يتعرض أحدهم للمرض ،أو
يجد من ناحية المدرسة طلب ، أو تتعطل نفيسة عنالكسب ردحا
من الزمن أو أو أو ، مما لا يقف عند حد ، أواه لشد ما يشعر
بغمز الألم فى صميم قلبه وهو يجتر هذه الذكريات ، ومن خلالها
يتراءىلعينيه وجه أمه المعروق الجاف كمثال حىللصبر والألم،
أحب الوجوه الى قلبه على بؤسه ودمامته ، ومن عجب أن نفذت
الى نفسه ــ وقتذاك ــ نسمة مطلولة بغتة لشعوره بأنه بات
قادرا على التخفيف عنها مما يثقل كاهلها . أجل انه من الغد
موظف من موظفى الدولة ، وبعد أعوام قصيرة أو طويلة يصبح
حسنين موظفا أيضا من درجة أعلى ، وسيفاخر هو مدى الحياة
بأنه قنع بشهادة متوسطة لييسر لأخيه الحصول على شهادة
عليا . ترى هل يذكر حسنين هذه العبر ؟. انه يبدو مشغولا
بأمر نفسه عما عداها ، ذكى بلا ريب ، ومجتهد ، بيد أنه ...آه
فليمسك عن نقده فى غربته . فما أشد حنينه اليه ، وما أكبر
شوقه حتى الى عناده وملاحاته . ومزق الصمت صفير قطار
قطع عليه أفكاره وخفق قلبه . وكان الفندق غــير بعيــد من
المحطة ، فلم يكن بد من ان تذكرة القطر بين آن وآن بالقاهرة
وأهلها . وعاودته ذكريات الوداع فنهشت قلبه حتى سح حنينا
دأفقا . ثم غشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكآبةفقال
لنفسه يصبرها ويعزيها : لعلها ضريبة اليوم الأولللفراقثميهون
الأمر رويدا رويدا . وتحير ماذا يفعل ، هل يقضى سحابة اليوم

فى هــذه الحجرة او ينطلق الى الخــارج ليجول جولة فى المدينة الجديدة ؛ ثم خطر له خاطر هبط على نفسه كما تهبط اداة النجاة على المتخبط بين الأمواج ، وهو أن يكتب رسالة لأخيه . وجاء بخطاب وبدأ يكتب بلا توان فوصف رحلته والفندق وصاحبه قسطندى وحجرته واشواقه ثم حمله تحياته الى امه ونفيسة ثم توقف متسـائلا هل يهدى تحية الى بهية ؟ هل يذكرها بالاسم ؛ او يصفها بخطيبة أخيه أو يقنع بتحية عامة لأسرة فريد افندى؟ ثم آثر الأخير بعد تردد طال أكثر مما ينبغى ..

٥٠

وغادر حجرته فىالصباح الباكر ، ولكنه وجد الخواجاميشيل قسطندى جالسا الى مكتبه البالى عند أسفلالسلم . وقد سأله الرجل عما اذا كان يحتفظ بشىء ثمين فى حجرته ، فابتسم حسين على رغمه وقال له « الأشياء الثمينة فى جيبى » . وانطلق الى الطريق ، ثم قصد الى مطعم فول فى نهايته كان عرف موقعه فى اثناء جولته أمس بالمدينة ، وتناول فطوره ، ولفت نظره بصفة خاصة سـلطة حمص لم يعرف لها نظيرا فى القاهرة . وتمشى فى المدينة حتى التاسعة ثم ذهب الى المدرسة الثانوية ليقدم نفسه الى الباشكاتب ويتسلم عمله رسـميا . وقـد اهتزت نفسه لمرأى المدرسة ، وعاودته ذكريات قريبة حية لاحت فى عينيه كالحلم . وعرف البواب بشخصيته فمضى به الى حجرة الباشكاتب وطلب اليه أن ينتظر حتى يحضر الرجل عما قليل . وجلس حسين على كرسى قريبا من المكتب وجعـل ينظر خلل الباب المفتوح الى فناء المدرسة فى جو يثقل عليه الصـمت . بعد أسبوع يبدأ العام الدراسى وتمتلىء هذه المدرسة بحيـاة حارة . وذكر كيف كان ـ منذ اشهر ـ يقضى أسعد أوقاته

بالمدرسة فى مثل هذا الفناء . وكيف كان يمتلىء خشوعا حيال
اى موظف من موظفيها . انه الآن احد هؤلاء الموظفين ، بيد
انه لم يستسلم للزهو . ان التلميذ حلم اما الموظف فحقيقة ،
التلميذ مشروع مستشار أو وزير اما الموظف فدرجة ثامنة
لا اكثر . ولم يطل به الانتظار فما عتم أن صكت أذنيه سعلة
غليظة ونحنحة عميقة ثم أزيز بصقة ، ورأى على الأثر رجلا
يقتحم الحجرة مهرولا . قصير القامة ، رقيق الجسم ، كروى
الوجه، أعمش العينين . تعلوه صلعة ناصعة البياض ، وقد
قبض على طربوشه بيد وراح يجفف صلعته بمنديل باليد
الاخرى . وما ان وقعت عيناه على الشاب حتى صاح به :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، كيف طلعت هنا ؟.. هل بت
ليلتك فى حجرتى ؟.. تلميذ مستجد !؟

فوقف حسين مرتبكا وقال :

ـ أنا يا بيك الكاتب الجديد حسين كامل على ..

فقهقه الرجل ضاحكا .ولكن ادركه السعال وعاودته النحنحة
فامتلأ فمه مرة أخرى ونظر حوله فى حيرة ، ثم جرى الى الخارج،
وغاب نصف دقيقة ثم عاد احسن حالا وهو يقول كالمعتذر :

ـ لعن الله البرد ، أصاب به كل مطلع فصل من فصول
السنة فتجدنى فى حيرة دائمة ما بين فصول السنة وفصول
المدرسة ، لا مؤاخذة يا حسين افندم السلام عليكم أولا ..

فمد حسين يده مبتسما وهو يرد تحيته بأحسن منها ،
ثم جلس الرجل الى مكتبه ودعاه الى الجلوس فجلس ، وأنشأ
الباشكاتب يقول :

ـ اسمى حسان حسان حسان . العادة فى أسرتنا ان يتسمى
الابن الأكبر باسم أبيه ، الم تسمع بأسرة حسان بالبحيرة .؟..
كلا !؟ ... كلا كلا يا سيدى ، الله الغنى ، التلاميذ الكلاب
يدعونى بحسان أس ٣ .

فضحك حسين ملء قلبه . ولكن الرجل حدجه بنظرة انتقاد من بصره الأعمش وقال :

— علام تضحك ؟ ألم تتخلص بعد من عقلية التلاميذ ؟ وبهذه المناسبة اقول لك انى رجل عصبى جدا ولكن قلبى طيب . وكثيرا ما العن ابا احسن واحد . بلا قصد سيىء ومع الاحترام الكلى للشخص الملعون !. فافهمنى ولا تنس انى فى سن والدك !

فقال حسين فى ارتباك شديد :

— لن يحصل بيننا ما يثير الغضب ان شاء الله .

— ان شاء الله . أحببت ان اعرفك بنفسى ، هـذا كل ما هنالك . انى العن نفسى كثيرا . اللعن مريح فى أحايين لا حصر لها ، ولولاه لمات كثيرون كمدا . ستعلم عما قريب معنى العمل فى مدرسة « ثم متنهدا » وصـل الكتاب الخاص بتعيينك من الوزارة (وبحث عنه فى أوراقه حتى وجـده) وهـو الرقيم ١١٧٥ بتاريخ ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٦ . وقد جئتنا ونحن فى اشد الحاجة اليك ، وستبدأ الآن فى مراجعة كشوف الأسماء والمصروفات . لقد تزوج الكاتب السـابق من كريمـة مفتش بالوزارة فنقله فجاة الى القاهرة . حضرتك متزوج يا حسين افندى ؟

فقال حسين مبتسما :

— كنت تلميذ حتى الربيع الماضى !

— وهل تظن التلمذة مانعة من الزواج ؟ لقد تزوجت وانا تلميذ بالثانوى ، وهذه أيضا من عاذات أسرتنا كتسمية الابن الأكبر باسم أبيه . وكان لنا عادات أخرى عظيمة أبطلها صدقى باشا لا سامحه الله ..

فنظر حسين متسائلا ، فاستطرد الرجل فى حزن قائلا :

— والدى حسان بك وفدى كبير واحد أعضاء الهيئة الوفدية . وقد طالبه صدقى باشا أثناء حكمه المشئوم بالانفصال عن الوفد

ولد أبى كما ينتظر منه حرمه معونة بنك التسليف فىعز الأزمة فبيعت الأرض وضاعت الثروة .

فقال حسنين :

- ولكن النحاس قد عاد الى الوزارة ؟

- ولكن الأرض ضاعت . والأدهى من هذا كله ان صدقى انضم الىالوطنيين وفد خطب اول هـذا العام فى مستقبليه بدسوق فبلغهم تحيات « زعيمى النحاس » يا خسارتك يا حسان حسان حسان !

فتظاهر حسنين بالتأثر وغمغم :

- ربنا يعوضكم عن خسارتكم خيرا ..

فهز الرجل راسه ، وسكت دقيقة ، ثم قال :

- حظك سعيد اذ عينت فىالمدرسة بعد انولىعهد الاضراب . كادوا يحرقون بنا المدرســة اثناء المظـاهرات الأخيرة لعن الله المظاهرات والطلبة وصدقى باشا . أين تقيم يا حسنين افندى ؟

- فى فندق بريطانيا .

- فندق ؟!. خيبـك الله ، معذرة ، أعنى سامحك الله . الفنادق مقام غير صالح للاقامة الطويلة ويجب أن تبحث فورا عن شقة صغيرة ..

- ولكنى لم احمل معى اثاثا ؟

فتفكر حسان افندى وهو يقرض أظافره باهتمام طارىء ثم قال :

- فرش حجرة لن يكلفك كثيرا ويمكن أن تؤدى ثمنه مقسطا بضمانتى اذا شئت ..

وعاود التفكير وهو يتفرس وجه الشاب واستطرد :

- توجد شقة مكونة من حجرتين على سطح البيت الذى أقيم فيه لن تزيد اجرتها عن جنيه واحد فما رايك ؟

وثار اهتمام حسنين لأول مرة بعد سماع قيمة الأيجار فقال :

— سأفكر فى الأمر جديا ..

— الأمر واضح مثل ١ + ١ = ٢ والآن هلم الى العمل فان الأوراق اكوام مذ تزوج ابن القديمة ونقل الى القاهرة ..

٥١

وقرر حسين افندى أن يبقى فى الفندق حتى يتسلم مرتبه اول الشهر الجديد ، واخذ يقتنع بمرور الأيام بوجوب الانتقال الى شقة خاصة يتهيأ له فيها الشعور بالاستقرار والطمأنينة على وجه افضل . وكان حسان افندى دائبا على تزيين فضائل الاقامة فى شقة له . حتى هل الشهر الجديد فابتاع له فراشا وصوانا صغيرا ومقعدا بحوالى الجنيهين تم الاتفاق على أدائها على أربعة اقساط بضمان حسان افندى . ولما كان ايجار الشقة جنيها فلم تزد نفقاته شيئا . وكانت الشقة الجديدة تشغل نصف سطح البيت الذى يقيم حسان افندى بطبقته الوسطى ؛ وكانت مكونة من حجرتين غير المرافق . فأغلق الشاب حجرة لعدم الحاجة اليها وفرش الأخرى بالأثاث الجديد وكان للحجرة نافذة تطل على شارع ولى الله — حيث يوجد مدخل البيت — وينسرح أمامها الفضاء بلا عائق لارتفاعها عما حولها ؛ فشعر الفتى — بعد ضيق — براحة الفضاء وطلاقة الجو ، وسر لذلك كثيرا . وكان يوم انتقاله الى الشقة الجديدة يوما سعيدا حقا ، اذ انه وجد نفسه — لأول مرة فى حياته — صاحب بيت وأثاث ومرتب . ولم يكن نسى ذلك الاحساس اللطيف بالارتياح والسرور الذى انبعث فى نفسه وهو يتسلم مرتبه صباح ذلك اليوم ، ولا كيف دارى ابتسامة انطلقت من قلبه الى شفتيه حياء أن يطلع الصراف على فرحه ، ولكن هذا السرور كله لا يعد شيئا الى السرور الذى امتلأ به قلبه وهو

يبعث بالجنيهين الى امه . كانت لحظة عظيمة عرف اثناءها أن صبره الطويل لم يذهب سدى . وما كاد يستقر به المقام حتى زاره حسان افندى مهنئا وقال له «لن تكون غريبا ما دمت بيننا» فشكر له فضله وحفظ له فى نفسه من الامتنان ما هو خليق بقلبه الشكور . وغفر له ما يلقى منه فى المدرسة من حدة الطبع وسوء التصرف والارتباك فى العمل ، والحق انه قد الف هوسه متعزيا بطيبة قلبه وخفة روحه ، ولم يرض حسان افندى ان يتركه منفردا ودعاه الى قضاء سهرته بشرفة شقته فذهب معه مغتبطا وجلسا معا وحسان افندى يقول :

— يبدو لى انك لا تحب المقاهى فاجعل من هذه الشرفة ناديك الليلى ..

وكانت الشرفة مهيأة للجلسة الطيبة ففى جانبها الأيمن كرسيان كبيران من القش بينهما خوان وفى الجانب الآخر شلتة كبيرة تقوم وراءها وسادة ، وعلى خوان فى ركن من الشرفة وضعت صينية صفت بها قلتان وابريق وقد عام على الماء المجتمع فى وسطها الليمون البنزهير . وراح حسان افندى يتحدث بلا توقف تقريبا وكيفما اتفق ، وقد بدا فى جلبابه الفضفاض أصغر منه فى البدلة فلم يكن شيئا يذكر . أو كان لسانا فحسب . ورحب حسين بالجلسة لما عاناه من الفراغ فى الأسابيع الماضية ، فلم يكن يدرى ماذا يفعل بالوقت ، ولم تنفع القراءة فى تزجية فراغه الا قليلا ، لا لأنه كان يضيق بها ولكن لأن نقوده لم تسعفه بشراء ما يحب من الكتب فاكتفى مضطرا بكتاب غير الجريدة اليومية . وجرب الاختلاف الى المقهى ولكنه لم يهش له وخاف أن يجره الى بعثرة نقوده المعدودة فيما لا يجدى . وكان بطبعه حريصا ، لهذا كله رحب بدعوة حسان افندى وصدقت نيته على أن يجعل منها تسلية محبوبة مهما كلفه هذا . وتأدى الحديث الى الشقة الجديدة فقال حسان افندى :

ـ لا يهمك تنظيف شقتك فقد امرت الخادم بأن يتعهدها بالتنظيف كل صباح . وسوف أوصى غسالة تعرفها « الجمعة» بأن تذهب اليك كل يوم جمعة .

فشكر حسين صنيعه فى حياء وتأثر . ولكنه تضايق بعض المضايقة لأنه كان يستطيع أن ينظف حجرته بنفسه ، ولأن قيام الخادم بهذه الخدمة اليومية يوجب عليه أن ينفحه ببعض النقود بين آن وآخر الأمر الذى لا يمكن أن يتقبله بارتياح . وضحك حسان افندى بسرور ثم قال :

ـ اما مفاجأة المفاجآت التى اعدها لك فهى النرد .. هل تجيد لعبها ؟

فقال حسين بسرور :

ـ بعض الاجادة ..

فغادر الرجل الشرفة فى حماس ثم عاد بالنرد ووضعها على الخوان وهو يقول بفخار صبيانى :

ـ أنا بحمد الله خير من يلعبها بالوجه البحرى ، وربما بالقبلى أيضا ..

سر حسين حقا بهذه التسلية التى لم يكن يتوقعها وتساءل :

ـ عادة أم حبس ؟

فقال حسان افندى بثقة :

ـ اختر لنفسك ما تشاء ، انك على الحالين لمغلوب ..

وبدءا يلعبان . وقد اتضح لحسين أن حسان افندى يرش وجه المستمع اليه عن قرب برذاذ ريقه اذا حادثه فأمل أن يلهيه اللعب عن الكلام ، ولكنه كان يواصل اللعب والكلام معا ، وكان اللعب نفسه يهيىء له فرصا لا تنتهى للثرثرة فكان يعلق على اية نقلة للقطع مزهوا بلعبه ساخرا من لعب الشاب ، ثم صاح به بعد أن غلبه اول عشرة :

ــ العن سوء الحظ الذى رمى بك بين يدى ، وهيهات أن تذوق الفوز ما دمت حيا ..

وعادوا للعب بحماس وتحفز . وانهمك فيه حسين انهماكا شديدا فلم يفق حتى طرق سمعه صوت اقدام خفيفة تقترب من الشرفة . والتفت نحو الباب بحركة عكسية فراى فتاة تحمل بين يديها صينية شاى ، وسرعان ما استرد بصره فى حياء وارتبك لأنه أدرك من أول نظرة أن الفتاة لا يمكن أن تكون خادمة . وأحس بشخصها احساسا غامضا وهو ينحنى قليلا ليضع الصينية على كرسى خيزران ، ثم به وهو يذهب مبتعدا . ولم يكن بصره قد أرتد عنها فارغا ، أجل علقت به صورة وجه ممتلىء يميل الى البياض ، وعينين سوداوين ــ أو لعلهما عسليتان ؟ ــ ذواتى نظرة مليحة . ولبث فى ارتباكه مورد الوجه على حين أمسك حسان افندى عن ثرثرته بغتة ، ثم عاد يقول بصوت منخفض :

ــ هذه ابنتى احسان ، لم أر بأسا فى أن تقدم لنا الشاى ما دمت أعدك كأحد أبنائى ..

وحرك حسين شفتيه كأنه يتكلم ولكنه لم ينبس بكلمة، وقال حسان افندى وهو يصب الشاى فى القدحين :

ــ البنت فى البيت نعمة كبرى ، لقد تزوج أخواتها واحدة فى القاهرة واثنتان فى دمنهور ولم يبق غيرها !

تمتم حسين فى ارتباك :

ــ ربنا يفرحك بها ..

ومضيا يحتسيان الشاى فى صمت . وأخذ الارتباك يذهب عن حسين مخلفا وراءه شعورا بالحرج لم يدر له سببا واضحا ، أو لعله تهرب من السبب وتجاهله . ووجد الى هذا انه لا يزال متأثرا بما علق فى مخيلته من صورة الفتاة على غموضها ، تأثرا يعرفه فى نفسه حيال أية فتاة ولا دلالة خاصة له سوى انه

انفعال مكتوب على كل شاب بصفة عامة . وكل شاب بكر بصفة خاصة . ولعل انبعاثه هذه المرة فى بيت — لا فى الطريق ولا فى الترام — هو الذى اشاعه فى جو من الحيرة والبهجة والعمق . وكان حتما ان يفكر فى امور اخرى بعيدة عنه بعد القاهرة فتساوره مشاعر خوف وحذر . ولبث حسان افندى يراقبه صامتا . ثم ضاق بالصمت فقال :

— اشرب شايك وتاهب للعشرة الآتية . وقعت فى مخالبى ولا نجاة لك .

٥٢

كانت على درجة من الحسن تسوغ تاثره . وقد صدق ظنه فيما تلا من ايام واسابيع فرآها فى الطريق بصحبة أمها . ولمحها فى البيت اكثر من مرة . ومن حسن الحظ أنها لم ترث من هيئة أبيها الا خديه المتفخين ، ولكنهما جعلا لها طابعا خاصا ولم يقبحا وجهها . وادرك بسهولة انشقة حسان افندى باتت تجذبه اليها بقوة لا يبررها نشدان التسلية وحده . وكان يمتلىء شبابا وحيوية . فكأن قلبه كان ينتظر اول طارق . وسرعان ما ترعرعت بين جنبيه عاطفة يضطرم فيها الميل والرغبة والاعجاب . فراميا انسا لوحشته وريا لظمئه ، ولكن لم تغب عنه دقة موقفه لحظة واحدة من بادىء الأمر ، فلم يكن يغفل عن متاعبه ولم يدر له بخلد أن يتراخى فى القيام بواجبه ، بيد أنه لم يعالج أمره بالحزم ، وكان هذا فوق طاقته . وكان عليه أن يختار بين الاغضاء من ناحية وبين الانزواء فى حياة جافة موحشة لانسمة فيها ولا أمل . واشتدت به الحيرة ، وفكر مرارا فى العودة الى الفندق منتحلا عذرا من الأعذار ، ولكنه لم يفعل ، ثم وجد نفسه يسلم للأقدار تاركا لها الأمر كله تقضى فيه بقضائها . وتواصلت الأيام دون أن

بجد جديد . وكان نادرا ما يرى الفتاة ولكنها لم تغب عن خاطره قط . أما حسان افندى فلم يخرج عن مألوف ثرثرته وتجاهل الأمر كله . وفى اثناء ذلك لم تنقطع عنه أخبار اسرته بفضل رسائل حسنين التى لا تترك كبيرة ولا صغيرة ، فكانه يواصل حياته بينهم . ويشاركهم عواطفهم جميعا . وقد اخبره بأن امه قررت ان ترصد النقود التى يرسلها لضرورات الكساء وحده ، وانه ظفر منها بجاكتة جديدة يرتديها مع البنطلون القديم ، وانها ابتاعت لنفسها روبا ترتديه فوق فساتينها الخفيفة فيكسيها دفئا تستغنى به عن الملابس الصوفية ، وكان من نتائج ذلك — رصد نقوده لضرورات الكساء — انهم لم يستطيعوا الانتفاع بها فى تحسين حالهم الغذائية التى ظلت على ما يعلم من التفاهة والسوء . وحدثه عن نفيسة فقال انها تظفر من آن لآن بتقدم يسير وأن الأم لم تعد تستولى على جل كسبها كما كانت تفعل قبل ورود نقوده ، فتوفر لديها مال قليل تنفقه على ثيابها كى تظهر امام الناس بالمظهر اللائق بهم . أما حسن فيبدو أن حياته الجديدة تستأثر به استئثارا شغله عنهم ، أو لعله ظن بعد توظفه — حسين — انهم لم يعودوا بحاجة اليه فانقطع عنهم انقطاعا كليا . وواصل موافاته بأنباء استعداده لامتحان البكالوريا فى نهاية العام قائلا انه يستبسل فى مذاكراته لأنه يعلم ما يعنيه سقوطه . وفى آخر رسالة وردت منه تودد الى أخيه توددا كبيرا ثم سأله فى ختامها هل يطمع أن يمده بثمن بنطلون منجما على أشهر ثلاثة نظرا لأن الجاكتة الجديدة قد فقدت بهاءها فوق البنطلون القديم الناحل ؟ ووقف حسين عند هذا الرجاء متفكرا ، لايدرى ان كان يستطيع أن يحقق له رغبته دون مساس بالقدر الذى يودعه صندوق التوفير . لكن فيم يفكر وهو يعلم بأنه لن يخيب لحسنين رجاء ؟ . ربما كان بوسعه أن يزجره لو لم يفرق بينهما هذا البعاد ، ولكن البعاد رقق قلبه وجعل حنينه الى أهله قوة لا تقاوم . أجل انه حريص لا يرحب

بتاتا ببعشرة النقود ، لكن حرصه يتخلى عنه بلا عناء كبير اذا كان البذل لأهله . لن يضيره التقتير على نفسه ثلاثة اشهر كثيرا فى سبيل ارضاء حسنين . انه يعرفه حق المعرفة . ويعلم بأنه يعد ما يقدم له من خير واجبا على الآخرين . فاذا لم يسعفه بالبنطلون نسى فى حنقه صنيع الجاكتة . ووجد الى هـذا شعورا غريبا يدفعه الى ان يمر بجميـله الفتى الذى يؤمن بأنه سـيكون له مستقبل باهر غدا . لقد ضحى بمستقبله فى سبيله وينبغى أن تكون التضـحية كاملة . وعاوده ذلك الشـعور السعيد الحزين بأنه الضحية الصابرة على الأقدار التى تجهمت لهم ، وانه الدرع الذى يتلقى الضربات دون أن يتحطم ، انه عزاء يستمد منه قوة وسرورا ، ويضفى على حياته معنى خلقيا باهرا .

ثم حدث ما لم يقع له فى حسـبان ــ هكذا قال لنفسه وان لم يكن صـادقا ــ اذ كان يوما يجالس حسـان افندى ويتنازعان الحديث كالعادة ، فسأله الرجل :

ــ الم تفكر فى الزواج ؟

فاضطرب الشـاب ، وشعر بما يشبه الذعر ، ثم غمغم قائلا :

ــ كلا ..

فرفع الرجل حاجبيه مستنكرا وقال :

ــ وفيم تفكر اذن ؟ ولماذا تعيش ؟ هل تظن للرجل من غاية ، خاصة اذا اطمأن جانبه بالوظيفة ، سوى الزواج ؟

وتردد حسين قليلا ثم قال :

ــ على واجبات خليقة بالتقديم عما عداها .

ثم صارحه بما يكتنف أسرته من متاعب مستعينا بالمبالغة أحيانا حتى يقوى مركزه حياله . وأصغى الرجل اليه باهتمام حتى انتهى من قصته ، ولكنه لم يبد عليه الاقتناع ، ولم يكن على استعداد للاقتناع بما يحول بينه وبين أمانيه ، ثم هز رأسه الأصلع باستهانة وقال :

ــ اراك تبالغ فى تقدير خطورة الحال . حسبك الصبر حتى يحصل اخوك على البكالوريا ، ثم تكون فى حل من التحرر من مسئوليتك . وعليه هو ان يتوظف بدوره . النحاس باشا نفسه تزوج فهل ترى نفسك اكبر مسئولية منه ؟!

فضحك حسين فى ارتباك وقال :

ــ ولكن اخى مصمم على استكمال تعليمه . .

فعاد الرجل يقول هازئا :

ــ اسمع اذا كانت لك أهداف فى الحياة كاعادة دستور سنة ١٩٢٣ مثلا فالأخلق بك أن تؤجل زواجك ، ولكن دستور سنة ١٩٢٣ قد عاد والحمد لله فلماذا لا تتزوج .؟ يجب ان تتزوج فى نهاية هذا العام حال توظف اخيك ، أما اذا أصر على تكملة تعليمه ووافقت والدتك على هذا فلا يحق لها أن تعارض فى زواجك ، أجل لا يحق لها أن تدلل واحدا على حساب حرمان الآخر من حقه الأوفى فى الحياة .

ووجد حسين حديث الرجل مؤثرا اكثر منه مقنعا ، ولكنه لم يشأ ان يقطع بالرفض أن تنفصم ما بينه وبين الرجل من اسباب المودة ، فقال :

ــ اعتقد انه من الممكن أن أحقق آمالى دون أن أقضى على آمال أخى .

وكان حديث الزواج يدور دون هدف معين فى الظاهر ولكن التفاهم الصامت عن الهدف كان تاما بينهما ، وسبقت اليه اشارات فيما ينشأ بينهما من أحاديث كل مساء ، وكان حسين لم يشأ ان يقنع بهذا القدر من التفاهم فقال فى حياء شديد :

ــ واظن آنسة احسان لم تعد أولى خطى الشباب . .

فضحك الرجل عاليا وقال :

ــ احسان صغيرة طبعا ولكن الزواج لم يخلق للكبار . .

لم يتقدم الموقف عن هذا الحد فيما تلا ذلك من أيام حتى

اقترح حسان افندى ان يقدمه لبعض اقاربه فى حفل عائلى فلم يسع حسين الا القبول . وخجل ان يظهر امام الأقارب بمظهره الذى لا يسر حبيبا . وركبه فجاة ما يشبه الجنون — هكذا وصفه فيما بعد — ففصل بدلة جديدة على اقساط وابتاع حذاء وطربوشا مدفوعا الى هذا كله بعواطفه ونزوته الطارئة حتى اذا جاء اول الشهر ادرك انه من المستحيل ان يرسل النقود الى امه . وارسل بدلا منها خطاب اعتذار كاذب يقول فيه ان مرضا الم به وانه انفق فى العلاج ما ناءت به ماهيته المحدودة . وقد كتب الرسالة بيد باردة ونفس منقبضة مقتنعا فى اعماقه بانه هوى من خطأ الى خطأ . وان تعاقب الاخطاء قد افقده اتزان التفكير وسداد الراى فلم يحسن حتى اختلاق العذر ..

٥٣

ثم كان يوم الخميس ، وكان حسين مستلقيا على فراشه يقرأ جريدة الصباح التى يحتفظ بها عادة لوقت العصر ، فسمع دقا على الباب فظنه خادم حسان افندى ومضى الى الباب وفتحه واذا به يرى امه امامه . اجل امه دون غيرها ، ففغر فاه دهشة ، ثم أخذ يدها بين يديه هاتفا :

— اماه !.. فى طنطا !؟ لا اكاد اصدق عينى !

وشد على يدها ، ثم قبل خديها أو تبادلا بالاخرى قبلتين ، وفى طريقهما الى حجرته سألها بدهشة :

— لماذا لم يخبرنى حسنين بحضورك كى انتظرك فى المحطة ؟

فجلست المراة على الكرسى الذى قدمه لها وهى تقول مبتسمة :

— لم اجد صعوبة تذكر فى الاهتداء الى مسكنك . ان الاهتداء الى مسكن فى شبرا أشق من هذا بكثير . وقد اقترح حسنين على ان أنتظر حتى يخبرك عن حضورى برسالة خاصة ولكنى لم اجد

داعياً لازعاجك وأنت مريض كما لم احتمل البقاء فى القاهرة وانا اعلم أنك هنا وحيد ومريض ..

مريض !. ايقظته هذه الكلمة من نشوة اللقاء فشعر بالخوف يقبض قلبه . ولكنه قاوم الخوف بقوة الخوف نفسه فضحك وقال :

— يؤسفنى اننى ازعجتك يا اماه . ولكنى ما كنت اطمع فى هذه النتيجة السارة وهى حضورك بنفسك !..

وجعلت تتفحصه بعناية بوجه ينم عن اشفاق ورحمة ثم قالت :

— ماذا بك يابنى ؟.. كيف حالك ؟.. حدثنى عن مرضك ؟!

وداخله ارتباك بذل قصاراه كى لا تلوح اماراته فى وجهه . وكان واثقا من أن مظهره لا يشى بمرض ، بل لم يكن يخفى عليه أن صحته تقدمت تقدما ملموسا منذ توظفه لتحسن حالته الغذائية بصفة عامة ، قال ببساطة :

— لا شيء ذا بال . اصبت بنزلة معوية حادة ولكنها لم تلازمنى اكثر من يوم وبضع يوم ..

فقالت وعيناها لا تتحولان عنه :

— لشد ما انزعجنا جميعا خصوصا وانك طمانتنا على صحتك فى خطابك الأسبق ..

ثم استدركت بعد وقفة قصيرة :

— وتوهمنا فى الأمر خطورة ، والعياذ بالله ، لما رأينا من اضطرارك قطع نقود هذا الشهر عنا ..

وشعر بمثل شكة الابرة فى نفسه ، وقال بعجلة مبتسما ابتسامة باهتة :

— اضطررت الى استدعاء طبيب وشراء أدوية فأنفقت أكثر من جنيهين ، وأنت تعلمين بانه ليس لدى احتياطى للطوارىء !

— لا عليك من هذا انى مسرورة لانى وجدتك فى صحة جيدة ، ويحسن بك أن تبعث برسالة فى الحال الى اخيك لتطمئنه هو ونفيسة اللذين تركتهما فى أشد حالات القلق ..

ثم القت نظرة منفحصة على حجرته . فعلق بصرها بالبدلة الجديدة على المشجب فى خوف وقلق وتهيأ عقله لاختلاق كذبة جديدة ، ولكنها قالت :

ــ حجرتك نظيفة واثاثها جيد . هلم ارنى شقتك ..

فضحك حسين قائلا :

ــ ليست شقتى الا هذه الحجرة ، وتوجد حجرة اخرى مغلقة لعدم الحاجة اليها .

ــ كانك تستأجر حجرة بايجار شقة !.. الم يكن الفندق أفضل ؟ ..

ــ على العكس فان ايجارها ينقص عن الفندق خمسين قرشا .

ــ أخبرتنا بانك لم تحتج الى خادم افلا يتعبك تنظيفها ؟

ــ كلا ، هذا على هين كما تعلمين !

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :

ــ يبدو لى أنك مرتاح ومسرور يابنى ، ولذا فانا سعيدة .

وخيل اليه أن الأزمة قد مرت بسلام فقال بارتياح صادق :

ــ أنا السعيد يا أماه ، وساستأثر بك شهرا كاملا .

فما تمالكت أن ضحكت وقالت :

ــ بل هذه الليلة فحسب . ليس لى مكان أنام فيه ، وساكلفك اكثر مما تحتمل ما دمت تجيء بطعامك من السوق .

وقبل أن يتكلم دق الباب فقام اليه ، وسمعت الأم صوتا يقول بلهجة ريفية « سيدى حسان يسال عما اخرك اليوم » ثم سمعت حسين يعتذر بحضور والدته من القاهرة ، وأغلق الباب وعاد الشاب الى مجلسه من الفراش فوجد أمه تنظر اليه بعينين متسائلتين فقال :

ــ خادم جارى حسان افندى باشكاتب المدرسة ..

وكانت تعلم من رسائله أنه الرجل الذى أقنعه بالانتقال الى الشقة وعاونه على ذلك بضمانته لأثاثه الجديد فقالت :

ـ يبدو لى من قول الخادم انك تمضى عنده فراغك .

وتوهم لحظة انها مطلعة على سره كله فقال دون ان ينظر اليها وهو يشعر بلسعة الخوف تجرى فى لعـابه وتعترض زوره :

ـ كثيرا ما أفعل . انه رجل طيب وهو الى هذا رئيسى وقد وجدت فى صـحبته ما اغنانى عن المقاهى و « مفاسدها » .. لا بد للانسان من تسلية يزجى بها فراغه ..

ثم قامت الأم الى الحمام فغسلت وجهها ، وخلعت معطفها فتناوله حسين ونفض عنه الغبار بفرشاته وهو يدعو الله أن تمر الزيارة بسلام . أجل قد تولاه القلق وخاف على سره الافتضاح واضطرب لوجودها فى موطن هذا السر فلعن الظروف السخيفة التى اجبرته على منع النقود عنها . وعادت المرأة الى مجلسها واخذت تسائله عن احواله وحياته ، ولكن لم يمتد حبل الحديث طويلا لأن الباب دق مرة أخرى فذهب حسين ليفتحه فيما يشبه الحنق وكان القادم هو الخادم نفسه وقد قال بصوت بلغ مسمعيها :

ـ الست الكبيرة ترغب فى أن تحيى الست والدتك .

ونهضت الأم مسرعة وخرجت الى الردهة وقالت للخادم :

ـ لا يوجد مكان هنا لاستقبالها ، سأزورها بنفسى ..

وذهب الخادم فعادا الى الحجرة وحسين يقول :

ـ لا داعى لهذه الزيارة ، ولا يجوز أن نفترق دقيقة واحدة فى المدة القصيرة التى تمكثينها هنا .

فتنهدت قائلة :

ـ مجاملات لا بد منها ، ولا يخفى عليك انه يهمنى أن أجامل اسرة رئيسك ..

وعاودا حديثهما ردحا من الزمن حتى خفت حـدة النور واقبل الأصيل فنهضت الأم لترتدى معطفها قائلة « آن لى أن أزور حرم جارك » وراقبها الفتى بعينين كئيبتين حتى غادرت

الشفقة . ثم تنهد من الأعماق وتساءل « ترى هل يساورها شك ؟.. كيف تنتهى هذه الرحلة ؟! » .

٥٤

ولبث وحده مغتما قلقا . وتزايد قلقه بمرور الوقت . ثم لم يعد يشك فى افتضاح سره . ثم تسائل مدافعا عن نفسه فيم هذا الوهم كله ؟! عسى أن يمر كل شىء فى سلام . لا يمكن ان يلمحوا الى شىء . هذا مؤكد . ولكن هل تغيب عنها الحقيقة اذا رات احسان ؟. وتنبه الى زحف الظلام فقام واشعل المصباح الغازى . ثم سمع الباب يدق فدق قلبه معه فى عنف ومضى اليه ففتحه فدخلت أمه وهى تقول :

— لا اظننى غبت كثيرا .

وعادا الى الحجرة فوقف هو مستندا الى حافة النافذة وراحت هى تخلع معطفها وحذاءها فى صمت ، وجعل يقول لنفسه « وراء هذا الوجه شىء ، بل اشياء ، انى أعرف هذا . أراهن على انها لم تتجشم السفر لتطمئن على صحتى . ليست أمى بالأم الضعيفة ، انها حنونة حقا ولكنها قوية ما فى هذا من شك . ما افظع هذا الصمت ، متى ينقطع ؟ » وسألها متظاهرا بعدم الاكتراث :

— كيف وجدتهم ؟

فارتقت فراشه وتربعت عليه ثم قالت باقتضاب :

— لا أدرى لماذا لم يرتح قلبى اليهم !

انه يدرى لماذا ، برح الخفاء ، ووقع المحذور . وقال :

— الحق ان حسان أفندى رجل طيب ..

— ربما . لم أقابله بطبيعة الحال ..

لن يسألها عما لم ترتح اليه منهم . فليتجاهل المسألة . ولن يطول هذا طويلا على أية حال . ووجدها تنظر الى يديها اللتين شبكتهما على حجرها . انها تفكر فيما ينبغى قوله . لشد ما اخطأ . ما كان ينبغى أن يستسلم لاغراء الظروف التى انتهت بمنع ارسال نقوده هذا الشهر . كيف ضل عائل الأسرة ؟! . ورأى امه ترنو اليه بطرف واجم ثم تقول :

ــ أما وقد اطمأننت عليك فلا اظن أن يخجلنى ان اصارحك بأن منع النقود عنا قد اخافنى . اعذرنى يا بنى اذا اعترفت لك بأنه ساورنى بعض الظن بأن يكون المرض مجرد اعتذار !

فصاح وهو لا يدرى :

ــ اماه !

ــ معذرة يا بنى ان بعض الظن اثم ، ولكنى كنت أفكر طويلا فيما يمكن أن يلقى شاب وحيد فى بلد غريب . اجل انى أومن بعقلك ولكن الشيطان شاطر فخفت أن يكون اضلك ، ولا تسل عن حزنى وانت تعلم بأنى أعتمد بعد الله عليك . أخوك حسن لم يعد منا ، ونفيسة فتاة تعيسة الحظ ، وحسنين تلميذ وسيظل تلميذا طويلا ، وانت أدرى به ؟ وانا لنشقى ونجوع فى مغالبة حظنا ، وقد خسرنا نصيبك من المعاش وسنخسر عما قريب نصيب أخيك منه .

فقال حسين بانفعال :

ــ لست فى حاجة الى من يذكرنى بهذا يا أماه ، لقد أخطأت . . اضطررت الى منع النقود اضطرارا لا حيلة لى فيه . انى جد حزين يا أماه .

فقالت برقة وكأنها تحدث نفسها :

ــ انا الحزينة . .

ثم استطردت بعد لحظة صمت :

ـ انا الحزينة لانى ابدو كثيرا وكأنى أحول بين أبنائى وبين سعادتهم !

فقال بقلق :

ـ لشد ما تظلمين نفسك . انت أم رحيمة كأحسن ما تكون الأم رحمة ..

ـ يسرنى انك تفهمنى يا بنى .

وتنهدت وهى تنظر فى عينيه ثم قالت :

ـ لا يقلقنى شىء فى حياتى كما يقلقنى مستقبل اختك نفيسة . أود لو اغمض عينى ثم افتحهما فأجدها فى بيت زوجها . ولكن كيف ؟! لسنا نملك لتجهيزها مليما ، وأخوف ما اخاف ان أموت قبل ان اطمئن عليها . انتم رجال اما هى فمن الولايا اللاتى لا نصير لهن .

فصاح حسين مستنكرا :

ـ لن تكون بلا نصير ونحن على قيد الحياة ..

فتنهدت مرة اخرى قائلة :

ـ مد الله فى أعماركم ، ولكن الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت أخيها المتزوج !

ولاحت فى عينيه نظرة ذات معنى . انه يفهم ما يقال . اذا كانت الفتاة لا تضمن سعادتها فى بيت أخيها المتزوج ، وما دام حسنين فى حكم المتزوجين ، فلا يجوز له أن يتزوج !. منطق معقول ! ورحيم أيضا ! ، بيد انه ينطوى على حكم بالاعدام . ما عسى أن يقول ؟ لم يعد يخاف ان تنهال عليه ضربا كما كانت تفعل أحيانا ، ولكنه لن يتخذ من هذا الأمان مسوغا لاغضابها ، وعلى العكس سيتخذ منه دافعا بريئا للمبالغة فى اكرامها . وقال بهدوء :

ـ اطمئنى يا أماه . ارجو الا تجد نفيسة نفسها يوما فى هذا المأزق ! .

فهزت رأسها هزة كأنها تقول له لندع المداراة جانبا ولنتكاشف ثم قالت :

ــ الحق لقد الحت على بعض الخواطر فلم اجد فرجة الا فى ان اسافر اليك على مشقة السفر وكثرة النفقات .

فابتسم بلا وعى تقريبا :

ــ اذن لم تحضرى كى تطمئنى على صحتى !

وندم فى اللحظة التالية على افلات هذا القول منه ، ولكنها ابتسمت اليه ابتسامة حزينة وقالت :

ــ اصغ الى يا حسين ، اترغب فى ان تتزوج ؟

فتظاهر بالانزعاج ليخفى اضطرابه وقال :

ــ انى اعجب لما يدعوك الى هذا الظن !

ــ ليس أحب الى من أن أراكم ازواجا سعداء ؛ ولكن هل ترغب فى ان تعجل بالزواج حتى قبل أن تنهض أسرتك من كبوتها ؟

ــ لم أفكر فى هذا مطلقا ..

ــ الا يضايقك تطفلى هذا ؟

ــ مطلقا !

ــ واذا اقترحت عليك ان تؤجل التفكير فى الزواج ، الا تجد فى اقتراحى ظلما ؟

ــ هو عين العدل والرحمة ..

فخفضت عينيها قائلة فى حزن :

ــ ليس شقائى الحق فيما نزل بنا ولكن فيما أراه واجبا مما يبدو لعين المتعجل قسوة وانانية ..

ــ لست هذا المتعجل على أية حال !

فترددت لحظة ثم قالت :

ــ ان ما أراه من حسن تقبلك لكلامى يشجعنى على أن انصحك بان تترك هذه الشقة وتعود الى حجرتك بالفندق .

برح الخفاء ! وأصيب بذهول ، ثم غمغم متسائلا :

ـ الفندق !!

فقالت بحزم :

ـ انت لا تدرى من أمر الناس شيئا . ولعل جيرانك أناس طيبون ولـكنهم لا يحفلون الا بمصلحتهم . واذا حافظت على جيرنهم كرهتنا وانت لا تدرى ! ..

٥٥

ولم يعودا الى هذا الحديث مرة اخرى فلم تكن الترثرة من طبعها شأن الكثيرات من النساء . وقد قضيا صباح الجمعة فى سـعادة شاملة . حينا فى البيت ، ثم انطلقا فى المدينـة لزيارة السيد البـدوى . ولكنها صممت على الذهاب الى المحطة مع الضحى فلم يسعه الا الاذعان لها مرغما . وذهبا معا وقطع لها تذكرة . وفى اثناء انتظار القطار قال لها :

ـ سأبقى فى البيت حتى نهاية الشـهر لأنى دفعت الايجار كما تعلمين ..

فكان جوابها أن دعت له بالتوفيق والسداد ، ثم جاء القطار فودعته وصعدت الى عربة من عربات الدرجة الثالثة وانحشرت بين جمع حافل من القرويات والقرويين ، وغشيته كآبة ثقيلة ، لأنه كان يقف منها موقف التوديع لأول مرة فى حياته ، فغمز القطار الذاهب قلبه غمزة قوية ، ولأنه عز عليه أن يراها منزوية فى العربة الحقيرة وسط البؤس والبائسين ، وعاد الى البيت كثير الهم والفكر . « انا الملوم . انى أدفع ثمن حماقتى . أى شيطان يخصنى بعنايته ؟. هذه هى المرة الثانية ، الخيبة تلاحقنى دائما ، لا مفر » . وجاءه خادم حسان افندى يدعو والدته الى الغداء فأخبره بأنها سافرت الى القاهرة . وجاءه مرة أخرى فى المساء يدعوه الى السهرة المعتادة فلم يسعه الا الذهاب .

وجلسا حول خوان النرد فى الحجرة بعد أن أحكم الشتاء اغلاق الشرفة . وسأله حسان افندى :

ــ كيف عادت والدتك بهذه السرعة ؟

فأجاب حسين مبتسما :

ــ لا يمكن أن يستغنى عنها بيتنا اكثر من يوم ..

ــ تجىء الخميس وتذهب الجمعة ؟!.. رحلة لا تستحق مشقة القطار !

ــ ولكنها حققت لها ما تريد فاطمأنت على وتبركت بزيارة السيد ..

واشار الرجل الى داخل الشقة قائلا :

ــ قالوا لى انها ست طيبة جدا .

ــ بعض ما عندكم ..

فتساءل الرجل وهو يرمش بعينيه العمشاوين .

ــ كنا نود لو زارتنا قبل الرحيل !

ــ كانت متعجلة ، وقد حاولت أن أؤخر سفرها الى العصر ولكنها اعتذرت بحاجة بيتنا اليها ..

فقال الرجل بأسف :

ــ واعددنا لهاغداء طيبا فاخترت لها بنفسى ثلاث دجاجات مسمنة ..

فابتسم حسين فى ارتباك وتمتم :

ــ بالهنا والشفا لكم ..

وضحك الرجل ، ثم فتح علبة النرد ولكنه بدلا من ان يشرع فى اعداد القطع للعب سأله باهتمام :

ــ ألم تفاتحها بما « اتفقنا » عليه ؟

فشعر حسين بحرج ولكنه قال :

ــ كلا ..

ـ له ؟

ـ انها تعدنى رجل بيتها فكيف افاتحها بهذا ؟

فتناول الرجل زهرالنرد فى قبضته وهزه ورماه ، ثم قال :

ـ أنت رجل خواف . كانت أمك خليقة بأن تفرح لهذا النبأ .

ـ انه خليق بالفرح اذا جاء فى حينه ..

فضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال ببطء :

ـ لى فلسفتى الخاصة فى الحياة . ألق بنفسك فى عبابها ولا تخش شيئا . هل سمعت عن شخص واحد بمصر مات جوعا ؟

فقال حسين مبتسما :

ـ اصل شعبنا اعتاد الجوع !

فضحك حسان افندى واستطرد قائلا :

ـ كل الناس يعيشون . اغمض عينيك ثم افتحهما تجد الصغير كبيرا والتلميذ موظفا والأعزب متزوجا ولا تجد خاسرا الا من كان خوافا مثلك . هذه هى الحياة ..

خواف !؟ وضايقته هذه الصفة فثار عليها ثورة باطنية . ليس الخوف ولكنه أدرك الموقف على حقيقته . أكان يكون شجاعا حقا لو تخلى عن المراة وتركها تعود مهيضة الجناح خائبة الأمل !؟. ليس الخوف . الرجل الأحمق يسىء فهمه . انه مصاب فى آماله لا يجد من يرحمه ولا من يفهمه . وعندما بلغ هذه النقطة من افكاره وجد رائحة غريبة مفاجئة ، اجل وجد سرورا فى أن يكون على حق وان أساء الناس فهمه ، بل أكثر من هذا تركز السرور فى أن يسىء الناس فهمه وهو على حق ، سرور غامض كذلك السرور الذى يخامره وهو يستسلم لعنت القضاء . وقال مبتسما :

ـ أنت يا حسان افندى من أسرة كبيرة فلا يمكن أن تدرك متاعب اسرة كأسرتنا ..

وندت عن الرجل ابتسامة خيلاء داراها بعبوسة مصطنعة وتمتم :

ـ عالج امورك كما تشاء ولكن لا تنس نفسك . قال تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » . وكل آت قريب ، ما هى الا اشهر معدودات ثم يحصل اخوك على البكالوريا فيتغير الموقف . ارم الزهر لنرى من يكون البادىء باللعب ..

٥٦

وبعد مضى أسبوعين جاءته رسالة من حسنين ينبئه فيها بأنه ادى رسوم الامتحان وانه يذاكر ليل نهار لضمان النجاح . وكان عظيم الثقة بذكاء أخيه ومقدرته فلم يداخله شك فى النتيجة المأمولة . ونزعت به نفسه الى الأحلام مع انه لم يكن من الذين يستسلمون لسحرها عادة ، الى انه كان يؤمن بكذب هذه الأحلام بالذات . ورغم هذا كله تخيل أخاه قد فاز بشهادته . واقتنع بأنه ينبغى أن يتوظف ليحمل العبء عنه ، ثم تخيل نفسه يبدأ حياة سعيدة بضمير مطمئن !. انه لا يطمح الى أكثر من حياة مطمئنة هانئة فى ظل الزوجية . وقد علمته هذه الحياة التى حملها منفردا فى شقته المقفرة معنى الأسرة فحن الى حضنها الدافىء حنين المقرور تحت مطر منهمر الى المأوى . لم يعد يطيق الاختلاف الى المطاعم العامة لتناول غذائه ، وبات وكأنه يخاف الانفراد بنفسه فى حجرته ولو الى حين قصير ، واتعبه لحد السقم ما تتطلبه حياة الأعزب من رعاية متواصلة لشقته وأثاثه وملابسه ، وكل هذا يهون الى جانب ما يعانى من جوع قلبه وأشواقه . ولم يكن يحب الفتاة بالذات بقدر ما أحب فيها المرأة والحياة الزوجية ، ولكنها كانت المثال المحسوس لأحلامه فهفا اليها قلبه وحنينه . وزاد من تعلقه بها أنه لم يكن يراها الا فى القليل النادر مما تجود به المصادفات السعيدة ، وحسب حسين انهم يتعمدون اخفاءها ، ولكن تبين له أن حسان افندى رجل محافظ حقا وانه قد يتسامح

ولكن بالقدر الذى لا يخدش حياء ولا يجاوز حدا . ولو أن حسنين رضى بالوظيفة لمضى من توه الى فتاته وضمها الى نفسه وحيى الحياة الحقة . هـذا حلمه . ولكنه مجرد حلم . ولا يدرى متى يتحقق . وسيواصل حسنين تعليمه وما ينبغى له أن يحنق لهذا . اجل فليدع الأمور تجرى كما يشـاء الله ولينتظر . ولكن تبين له ذات مساء أنه لن ينعم بالانتظار فى هدوء وطمأنينة . اذ قال له حسان افندى عقب فراغهما من احتساء الشاى مباشرة :

ــ جد أمر هام يستحق أن أشاورك فيه .

رفع اليه حسين عينيه متسائلا فقال الرجل باهتمام .

ــ الأمر أن ابن عم احسان ــ وهو تاجر ومزارع بالبحيرة ــ يرغب فى طلب يدها . وقد رايت ان اسألك عن رأيك قبل البت فى الموضوع برأيى !!

وكانت مفاجأة سيئة وجم لها الشاب فى قهر وحيرة كأنه لا يصدق . والحق أن بعض الشك ساوره ولكنه وجد نفسه فى مأزق لا يخرجه منه تشككه . وشعر بحنق انسان وضعته ظروف قاسية بين لا ونعم وهو عاجز عن الكلام . فما عسى أن يقول ؟! اذا قال نعم خان أسرته . واذا قال لا قطع ما بينه وبين حسان افندى . وتراءى لعينيه على اضطرابه وحيرته وجه الفتاة التى تعلقت بها آماله فشعر بقبضة اليأس تشد على عنقه . ورمق الرجل الذى يعـذبه بنظرة باردة تخفى وراءها حنقا متزايدا . وكان الآخر يتفرس فى وجهه صابرا فلما طال الصمت غمغم متسائلا :

ــ ما قولك يا حسين افندى ؟

ولم يجد بدا من الكلام فقال بلهجة تنم عن الرجاء :

ــ لقد فصلت لك ظروفنا بما لا يحتاج الى مزيد .

فقال الرجل فيما يشبه الضجر :

ــ سيفرغ أخوك من دراسته فى أوائل الصيف القادم .

ــ ولكنه فيما أرى مصمم على مواصلة تعليمه ..

فقال الرجل بضيق :

ـ فكرة سخيفة لا يصح أن تذعن لها وتتحمل مسئوليتها .

وأراد أن يتفادى من الخطر الماثل فقال متهربا كما يتهرب الفأر وراء رجل كرسى لن تغنى عنه شيئا :

ـ بوسعى أن أعلن الخطوبة فورا على أن انتظر بعد ذلك ..

فتساءل حسان افندى بفتور :

ـ كم عاما ؟

آه ان الرجل يظنــه لا يحسب حسابا الا لأخيه ، ولا يكاد يدرى شيئا عن نفيسة ومشكلتها المستعصية ، ليته كان بوسعه حقا أن يصــارحه بالحقيقة كلها بغير خفاء !.. واجابه قائلا فى اشفاق شديد :

ـ اربعة أعوام .. ؟!

ونظر اليه ليرى وقع تصريحه من نفسه ثم بادر قائلا :

ـ لن يضيرنا الانتظار شيئا ، الا تثق فى ؟!

ومط الرجل بوزه وهو يهز رأسه ثم قال بهدوء مخيف :

ـ أربعة أعوام ! يا ترى من يعيش !.. اتريدنى على أن أقول لأمها انى رفضت ابن عمها الذى يرغب فى الزواج منها الآن كى تنتظر أربعة أعوام ؟!.. يبدو لى يا حسين افندى انك لم تكن جادا فيما أظهرت من رغبة !

وانتفض حسين فى ألم بالغ وهتف :

ـ سامحك الله يا حسان افندى ! انى رجل مخلص ولا زلت عند رغبتى الصادقة ، ولا أدرى سببا وجيها يحول بينى وبينها .

فقال الرجل بفتور :

ـ لست أبا ولا أما فلا عجب الا ترى وجاهة السبب ، والآن فلندع النقاش جانبا وأجبنى باختصار الا تستطيع الأقدام على الزواج فى هذا العام ؟

وساد الصمت ، وطال دون أن ينبس حسين بكلمة . لم يجد

شيئا يقوله ، وتفكر طويلا فى حيرة ، ثم أطبق شفتيه فى يأس وقهر . وابتسم حسان افندى ابتسامة باهتة ، واطبق شفتيه بدوره وقد نم وجهه البيضاوى الصغير على الجمود والكدر . وطال الصمت والجمود وفاحت رائحة الخصام كالغبار فى يوم خميسينى فلم تعد تحتملها الأعصاب . ومع ذلك لم يحتمل حسين ان يجيء القطيعة من ناحيته فتساءل بصــوت حزين كأنه كان يتنبأ الجواب سلفا :

— الا يمكن الانتظار ؟

فقال الرجل بنرفزة : — كلا ! .

ومكث حسين قليلا فىخجل وألم ثم نهض مستأذنا فى الانصراف فأذن له . وغادر الشقة لا يكاد يرى ما أمامه من شدة الحزن واليأس ، غادرها وهو يعلم انه لن يعود اليها مرة أخرى . وذهب الى حجرته فأوقد المصباح الغازى وارتمى على الفراش . والقى على ما حوله نظرة سخط وعداوة ، عداوة لكل شيء ، كان فى تلك اللحظة عدوا لنفسه وللبشر جميعا « أضعيف أنا أم قوى ؟ وما صنعت بنفسى أهو اقدام أم فرار ؟! كل شيء بغيض مقيت ، هذه الحجرة التى أودعها وحجرة الفندق التى تنتظرنى بالوحشة نفسها وحسان افندى وطنطا وحسنين وأمى وأنا . ربما تصور الرجل انه يستطيع ان يضايقنى فى عملى بالمدرسة !.. تبا له ، سيجدنى أصلب مما يتصور . ولكن ما قيمة هذا كله ! الموت أرحم من الأمل . لست أعجب لهذا فالموت من صنع الله والأمل وليــد حماقتنا . الأولى خيبة والثانية خيبة فهل قضى على أن أمنى بالخيبة مرة بعد أخرى ؟ لماذا لا يتوظف بالبكالوريا ؟! لماذا لا يحب لنفسه ما أحب لى ؟! » وتناهى به الضيق فلم يعد يحتمل وحدته فقام الى المشجب وارتدى بدلته وغادر البيت ، وجعل يخبط على وجهه من شارع الى شارع فى ليل بارد حتى أعياه المشى فمضى الى مقهى . وأنعشه المشى والبرد من حيث لا يدرى فاتخذ

مجلسه وهو اهدا نفسا . وراح يتسلى بمنظر الجلوس ويستمع الى ما يتطاير من سمرهم فلم يخل من كلمة او لفتة تدعو الى الابتسام . وخبت فورة الغضب الجنونية وانحسرت موجتها الصارخة عن حزن عميق لكنه هادىء وصامت . ولا يخلو فى الوقت نفسه من ندم . اكان يؤثر حقا أن يوافق الرجل على رأيه ؟ هل يسره أن يترك أسرته تحت رحمة الأقدار ؟ يا له من أحمق .. من حقه أن يحزن ، ولكن ليس من حقه أن يغضب هذا الغضب الجنونى . وليس من الحكمة أن يستسلم للحزن . أجل انه يعلم انه سيحزن طويلا ما دام الشعور لا يخضع للعقل ، ولكنه يؤمن أيضا بأن لكل شىء نهاية ، حتى هذا الحزن الخانق لا بد أن يدركه العزاء . وانتظر هذا العزاء كما ينتظر فريسة الكابوس صحوة النجاة . انه آت لا ريب فيه كما علمته المحن ، وهناك لن يجد ما يندم عليه وسيجد ما يفخر به ويطمئن ضميره . ان شعوره بالواجب يفوق مشاعره الأخرى ، ولشد ما اخطأ الرجل حين اتهمه بالخوف ، ويحسبه أن أمه تفهمه وأنها تعده الأمل والعزاء ، وافتر ثغره عن ابتسامة لهذا الأمل المنتظر وهو يعانى مرارة الحزن الراهن ..

٥٧

وحوالى منتصف الصيف استقبلت الأسرة ــ بعطفة نصر الله ــ يوما سعيدا حين نجح حسنين فى امتحان البكالوريا . وجلسوا ثلاثتهم جلسة هناء وصفاء . فمرت ساعة لا يشوبها كدر ، وتملت الغبطة قلوب نهكها التعب . وجاء فريد افندى محمد وأسرته للتهنئة فشعر حسنين حيال خطيبته بشعور سعيد بخيلاء ساذجة كأن البكالوريا قد أضفت عليه رجولة جديدة خليقة باحترامها وعطفها . كان كعادته مرحا لطيفا فتحدث طويلا

منتشيا بالفوز والضحكات تنطلق من فيه تباعا . وكان منظر بهية مما يسنير سعادته وألمه معا . كان يسعده أن تلتقي عيناهما خفية فيقرأ في نظرتها الصافية المحبة العميقة المهذبة . ولكنه لم يكن يحظى بالصفاء تحت نظرتها الا قليلا ثم يندلع في قلبه لسان لهب . ثم يذكر حرمانه الطويل فيثور حنقه . ويرمق العامين المنطويين بحسرة واسف . واسترق اليها النظر خلال الحديث فانصهر بصره على وجهها البدرى وجسمها البض . وتخيلها — كما كان يطيب له ان يتخيلها كثيرا — متجردة الا من شعرها المنسدل فبلغ ريقه درجة الغليان . وجعل يتساءل صامتا الا يمكن ان تغير من سياستها بعد حصوله على البكالوريا ؟ اليس من العدل ان تهبه قبلة على سبيل التهنئة ؟! .. وظل وعيه متنقلا بينها وبين اخيلته وبين الحاضرين . وكان السرور شاملا بيد انه لم يخل من عذاب لا يكاد يرحمه في محضرها .

ثم خلت الأسرة الى نفسها مرة أخرى فداخلها احساس جديد — غير السرور الصافى — بالمسئولية : لأنهم تعلموا أن الظفر بالبكالوريا سعادة يعقبها تفكير ومتاعب . وكان اتمام تعليمه العالى امرا مفروغا منه فيما بينهم ولكن الرأى لم يستقر على اختيار بعينه . وقد قالت نفيسة :

— عليك الآن ان تختار المهنة التى تريدها .

فقال حسنين الذى كان قد قتل الأمر بحثا :

— التعليم العالى مرحلة طويلة شاقة ، ومستقبله مجهول .

فنظرت اليه المرأتان فى دهشة فاستطرد قائلا :

— لقد فكرت فى الأمر طويلا ، وانتهيت من تفكيرى الى انه يجب ان أختار مدرسة من مدرستين البوليس أو الحربية !

وهتفت نفيسة بسرور : — ما أجمل هذا !

ولم يحفل بسرورها لأنه كان يفكر فى الصعاب التى تعترض آماله فقال :

ــ دراسة عامين فحسب ثم اصير ضابطا . والنجاح مضمون تقريبا لانها دراســـة باللعب اشبه . والوظيفة فى النهاية لا شك فيها . هذه ميزات لا يستهان بها !

فهتفت نفيسة بالحماس نفسه :

ــ دراسة عامين ثم تصير ضابطا !.. ما اشبه هذا بالاحلام !

وتساءلت الأم باشفاق :

ــ والمصروفات ؟!

ونظر اليها طويلا كالحائر ثم قال :

ــ البوليس غالية جدا ، ولكن الحربية معقولة .. مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيها .

فتطلعت اليه المرأتان بوجوم ودهشة فبادرهما قائلا :

ــ ليس الأمل فى المجانيـــة معدوما أو على الأقل فى نصف المصروفات ، ولنا فى أحمد بك يسرى شـــفيع عظيم القـــدر فى هذه الحال ..

ولم يذهب الوجوم عن نظرة الأم وبدت قلقة حيال هـــذا الأمل . فقالت :

ــ حدثنى فريد افندى محمد عـــن معهد التربية الابتدائى فوجـــدت فيه ميزات تستحق التقـــدير ، فمدة دراسته ثلاث سنوات بالمجان تضمن بعدها وظيفة مدرس .

فقال الشاب بامتعاض :

ــ انى اكره أن أعمل مدرسا ، وأكره اكثر ان ألتحق بمعهد بالمجان .

ــ ولكنك لا ترى مانعا من دخول الحربية بالمجان .

ــ ثمة فرق كبير يقوم بين معهد يقوم على المجانية ومعهد قد يعفينى من مصروفاته كلها أو نصفها . سيقول الناس عن الحال الأولى انى تعلمت بالمجان أما فى الأخرى فهيهات أن يعلم بها أحد غير كاتب المدرسة !

فهزت الأم راسها غير مقتنعة وتمتمت :

ـ المسالة اخطر من هذا !

ـ لا يوجد ما هو اخطر من هذا ، انا اكره الفقر وسيرته ، ولا احب ان اخفض راسى بين اناس مرفوعى الرءوس !

ولم يكن هذا فحسب دافعه الحقيقى الى هذا الاختيار ، والواقع انه طمع الى المدرسة الحربية مدفوعا بنفسه الظمأى الى السيادة والقوة والمظهر الخلاب . بيد ان امه ظلت على قلقها وعدم اقتناعها فتساءلت :

ـ واذا لم يتيسر اعفاؤك من المصروفات ؟

ففكر متجهما ثم قال :

ـ سأحتاج بادىء الأمر الى الدفعة الأولى من المصروفات وفى مرجوى ان انالها من اخى حسن ! لا اظنه يتخلى عنى كما لم يتخل عن حسين ، اما الباقى فليس بمتعذر توفيره اذا نزلت لى عن نقود حسين الى ما يمكن أن تجود به نفيسة (ناظرا الى أخته) ولا اظنها تبخل على خاصة وأن عملها يجيئها بكسب لا بأس به..

ونقل بصره بين أمه وأخته ليسبر وقع كلامه ولكنه لم يحظ بما يشجعه فاستطرد يقول برقة :

ـ عامان شدة يمران كما مر غيرهما وبعدهما الراحة والهناء !

وثابر على ترديد بصره بينهمـــا فى رجاء ، ثم قال باغراء :

ـ أم ضابط وأخت ضابط !.. تصوروا هــذا ؟! تصوروا مغادرتنا لهذه العطفة الى شقة محترمة بالشارع العام !

ورقت نفيسة لنظرته المتوسلة فاجتاحها موجة ايثار وكرم فقالت :

ـ لا تحمل هما من ناحيتى ، سأهبك أقصى ما يمكننى أن أهبه !

فتجلت فى عينيه نظرة امتنان وغمغم :

ـ شكرا لك يا نفيسة ، ولن تكون أمى دونك كرما ، وسيمضى

كل شيء على الوجه الذى نحب جميعا ..

ودعت له الأم بالتوفيق ، لم تكن ترجو من ورائه خيرا كثيرا ، وكان اقصى ما تطمح اليه أن يؤجل زواجه — بعد توظفه — عامين حتى ترمم ما تهدم من أسرتها ، ولكن لم يسعها الا أن تنزل له عن نقود الانقاذ التى يرسلها حسين وأن تدعو له بالتوفيق من أعماق قلبها . وتأثرت نفيسة بما غمرها من ايثار وكرم ارتقيا بها الى منزلة عالية من الصفاء والسرور والحماس ، ونعمت بهذه السعادة لحظات غالية . ولكنها لم تدم طويلا ، اصطدم تيارها الدافق بعقبة كئود من الذكريات السود فتوقف عن الجريان الساجع وتجمع ونطين ، وفتر الحماس فخفضت عينيها فى خمود ، ليس الفرح الصافى من حقها ، وما عسى أن يصنع السرور بنفس ملوثة منطوية على البشاعة والشقاء ؟ .

٥٨

قال حسنين لنفسه وهو يغادر ميدان الخازندار الى شارع كلوت بك « سيقول حسن اننا لا نسعى اليه الا اذا طمعنا فى نقوده ! » وتألم لهذا الخاطر ، ولكنه خفف من وقعه قائلا انه هو — حسن — الذى لم يشأ أن يتردد أحد منهم على بيته . وجعل يتساءل فى حب استطلاع عما سيجد فى هذا المسكن المحرم ! ثمة شيء « غير طبيعى ، ولكنه لا يستغرب من حسن ! » .

ثم ذكر النقود التى يريدها فهاله الأمر ، ماذا لو عجز حسن عن أن يمد له يد المعونة ؟ ، وشعر بأصبع باردة تقبض على قلبه وتوشك أن تعصف بآماله . واهتدى أخيرا الى عطفة جندف واخذ يرتقى ارضها القذرة باحثا عن البيت رقم ١٧ حتى انتهى اليه ، ورأى غير بعيد بائع بطاطة جالسا القرفصاء على الأرض أمام عربته فسأله مشيرا الى البيت :

ـ هل يقيم هنا حسن افندى كامل ؟
فسأله الرجل بدوره :
ـ تعنى حسن الروسى ؟
فقال حسنين بدهشة :
ـ حسن كامل على المغنى ؟
فقال الرجل :
ـ هذا بيت حسن الروسى الذى يعمل بقهوة على صبرى بدرب طياب ..

واغضى حسنين فى حياء منزعجا انزعاجا فظيعا . لم يعد يشك فى انه حيال بيت اخيه وقد توكد ذلك بذكر على صبرى . ولكنه لم يتصور انه يعمل بهذا الدرب الذى فرقع اسمه فى أذنه كالقنبلة . وهذا اللقب : الروسى ما معناه ؟ ودخل البيت وكأنه يفر فزكمته رائحة بئر السلم النتنة وارتقى السلم الحلزونى وهو يشعر بأنه يهبط الى هاوية ما لها من قرار . وطرق الباب فجاءه صوت امرأة بصيح فى ابتذال « من ؟ » ثم فتح الباب عن امرأة قصيرة بدينة عميقة السمرة تنطق سحنتها بجمال وقح . حدجته بنظرة نافذة وسألته :

ـ ماذا تريد ؟
فقال حسنين بصوت منخفض من الاضطراب :
ـ حسن كامل ..
ـ من انت ؟
ـ أخوه ..
فانبسطت أسارير المرأة وتنحت جانبا وهى تقول :
ـ سى حسنين ؟
فتمتم فى ذهول :
ـ حسنين !

ودخل فى تهيب وحياء . من تكون هذه المرأة ؟ وكيف عرفت

اسماءهم ؟ هل تزوج حسن ؟ وشعر بقشعريرة باردة ، ايمكن ان يقال عن هذه المرأة انها زوجة أخيه ؟ وان امه حماتها ؟!.. وتمنى من اعماق قلبه ان تكون مجرد رفيقة . ومضت المرأة الى باب فى نهاية الدهليز ونقرت عليه ففتح بعد قليل وظهر حسن على العتبة . وكأنه شعر بوجوده فاتجه بصره اليه ثم هتف بدهشة وسرور :

ــ حسنين ..

وهرع نحوه وشد على يده بترحيب وشوق . وقبل أن يتكلم احدهما تسلل من الحجرة نفر من الرجال متتابعين ، ألقوا على حسنين نظرة عابرة وقال بعضهم مخاطبا حسن :

ــ بنسافر عصر اليوم الى السويس باذن الله ، وتلحق بنا غدا ..

ثم غادروا الشقة . كانوا من ذوى الجلاليب ، تلفت سحنتهم النظر بغرابتها ولا يكاد يخلو وجه أحدهم من تشويه . وداخل حسنين شعور بالقلق ، من يكون هؤلاء الرجال ؟.. أفراد التخت ؟.. ما أبعد هذا عن التصور . لقد ذكره منظرهم برجال العصابات كما يظهرون على الشاشة وطرأت عليه فكرة مرعبة بأن شقة أخيه تناصب القانون العداء !. والقى على حسن نظرة متوجسة فرآه يرتدى جلبابا مقلما فضفاضا ، ويبدو فى صحة وقوة ولكن يلوح فوق حاجبه الأيسر وفى صفحة عنقه اليسرى ندبان كبيران كأنهما أثرا طعنتين شديدتين . رباه ، أن أخاه لا يخلو من تشويه اجرامى ايضا ! ولعله الآن يستطيع أن يدرك حقيقة الاسباب التى حجبته عن عالمهم . وأومأ حسن الى الحجرة فى نهاية الدهليز وقال للمرأة :

ــ رتبى الحجرة واجمعى الأشياء ..

وشبك ذراعه بذراع حسنين واتجه الى حجرة النوم ، ثم اغلق الباب وراءهما وأجلسه الى جانبه على الكنبة وهو يقول :

ــ كيف حالكم ؟ .. كيف الوالدة ؟ .. ونفيسة ؟ .. وما اخبار حسين ؟

وحدثه عن الأسرة بعقل شارد وروى له ما يعلم من أخبار حسين ثم قال بلهجة تنم عن العتاب :

ــ انقطعت عنا كانك لست منا ولسنا منك ، وباتت أمنا فى حزن شديد ..

وهز حسن راسه فى كآبة وقال :

ــ انى غارق فى حياتى حتى قمة راسى ، ولكن توظيف حسين طمأننى عليكم ..

وتساءل حسنين متأثرا بما طرأ على أخيه من تغير فى مظهره ترى هل بقى على حبه القديم لهم ؟، وانساق بغريزته الى التودد اليه قبل أن يتطرق الى مهمته وتساءل فى قلق :

ــ ما هذا يا أخى ؟!

فقال حسن ضاحكا :

ــ مخلفات معارك . لم تكن حياتى لتخلو من عراك وقد أصبح العراك من أهم واجباتى فى الحياة الجديدة ..

وود لو يسأله عن هذه الحياة الجديدة ولكنه تحامى ذلك بغريزته ايضا ، لقد قصد هذا البيت المحرم فى سبيل الحياة ، وحسن يتخذ من العراك واجبا فى سبيل الحياة أيضا ، فما أفظع ما تسيمنا الحياة من خسف ! « من كان يحلم بهذا المصير ونحن صغار نلعب !. كان حسن طفلا حاذقا شاطرا ، وكان أبى يحبه أكثر من اى شىء فى الوجود ، ثم بدا وكأنه انقلب له عدوا ، ولكن لم يكن يتصور احد أن ينتهى به المطاف الى هذا البيت !.. لا شك أن حسين ادرك الحقيقة فى زيارته لهذا البيت فى سبتمبر الماضى ، ولكن ترى هل تعلم أمى بكل شىء ؟! » . لم تواته شجاعة على السؤال الصريح ولكنه تساءل فى مكر :

ــ ما العلاقة بين الغناء والعراك ؟

فقهقه حسن ضاحكا ثم قال :
ـ هما شيء واحد في عرف الكثيرين ..
وهنا جاءهما صوت المراة من خارج وهي تقول :
ـ اني ذاهبة ، هل تريد شيئا ؟
فقال لها باقتضاب :
ـ مع السلامة ..
ولم يستطع حسنين ان يقاوم حب استطلاعه فساله بقلق :
ـ هل تزوجت يا أخي ؟
ـ كلا ..
فلاح الارتباك في وجه حسنين غير خاف فتساءل حسن :
ـ اسرك هذا ؟
ـ نعم ...
ـ لماذا ؟
فقال الشاب بسذاجة :
ـ افضل أن تختار زوجك من وسط كوسطنا ..
فقطب حسن كالمستاء وقال :
ـ انها أفضل من سيدات كثيرات ، تحبني وتخلص لي ولا تضن علي بمال ..
وأوشك أن يقول له « ومن مالها الخاص اعطيت حسين ما احتاجه من نفقات » ولكنه أمسك رحمة بأخيه ـ لم يستطع التغير الذي لحق بطبعه أن يؤثر في عواطفه نحو اخيه حتى حين استيائه ـ ولما رأى القلق والندم يلوحان في عيني الشاب قال برقة :
ـ ان اخلاص الزوجة لزوجها لا يخلو من منفعة وراءه أما هذه المراة فاخلاصها غير مشوب . سوف تعلمك الحياة أمورا كثيرة تجهلها ..
فهز حسنين راسه متظاهرا بالاقتناع ، وابتسم الى اخيه

ابتسامة رقيقة متوددا . ثم ذكر امرا كاد ينساه فرحب به ظنا منه انه خليق بأن يضفي على الجو الذى كاد يتوتر روحا من المرح فسأل اخاه ضاحكا :

— علمت وانا اسأل عن بيتك انهم يدعونك الروسى فما معنى هذا ؟

فضحك حسن ضحكة عاليـة اعادت الطمانينة الى نفس الآخر وقال وهو يشير الى رأسه :

— نسبة الى هذا !.. انى اكسب بعرق جبينى على نحو ما ؛ وبسط يده ونطحها براسه ثم نظر الى اخيه نظرة ذات معنى ضاحكا ، او بالأحرى بدم جبينى . لا بد من العـرق كى تعيش ولكنه يختلف العضو الذى يعرق بين فرد وآخر .

وشعر حسنين بغرابة نحو اخيه ، وفكر مليا ، ثم قال بحزن:

— ثمة اناس يكسبون دون ان يعرق لهم جبين !

وبدا حسن وكأنه لم يفهم قوله على حقيقته فقال بحماس :

— هذه غاية الشطارة .. ان تكسب بعرق جباه الآخرين !

وسئم حسنين هذا الحديث الذى يجرى بلا ضابط فصمم على ان يطرق الموضوع الذى جاء من اجله . وصمت قليلا ثم قال بصوت منخفض :

— اظن يسرك ان تعلم بأنى نجحت فى امتحان البكالوريا ..؟

فهتف حسن بسرور :

— مبارك . اسر طبعا بسرورك وسرور أمنا !

تفرس فى وجه الشـاب ثم اسـتطرد فى لهجة لا تخلو من اشفاق وسخرية :

— وظيفة ، ثم طنطا او الزقازيق ، اليس كذلك ؟

فقال الشاب منتهزا هـذه الفرصة التى هيأها الآخر كى يتقدم خطوة جديدة فى سبيل غرضه :

— كلا ، فى نيتى ان التحق بالكلية الحربية !

— الحربية !.. عظيم جدا !.. الحمد لله على انك لم نحتر مدرسة البوليس ! .

— مصروفاتها كبيرة ..

— لا اعنى هذا ولكنى لا استلطف ضباط البوليس !.

فحدجه الشاب نظرة تساؤل فقال حسن مبتسما :

— ضباط الجيش رجال أفراح ، نراهم امام المحمل وفى الاحتفالات الكبرى أما ضباط البوليس فلا نراهم الا عادين وراء خراب البيوت ! ..

وساد الصمت وراحا يتبادلان النظرات ، حسنين فى قلق وحياء وحسن فى ابتسام له معناه ، ولبثا كذلك طويلا حتى انفجر حسن ضاحكا فضحك الآخر وهو يغض بصره حياء ، وواصلا الضحك حتى تعبا . ثم سأله حسن بلهجة ذات مغزى :

— كم ؟ !

فضحك حسنين مرة أخرى وقد احمر وجهه من الحياء . ثم قال :

— الدفعة الأولى من المصروفات . يؤسفنى ان أقول انها مبلغ لا يستهان به ولكنى سأدبر الدفعة الأخرى ومصروفات العام الثانى من نقود حسين وما وعدتنى به نفيسة !

وذكر حسن كيف كان يعد فيما مضى الخائب الفاشل فى الأسرة جميعا : الآن يرونه ملاذهم فى الملمات ! وأحس زهوا ولكن هذا لم يغير من شعوره الطيب المتأصل فى نفسه نحو اسرته بل لعله ضاعفه . وساءل أخاه مبتسما :

— كم هذا المبلغ الذى لا يستهان به ؟

فقال حسنين فى خوف :

— عشرون جنيها !

ولاح الانزعاج فى عينى حسن وقال وهو لا يدرى :

- عشرون جنيها !. . ان جيبنا كله لا يساوى هذا المبلغ !. . هل ننوى الالتحاق بمدرسة اللواءات ؟

وانتظر حسنين فى اضطراب وقلق ولم ينبس بكلمة حتى عاد الآخر يقول بجد واهتمام :

- هذا مبلغ جسيم حقا ، ولا يمكننى ان اعطيك - اليوم على الأقل - أكثر من عشرة جنيهات !

وسادت فترة من صمت أليم ، ثم نفخ حسن فى ضيق وقال:

- لو جئتنى قبل اسبوع !.. وعلى أية حال سأسافر غدا الى السويس ولعلى اعود بما يكفيك !

وتفكر مليا على حين قال حسنين بصوت منخفض :

- يؤسفنى انى ازعجتك !

فقرصه فى انفه ضاحكا وقال :

- كيف تعلمت هذا الأدب وعهدى بك طويل اللسان .!. لا تنزعج سآتيك بما تريد ولو قتلت قتيلا ونشلت محفظته .

ثم أعطاه عشرة جنيهات ، وحمله السلام الى أمه وأخته ، وطلب اليه أن يستمسك بالحكمة اذا تحدث عما رآه فى بيته . وشد حسنين على يده شاكرا وغادر الشقة . وما أن انفرد بنفسه حتى قال بصوت ثقيل كئيب «حياة حسن فضيحة يجب التستر عليها ، ولعل ما خفى منها أدهى وأفظع » . وقطع الطريق متفكرا مقتما يلفه احساس بالاشمئزاز والخوف .لم يكن بوسعه أن ينسى جميله ولا ما أبداه نحوه من عطف أخوى ، ولكنه لم يستطع كذلك نسيان المرأة والرجال المشوهين والنذبين الخطرين ، تفشى هذا كله على صفحة قلبه بمداد التقزز والرعب . ربّاه ، لقد انقلب حسن الى نوع آخر من الآدميين ، لم يعد من الأسرة ولا من المجتمع الذى يعرفه . انه يترنح كأنما ضربة قد هوت على رأسه فافقدته وعيه ، وكلما جد فى السير امتلأ شعوره

بفداحة الخطب . وذكر حاجته اليه التى جعلته يستوهبه نقوذا لا يدرى من اين اتت ، فاشتد اشمئزازه وحنقه ، ولعن هذه الحاجة من اعماق قلبه فى يأس وقهر . وأمر من هذا كله ان حاجته لم تنته ، فسيعود اليه بعد ايام ويمد اليه يده سائلا ! ترى من اى سبيل تأتيه النقود فى السويس !. ان قلبه لا يكذبه ، وفيما راى بعينيه الكفاية لمن ينشد الدليل ، ورغم هذا كله سيعود اليه ويسأله ان يتم صنيعه له ! هل يستطيع ان يغضب لكرامته حقا ؟ هل يستطيع أن يرد هذه الجنيهات الى اخيه ويصيح فى وجهه انى لا ارضى عن حياتك القذرة ؟ وندت عنه ضحكة مبحوحة مرة .. انه يعلم انه يهذى هذيانا سخيفا . سيعود اليه راضيا ويأخذ النقود ــ اذا تفضل بها ــ شاكرا ممتنا . ولو علم انه ذاهب الى السويس ليسرقها ما وسعه الا ان يدعو له بالتوفيق . وقال وكأنه يحاور ضميره المتوجع « مهما يكن من امر فهو بالنسبة لنا اخ فاضل كريم ! » .

٥٩

وفى عصر اليوم نفسه مضى الى فيللا أحمد بك يسرى بشارع طاهر . والواقع أنه كان يندفع بحيوية هائلة نحو الأمل الذى ركز فيه حياته جميعا ، فاما الحرية أو الموت . وجلس فى السلاملك ينتظر البك مسرحا طرفه فى اطراف الحديقة أو فى الشطر الأمامى منها على الأصح . وكان مشتت اللب قرآها رؤية غامضة ، وتنقل بصره الشارد بين نخيلها الرشيق المنغرس وسط دوائر من الحشائش المنسقة سورت بنبات الشيح وانتشرت فى ارقاعها شجيرات الورد على هيئة أهلة . وارتاح لحظة من أفكاره فاستقر ناظره على دائرة حشائش كبيرة تتوسط المكان ما بين مدخل

الفيللا والسلاملك فاستسلم اليها فارا من قلقه . وكانت تنبثق من وسطها نخلة قصيرة ذات جذع أبيض ترف عليه روح الطفولة ، وتغشى سطحها شجيرات الورد بوفرة حتى تماست أغصانها وتعانقت أزهارها فامتزجت فى هالة كبيرة انثالت عليها الحمرة والخضرة والصفرة فى وئام وائتلاف وسلام . وابتسم وهو لا يدرى . وكان الظل قد زحف على أرض الحديقة وما وراءها من الطريق ولاحت آثار الشمس المائلة فى أعلى الدور على الجانب الآخر للطريق ولكن الهواء هفا مائلا للسخونة مفعما بعرف الياسمين الجاثم على سور الفيللا . وورد على خاطره هذا السؤال « هل يمكن أن أقتنى يوما ڤيللا كهذه ؟ » وتخيل الحياة فيها ما بين المخدع والحديقة وما يتبعها عادة من سيارة وأسرة محترمة . هذه هى المرة الثانية التى يزور فيها ڤيللا أحمد بك يسرى ، وفى كلتا المرتين انفجر فى صدره بركان من الطموح والسخط والتلهف على متع الحياة النظيفة المحترمة . وكان أخوف ما يخافه أن ينحصر فى حياة كحياة حسين فيقطع عمره ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا أمل ناضر . فى الحياة متع عالية وهواء نقى وينبغى أن يأخذ نصيبه منها كاملا . وتوقف عن التفكير فجأة حين لمح دراجة تمرق من الجانب الأيسر للحديقة وعليها فتاة . وكانت الفتاة توجه الدراجة فى حذر على مماشى الفسيفساء بين دوائر الزهور فاستغرقها الحذر عن النظر فيما حولها . كانت فى السادسة عشرة ، ترتدى فستانا أبيض هفهافا وتعصب رأسها بايشارب منمنم . ذات قامة نحيلة وصدر ناهد وبشرة نقية . وقد أعجله النظر الى ساقيها المدملجتين اللتين تتناوبان الارتفاع والانخفاض فلم يكد يتبين وجهها ، واختفت وراء جناح الفيللا الأيمن قبل أن يستدرك ما فاته منها . وثار فى عينيه اهتمام ويقظة . اذا لم تكن هذه

الفتاة كريمة أحمد بك فمن تكون .؟ وابتدرت مخيلته تستدعى صورة بهية بجسمها اللدن الممتلىء ووجهها البدرى . شهية جميلة ولكنها ليست من هذه الرشاقة فى شىء ! ثم ذكر اخته نفيسة فعجب للاختلاف البين بين مخلوقات من جنس واحد ، ثم شعر فى قلبه بغمز الم وعطف وعاد الى نفسه فوجد فيها من فتاة الدراجة أثرا يشبه الأثر الذى تركته الحديقة والفيللا ونجفة بهو الاستقبال ، طموحا وثورة وسخطا ! « ما اجمل أن املك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة » . ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة . فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدى فى تسليم مسبلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بى قائلا « سيدى .. هذه هى الحياة . اذا ركبتها ركبت طبقة بأسرها ! » ثم عاودته ذكرى بهية فتضاعف ألمه وامتزج به ما يشبه الندم والخجل . وهنا سمع وقع أقدام آتية من ناحية السلم فالتفت صوبها منقطعا عن تيار أفكاره فرأى أحمد بك قادما فى بدلة بيضاء من الحرير وقد رشق فى عروة الجاكتة وردة حمراء فانتفض قائما واقبل نحوه فى أدب وانحنى على يده مسلما فى اجلال وابتسم البك مرحبا وسأله وهما يجلسان :

— كيف حال الأسرة يا بنى ؟

فقال حسنين بتودد :

— يقبلون يدك الكريمة ويذكرون صنائعك .

فغمغم البك :

— استغفر الله

وايقن البك أنه سيتلقى عما قليل رجاء بتوظيف هذا الشاب او نقل أخيه الى القاهرة الخ ... لم يكن يومه يخلو من مثل هذا ؛ وكان يضيق بالرجاوات ولكنه كان فى قرارة نفسه يحبها كذلك ولا يطيق ان يخلو بيته يوما من صاحب حاجة . وقال :

– خير يا بني ؟

فقال حسنين بحرارة :

– جئتك يا سعادة البك مستنجدا بشفاعتك في الحاقي بالكلية الحربية . .

ودهش البك وكأنه كان يتوقع كل شيء الا هذا الطلب الأرستقراطي وتساءل دون أن يخفي دهشته :

– ولماذا اخترت هذا الباب الضيق ؟!

وتألم الشاب لما لاح في وجه الرجل من دهشة وكرهه لحظتها كراهية عمياء ، بيد انه قال بنفس اللهجة المتوددة المهذبة :

– يبدو لي يا سعادة البك انه توجد فرصة ذهبية هذا العام لم يوجد مثلها في السنين الماضية لما تعتزمه الحكومة من زيادة عدد الجيش ، ومهما يكن من امر فشفاعتك أهم من كل شيء !

وتساءل البك باقتضاب :

– والمصروفات ؟!

وكرهه مرة أخرى . وسرعان ما تناسى رجاء المجانية أو صمم على أن يؤجله لفرصة أخرى وقال بثقة وطمأنينة :

– اني على استعداد لأداء المصروفات كاملة !

ففكر البك مليا ثم قال :

– ان وكيل الحربية صديق قديم وسأحدثه بشأنك . .

فكان جواب حسنين أن أقبل على يده يحاول تقبيلها فسحبها الرجل ونهض قائما – ربما انهاء للزيارة – فقنع حسنين بالانحناء على يده مسلما وكرر الشكر وغادر السلاملك مرح الصدر بالأمل . وذكر وهو يقطع الحديقة فتاة الدراجة وتمثلت صورتها وهو يرنو الى أثر العجلتين في المشي ، ولكن لم يدم هذا الا لحظة قصيرة ، ثم استأثر بوعيه كله مستقبله وآماله . .

٦٠

فى نفس الساعة كانت نفيسة فى ميدان المحطة .. كانت السماء تتحشع لهبوط المساء على حين واصل الميدان فى حياته الصاخبة يستبق على أديمه الانسان والحيوان والترام والسيارات . وكانت الفتاة واقفة على طوار تمثال نهضة مصر تنتظر انقطاع تيار السيارات لتعبر الطريق الى محطة الترام فلاحظت أن رجلا واقفا على بعد أذرع منها ينظر اليها نظرة غريبة باتت مع الأيام تفهمها حق فهمها . وتولتها دهشة وتساءلته ؛ حتى هذا ؟!. كان رجلا فى الستين !، يجمع فى جسمه بين ترهل العمر ووقاره ، مرتديا بدلة صوفية على حرارة الجو ويقبض بيده على مذبة أنيقة عاجية المقبض ، ويضع على عينيه نظارة زرقاء . وقد انحسر طربوشه المائل الى الوراء عن جبهة عريضة لفحت الشمس أسفلها وبدا أعلاها لامع البياض فيما فوق حز الطربوش ، أما سوالفه وما لاح من قذاله فشديد البياض . وثار فى أعماقها حب استطلاع وطمع ولذلك لم تفاد موقفها حين انقطع تيار السيارات ، وحولت نحوه عينيها فوجدته ما يزال يحدق فيها ، وكأنه تشجع بنظرتها فتقدم منها فى خطوات ثقيلة وهمس وهو يمر بها :

ـ اتبعينى الى سيارتى ..

ثم واصل سيره الى سيارة واقفة لصق الطوار مثله فى الهرم والوقار ، يكاد يعلو سلمها عن الطوار شبرين ويقف عند بابها سائق كالتمثال . وصعد اليها دون أن يغلق الباب وراءه وأمر سائقه فاتخذ مكانه خلف عجلة القيادة . ماذا يريد الشيخ ؟ وابتسمت خواطرها فى تشوف ، ثم عادت تنصت الى همس الطمع . وكأنه استبطأها فخلع نظارته ثم أومأ لها بيده فما تمالكت

ان ابتسمت . والقت على ما حولها نظره متفحصة ثم اتجهت نحو السيارة . يحدوها الطمع وحده لأول مرة . وأوسع لها فجلست الى جانبه وما عتمت أن سطعت أنفها رائحة الخمر الفائحة من فيه ، فاستحوذ عليها القلق . وقالت :

ـ لا أستطيع ان اتأخر .

فقال بلسان ثقيل :

ـ ولا انا أيضا !

وأمر السائق بالسير فانطلقت السيارة . ولم يفارقها شعورها بالغرابة فى اثناء الطريق . ثم غشيتها سحابة حزن وخوف لاحساسها بأنها تتدهور الى ما لا نهاية . لم يسبق لها قبل هذه المرة ان ذهبت مع رجل قبل تعارف طويل أو قصير . ولو بعد رؤيته مرتين أو ثلاثا ، الى أنها لم تكن تخلو من رغبة . أما هذه المرة فها هى تستسلم لعابر سبيل ، مدفوعة بالطمع وحده . وبلا أدنى رغبة . أى تدهور وأى نهاية ! ترى كيف عرف أنها ضالته ! هل انقلب وجهها — على دمامته — يشى بتدهورها ؟ وتقبض قلبها فرقا ، وجبهتها حيرة قديمة جديدة معا . بين أن تتزين فتبدو فى هذه الهيئة المبتذلة أو أن تتعطل فتكشف عن دمامتها النقاب ؟!. ووضع الرجل كفه على يدها وقال بصوت ملعثم :

ـ جميلة كالقمر !

ولم يفتر ثغرها عن ابتسامة كما كانت تفعل قديما وتمتمت :

ـ لست من الجمال فى شىء ..

فقال مستنكرا :

ـ لا تخلو امرأة من جمال !

كاذب أو مخدوع فلشد ما يعمى الفسق العيون ، وقالت ببساطة :

ـ الاى !..

فنقر باصبعه على ثديها وقال :

ــ لولا جمالك ما وجدت هذه الرغبة !

ودت لو تستطيع أن تصدق قوله ، ولكن هيهات . فلم تظفر باحد يحبها اكثر من ساعات . لعله يعربد او يخرف أو يعانى مرارة اليأس مثلها ســواء بسواء . لقــد كابدت من الرجال ما جعلها تحقد عليهم ولكن دون أن تخمد لهذا رغبة جســدها الذى يسيمها الهوان فكرهته كما تكره الفقر . ما هى الا اسيرة الجسد والفقر ولا تدرى كيف تستنقذ نفسها منهما . جرفها التيار وجرحتها الصخور فلم تعد ترى من خير فى أن تأوى الى الشاطىء عارية مثخنة بالجراح وبلا نصير أو رحيم ، ثم سمعت صــوته يقول متنهدا « وصــلنا » فالتفتت الى الخارج فرأت السيارة تدور مع طريق دائرى تقوم على جانب منه الأشــجار الضخمة كأشــباح عمالقة وعلى الجانب الآخر يجرى النيل فى رقعة عظيمة من الظلمة الا ما انغرس فى جناحه البعيد من رماح الأنوار المنثالة من المصابيح ، وقالت كالمتسائلة :

ــ الجزيرة ؟

فضحك ضحكة فاجرة وقال بلهجة ذات مغزى :

ــ تعرفينها طبعا . .

وتريث ريثما غادر السائق موضعه واختفى فى الظلام فخلع نظارته وهو يقول :

ــ اريني شطارتك فكل شيء يتوقف عليها . .

كان هرما مجنونا ، يكاد ينز خمرا . وانهال عليها بمداعبة غليظة فعضها بوحشية وراح يقرصها حتى أوشكت أن تصرخ . ولاحت فى الجــو نذر هزء وســخرية ، ثم تعب حتى اليأس ، انفرج عن احساس بالغرابة ومغالبة الضحك . وأخيرا ارتمى مخمورا وقال بصوت غليظ :

ــ مدى يدك الى مقعد السائق وناولينى الزجاجة . .

ورفع سدادتها وعل منها ثم اسلم ظهره الى المسند وراح بتنفس تنفسا ثقيلا غليظا . ولم تعد تحتمل ثقل الانتظار فقالت برجاء مشبع بالتودد لأنها تعلمت أن تخاف هذه الآونة اكثر من اى شيء آخر :

ـ آن لنا ان نعود .

فقال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ ليتنى لا اعود ابدا ..

ولم تدرك ما يعنى ولكنها استجمعت شجاعتها وغمغمت :

ـ تسمح !

ودس يده فى جيبه واخرجها فى تكاسل ثم ترك ريالا يسقط فى حجرها فتناولتــه فى دهشــة وانزعاج وحدجته باستنكار وتساءلت وهى تتميز غيظا :

ـ ما هذا ؟

فقال بجفاء مباغته وعيناه تعكسان بريق الخمر :

ـ نعمة كبرى ! اذا لم ترضى به عاد الى موضعه الســابق الى الأبد ..

فقالت بحنق :

ـ اظن مقامك أعلى من هذا بكثير ..

فصب فى فيه جرعة كبيرة ومصمص بشفتيه مقطبا وقال :

ـ هذا حق ، ولكن الريال أعلى من مقامك بكثير ! اراهن على انه لا توجد امرأة لها مثل هذا الأنف وتطمع فى مثله !

وجرحت الاهانة صــدرها فاضطرب وقالت وهى تغــالب الغضب بالخوف :

ـ لماذا تحدثنى بهذه اللهجة ؟

ـ لأنك طماعة .. ولأنك السبب فيما يقع لى . اعلمى انى لا احمل معى الا الفكة ، وحتى هذه تحاسبنى زوجى عليها عقب عودتى الى البيت ، وأهون على أن أضربك من أن تضربنى هى !

ولاذت بالصمت وهى تنتفض غضبا وغيظا فعاد هو يقول :
ـ ضايقتنى امراة ذات مرة فى مثل موقفنا هذا فصفعتها وقذفت بها خارج السيارة نصف عارية ، ماذا فعلت فيما تظنين ؟ .. لا شيء ! كانت تعلم بلا ريب ان الشرطى اخطر عليها منى . ومع ذلك فهى مظلومة وانت مظلومة وانا مظلوم ايضا ، والظالم الحقيقى هى زوجى ..

فزفرت زفرة غيظ وتمتمت :
ـ نعود من فضلك ..
فقال وهو يتثاءب :
ـ لك هذا . افتحى النافذة ونادى السائق ..
وانطلقت السيارة فى طريق العودة فتزحزحت حتى نهاية المقعد ، وسهمت الى الظلمة بعين خابية .

٦١

وكان يوم قبول حسنين طالبا بالكلية الحربية أسعد الأيام جميعا . وكان يحسبه مطلبا غير عسير كشأنه حيال مطالبه . ثم أخـذ يتبين عسره وعناده حتى اقتنع آخر الأمر بأن تدبيره للدفعة الأولى من المصروفات كان أخف متاعبه . وقد طال تردده الى فيلا أحمد بك يسرى وكاد الرجل ييأس من قبوله فنصحه بالعدول عن اختياره ولكن تصميم الشاب وتقدم ترتيبه وحسن هيئته وتفوقه فى الكرة والعدو ثم شفاعة أحمد بك قبل كل شيء ، كل أولئـك ساعد على أحداث المعجزة ـ على حـد تعبيره بعد اليأس ـ وتم القبول . وكاد يجن من الفرح ، والحق انه علق آماله كلها على هـذا القبول بحيث لم يكن يدرى ماذا يفعـل أو كيف يولى وجهه وجهة أخرى لو أخفق مسعاه . كان طموحه الى الحربية يتفجر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الثائرة

على تعاسة حياته وضعتها ، وبدت الكلية لعينيه كمصنع سحرى قادر على تحويله من انسان مهزول مغمور الى ضابط مرموق فى ظرف عامين ، وبأقل جهد . وكان سمع مرة صاحبا له يصف ضباط الجيش بقوله « الضباط مرتبات عالية ونفخة كاذبة وعمل كاللعب لا خير فيه » فهامت بالحربية نفسه وقوى حلمها فى روحه. ولما علم بقبوله فى الكلية ابى أن يعترف لوساطة أحمد بك بالدور الخطير الاول الذى لعبته فى قبوله فقال لأمه ان الفضل الأول راجع لمزاياه الجسمية وتفوقه فى الرياضة . وقال لنفسه فى زهو « استطيع أن أعد نفسى من الضباط منذ الآن » وراح خياله المختال يستعرض الآدميين الذين ستؤثر فيهم بذلته الرسمية تاثيرها السحرى ـ الجنود والفتيات وعامة الشعب بل وأحمد بك يسرى نفسه وهو مرح نشوان . وحمل الخبر السار بنفسه الى اسرة فريد افندى محمد فاستقبلته بفرحة تجل عن الوصف: وقال له فريد افندى ضاحكا « شرفتنا يا حضرة الضابط » . وقال الشاب على مسمع من بهية لغرض فى نفسه « سأغيب عنكم اربعين يوما قبل أن يسمح لنا بالخروج مرة كل اسبوع » وكان يطمع أن يحظى تلك الساعة بما حرم عليه عامين ولكنه لم يتح له أن يخلو الى الفتاة الا دقائق ، ولم تكن الدقائق لتمنعه من نيل مشتهاه لو أرادت الفتاة أن تجود له به ولكنها لم تتزحزح عن تعففها حتى فى هذه اللحظة . وغلبها الحياء كعادتها ، فانكمشت وقلبها يخفق بالعطف والألم تأثرا بالوداع . وقال لها بعجلة فى صوت لا يكاد يسمع « أريد قبلة حارة من شفتيك » ولما رأى حياءها وجمودها قال بجزع « أتأبين على هذا حتى فى هذه اللحظة !.. لا يمكن أن أتصور انك تحبينني ! » وخرجت الفتاة عن صمتها قائلة فى قلق « بل لهذا أرفض أن أذعن لك ! » وتساءل فى انكار « لا أفهم ما تعنين » فقالت بشجاعة مؤثرة « ارفض لانى أحبك » وكان يسمع هذا الاعتراف الصريح البسيط لأول مرة

يبلغ به التاثر حد السكر وهم بالاقتراب منها ولكنها اشارت اليه محذرة وهى تومىء براسها ناحية باب الحجرة المفتوح . وما لبث ان عاد فريد افندى وزوجه فقضى بقية الوقت ممزقا بين نشوة السكر وقلق الشوق وحنق الغيظ ؛ ثم ودعهم ونزل الى شقته وهو يقول لنفسه « هذا حب عاقل ! حب يسيطر عليه الحزم والتدبير . كأنها رسمت خطة حكيمة كى تضمن زواجى بها . ولكن هل يعرف الحب الحقيقى هذا المنطق البارد ؟! » وكان حديثه لنفسه فى الواقع خاضعا لما استحوذ عليه من غيظ وحسرة ، وعد وداعه لها أسوأ وداع منى به عاشق . ثم أمضى شطرا من الليل بين أمه واخته . ولم تستطع نفيسة — كعادتها — مغالبة مشاعرها فدمعت عيناها وقالت فى حزن « قضى علينا بأن نعيش وحدنا » ولم يخل هو من كآبة خليقة بمن يفارق أهله لأول مرة ولكن هون من وقعها أن روحه كانت تهفو كثيرا الى الحياة المستقلة ، فى بيت غير البيت ووسط غير الوسط . اما الأم فحافظت على هدوئها الظاهرى ، ولم تشجع نفيسة على الاسترسال فى حزنها وقالت لها بحدة « لا تبكى كالأطفال ، سنراه كثيرا . وحسبنا سرورا انه نال ما تمنى » . بيد أن قلبها كان فى واد آخر . حرك الفراق الوشيك اشجانه فرجعت أوتاره الأحزان المنطوية ، فذكرت وداع حسين ، وتخيلت خلو البيت من أبنائها جميعا ، وتداعت الى ذهنها — على كره — ذكرى رحيل زوجها ؛ فعجبت لحياتها التى لا تجود لها بسعادة الا مصحوبة بوداع وفراق . فهل قدر لها أن تمضى البقية البقية من حياتها وحيدة ؟ وهل فى سبيل هذه النهاية تصبرت وتجلدت وعانت ما عانت من مرارة الكفاح ؟!. ولكنها لم تستسلم لحزنها الا بمقدار يسير . ونادت قوتها الكامنة ، وذكرت ما صادف ابنها من آى التوفيق لتستعين به على تبديد كآبتها . مهما يكن من أمر فانها تؤمن الآن بأن ما بذلت من صبر وكفاح لم يضع سدى ، وأن سفينتها

الضاله فى سبيل الهداية الى مرفا آمن . ويحق لها أن تعرج فما من ثمرة تجنى فى هذه الاسرة الا وهى غرس يديها وعصارة قلبها .

وفى الصباح الباكر ودع حسنين امه واخته ومضى فى سبيله الى الكلية الجديدة ..

٦٢

ثم وجد نفسه فى فناء الكلية بين جماعة المستجدين من الطلبة وبحثت عيناه فيما بينهم لعله يجد صاحبا قديما من التوفيقية فيلوذ من وحشته ولكنه لم يظفر بوجه قديم . وضايقه هذا وان أحس زهوا لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذى قبل فى الحربية . وتمنى كثيرا ان يبدا احد بالكلام ، وطال انتظاره . ولكن ابى كبرياؤه ان يكون هو البادىء . ثم مضى يتسلى بمشاهدة الكلية فجرى بصره مع الفناء الشاسع وابنيتها الفخمة المترامية ، ثم ثبته طويلا على تمثالى المدفعين المقامين عند مدخلها فهاله المنظر وبث فى نفسه اعجابا وخيلاء . وكان بادىء الامر مطمئنا الى مزاياه الجسمانية من طول قامته ورشاقة قده ووسامته ولكنه تخلى عن كثير من اعجابه بنفسه حين تفحص الآخرين ورأى بينهم شبابا غضا وفتوة ناضرة وجمالا رائعا ، الى ما لاحظ على بعض الأفراد من مخايل الأرستقراطية . ثم وقعت عيناه على شاب قادما من حجرة تطل على الفناء عرف فيه زميلا قديما فى التوفيقية سبقه الى الالتحاق بالكلية بعام أو يزيد وكان يرتدى قميصا وبنطلونا قصيرا من الخاكى وعلى ذراعه اليسرى أربعة شرائط . لم يكن من اصدقائه ولكنه تعرف به فى فناء المدرسة ، ومع أنه لم يكن يذكر من اسمه الا « عرفان » ولم تكن هذه العلاقة الواهية لتغريه بالاقبال عليه فى غير هذا الظرف ، الا انه رحب بالتسليم عليه لبعلن صداقته بهذا الطالب القديم امام الطلبة المستجدين .

وبعد فكرته فمضى اليه حتى واجهه ومد اليه يده مبتسما وهو يقول في الفة :

ـ كيف انت يا عرفان ؟

وسرعان ما ماتت الابتسامة على شفتيه للنظره الجامدة التى رماه الآخر بها في تجهم وصلف . وقد أطال تفحصه في تكبر وما يشبه الغضب ، ثم لمس يده بيده واستردها بسرعة كأنه يخاف عليها عدوى خبيثة دون أن ينبس بكلمة !. وشعر حسنين بانهيار شامل وذهول قاتل . وظنه نسيه او اساء فهمه فقال كالمستغيث :

ـ الا تذكرنى ؟.. انا حسنين كامل على ..

فلم يؤثر الاسم في الآخر ايما تأثر ولم يطرأ على صلابته اى لين ، ولكنه خرج عن سمته وقال بخشونة وجفاء :

ـ لا صداقة هنا . انت طالب مستجد وانا باشجاويش ..

نطق بهذه الكلمات ثم ذهب . ووجد حسنين نفسه في موقف خزى لم يقفه في حياته فأثلجت اطرافه وتوترت شفتاه ، وانتبذ موضعا بعيدا متحاميا النظر الى أحد أقرانه وان تخيلهم وهم يتغامزون ويتضاحكون . ماذا دهاه الأحمق ! ترى هل أهانه لضغينة اضطغنها عليه او فقد رشاده ؟ أمن الممكن أن يكون هذا هو النظام المتبع في هذه الكلية ؟!. ولبث مستغرقا في أفكاره لا يرى مما حوله شيئا حتى نودى على الطلبة المستجدين ودعوا الى اول طابور لهم بالملابس المدنية . ووقفوا صفين متوازيين بارشاد الباشجاويش محمد عرفان وبعض الجنود ، وقد تجنب النظر الى صاحبه القديم الذى وجده معلقا فوق راسه كالسيف وكظم عواطفه المستعرة ان يلوح منها اثر في وجهه . ثم جاء ضابط عظيم محاطا ببعض الضباط من رتب أقل ، والقى عليهم نظرة ثاقبة ثم راح يخطبهم عن الحياة العسكرية التى آثروها . وكان يخطب باللغة العامية بصوت أجش يوافق ما ارتسم على

اساريره من الصلابة والعنف . وكان يفصل بين كثير من جمله بهذه العبارة « العقاب الصارم » حتى صارت كضربات الإيقاع وملأت القلوب رهبة وحذرا . وما ان انتهى من خطبته حتى بدأ اول يوم فى الحياة العسكرية الجديدة . واستقبل به حسنين حياة جديدة لم يسبق له بها عهد . وبدا اليوم — والأيام جميعا — شاقا طويلا . يبتدىء بالدش البارد فى الصباح الباكر . وينتهي بالطابور . ثم الدروس . جهد متواصل . وخشونة فى المأكل والملبس والمعاملة حتى اذا جاء وقت النوم استلقوا كالقتلى . وكانت خشونة المعاملة افظع ما يلاقونه . وكان الرؤساء يرونها فرضا واجبا ، ويكفى أن يحظى طالب بشريط لأقدميته حتى يمارسها كحق من حقوقه ، وهو يمارسها فى غير رأفة وبسطوة تبلغ فى أكثر الأحايين اهانة صريحة وتجريحا متعمدا . ولم يكن ثمة مجال للاعتراض أو الاحتجاج اذ لم يكن للكلية من شعار تحرص عليه كالطاعة العمياء الخرساء البكماء . ولم يجد حسنين من عزاء فى ذلك الجو الرهيب الا أنه سيصير يوما أومباشيا ثم باشجاويشا . وهنالك يقضى ديونه دفعة واحدة !. وقد ذكر عهد التوفيقية — الذى وصفه يوما بالارهاب — بالترحم والرثاء . وبلغ منه الضيق أحيانا أن ندم على اختياره لهذه الكلية الجهنمية وتمنى لو تواتيه الشجاعة على التخلص منها . وكان يشاركه احساسه هذا كثيرون فى الأيام الأولى على وجه الخصوص . وقد عصرتهم قساوة الحياة فسارع اليهم الهزال ، ولعل حسنين كان الطالب الوحيد الذى لم يخضع لهذا القانون الطبيعى ، بل لعل جسمه اكتسب ارتواء غير منتظر لأن غذاء الكلية — على خشونته — هيأ له وجبات منتظمة لم يعتدها فى أعوام الشدة الأخيرة . بيد أنه تعرض لآلام نفسية غير متوقعة فى أيام الجمع التى يسمح فيها عادة بالزيارات . كان فناء المدرسة الخارجى يمتلىء بالآباء والأمهات والأقارب فيحظى الطلبة جميعا بنهار ممتع ويعودون

الى حجراتهم منقلين بالهدايا من حلوى وفاكهة ودسم الطعام . حتى الطلبة الريفيون لم يعدموا اقارب من القاهرة ، فلم يكن ثمة طالب يقضي هذا اليوم السعيد وحيدا الاه ، لم يزره أحد ولم ينتظر احدا . وكانت أمه قد اخبرته — قبل رحيله — بأنها لن تستطع زيارته لأنها — كما يعلم — لم تتمكن من ابتياع معطف جديد يليق بالظهور امام أقرانه ، اما نفيسة فقد قالت له بمزاحها المألوف « لا اظن انه مما يشرفك ان ابدو امام زملائك بهذا الوجه » . ولم يكن ثمة أمل فى أن تزوره بهية لحيائها وعدم اعتيادها الظهور فى مجتمع من الأغراب ، فلم يبق الا فريد افندى وكان بطبعه كسولا لا يكاد يفارق بيته الا لضرورة قصوى ، ومع هذا فقد زاره مرة وحمل اليه هدية من البسكويت . واعتاد فى أيام الزيارات أن يختار موقفا عند مدخل الفناء الداخلى يراقب منه الزوار بعينين كئيبتين ويتملى بمشاهدة النساء والفتيات مأخوذا بجمالهن وأناقتهن وآى النعيم البادية فى وجوههن وثيابهن . وعجب لهذه الفوارق التى تباعد بين الآدميين ، وبدت لعينيه محيرة بقدر ما هى مزعجة . وثارت بنفسه انفعالات السخط والغضب والتمرد فلم يجد من متنفس الا فى أن يناقش ربه الحساب ، متسائلا — فيما يشبه التحدى — عن أسرار حكمته التى جعلت من الدنيا ما هو كائن ! . وسأله مرة زميل له عن سر عزلته فقال بلا تردد :

— أبى متوف . واخى مدرس بطنطا . أما الأسرة فمحافظة لم تألف الظهور بين الناس على هذا النحو ! .

بيد أن الأفكار السوداوية لم تجد من نفسه مرتعا خصيبا اذ أن الحياة العسكرية لا تمهل الأفكار حتى يستفحل خطبها . وقد علمته أن ينسى باطنه اكثر وقته ، ثم بمرور الأيام — اخذ يألف شدتها وجوها الخانق فمضت تخف وطأتها وتحتمل ، الى ما ظفر به من صداقات جديدة ابتل بها صدره الموحش فاستطاع أن

يضحك ملء قلبه — رغم كل شيء — كعهده القديم . وهكذا انقضت الأربعون يوما ..

٦٣

وخيل اليه — لدى خروجه من الكلية بالملابس الرسمية — انه حقق حلما بديعا بتصديه للعالم بالبدلة الملونة .. كان ينطلق كالعامود فى استقامته ، كالطاووس فى خيلائه ، ملقيا على صورته التى تعكسها مرايا الحوانيت والمقاهى نظرات ارتياح تشمل الشريط الأحمر والطربوش الطويل والحذاء اللامع ، ملوحا بعصاه القصيرة ذات الرأس الفضى ، قابضا على قفازه كأنه يتحدى العالم . ولما تراءت لعينيه عطفة نصر الله جاش صدره بمشاعر متنازعة من العطف والنفور ، ثم مضى اليها مطمئنا الى ان احدا لن يراه ممن يود الا يروه — لم يطلع أحدا من أقرانه على عنوانه — راجيا أن يراه جميع الذين يود ان يروه ، وأحدقت به الأعين ولوحت له الأيدى من رقاع الأحذية الى الحداد ومن بائع السجاير الى جابر سلمان البقال . وتطلع رأسه الى شرفة فريد افندى فوجدها مغلقة فسر لما تهيأ له من مفاجأة سعيدة غير مسبوقة بتنبيه ، ثم قطع فناء البيت الى الشقة وطرق الباب وانتظر مبتسما . وجاءه صوت نفيسة وهى تزعق « من ؟ » وفتح الباب فما أن رأته حتى هتفت كالمجنونة :

— حسنين !

وشدت على يده فى انفعال وجعلت تهزها بقوة وفرح ، وجاءت الأم مهرولة على صوت ابنتها فاستسلم لذراعيها النحيلتين وهى تضمه الى صدرها وقبل جبينها فى سرور شابه شيء من القلق على سترته التى طوقتها ذراعاها ، ثم سار بينهما الى حجرته

القديمة التى بدت لعينيه غريبة ولكنها على غرابتها استثارت حنانه وذكرياته . ووقفوا ثلاثتهم والمراتان ترنوان اليه باعجاب وحب ، ثم دعت له الأم وافصحت عن سرورها بعبارات مقتضبة : ثم لاذت بالصمت ، اما نفيسة فلم يسكن لسانها لحظة « لشد ما اوحشتنا » .. « البيت من غيركم كالقبر » .. « اضطرنى غيابك الى أن أرد بنفسى على رسائل حسـين بخط أقبح من وجهى » .. « لم يتمكن حسين من القيام بأجازته هذا العام لمرض زميـله وقد كدنا نجن من الحزن » .. « هل حقـا كنتما تتراسلان ؟ .. لقد اخبرنى بهذا منذ عشرة أيام » .. « ماذا تعلمت ؟ . هل تستطيع الآن أن تطلق بندقية ؟ » وكان يجيب على اسئلتها فى دعابة ، ثم خلع طربوشه ووضع عصاه وقفازه على المكتب ولبث واقفا وهو ينظر الى سترته ليرى ما فعل العناق بها . وجلست امه على الفراش وهى تقول :

ـ اجلس يا بنى ..

فتردد لحظة ثم قال :

ـ اخاف ان ينكسر البنطلون ! ..

فتساءلت المرأة بدهشة :

ـ هل تظل واقفا طالما انت لابس البدلة ؟ !

وابتسم فى ارتباك ثم جلس على الكرسى فى حذر ومد ساقيه وهو يتفحص بنطلونه باهتمام ، وقال :

ـ ان كسرة تلحق بالبنطلون خليقـة بأن توقـع على عقابا صارما لا يقل عن حبس شهر بالكلية .

ونظر فى وجه امه ليرى اثر هذه الكذبة فى نفسها فقرأ فى صفحته الانزعاج فاستطرد قائلا بصوت ينم عن التضجر :

ـ حياتنا شاقة لا يمكن أن يتصورها انسان ، فنهارنا كله وشطر من الليـل نقضيهما فى الخلاء بين المدافع والقنـابل والرصاص ، وقد تودى هفوة بسيطة بحياة فرد !

فانسعت عينا نفيسة فى فزع ، وتساءلت الأم فى اضطراب :

ـ كيف يلقون بأبناء الناس الى الهلاك ؟ !

وهتفت نفيسة فى انفعال :

ـ لماذا اخترت هذه المدرسة ؟

فهز راسه بثقة وقال :

ـ لا تخافى على !. انى العب بالنار بمهارة استحقت اعجاب الضباط جميعا !

فقالت الأم بصوت متهدج :

ـ ما عسى ان نصنع باعجابهم اذا اصابك سوء لا قدر الله ؟ !

فقال حسنين فى سرور خفى :

ـ وماذا تصنعين اذا دعينا غدا الى الحرب ؟ .. الم تسمعا بأن هتلر يعد عدته لاشعال نار الحرب ؟ واذا شبت الحرب هجم موسولينى على مصر فندعى جميعا للقتال !

وحدجته الأم بارتياع ، ثم سألته بجد واهتمام :

ـ أحقا ما تقول يا بنى ؟

وتراجع قليلا ..

ـ هذا ما يقوله بعض الناس !

ـ وما رأيك أنت فيما يقوله هؤلاء الناس ؟

وقبل أن يجيب صاحت به نفيسة :

ـ اذا صح ما يقولون فاترك المدرسة بلا تردد .

فضحك الشاب ملء فيه وقال مشفقا من افساد سرور اللقاء :

ـ ما أردت الا اخافتكما .. (ثم غير لهجته متسائلا) .. فلندع الهذر جانبا وخبرينى يا ست نفيسة ماذا تعدين لى غداء الغد ؟ ! ..

فابتسمت الفتاة وادركت أن أخاها « ضيفها » نصف نهار الخميس ونهار الجمعة وأن اكرامه واجب عليها قبل أى انسان آخر ، فقالت :

ـ سأشترى لك دجاجتين نطبخهما ثينة فى ملوخية !

ـ عال ! .. والحلوى ؟

ـ برتقال .

ـ نفسى فى الكنافة . فطالما رأيت هداياها تحمل الى الطلبة أمام الجمع فيتحلب ريقى من بعيد !

ولم تهتم الفتاة للكنافة قدر ما اهتمت للسمن اللازم لهـا ولكنها لم تتراجع فى نشوة الكرم التى غمرتها فقالت :

ـ وستحلى بالكنافة كما تشتهى !

فقال الشاب بعد تردد :

ـ لو كنت وقحا لسألتك أن تحشيها بالفستق والبندق !

ـ ولكنك لست وقحا والحمد لله ..

هكذا تهربت بالمزاح وأدرك حسنين انه لم يعد بوسعها أن تسخو أكثر مما سخت فقال ضاحكا :

ـ آه لو رأيتم الهدايا التى كانت تحمل الى الطلبة ! .. وفى مرة أهدى الى صديق قطعة من حلوى اسمها « بودنج ! » .

ـ بودنج !

ـ نعم بودنج ..

فضحكت نفيسة قائلة :

ـ لولا الملامة لقلت انها سلاح لضرب النار !

ثم سألته أمه :

ـ لماذا لا تخلع ملابسك ؟

فقال فى شىء من الخجل :

ـ سأذهب الى السينما !

ولاح التذمر فى عينى الأم فاستدرك قائلا :

ـ وسأعود مبكرا لنسهر معا ، وسنمضى الغد معا كذلك !

وعادوا الى الحديث والذكريات طويلا ، ولكنه لم يعد يسعه أن يملك خياله الذى ينازعه الى الشقة العليا ! وكان يجد صعوبة

فى قطع الحديث والافصـــاح عن رغبتـــه فى زيارة جارهم فريد افندى ، واخيرا قال بعدم اكتراث :

ــ آن لى أن أترككما للذهاب الى السينما ولعلى اجد بعض الوقت لزيارة فريد افندى !

٦٤

منته نفسه بالانفراد بفتاته على وجه من الوجوه ولكنه لم يدر كيف . فقد اجتمع فى حجرة الاستقبال بالوالدين ، واستفاض الحديث العادي وهو ينتظر حضورها بصبر نافد . ثم جاءت تسير على استحياء وقد لفها روب وردى لم يبد منه غير أطرافها ، فسلمت عليه سلاما رسميا ووالدها يتفحصها بنظرة ضاحكة تنم عن أعجاب . وجلست الى جانب امها ، واتصل الحديث كما كان ولكن محضرها استأثر بأعماق وعيه فوجد مشقة فى تتبع الكلام التافه ومشقة أكبر فى الاشـــتراك فيـــه . ثم اخذ يستشعر بالملل والضيق ، وكلما استرق اليها نظرة وتخيل قوامها البض ثار دمه وحقـــد على الجلســة وشهودها . ورأى فى عينيها هداة وطمأنينة كأنه لا يكدر صفوها مكدر ، وأنها لكذلك دائما كأنما لا يجرى فى عروقها دم ، وليس احب اليها من ان تجلس بين والديها تصـــغى لحديثه وهى فى مأمن من نزواته !.. لذلك يحنق عليها أحيانا ، ولكنه لا يســـتطيع أن يتجاهل ما تشته فى حناياه من طمأنينة وثقة فكان يشعر بأنه يأوى من حبها الى ركن ركين وعاطفة عميقة ثابتة لا تزعزعها الحدثان . واستمر الحديث فلم تجد من نفسها شجاعة على الاشتراك فيه قانعة بهزة من رأسها أو ابتسامة من شفتيها فبلغ منه الضيق نهايته ، وفكر فى مخرج فخطرت له فكرة جريئة لم يقعد عن تنفيذها مدفوعا بجسارته . فقال موجها خطابه الى فريد افندى :

- هل تاذن لى فى ان أصحب بهية معى الى السينما ؟

وتبادل الزوجان النظر على حين خفضت بهية عينيها موردة الوجه . ثم قال فريد :

- اظن العالم الحديث يسسيغ هذا السلوك بين خطيبين . .

ولكن زوجه قالت بلهجة المعارضة :

- اخاف الا يروق هذا للست والدتك .

ولم يتورع حسنين عن الكذب انقاذا لمشروعه فقال :

- لقد استأذنتها فوافقت بسرور :

فابتسمت اسارير المرأة وقالت وهى تنظر صوب زوجها :

- ما دام والدها موافقا فلا مانع عندى .

وطلب اليها فريد افندى ان تأخذ أهبتها للذهاب مع الشاب فمضت متعثرة فى خطوات الخجل ، وما هى الا دقائق حتى كانا يغادران الشقة معا . ولاحظت بهية انه جعل يسير فى حذر عندما اقتربا من شـقة الأسرة كأنه يخاف أن يتنبه اليهما أحد من الداخل فساورها القلق وهمست فى أذنه :

- كذبت على امى بقولك انك استأذنته والدتك ، وستغضب نفيسة لأنك لم تدعها معنا !

فأشار اليها بالسكوت وأخذها من يدها الى الفناء ثم الى العطفة ، وسارا معا والوالدان يطلان عليهما من الشرفة . وكانت بهية ترتدى المعطف الأحمر الذى يجلو نقاء بشرتها فبدت كالقطة الجميلة . بيد أن القلق لم يذهب عنها وقالت له فى لوم :

- ستعلم اسرتك برحلتنا ان عاجلا أو آجلا . .

ولم يدع له سروره بالظفر مكانا لهم فقال ضاحكا :

- لم نرتكب اثما ، ولن تحرق الدنيا !

- الم يكن الأخلق بك أن تدعو نفيسة معنا ؟

- ولكنى أريد أن انفرد بك !

فقالت بقلق ، وكانت تخاف نفيسة أكثر من أى مخلوق آخر :

ـ انت لا تبالى شيئا وا أسفاه ..

ولم يكن لديه من وسيلة للانتقام من تحفظها وبرودها سوى الكلمات الصريحة واحيانا النابية فقال :

ـ وددت لو كنت ارتكبت معصية معك حتى استأهل هذا الوصف عن جدارة ..

فتضرج وجهها بالاحمرار وعبست فى استياء دون أن تنبس بكلمة لانهما كانا قد اندسا بين الواقفين على طوار المحطة . وجعل ينظر الى وجهها الساخط فى سرور باطنى . ثم همس مبتسما :

ـ أعنى معصية خفيفة !

فأعرضت عنه حتى جاء الترام فصعدا الى الدرجة الاولى ولم يكن بها الا سيدة أجنبية فشعر بارتياح ، وجلس لصقها . ثم سألها فى دعابة :

ـ كيف كان شوقك الى فى غيابى ؟

فقالت فى شبه غضب :

ـ لم تخطر لى على بال قط ..

فهز رأسه كالحزين وقال :

ـ ما آلمنى شىء كما آلمنى احساسى بتشوقك الى .

فقالت ببرود وهى تخفى ابتسامة :

ـ اصارحك بأن الكلية الجديدة قد زادت دمك ثقلا !

وذكر وهو لا يدرى ما تعرض به نفيسة من ثقل دم فتاته فرنا اليها متأملا فوجدها جميلة فوق ما يشتهى ، ولكنها لا تخلو من هذه الصفة ! وما غاب عنه انه يحب هذه الصفة كما يحب العاشق نقائص معشوقه . وعدل فجأة عن معابثتها فقال بحرارة :

ـ لم تغيبى عن نفسى لحظة واحدة طوال ذاك الفراق ، وقد تعلمت جديداً وهو ان الحب فى القرب ـ على طموحه المعذب ـ جنة اما على البعد فهو مأساة كاملة .

وخفضت عينيها دون أن تنبس ولكنه شم فى استسلامها

.ه اعتراها من سهوم رائحة الوجد الصامت وامتلأت رئتاه بارتياح عميق .. وتحدث كيفما اتفق حتى بلغ الترام ميدان المحطة فغادراه ومضيا صوب عماد الدين . وطلب اليها ان تتأبط ذراعه ففعلت بعد تردد ، ولما كانت تساير شخصا — غير ابيها — لأول مرة فقد تولاها ارتباك وحياء . وشعرت بكوعه وهو يمس — عفوا أو قصدا — ثديها فسحبت ذراعها من ذراعه . وتساءل محتجا :

— ماذا فعلت !

— هذا أروح لى ..

فتغيظ لافلات الفرصة وقال :

— سيكون من المعجزات تحويلك الى زوجة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى امرأة محبة تعانق وتقبل الخ الخ !

وبعد حين قصير كانا يجلسان جنبا لجنب فى السينما ، وعاوده شعور بالزهو والخيلاء ، غير أنه استأثر هذه المرة بميزتين بدلته العسكرية وحبيبته . ومر به كثيرون من زملائه الطلبة وخطفت أعينهم من فتاته نظرات متفحصة فتزايد شعوره بالسرور ، ومال نحوها وهمس :

— الا ترين أن جمالك يجذب الأنظار من المقاعد والألواج ؟

فافتر ثغرها عن ابتسامة حيية فأطلق مرحه وهمس مرة أخرى :

— قلبى يحدثنى بأننى سأنال الليلة القبلة المشتهاة ..

فرمته بنظرة وعيد ثم نظرت فيما أمامها . وحاول فى الظلام ان يعابثها بكوعه أو بقدمه ولكنها لم تشجعه ، ثم اضطرت تحت ضغطه والحاحه الى أن تترك راحتها فى راحته على الذراع التى تفصل بين كرسييهما ، ومضى الوقت فى سعادة شاملة ..

٦٥

وفى مســاء الجمعه كان يقف بميدان الملكة فـريدة ينتظر الاتوبيس رقم ١٠ ليحمله الى الكلية . وكان أمضى نهارا سعيدا فى أسرته وتناول غداء لذيذا ، وبدت نفيسة فى مرحها المألوف ولكنها ــ على ذاك ــ قالت له على مسمع من أمها وبلهجة ساخرة:

ــوددت لو رايتك وانت ذاهب مع « الهانم » الى السينما !

وادرك أن سره افتضح وأن الحرب أعلنت فضحك عاليا ونظر صوب امه فرآها صامتة وعلى شفتيها ما يشبه الابتسامة . وشكر فى نفسه بدلته العسكرية التى أنقذته من لكماتها الى الأبد . وعادت نفيسة تقول بنفس اللهجة :

ــ ما أجملكما من زوجين !. حضرتك فى طول العمود والهانم طول الشبر ودمها الثقيل يوسع لكما الطريق !

فنهرتها أمها قائلة :

ــ لا تكونى عيابة وفيك كل العبر !

فقالت الفتاة ضاحكة :

ــ أنا على الأقل خفيفة ، ولكن الله حق ياسى حسنين فوجهى لم يخلق للسينما !

واعتذر لها ما وسعه الاعتذار ولكنه شعر بندم كما يشعر الآن ، وما ضره لو كان دعاها للذهاب معــه !؟. كان يستعيد ذكريات اليوم وهو واقف ينتظر ، وما لبث أن انضم اليه كثيرون من زملائه ، ثم جاء الأتوبيس فصعدوا اليه متزاحمين ولحق بهم آخرون رأى بينهم بعض من قابلهم أمس فى الســينما فترجح لديه أنهم سيعلقون على فتاته شأنهم فى هــذه الأحوال ، وسر لذلك سرورا كبيرا وانتظر على لهفة الحديث الذى سيكون دون

جوانه . ولم يطل به الانتظار لأن اكثر من واحد منهم بدا متحفزا . فقال قائل منهم وهو يبتسم اليه :

— اما علمتم ؟.. رئى الصنديد أمس وفى يده فتاة !

وود ان يسمع الجميع وان يخلصوا لحديثه وحده . وتساءل البعض :

— من اى نوع ؟ !

— النوع البيتى ..

— جميلة ؟

وتركز انتباه حسنين واشتد وعيه اما المتحدث فقال :

— لها عينان زرقاوان ولكن يغلب عليها الطابع البلدى !

وتصاعدالدم الى وجهه وشعر بفتور قضى فى الحال على حماسه ونشوته . على حين واصل الآخرون حديثهم فى ضحك وصخب :

— ممتلئة اكثر مما ينبغى قصيرة اكثر مما يستحب !

— ودمها ثقيل من رتبة لواء !

— دقة قديمة على وجه العموم ، اين وجدتها ؟ !

وادرك ان السؤال الأخير موجه اليه ولكنه لم ينبس بكلمة ، وجعل يضحك متظاهرا بالاستهانة وهو يعانى شعورا جارحا بالخجل والقهر . وقال شاب بلهجة تنم على الاشفاق :

— احذر أن تكون خطيبتك !

واندفع قائلا بلا وعى تقريبا :

— كلا طبعا !

— حبيبة ؟ !

فقال مدفوعا بمشاعر الألم والخذلان التى تصطرع فى نفسه :

— نوع من التسلية ليس الا !

— اذن فلا بأس بها . عذراء ؟!

واجاب باضطراب شديد : نعم ..

— خيب الله أمالك ! لماذا تنفق وقتك عبثا ؟! الم تدر بأن

التقاليد تقضى بأن تكون ليلة الخميس للعشيقة ويوم الجمعة للخطيبة او من يقوم مقامها ؟ !

فتكلف الشاب ضحكة وقال :

— سأصحح جدول النساء فى المستقبل !

وضحكوا جميعا . ثم غيروا مجرى الحديث . وانطوى على نفسه فى غم وهم يعانى سكرات الهزيمة . تبرأ من فتاته وهو لا يدرى . آه لو علموا أنها خطيبته وأنه استعصى عليه نيل قبلة منها بعد مثابرة عامين !. طابع بلدى ، ممتلئة أكثر مما ينبغى . قصيرة اكثر مما يستحب ، دم ثقيل من رتبة لواء ، أهذه بهية حقا ؟!. وهى الى هذا كله دقة قديمة ! ، لا يخلو هذا القول من حق فهى لا تدرى كيف تصحبه فى الطريق ولا كيف تحسن الحديث والدعابة ، ولا يكاد يذكر من قولها الا التأنيب والتذمر . كيف يسعه اذا تزوجها أن يظهر بها أمام الناس ؟ سيقولون هذا وأكثر منه . وشعر بكرب وامتعاض ، وغاب عما حوله غارقا فى أفكاره فلم ينتبه الى وقوف الأوتوبيس أمام محطة الكلية حتى نهض الطلبة قائمين ..

٦٦

وفى الأسبوع التالى صعد فى الوقت المعتاد لزيارة فريد افندى . وكان الأب وسالم الصغير فى مشوار فجلس مع الأم وبهية . واستمتع بقدر من الحرية لا يتاح له بمحضر الأب . وبدت بهية فى فستان بنى تنبسط على أعلى صدره شبه مروحة من الحرير المزركش بنغرز مقبضها انشغل البنيقة وتنتشر أهدابها فوق الثديين ، فلم يكن ينقصها الا المعطف وتصبح متأهبة للذهاب معه الى السينما اذا دعاها . ولكنه كان أبعد ما يكون عن

التفكير فى هذا . وكان صوت نفيسة لا يزال يطن فى اذنيه وهى تقول له بعد ان اعطته نصف ريال لسهرته :

ــ هذا لفسحتك انت وحدك !

ولكن لم تكن نفيسة كل شيء ، كان فى الواقع لا يجد الشجاعة للظهور معها مرة أخرى أمام زملائه ، وبات يخجل منها وهو لا يدرى . كان يحسبها أجمل فتاة ، ولكنه لم يكن فتح عينيه بعد وجاءت ملاحظات زملائه الساخرة آية على عماه ! ورنا اليها فالتقت عيناهما ، وهناك نسى أفكاره ، وانبعثت حرارة دمه واضطرمت به الرغبة مستهينة بكل شيء ، مليحة شهية ، لا يستطيع أن يمارى فى هذا ولكن كيف يتعامى عن هذه الحقيقة المرعبة وهى انه يتحاشى الظهور معها أمام الناس ؟!. وكانت الأم لا تمسك عن الحديث وهو يحاورها باقتضاب وشرود حتى قالت له:

ــ مالك يا سى حسنين كأنك مشغول البال !

فأفاق الى نفسه مضطربا وقال كالمعتذر :

ــ كان الأسبوع الماضى حافلا بالتمرينات القاسية حتى غادرنا الكلية كالأموات !

وواصل الحديث وهو أشد انتباها له حتى استأذنت الأم لأداء الصلاة فخلا لهما الجو ، وبادرته الفتاة قائلة :

ــ مالك ؟

فقال مبتسما ليذهب عنها الشك :

ــ لا شيء !

ــ لست كعادتك !

وخطر له خاطر ماكر بعثه فى نفسه خلو المكان وعواطفه الثائرة فقال متظاهرا بالحزن :

ــ لا أنسى تحفظك معى !

ــ أتعود الى هذا ؟

ــ طبعا ! .. هذا حقى ولا أنزل عنه ما حييت .

فقالت الفتاة برجاء :

ــ حسبت أننا انتهينا من هذا !

ــ انى فى حيرة من أمرك ، جميع زملائى لهم خطيبات مثلك ولكنهن لا يحرمنهم حقوقهم من العناق والقبل .

وغمغمت موردة الوجه :

ــ لسن مثلى ولست مثلهن ! . .

هذا حق ، ولعل زملاءه لم يقتصدوا فى توكيد هذا ولكنها لا تدرى ماذا تقول ! وتفكر فيما ينطوى عليه قولها من سخرية لم تدر لها بخلد ، وقبل أن يتكلم عجلت هى بتغيير مجرى الحديث فسألته :

ــ اذاهب انت الى السينما ؟

وأدرك أنها تهيىء له فرصة ليدعوها للذهاب معه ، وساوره احساس بالضيق ولكن اشفاقه كان أكبر من حرجه فقال :

ــ كلا ، سأوافى بعض الزملاء الى موعد سابق !

وخفضت عينيها فى خجل ، ثم ساد صمت أليم ، وأخيرا سألته بلهجة ذات معنى :

ــ ماذا أحدث ذهابنا معا الى السينما فى بيتك ؟

ووجد فيما تعنيه بسؤالها عذرا ينفعه فى تجنب ما يريد تجنبه فقال :

ــ لا شىء ذا بال الا أن والدتى ساءها أن أدعوك الى مخالفة تقاليد أسرتك المحترمة !

فقالت ببرود :

ــ ليس مما يسىء الى الأسر المحترمة ان يذهب فتياتها الى السينما !

ــ كما لا يسىء اليها العناق والقبل ولكنك ــ مثل أمى ــ لا تصدقين !

فتجاهلت اشارته وتساءلت :

— هل منعتك من العودة الى تلك المخالفة ؟!

— كلا !. ولكنها تخاف ان اسيء من غير قصد الى اسرتك الكريمة .

— ألم تخبرها بموافقة والدى ؟

— اخبرتها ولكنها اعتقدت أنهما وافقا متورطين .

— هل أفهم من هذا اننا لن نخرج معا بعد اليوم ؟

ولم يستطع ان يجابهها بما يبطن فقال :

— بل نخرج حين نشاء .

وندم على قوله أثر التفوه به ، اما هى فابتسمت فى حياء وقالت بصوت منخفض :

— ظننت أننا سنذهب اليوم الى السينما !

وعجب لهذه الدعوة تجيء من ناحيتها هى ، ومع انه رق لها الا انه لم يستسلم لعاطفته فقال :

— لولا اننى مرتبط بموعد كما قلته لك .

— آه .. هذا أهم طبعا من ذهابى معك !

— ليس الأمر كذلك لكن سبق منى وعد ! .. ثم .. ثم لا يجمل بنا أن نعاود ما تظنه أمى مخالفة للتقاليد بهذه السرعة !

فهزت رأسها فى ابتسامة حزينة وقالت :

— اذن فليس الموعد الذى يمنعك !

فقال بتسليم :

— كلا الأمرين معا !.. لا تؤاخذى امى على عقليتها القديمة .

فخرجت عن ضبط عواطفها لاول مرة قائلة :

— فكيف تسمح لنفيسة بالخروج كل يوم ؟!

ولم تعجبه لهجتها ، وساءها ما تضمنته فقال بلهجة لم تخل من حدة :

— لولا العمل لما غادرت نفيسة البيت أبدا !

وبادرته قائلة بلين واشفاق وأسف :

— لم افصد سوءا بأحد ، أردت أن اقول ان الخروج لا يعيب انسانا ..

وساد الصمت قليلا ثم سمعا وقع اقدام الأم وهى راجعة فتساءلت بهية فى لهفة واشفاق :

— حسنين انت غاضب ؟

ولم يستطع أن يجيبها بسبب ظهور الأم فابتسم لها ابتسامة رقيقة أثابت اليها طمانينتها .. ومكث معهما ساعة ثم ودعهما وانصرف .

٦٧

لم يكن ثمة موعد كما زعم وقد ذهب الى السينما بمفرده ودخلها بعد بدء العرض بدقائق فارشد الى كرسيه فى الظلام . وجعل يشاهد الجريدة بنصف انتباه والنصف الآخر هائم فى البيت الذى غادره معتذرا بأكذوبة . وذكر كيف ضغطت على يده . بحنو وهى تودعه ، ضغطة لذيذة أرعشت قلبه .. وغفرت لها ما تقدم وما تأخر من اساءة ! ، « أمنيتى الآن أدنى الى التحقيق ، لو مارست ضبط النفس بدل التهالك والتوسل لفزت بما أشتهى من زمن . لو عبست فى وجهها مرتين لما أصرت على قول « لا » . ما أحمقنى ! . لن أقنع بقبلة . لاضمها الى صدرى حتى يطقطق عظمها تحت ذراعى ، بعيدا عن أعين النقاد التى لا تعجبها الا الملاحة والرشاقة والموضة . ولكن هل اصر على اخفائها عن الأعين حتى بعد أن أتزوج منها ؟ . لماذا لا أستهين بالناس والسنتهم ؟. يا له من شر لا قبل لى بالتعامى عنه !. هكذا أنا » وارتاح من أفكاره بتركيز وعيه فى الشاشة فرأى هتلر وهو يستقبل سفراء الدول بمناسبة عيد ميلاده ، ثم شاهد فصلا من الصور المتحركة واضيئت الانوار . ودار برأسه فيما حوله

مفرسا فى الوجوه فاستوقف نظره امراة هائلة مفرطة فى السمنة لحد مزر تجلس لصق زوجها وتنازعه الحديث ، ولم يسعه الا الاعجاب بشجاعة الرجل الذى يستصحب هذه المرأة دون مبالاة بأحد . ولاحت منه التفاتة الى يساره فرأى فى الكرسى الذى يليه فتاة حسناء مرتدية جاكتة رمادية وتاييرا ، وخيل اليه لحظة انه لا يرى هذا الوجه لأول مرة . وراح ينقب فى طوايا ذاكرته . وفى اثناء ذلك انتقل بصره الى امرأة تليها ثم الى رجل ما ان رآه حتى دق قلبه بعنف ونهض قائما ومد له يده بأدب وهو يقول :

ـ ماساء الخير يا سعادة البك .

فالتفت الرجل صوبه ـ كان أحمد بك يسرى ـ وابتسم اليه مسلما ، ثم قدمه الى زوجه وكريمته وعقب على التعرف به قائلا « ابن المرحوم كامل افندى على » فسلم عليهما فى غاية من الأدب وعاد الى جلسته ومس يد الفتاة يسرى فى جسده ، وسأله البك عن حاله فى الكلية فأجابه شاكرا ثم فرغ كل لحاله . ونظر الى أمامه وهو يشعر بارتياح لأنه جاز فترة التعارف وهو ثابت متمالك لأعصابه مع أنه كان يقدم الى عضوين فى هيئة الجنس اللطيف العالية لأول مرة فى حياته . ومر عند ذاك نادل يحمل الوانا من الشيكولاتة والمشروبات فود لو كان يملك من النقود ما يسعفه بتقديم بعض منها الى الأسرة ، ولكن لم يكن فى جيبه الا قروش ، فحنق على افلات هذه الفرصة منه ، وحقد على فقره كما لم يحقد عليه من قبل !. ثم اطفئت الأنوار وعادت الحياة الى الشاشة ، ولكنه لم يندمج فيها ووجد من وعية وخياله اباء وجموحا . تؤكد لديه الآن أنه لم يكن يرى هذا الوجه البديع لأول مرة ، وذكر الساق العارية التى كشفت عنها حركة الدراجة بحديقة الفيلا .. ترى أى أثر قد تركه فى نفسها ؟. وأى أثر أخلفه قول احمد بك من أنه « ابن المرحوم كامل افندى على » ؟. كان

والده موظفا صغيرا ، وفضلا عن هذا فلا شك أن المرأتين تعلمان بما بذل البك لاسرته من شفاعة تارة ليوظف حسين ، وتارة ليلحقه بالكلية الحربية ، وهيهات ان يغيب عنهما حقيقة مستواه الاجتماعى . ولعل الفتاة لم تر فيه الا صنيعة لمعروف والدها ، ولعلها قالت لنفسها انه لولا يد أبيها ما ارتدى — هو — بدلته ذات الشريط الأحمر !. كل هذا محتمل ، بل هو مؤكد ، وقد التهب جبينه خجلا وسخطا . « لقد رايت ساقك على الدراجة ، عاجية جذابة ولكنها ليست بمعجزة . لا توجد معجزات فى هذه الدنيا . الست تنامين كأى فتاة ، وتغيبين عن الوجود كأى امراة ، وتحبلين كما تحبل الخادمة التى طردناها ، لفقرنا ، وتعوين حين المخاض كأية كلبة ! » وحك أنفه بسبابته فجأة فتنسم شذا لطيفا مما علق براحته عند السلام ، فيه أثارة للأعصاب ونفاذ الى القلب كانه السحر ، فأسكره عرفه وبث فى نفسه رضى وسلاما مسحا عن صدره أدران الحنق والألم . ولحظ طيفها اللطيف فحدس أنها شابكة ذراعيها على صدرها ، وتمنى لو تريح ساعدها على يد المقعد فتمس ساعده عفوا . ثم تخيل صورة وجهها الذى القى عليه نظرة خاطفة وهو يسلم عليها ، بطوله الممتلىء وعينيها السوداوين اللتين ينمان عن حيوية وخفة ، وهالة شعرها الأسود العميق السواد ، وبشرتها النقية التى تزين وجنتها اليسرى شامة ، ثم راح يستحضر صورة بهية ، ويعرض الصورتين جنبا الى جنب حيال مخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست أجمل من فتاته ، ولكنه شعر فى الوقت نفسه بأن بهية جمال جامد وهذه جمال متحرك ، كأنما يبث فى النفس حرارة ويشع فى الخيال حياة . وليس هذا فحسب فانها تمثلت لعينيه الطموحتين كرمز حى للدنيا الراقية التى يتطلع اليها بشغف جنونى . لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة . وبرغم نشوته الراهنة لم يخدع عن حقيقة شعوره ، ولم يتوهم انها تغلغلت فى قلبه حيث استكنت

بهية . فهذه على سلبيتها المطلقة — تقبض على جذور غرائزه واعصابه . ولكن الاخرى تخاطب مباشرة طموحه الذى لا يقف عند حد ، ولعله عرف على ضوء عينيها جانبا من نفسه كان غامضا وهو انه يؤثر فى اعماقه الطموح على السعادة والسلامة !. ثم هبطت عليه نوبة فتور مفاجيء فقال لنفسه « انى احلم احلاما سخيفة . ولكن لا يحق لى أن أروح عن صدرى بالأحلام ؟ أليست الأحلام نفسها حلما ؟. بلى ، انها حلم ، ولا يكدر صفوها الا شعورنا الوهمى بأنها حقيقة ! » . وانقضى زمن لا يدريه قبل أن يتمكن من تركيز انتباهه فى الشاشة ، ولكنه كان قد استنفذ حيوية كبيرة فبدا المنظر متعبا مملا ، وتصبر عليه فى جهد حتى انتهى واضيئت الأنوار . والتقت الأعين فحنى رأسه تحية ثم انخرط فى تيار الخارجين . انفلت من الزحام فتمشى فى الطرق ساعة ثم استقل الترام الى شبرا . واقبل على حيه فبدت له عطفة نصر الله أشد كآبة من عهدها ، وزكمت انفه رائحتها التى يختلط بها التراب بالدخان بمواد شحمية كثيرة فقطعها برما خابى العينين .

٦٨

وتواصلت الأيام حتى أوشك العام الدراسى على الختام . وفى ثلثه الأخير علم أن وزارة الحربية قررت تخريج دفعة الشاب مكتفية بعام دراسى واحد على أن يتم الخريجون تدريبهم فى الفرق التى يلحقون بها ، وذلك لتواجه زيادة عدد الجيش بعد اقرار المعاهدة . وضوعف العمل للطلبة ولكنهم اقبلوا عليه مستبشرين متحمسين ، والواقع انها كانت حقيقة أقرب ما تكون الى الخيال فلم يكن ثمة واحد منهم يصدق أنه سيكون ضابطا بعد عام دراسى

واحد ، وكان آخر هؤلاء جميعا حسنين نفسه . ثم انتهى العام وتخرج الشاب ! . واستخف الطرب الأم وكانت أشبه بملاح تائه تمزق شراعه ونفد طعامه اذ تكشف الضباب لعينيه فجأة عن مرفأ آمن ، ولهج لسانها بحمد الله وجعلت تقول فى حرارة وايمان عميق « انت وحدك يا ربى الذى اخذت بيدى ، ومن كان يرى حالنا بالأمس ونحن نتخبط فى ظلمات اليأس ويرانا اليوم وكل شيء من حولنا يدعو للأمل يقر من صميم قلبه بعدلك ورحمتك » . وغبطت نفسها على سعادتها لأول مرة فى حياتها واخذت محنتها الطويلة تتراءى لعينيها الذابلتين فى هالة من الفخار والسرور وكانها لم تكن سوى عبوسة مصطنعة على جبين الأقدار الرحيمة ، فابتلت عيناها بدموع الفرح والشكر . وكانت تقتصد من نقود حسين ونفيسة ما تعده لسداد مصروفات السنة التالية فأخذه حسنين ليهيىء به ملابس الضابط الكاملة وشغل بذلك طول المهلة التى تمنح للخريجين قبل توزيعهم على الفرق المختلفة . ولما كان ترتيبه بين الأوائل فقد ألحق بسلاح الفرسان بالقاهرة وتهيأ للأسرة من حسن التوفيق ما لم تكن تحلم به ، وارتدى حسنين بدلة الضابط فتحقق حلمه القديم وجعلت أمه تنظر اليه بعينين أذهلهما الفرح حتى شذت عن المألوف من صمتها ورزانتها ، فهذا هو الابن المحبوب ، زهرة حياتها وأملها المنشود . وقد قال لها مرة :

ـ اذا حان موعد الاحتفال بالمحمل فسيتاح لك ولنفيسة فرصة باهرة لتشاهدانى على صهوة جوادى على راس فرقة الفرسان !

فلم تتمالك أن قالت له :

ـ هذا اذا ابتعت لى معطفا يليق بالظهور فى الطريق الغاص بالمتفرجين !

فضحك الشاب قائلا :

— صبرك حتى اقبض مرتبى !

كانت أياما سعيدة صفت لهم فيها الدنيا وطابت . بيد أن الشاب كان يفكر فى أمور كثيرة ، وكان يروم ان يقيم سعادته المتاحة على أسس ثابتة لا يتطرق اليها الفساد ، فانتهز فرصة انفراده بأمه مرة — كانت نفيسة فى الخارج — وقال لها بصوت ينم عن الاهتمام الشديد :

— أماه ، يجب أن تنقطع نفيسة عن عملها المزرى فى الحال لأنه لا يجوز لأخت الضابط أن تكون خياطة .

فابتسمت الأم وقالت فى بساطة :

— سترحب بهذا بمجامع قلبها يا بنى ..

كان ينتظر هـذا القول بلا ريب بيد أنه لم يمح من نفسه ما يعتلج بها من مثار الفكر فاستطرد متنهدا فى كآبة :

— ليتنا نستطيع أن نمحو الماضى من صـفحة الوجود !.. اخاف أن يعيرنا قوم بما كان . وأنت أعلم بنفوس الناس ، وأكره ما أكره أن يترامى شىء من هـذا الى أحد من زملائى فأفقـد كرامتى بين أقرانى ..

فسرى اليها بعض همـه ولكنها ربتت على كتفه مبتسمة وقالت باستهانة :

— كنا فقراء ، واكثر الناس فقراء ولا عيب فى هذا ..

فهز رأسه معترضا وقال فى أسى :

— كلام يقال ولكنه لن يغنى عنا شيئا وانت أخبر بالنفوس !

— لا أحب لك يا بنى أن تنغص عليك صفوك بأمثال هـذه التخيلات ! ..

فاستدرك قائلا وكأنه لم يسمع قولها :

— هذه العطفة الحقيرة تعرفنا على حقيقتنا ، فلهذا لا اطيق البقاء فيها ..

واشفقت الأم من تكدير سعادتها الشاملة فقالت بتوسل :

– ستسوى هذه الأمور مع الزمن فلا تتعجل بحمل همها !

وحدجها بنظرة غريبة وغبطها فى نفسه على قوة أعصابها ، ولكنه سرعان ما تغيظ لعدم اكتراثها بالأخطار التى تتهول فى راسه وقال بحدة :

– قد تسوى هذه الأمور مع الزمن حقا ولكن بعد أن تكون قد قضت على !

فلاحت فى عينى المراة نظرة ارتياع وقالت له فى عتاب :

– اراك كعادتك نافد الصبر متعجلا للمتاعب ، ونصيحتى لك الا تخلط افراحك الحقيقية باتراح وهمية لا اهمية لها .

فقال باستنكار :

– لا اهمية لها !

– ماضى نفيسة وما يعرفه هذا الحى عنا لا اهمية له ؟

– اذا لم تأخذ نفسك بالايمان بهذا فلن تنعم بالسعادة ابدا .

فتنهد حسنين قائلا :

– اود أن أسدل على الماضى ستارا كثيفا .

– تجمل بالصبر وسيكون لك هذا .

فالتهب الشاب غيظا وقال كمن ضاق صدره :

– لا أخاف شيئا كخوفى الصبر الذى تدعيننى اليه . انظرى الى هذه العطفة الحقيرة وهذا البيت العارى هل استطيع ان اخفيهما الى الأبد عن أعين زملائى ؟!

وشعرت المراة بتعاسة وادركت أن حياتها لن تخلو من هم وكدر . وقالت له بمرارة :

– خطوة خطوة ! كنا لا نجد الطعام فانظر أين نحن الآن !!

فهز راسه فى حزن وقال :

– ما أردت اغضابك يا أماه ولكنى افكر هذه الأيام كثيرا فى المتاعب التى تتهددنا . وقد ذكرت لك بعضها ، ولعل ما بقى

ادهى وامر . فانظري مثلا الى اخى حسن وسيرته فى الحياة !.
كيف نستقبل الحياة فى هدوء وحولنا هذه المتاعب ؟!

وتفرست فى وجهه بدهشـــة وكانها تعجب لقـــدرته على اصطياد الهموم ، وتمتمت فيما يشبه اليأس :

ــ دع الخلق للخالق . كنا هكذا دائما فلم نهلك ولم يقض علينـــا .

فقال الشاب بانكار :

ــ لم اكن ضابطا أما الآن فقد أصبحت سمعتى مهددة !

وتجهم وجه الأم ولاذت بالصمت فى كرب شـــديد فتنهد حسنين قائلا :

ــ ينبغى أن يتغير كل شىء ، حتى قبر والدنا المكشوف بين قبور الصدقة . تصورى ماذا يظن بنا زملائى لو علموا بمكانه !

ودارت الأم مشاعرها بابتسامة وقالت برجاء :

ــ انى أحب لنا ما تحب ولكنى اوصيك بالصبر واحذرك عواقب ثورة لن تجـــدى الآن الا الحزن . تريد أن تمحو الماضى وتغير البيت وتنشىء مقبرة وتبدلَ اخاك من حال الى حالّ ، ولكن هيهات أن يتم لك ما تريد قبلَ زمن طويلَ فكيف يكون العمل ؟. طالما تمنيته أن تسعدنا وأن تسعد معنا فاذا لم تروض نفسكَ على التسليم بالواقع وتاخذها بالصبر شقيت وشقينا !

وضاق بالكلام ضيقة بمتاعبه فامسك عنه . ولم يقع قولها من نفسه الثائرة موقع الاقتناع أو القبولَ فخيل اليه انهـــا لا تشاركه آماله وعواطفه ، وانه وحيد فى معركة الحياة أو الموت. ان نفسه تهفو لحياة افضل وانظف . ولن يحيد عن هـــدفه . وليدافعن عن سعادته وآماله بكلّ ما أوتى من قوة ورغبـــة فى الحياة . ودق الباب عند ذاك ، وكان المساء يمد رواقه ، فحدس انها نفيسة عائدة من عملها ، فهرع الى الباب فى تصميم جديد .

٦٩

ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا ترى تلك الأيام الا مبتسمة مستبشرة . واستبانت فى وجه أمها سهوما فاقتربت منها وقالت مداعبة :

ـ تخلى يا أماه عن هذا الجد الذى لا داعى له فقد انتهت متاعبنا .

وردد حسنين قولها فى نفسه محزونا ، هل حقا انتهت متاعبهم ؟. ان ميزانية الجيش كلها لا تكفى لانهاء متاعبهم ! ثم رفع بصره اليها وقال بلهجة ذات معنى :

ـ آن لك أن تستريحى ...

فتساءلت ضاحكة :

ـ أتعنى أن أترك مهنتى ؟

ـ نعم ...

ـ أتركها غير آسفة ، وسألزم بيتى كالهوانم ، ألست شقيقة ضابط ؟!..

ولم يتمالك أن قال ساخرا :

ـ وشقيقة سى حسن أيضا !

فرددت عينيها بينه وبين أمها فى دهشة وتساءلت عما جعله يقحم أخاه بهذه اللهجة المرة ، أما هو فسألها متهكما :

ـ الا يسرك هذا ؟

وقالت الفتاة برقة وعطف :

ـ مهما يكن من أمر أخينا حسن ففضله لا يمكن أن ينكر .

وتدارك الشاب قائلا :

ـ لست فى حاجة الى من يذكرنى بهذا ، وعلم الله انى احبه ،

ولكن لا حيلة لى اذا قلت ان سلوكه فى الحياة ليس مما يشرف .

وثقبت العبارة الأخيرة قلبها فلاحت فى عينيها نظرة زائغة ، وتخيلت امورا فبردت أطرافها رعبا ، ثم خيل اليها أنه يعنيها بالذات ، ولم تعد ترتاح للصمت فغمغمت فى فتور :

ــ وأية اسرة تخلو من شيء من هذا القبيل !

فقال حسنين بامتعاض :

ــ ولكنه لا يوجد فى الأوساط المحترمة .

وركبها الضيق والقلق فرغبت فى الاختفاء وتظاهرت بالضحك وقالت فى مرح متكلف :

ــ لا يستحيل ان يوجد شقيقان احدهما وزير والآخر لص ، بالله لا تكدر صفونا ، واعلم أنى صنعت لك صينية كنافة فدعنى أسخنها ولنأكل فى سلام !

وغادرت الحجرة الى المطبخ بوجه مكفهر ونفس حائرة يشيع فى قلبها خوف وقلق . انه يدعوها الى القبوع فى البيت أسوة بالنساء المحترمات ، وانها ترحب بهذا ولكن ما كان كان ولا سبيل الى اصلاحه . وهى تستطيع اذا شاءت أن تنتحل لسلوكها الأعذار وأن تقول لنفسها انها انما ارتضت تلك الحياة للحصول على النقود التى أقامت بها أود أسرتها فى أكلح ساعات حياتها ، وهذا حق ولكنه ليس الحق كله فهنالك أيضا الرغبة المعذبة واليأس القاتل. وكم ودت فى ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هى بموتها ولكنها كانت تزداد رغبة وانحدارا ويأسا ثم تمردا واستسلاما . وعانت كثيرا شقاء الذنب وكان عزاؤها الوحيد ــ ان كان عزاء على الاطلاق ــ ان الأقدار لا يمكن أن تدخر لها حياة أفضل . وكم تمزقها الحيرة الآن بين ماض تعيس ورغبة لا تسكت عنها . وحتى هذه الحياة الجديدة الموعودة لا تدرى ان كانت تستطيع حقا أن تخلص لها بعد ماكان ، فلن تغيض رغبتها ولن يتخلى عنها اليأس، وفيم تأخذ نفسها بصبر لا مطمع لأمل وراءه وليس لديها ما يصح

المحافظة عليه ؟ هل يمكن أن تقنع من الحياة بانتظار طويل ممل للموت .؟ لا تدرى ان كان بوسعها حقا أن تخلص للحياة الجديدة ، وأن تتعذب عذابا طويلا متصلا بعد أن خسرت كل شيء . انها تمقت الماضى وتخافه ولكنها تشد اليه بقوة شيطانية فلا تستطيع منه فكاكا ، ولن تفتأ تتبعه يائسة مثقلة بالذنب مرتعبة ، كمن يسلم للسقوط من علو شاهق فى كابوس بعد ان ايس من اليقظة. وجعلت تنظر فى سهوم الى صفحة الكنافة المورده حتى تخيلت نفسها فى الصينية تحترق وقد اسودت بشرتها ، وفى تلك اللحظة بدت الحياة لها عابثة قاسية ، تعبث فى قسوة . وتقسو فى عبث. فتساءلت « لماذا خلقنى الله ؟ » . ومع ذلك كانت تحب الحياة ، ولم يكن يأسها وعذابها وخوفها الا آيات على هذا الحب ، وكانت الى هذا كله تنتظر مع الغد موعدا لم تضمر النكوص عنه .

وحملت الصينية بخرقة بالية وعادت الى الحجرة فوضعتها على المكتب وهى تقول فى مرح وكأنها أنسيت أفكارها ومخاوفها .

— أقدم لك آخر كنافة من عرق جبينى ، وعليك وحدك منذ الآن أن تحلى السنتنا !

واقبلوا على الكنافة بشهوة وقد تطهرت الأنفس من همومها، وقالت الأم وهى تغرز أصابعها فى الصينية :

— ليت حسين كان معنا .

ولوح لها حسنين بأصبعه حتى ابتلع ما فى فيه ثم قال :

— آن لنا أن نسعى الى نقله الى القاهرة . كان احمد بك يسرى قد وعد بنقله بعد مرور عام أو نحوه وها قد اوشك ان يمضى عامان على تعيينه فى طنطا .

كان يرغب فى معاشرة اخيه كعهدهما القديم ، وكان يأمل أن يجد فيه عونا على متاعبه ، وقد رحب الى هذا وذاك بفرصة تتيح له زيارة احمد بك فى قصره .

٧٠

ذهب مع أصيل الغد الى ڤيللا احمد بك يسرى وفى نيته ان يقدم له فروض الشكر لمناسبة تخرجه ثم يستشفعه لنقل اخيه الى مدرسة من مدارس القاهرة . وقد وقف البواب احتراما للضابط ثم قاده الى السلاملك ومضى الى الداخل لانباء البك بحضوره . وجلس حسنين الى الكرسى الذى جلس عليه اكثر من مرة فى أوقات متباعدة وظروف مختلفة ، وراح يسرح طرفه فى الحديقة . وجرى بصره فى الممشى الطويل المتعرج الذى رأى الدراجة تقطعه فى مهل وحذر منذ أكثر من عام وتساءل ترى الا تزال تلهو بهذه الرياضة ؟. وابتسم للذكرى حينا ثم تساءل مرة اخرى أحقا جاء للشكر والشفاعة وحدهما ؟ ! وعاوده الابتسام . بيد انه كان فى حيرة من اهدافه قلقا حيال البواعث التى تحركه ، مشفقا من الاساءة الى خطيبته ، ثم ذكر زيارته الاخيرة - التى اعقبت تخرجه - لبيت فريد افندى وكيف مرت فى أحاديث مملولة وشعور أليم بالحرمان . حتى أنه لم يظفر بجلسة منفردة واحدة بفتاته ، ذكر هذا فوجد من التذمر ما هون عليه احساس التأنيب الذى دب فى أعماقه لسروره بذكريات ڤيللا احمد بك . ونفض عن رأسه أفكاره واستسلم لمشاعر الطموح التى تتوهج فى قلبه فى محيط هذه الڤيللا الرائعة فانثالت على مخيلته الأحلام ، ماض جديد وبيت جديد وقبر جديد واهل جدد ومال موفور وحياة وضاءة لامعة . ومع انه صار ضابطا ، ولعل كثيرين يرمقونه بعين الحسد لذلك ، الا انه أدرى الناس بقلبه الذى يحترق لهفة على الحياة السامية النظيفة ، هذا القلب الذى أورده الجزع موارد القلق والسخط

والشقاء ، ولبث على استسلامه للأحلام حتى عاد البواب من الداخل وتنحى عن الباب فى أدب وهمس « سعادة البك قادما » . ونهض حسنين ، ثم ظهر البك فى بدلته البيضاء والوردة الحمراء تزين عروته ، ولما راى الشاب القى على بدلته العسكرية نظرة شاملة ثم قال ضاحكا :

ـ أهلا بالضابط .

وانحنى الشاب على يده مسلما وهم بالكلام ولكنه راى حرم البك تتبعه قادمة من الداخل وفى اثرها الفتاة . وأدرك انه جاء فى وقت غير مناسب لغرضه لأن الأسرة متأهبة للخروج ، وقد توكد هذا لديه حين لمح السيارة تدور فى الممشى الواسع وتقف عند أسفل السلاملك منتظرة الذاهبين ، فما كان منه الا ان سلم على المراتين وتأخر خطوتين قائلا :

ـ جئت لأقدم لسعادتك فروض الشكر لمناسبة تخرجى ، وأرى ان استاذن فى الانصراف الآن حتى لا اؤخركم .

ولكن البك قال :

ـ بل نجلس لنشرب ليمونا معا ، ما يزال امامنا فسحة من الوقت ..

وجلسوا فجلس وهو يبذل قصاراه ليضبط اعصابه فلم يكن ابغض اليه من أن يتولاه الاضطراب أو الارتباك حيال البك وأنداده من علية القوم . وذهب البواب لاحضار الليمون أما البك فسأله برقة :

ـ أين كان تعيينك ؟

فقال حسنين بزهو مكتوم :

ـ سلاح الفرسان بالقاهرة .

ـ كنت من المتقدمين ؟

ـ الثامن ...

وهنأه الرجل ، ثم ساد الصمت . وكان فى عزمه ان قال

البك منفردا ـ أن يعدد أياديه على اسرته وما بذل من شفاعة محمودة له ولاخيه على ان يتدرج من الثناء الى عرض مسألة اخيه حسين ، ولكنه عدل عن هذا مصمما على الاحتفاظ بكبريائه أمام المراتين ، وامام الفتاة خاصة ، ولم ير ضيرا فى تأجيل مسألة شقيقه الى غد أو بعد غد على ان يحدث البك عنها فى مكتبه بالوزارة . وجاء خادم نوبى باقداح الليمون دار بها عليهم ، وانتهز حسنين فرصة رفعه للقدح الى فمه فاسترق الى الفتاة نظرة من فوق حافة القدح فرآها وهى تحسو شرابها فى رفق ولطافة ، فلم يند عن زورها هذه الحركات العصبية التى يبعثها الازدراد العنيف ، وتمززت السائل فى رقة فانسكب فى هوادة وحياء ، وقد اكتسى وجهها بهدوء بديع واسترخاء حالم كأنها تستنيم للمسات النعاس ، واعاد القدح الى الصينية ثملا بنشوة افتتان تبعثها الأناقة والرشاقة وامارات الارستقراطية . وتخيلها فجأة بين ذرعيه مستكينة مستنيمة فأصر على أسنانه . « ماهذا الجنون الذى ينبعث فى دمى . ليس شهوة فحسب ، بل ليس شهوة على الاطلاق ، بهية أشهى منها وان كان يخجلنى الظهور معها أمام الناس ، ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسى ولكنه غزو كامل وفتح مظفر . هذه ! » . وانتبه من أفكاره على صوت احمد بك وهو يسأل :

ـ كيف حال الأسرة ؟ ؟

فخطر له خاطر ظن أنه يرفع من كبريائه . وكانت الأكاذيب تنبعث فى نفسه أحيانا بوحى البديهة فقال بلا تردد :

ـ الحمد لله . انقضت متاعبنا بعد أن كسبنا القضية !

فتساءل البك :

ـ أى قضية ؟

فقال بثبات وثقة :

- قضية قديمة بين امى واخوالى على أوقاف وقد حكم لأمى بنصيبها كاملا !

فقال الرجل :

- مبارك .. مبارك ..

وشعر حسنين بارتياح وزهو ، ثم وهو يقول :

- لقد اخرتكم وانا آسف يا سعادة البك .

ونهضوا جميعا وهبطوا الى موقف السيارة ، وتمنى لو يدعوه الرجل الى الركوب معهم ، ولكنه مد له يده مودعا فسلم عليه وحنى راسه تحية لأسرته ومضى الى الباب مسرعا . كانت الزيارة تبدو مخفقة لأنه لم يمس الموضوع الذى جاء من أجله ولكنه كان يرى توفيقه بهذا اللقاء غير المنتظر وهذه الكذبة التى جادت بها البديهة السعيدة أخطر من غرضه الأول الذى لن يؤثر فيه تأجيل يوم أو يومين ..

٧١

وقلب وجهه فى السماء ولما يبرح شارع طاهر فطالع فى صفحتها نظرة الغروب الشاحبة فتساءل ترى هل يجد أخاه حسن فى بيته اذا جازف بزيارته ؟ كان مصمما على مجابهته برأيه وان كان ضعيف الأمل فى اصلاح ما فسد من أمره ، ولكن تركيز أفكاره فى مستقبله ومستقبل أسرته جعله يستهين بكل شىء حتى مناضلة حسن نفسه . ومضى يشق طريقه بعزيمة لا تنثنى ولكنه كان يحمل قلبا أثقله الهم والشك . واستقل الترام حتى ميدان الخازندار ثم اتجه الى شارع كلوت بك وقد تحول انتباهه الى بدلته العسكرية التى فرضت عليه الظروف - كانت أمه قد استغلت ملابسه القديمة فى أغراض جديدة كعادتها - أن يخترق

بها طرقا مريبة ! لم يكن الاختيار بيده . وكان يرى فى حسن مشكلة الاسرة المعقدة الأولى . لقد تخلت نفيسة عن مهنتها ، وسوف يهجر قريبا عطفة نصر الله بل وشبرا جميعا ، وربما اسدل ستار النسيان على الماضى البغيض كله ، فلم يبق الا حسن وهيهات أن يطمئن له جانب ما دام شقيقه مقارفا حياته الآثمة . وطالعته عطفة جندف فعرج اليها متجنبا الأنظار التى تطلعت اليه فى دهشة وقطعها مسرعا الى بيت اخيه ومرق اليه كالهارب مستقبلا الرائحة النتنة ، وارتقى السلم الحلزونى ممتعضا ، ذاكرا فى ضيق وخجل زيارته الأولى لهذا البيت منذ عام ، حتى وقف امام باب الشقة فى شبه ظلام وطرق الباب . وفتح الباب عن وجه رجل غريب — وجه شائه من الوجوه التى لم تبرح ذاكرته منذ زيارته الأولى — وما ان وقع بصره عليه حتى دفع الباب فأغلقه فى وجهه بسرعة غريبة وقد ندت عن فيه صرخة قائلة : « بوليس ! » فدهش الشاب ، ثم حدث ما هنالك فانزعج واحس بخزى وألم لم يحس بمثلهما من قبل . ولبث متسمرا فى مكانه لا يدرى ماذا يفعل . وفكر فى العدول عن الزيارة ، ولكنه لم يبرح مكانه ووجد من نفسه تصميما عنيدا على انجاز مهمته مهما كلفه الأمر . ليست المسألة لهوا وعبثا ؛ هى حياة أو موت ، ولن يستطيع السير فى حياته قدما ووراءه هذا البيت . وطرق الباب مرة أخرى ، وانتظر وهو يعلم بعبث الانتظار ، ثم أعاد الطرق بشدة . ترى هل يمكن أن يكونوا قد هربوا من الشقة من احدى النوافذ ؟ وأراد أن ينادى أخاه بصوت مرتفع فيتعرف عليه بصوته ولكنه خاف أن يعرفه كما يريد ثم يعلن شخصيته لصاحبه المذعور ليطمئنه فتذاع الصلة التى يتمنى الا تعرف أبدا ، ومع هذا فمن أدراه ان حسن لم يخبر أحدا بحقيقة شقيقه ولو على سبيل الفخار ؟ ! واصر على أسنانه فى خزى ويأس ، ولكن اليأس أمده بقوة عناد جديدة فطرق الباب بقبضة يده

بعنف وصاح « يا حسن ، يا حسن ، انا حسنين ! » . ولم يطل انتظاره بعد النداء ففتح الباب وبدا حسن خلفه يطالعه بعينين ذاهلتين . وبدا كمن يفيق من صدمة ، وثبت عليه بصره لحظات دون ان يتحرك ، ثم دبت فى عينيه يقظة ، وشاع فى نظرتهما الابتسام وهتف :

— حسنين !!.. ضابط !.. لا اصدق عينى !

وشد على يده ، وربت بالأخرى على ذراعه ، وجذبه الى الداخل وهو يضحك ضحكة عصبية عالية . ثم سار به الى حجرة النوم وهو يقول :

— ضابط !.. يا لها من مفاجأة !.. مبارك مبارك .. هذا يوم سعيد ..

وجلس حسنين على الكنبة ، واغلق حسن الباب ثم جاء فجلس الى جانبه . وكان الشاب يبذل جهدا جبارا ليتغلب على اضطرابه ويتمالك اعصابه ، ونظر الى أخيه مبتسما وقال :

— انى أحق الناس بالتهنئة ولكنك أنت أحقهم بالشكر .

فضحك حسن بسرور ولعل شعوره بالسرور كان مضاعفا بعد ما كان من انزعاجه وقال :

— علام أستحق الشكر ؟ ما اديت اليك الا بعض حقك عندى . دعنا من هذا وخبرنى عن حال الأسرة ، وكيف أمنا ونفيسة وما اخبار حسين ؟ .

وراح يحدثه عما يريد بباطن فاتر وظاهر متكلف الاهتمام ، وكاد الحديث يسوقه وهو لا يدرى الى سؤاله عما قطعه عنهم ، ولكنه أمسك عن السؤال فى اللحظة الأخيرة ذاكرا أن انقطاعه هذا خير غير مقصود وأن وصاله شر ما يبتلون به وهو على هذه الحال ، ولما فرغ من حديثه قال حسن :

— الحق انى أحن اليهم كثيرا ولكن حياتى لم تعد تسمح لى باشباع هذا الحنين . نحن فى بلد واحد ولكننى فى الواقع كأنى

فى بلد بعيد منقطع عن العالم . وربما خفف عنى الألم أحيانا أنهم لم يعودوا بحاجة الى وأنى اديت بعض الواجب على . وفضلا عن هذا فلست تجدنى فى يسر متصل . فقد يمتلىء جيبى بالنقود أياما ثم يفرغ اسابيع . وفى حالة امتلائه تجدنى مضطرا للانفاق بغير وعى . لا عليك من هذا ، لقد أصبحت ضابطا فمبارك عليك حظك ولا يصح ان أخلط بفرحى شيئا آخر . . مبارك يا حضرة الضابط !

وجعل حسنين يصغى اليه وهو يتفرس فى وجهـه فهاله ما يرى من تغير وتشويه وغرابة كأنه يستهلك فى العام الواحد من حياته المحفوفة بالمهالك اعواما طوالا . لقد انتهى حسن ، وشعر بانقباض وتشاؤم . وبثقل المهمة التى جاء من أجلها . ومع هذا فلم يخطر له لحظة واحدة أن يعدل عما يراه واجبه ، وعزم على أن يتسلل الى هدفه برفق فابتسم وقال :

ــ اخاف أن أكون قد أزعجتك بزيارتى !

ــ أيصدق هذه العبارة من فيك !.. ما هذا القول يا حضرة الضابط! ؟

فأشار حسنين ناحية الخارج وقال متصنعا الدهشة :

ــ لقد فتح الباب لى رجل غريب ثم صرخ مرتعبا « بوليس » وأغلق الباب فى وجهى !

فقهقه حسن عاليا وقال :

ــ حصل سوء تفاهم نادر ولكننى عرفت صوتك فانتهى الأمر بخير ..

فوجد حسنين صعوبة قبل أن يقول متسائلا :

ــ وما الذى اخافه ؟

فألقى عليه نظرة كأنما تسائله ايجهل حقا أم يتجاهل ! ثم قال بعدم اكتراث :

ــ يوجد اناس كما تعلم يخافون البوليس !

فتساءل الشاب باشفاق :

ــ اليس من الخطر ان تفتح ابواب بيتك لمثل هؤلاء ؟ !

فصمت حسن قليلا ثم قال :

ــ بلى ولكن الانسان ليس حرا فى اختيار اصحابه !

فقال بدهشة :

ــ كيف هذا يا اخى ؟!.. الانسان حر بلا شك فى اختيار أصحابه ..

فقال حسن بلهجة من يرغب فى تغيير مجرى الحديث :

ــ فلندع هذا جانبا ولنختر حديثا الطف !

ــ لا استطيع ان ادعه حتى اطمئن عليك ..

فقال حسن ضاحكا :

ــ لا خوف على . اطمئن !

ــ انى أعجب لما يدعوك الى مصادقة هؤلاء الأشرار .. انت فنان محترم وتستطيع أن تختار من بين زملائك أحسن الأصدقاء.

وخفض حسن عينيه ليخفى نظرة التجهم التى لاحت فيهما . غضب الرجل . ولو ثار غضبه حيال شخص آخر غير حسنين لانفجر ، ولكنه كظمه وعالجه بالحسنى . أغضبه شعوره بأن أخاه يعلم من امره اكثر مما يتظاهر به ، وأنه يعامله معاملة الأطفال . ولو انه صارحه بذات نفسه ، بل لو أنه وصفه بالشر كما وصف اصحابه لما غضب كما يغضب الآن . وعزم على ان يكشف القناع عن الحديث الكاذب فقال باقتضاب وبصوت ــ رغم كظمه غضبه ــ غير الذى تكلم به من قبل :

ــ انى واحد من هؤلاء الأشرار !

وفغر حسنين فاه دهشة فقال الآخر بجفاء :

ــ حسنين اياك والتظاهر بالدهشة . لست غبيا ولست غبيا فيحسن بك أن تحدثنى بالصراحة التى تعودت ان تحدثنى بها دائما . ما وجه الغرابة فى أن أكون شريرا ؟ الم اكن طوال عمرى هكذا ؟ !

وخفض الشاب عينيه فى وجوم وخجل وتشتت منطقه فانعقد لسانه . وارتاح الآخر لارتباكه فعاوده مرحه واراد ان ينهى هذا الحديث المؤلم فقال :

ـ لا عليك من هذا . ولعن الله الرجل الرعديد فلولا فزعه الصبيانى ما جرى الحديث بيننا هذا المجرى السخيف . ولنعد الآن الى الاهم ! ثم ضاحكا : لا شك انك جئتنى لحديث آخر !

فجمع الشاب ما تشتت من افكاره وقال متنهدا :

ـ الحقيقة اننى ما جئت الا لهذا الامر !

فلاح الاستنكار فى وجه حسن وقال متهكما :

ـ حسبتك جئت تطلب نقودا !

وشعر الشاب بغضب اخيه ولكن لم ينثن عن عزمته فقال بلهجة رقيقة متوددا اليه :

ـ بفضلك السابق لم أعد فى حاجة الى نقود ولكن مهمتى الآن اجل من النقود . انى أريد ان اطمئن عليك ..

فحدجه بنظرة ثاقبة وقال بسخرية :

ـ لا زلت أطالبك بالمزيد من الصراحة !.. انك يا حضرة الضابط تريد ان تطمئن على نفسك لا على انا !

فقال حسنين وهو يشعر بقهر وغيظ :

ـ هما شىء واحد ..

ـ حقا ؟! لا ارى رايك او دعنى أسالك لماذا لم توجه الى هذه النصيحة من قبل ؟.. منذ عام مثلا ؟

لا يسعه ـ بعد أن قال له وهو لا يدرى انه انما جاء لهذا الأمر ـ أن يدعى أنه كان يجهله ، وركبه الضيق ، ولكنه تهرب من سؤال اخيه قائلا :

ـ الا ترى وجه الخير لك فيما اريد ؟

فتجاهل حسن سؤاله وقال بنفس اللهجة الساخرة :

ـ كنت قبل عام فى حاجة جنونية الى النقود فلم تهتم

بالنصح والارشاد اما الآن وقد اصبحت ضابطا فلا يهمك الا الدفاع عن هذه النجمة اللامعة !

ومع أن وجه حسنين لم يتغير الا أن قلبه ماج بالغيظ والحنق وكانما اهاجه ان يقرا الآخر اعماقه بهذه السهولة الساخرة ولكنه قال بلهجة لينة :

ـ اخي ..

واشار اليه الآخر ان يسكت فسكت ، ثم قال باستهانة :

ـ ساكون معك صريحا الى ابعد حد ، واذا كنت تسائل نفسك حقا عن عملي فاني اقول لك انى فتوة قهوة بدرب طياب (ثم مشيرا الى الصورة فوق راسه) وعشيق هذه المراة ، وبائع مخدرات .

وهتف حسنين في انزعاج :

ـ لا اصدق هذا ! .

فقال الرجل مبتسما فى هدوء :

ـ بل تصدقه كل التصديق ، ولعلك خمنته فيما مضى ، وها قد صح تخمينك ، فماذا ترى ؟ !

فرنا الشاب اليه صامتا فى اشفاق وألم ، حتى ضاق بصمته فقال محزونا :

ـ ليس أحب الى من ان تبدأ حياة جديدة شريفة !

فضحك حسن عاليا ثم قال بسخرية :

ـ بفضل حياتى غير الشريفة امكننى أن ادفع عن أسرتنا غائلة الجوع ، وأن أزود أخاك حسين بما كان فى حاجة اليه كى يباشر عمله الحكومى ، وأن أهيىء لك قسط المصروفات الذى جعلك ضابطا والحمد لله .

ووخزه كلامه بمثل شك الأبر فتراءت له الحياة ضيقة خانقة ، ولكن رغبته الحارة فى الدفاع عن نفسه أبت عليه أن يسلم بالهزيمة فقال :

— كان هذا بفضل نبلك ولا فضل لهذه الحياة الخطيرة فى ذاتها !
— لا تغالط نفسك . انهم يدعوننى بالروسى لا بالنبيل .
ثم ما هى الحياة غير الشريفة ؟ ليس ثمة الا حياة فحسب ، وكلنا يسعى للرزق ..

— توجد حياة آمنة ، وحياة يفزعها مجرد توهم البوليس ..
— هذا من عسف البوليس ، ولا ذنب لنا ، بالله خبرنى ماذا تريد على ان اعمل ؟

فقال حسنين بحماس وقد لاحت له بارقة امل :
— اهجر هذه الحياة واختر لنفسك عملا شريفا كسابق عهدك .
وانفجر الرجل ضاحكا وتساءل فى دهشة :
— صبى ميكانيكى ؟!.. هذا كمن يطلب اليك ان تستقيل من الجيش لتبدأ من جديد بالتوفيقية !

وغلى حنق الشاب فى أعماقه مرة أخرى ، ولكنه تساءل فى هدوء وابتسام :
— ألا تدرى ما النهاية المحتومة لحياتك ؟
فقال متهكما فى بساطة :
— أن أسجن أو أقتل !.. واذا قدر على ان اقتل اولا نجوت بطبيعة الحال من السجن !

فتظاهر بالضحك وما يزداد الا حنقا ، واشتد حنقه خاصة لاستهانته ، ومع انه يئس منه أو كاد الا أنه استطرد قائلا :
— أرى أن خطورة حياتك لا تغيب عن فطنتك ، فلست فى حاجة الى أن أبصرك بعواقبها الوخيمة ، وانى أستحلفك بالله أن ترعى نفسك بالحكمة ..

فألقى عليه نظرة طويلة باسمة كأنه يقول له « لا تحاول خداعى بتوددك » وقال :
— لا تخف على ، استغفر الله أعنى لا تخف على نفسك أو سمعتك ، لا تحمل نفسك هموما فارغة ، هبنى كشىء لم يكن .

لا تكترث لما يقول الناس عنكم بسببى فانك تستطيع ان تحيا الحياة التى تروق لك على رغم كلام الناس ..

وتنهد حسنين فى ضيق وقنوط . وحنق عليه فى تلك اللحظة حنقا اسود تمنى معه لو كان شيئا لم يكن حقا ؛ ولكنه كائن . ومسلط على راسى كالسيف القاتل . فما عسى ان يفعل ؟ وتنهد مرة اخرى وتساءل :

ــ اليس ثمة امل فى ان تعود الى الحياة الشريفة ؟ .. اهذه كلمتك النهائية ؟ !

وغضب حسن . وكانه أشفق على أخيه من غضبه فانتفض قائما وقطع الحجرة الصغيرة ذهابا وايابا مرتين مفرغا بخار غضبه فى حركاته العنيفة ، ثم استند الى حافة السرير ، وشبك ذراعيه على صدره ، وقال بلهجة من نفد صبره :

ــ حياة شريفة ، حياة شريفة ! لا تعد هذه العبارة على مسمعى فقد اسقمتنى . ميكانيكى بقروش معدودات فى اليوم ؛ اهذه هى الحياة الشريفة !؟.. السجن احب الى منها ! ولو اننى استمسكت بها طوال حياتى لما حليت كتفك بهذه النجمة أتحسب ان حياتى وحدها غير الشريفة ؟.. يا لك من ضابط واهم !.. حياتك انت أيضا غير شريفة ، فهذه من تلك ، ولقد جعلت منك ضابطا بنقود محرمة مصدرها تجارة المخدرات واموال هذه المراة (وأشار الى الصورة) ، فأنت مدين ببدلتك لهذه المومس والمخدرات ، ومن العدل اذا كنت ترغب حقا فى ان اقلع عن حياتى الملوثة ان تهجر انت أيضا حياتك الملوثة ، فاخلع هذه البدلة ولنبدأ حياة شريفة معا !

واصفر وجه حسنين وغض بصره فى ذهول ويأس وقد امتلأ صدره غيظا وحقدا . وانفجرت شفتاه اكثر من مرة كأنه يهم بالكلام ولكنه كان يطبقها فى تسليم اليائس . ولم يرحمه حسن على ما بدا من قهره ووجومه فقال :

- ارايت انك تؤثر النجمة على الحياة الشريفة ؟!! ولست الومك فأنا مثلك اوثر رزقى على الحياة الشريفة (ثم ضاحكا) .. نحن شقيقان ويجرى فى عروقنا دم واحد !

ونهض حسنين عابسا وهو يقول :

- لا تسخر منى جزاء ما أوليتك من نصيحة !

ثم اتجه نحو باب الحجرة وهو يقول :

- استودعك الله ..

ولما وضع يده على اكرة الباب سأله الآخر برقة مفاجئة :

- الا تريد ان تسلم على ؟

فتحول اليه ومد له يده . فشد عليها الآخر وابقاها فى يده وهو يقول ضاحكا :

- يؤسفنى اننى اغضبتك . انس ما كان ولنبق كما كنا ولو على البعد . ستجدنى دائما « الروسى » الذى عهدته . ولا تنس ان تهدى سلامى الى امنا ونفيسة . مع الف سلامة ..

٧٢

واطلع امه على صورة واضحة من سيرة حسن فقد كان صدره اضيق من ان يتسع لها وحده . واستمع لما جاد به لسانها من ضروب العزاء والنصح بقلب مغلق ، كان فى الحقيقة متجهمامتشائما حاقدا . ولما كان لديه بضعة أيام من الفراغ قبل أن يبدأ عمله بالفرقة فقد خطر له أن يسافر الى طنطا للقاء حسين ، وعاوده شعوره القديم بالحاجة الى مشاورة أخيه فيما يلم به من أحداث . بيد أنه لم يقدم على تنفيذ فكرته وبدا كالمتردد ، وفيما بين هذا وذلك لم يجد من سلوى الا فى شقة فريد افندى . ولكنه كان يذهب اليها ناشدا عزاء لا ملبيا شوقا ، ولم تغب عنه حقيقة

مشاعره فحمل كآبته العامة مسئولية تغيره . ثم اخذ يستبين ان تغيره أعمق من ان يكون اثرا عارضا وقتيا . وتساءل فى حيرة الم يعد يحبها ؟!. عرض له هذا التساؤل اول ما عرض فى ضحى اليوم الذى جاء بعد زيارته لحسن بيومين ، وكان يجالس بهية على انفراد بحجرة الاستقبال على حين شغلت الأم بالمطبخ ، فجعل ينظر الى الفتاة متسائلا الم يعد يحبها ؟! هى فتاته بجسمها وروحها ، ولم تزل مثار رغبة جامحة ولكن كأنه يرغب فى أن يولى عنها فيما يرغب أن يولى عنه من ماضيه جميعا . وتحير بين رغبته فيها وما يتساءل عنه من انتهاء حبه لها ! أيمكن أن يرغب فيها ولا يحبها فى آن ؟ أنه يجذب اليها بقوة عنيفة ولكن يرغب به عنها ما يرغب به عن عطفه نصر الله وعطفة جندب . لم تعد الأمل الذى يرنو اليه ، وما هى الا لوثة فى دمه يبغى منها شفاء . وادام النظر اليها حتى خال وجهها الهادىء المهذب عقابا مجسما فوجد وخزا فى قلبه ، وطرد أفكاره دون أن يبت فيها برأى وسمعها تقول له :

— لا تحملق فى هكذا ..

ما ألذ أن يضمها الى صدره ويمطرها قبلا ! انه لا يدرى ما هو فاعل بها غدا ولكنه يأسى على طول حرمانه .

وقال مبتسما :

— انى أفكر فى تقبيلك قبلة حارة نبدأ بها حياة جديدة .

— لا يحلو لك الا هذا الكلام !

— هل ثمة ما هو أحلى ؟

فترددت قليلا ثم خفضت عينيها قائلة :

— يوجد ما هو أهم !

وحدس ما تعنيه بلا تردد . وساوره قلق . ولكنه تجاهل ظنه متسائلا

— أهم من القبلة ؟ !

ـ احب أن تحدثنى جادا ولو مرة ..

ـ ولكنى أود أن أقبلك جادا !

فتفكرت فيما يشبه الحيرة ، كأنما تغالب خطره ثم بدا كأنها تغلبت على حيرتها فقالت :

ـ الا تدرى ماذا قالت امى ؟

صدق حدسه !. لا بد مما ليس منه بد ! وتساءل متبالها :

ـ ماذا قالت ؟

فقالت بصوت منخفض وفى عناء من حياء :

ـ قالت لى لقد طال انتظارك ، وها قد صار ضابطا !

واحس فى أعماقه بحنق حام كأنه سمع تجديفا ، ومع أنه كان يعلم بأنه ليس له حق فى حنقــه الا انه كره الأم فى تلك اللحظة . ثم تساءل :

ـ هل تتعجل الزواج ؟

فتضرج وجهها بالاحمرار وغمغمت :

ـ كلا ولكنها ترى انه آن أن تعلن الخطبة .

ـ ألم يتم هذا .

فتحسست بنصر يمناها فى حياء وغمغمت :

ـ ثمة أمور لم تزل ناقصة ..

وفهم ما تشير اليه فى استياء لم يدر سببه . لم يكن ثمة شىء مستغرب فيما يطلبون ومع ذلك حنق عليهم جميعا وركبه شعور المطارد اذا تهدده خطر ، وتفرس فى وجهها وهو يذكر ما قال زملاؤه عنهــا فى الأوتوبيس وقال لنفسه « فتــاة طيبة ولكنها ليست اهلا لأن تكون زوج ضابط مثلى ، ولو تم هذا الزواج لكان الأول من نوعه ! » ثم قال لها فى هدوء باسم :

ـ هذه أمور لا وزن لها .

ـ ولكنها هامة جــدا فى نظر الناس فطالما تســاءل اقاربنا عن الخاتم !..

وعجب لحماسها . وتمنى لو كانت تعلن عن بعض هذا الحماس فى الحب . » ولكنها تريد ان نتزوجنى لا أن تحبنى . هذا سر برودها وتحفظها . واذا لم يكن حب . بل وحب قهار جنونى . فما الذى يغرينى بالزواج منها ؟! » وقال :

ـ لا داعى للعجلة . ستتحقق آمالنا فى الوقت المناسب .

ـ ومتى يكون هذا الوقت المناسب ؟

فقرب ما بين حاجبيه كأنه يفكر وقال :

ـ اظن اذا رقيت الى رتبة الملازم اول أصبح فى وسعى أن افتح بيتا مع معاونة أهلى الذين لا يستغنون عنى كما تعلمين .

وبدا فى وجهها الوجوم وجعلت تقرض ظفرها حانية الراس خابية العينين . ومع أنه ارتاح لتصريحه الذى مد له فى حريته الا انه رق لمنظرها . وجرى بصره على جسمها فدق قلبه وتناسى افكاره ومخاوفه وحنقه فنهض اليها وجلس الى جانبها على الكنبة ، ولكنها تباعدت الى نهاية المقعد وحالت دونه بساعديها قبل أن تذهب روح المقاومة الطارئة مسحة الحزن من عينيها . وقبض على ساعديها وهوى على كفيها يقبلهما . حتى قامت مبتعدة عنه وهى تهتف :

ـ دعنى .. دعنى .. لم تعد كما كنته .

وقام فى اعقابها مدفوعا بفورة احساسه وجنون اعصابه وطوقها بذراعيه واطرافه ترتعش ، ودافعته بقوة فهوى بفيه الى شفتيها فأمالت راسها الى الوراء فمست شفتاه طرف ذقنها ؛ ثم تملصت من ذراعيه ووقفا وجها لوجه وهما يلهثان ؛ وصاحت به بصوت متهدج :

ـ لا تهجم على غصبا !

وانقلبت شهوته غضبا فحدثته نفسه بهجر الحجرة ، وسار خطوتين صوب الباب ، ثم تحول اليها بغتة وقد انقلب غضبه شهوة جنونية فانقض عليها مصمما على ارواء عواطفه ، وطوقها

بذراعيه رغم مدافعة يديها ، وضمها الى صدره بعنف ووحشية ، ثم طبع شفتيه على شفتيها . وكلما مالت بوجهها عنه اتبعها وجهه لازقا فاه بفيها . ملاقيا دفعات مقاومتها بقوة وحشة . حتى سكنت بين ذراعيه فى شبه اغماء . ولم يبال خورها فراح يضمها الى صدره حتى استشعر طراوة جسمها اللدن على بطنه وفخذيه فتسرب الى احساسه فى ارتياح عميق كأنه كشف جديد عن لذة الحياة . وندت عنها مقاومة طارئة ضعيفة كصحوة الموت ولكنه قضى عليها بوحشيته . وجن انفعالا وتطلعا واستزادة ، وانصهر قلبه وسرى ذوبه فى اعصابه باعثا لذة خيالية . ثم انهار فى تسليم متوقع مفاجىء معا . وافاق كمن يفيق من حلم فوجدها بين ذراعيه وشفتيه على خدها ، ولما شعرت بذراعيه تتراخيان عنها دفعته فى صدره متراجعة وقالت وهى تتنهد فى صوت ضعيف :

— لن أصفح عنك ..

ولم يترك قولها فى نفسه اثرا ، لا حسنا ولا سيئا ، فلم يأبه لها وكأن احساسه تجاهل وجودها . شعر بظفر وارتياح ثم غلبه عليهما فتور فتراجع الى مقعده الأول وجلس عليه فى دهشة . ولبثت هى بموقفها كالمترددة ثم عادت الى مجلسها فى استياء وراحت تعاتبه وتعنفه دون أن يلقى اليها بالا . ورنا اليها بغرابة وساءل نفسه : أهذه هى ؟ أهذا أنا ، أين هى وأين أنا ؟. ثم ران عليه فتور ثقيل أكثر مما يحتمل .

وجعل يصغى اليها دون أن يحمل نفسه مشقة الاعتذار ، وانتهز فرصة حضور أمها فجالسها دقائق ثم قام مستأذنا فى الانصراف . ولما غادر الشقة شعر برغبة فى الهرب ، وحينذاك عاودته فكرة السفر الى طنطا فابتسم لها فى ترحاب وحماس .

٧٣

عندما انتهى الى فندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق بطنطا كانت الساعة حوالى الخامسة مساء وقاده غلام الى حجرة اخيه فنقر على الباب ووقف مبتسما انتظارا للمفاجأة السار وفتح الباب وظهر حسين فى جلبابه ، وسرعان ما اتسعت عينا دهشة فاقبل على القادم وهو يهتف :

ـ حسنين ! .. لا أصدق عينى !

وتعانقا عناقا حارا ، ثم دخلا الحجرة الصغيرة وحسين يلقى عليه نظرة متفحصة فى حب واعجاب ثم قال بصوت متهدج من التأثر والسرور :

ـ يا لها من مفاجأة سعيدة . أهكذا يهجم العسكريون بلا انذار ؟ مبارك . لقد أرسلت برقية تهنئة ..

ـ وصلتنى ورايت ان اجيئك بنفسى شاكرا !

ـ وكيف حال نينة ونفيسة ؟

ـ على خير حال . وجدت لدى بضعة أيام اجازة قبل بدء العمل فضلت أن أمضيها معك ..

ـ أحسنت صنعا . وحسن ؟ أما من جديد عنه ؟

وغاض البشر من وجه حسنين ولكنه أبى أن يخلط باللقاء كدرا فقال :

ـ دعنا منه الآن على الأقل ..

وحدس حسين ما احزنه ولكنه لم يكن أقل رغبة منه فى تأجيل النكد الى وقت آخر فدعاه الى الجلوس على الكرسى الوحيد ووثب هو الى الفراش . وتبادلا نظرات مشوقة متفحصة فلمس كل منهما ما طرأ على الآخر من امارات الصحة والعافية

وان كان وزن حسين قد زاد أكثر مما يتصوره أخوه . كذلك وجده قد ربى شاربه بطول شفتيه وعرضها مما اكسبه مظهر رجولة وقور وجعله يبدو أكبر من سنه . وقد داعبه قائلا :

ـ لقد خلقت لتكون ابا بارا ..

فابتسم حسين على ما أثار قوله فى نفسه من ذكريات محزنة ولكنه لم يعلق عليها بكلمة وقال مشيراً الى نجمة الضابط :

ـ انى فخور بك .

فقال حسنين بتأثر :

ـ انى مدين بها لنبل تضحيتك .

وهبط قوله على قلبه بردا وسلاما ، وتمتم :

ـ لا تبالغ ! انته رجل جدير بكل خير ..

وقال حسنين لنفسه « هذا شقيق لا يشين . ولولا ماضى نفيسة وحاضر حسن وماضيه ما وجد انسان على الأرض أسعد منى » ثم قال لأخيه بسرور :

ـ أبشر لقد رجوت أحمد بك يسرى أن يسعى لنقلك الى القاهرة فوعدنى خيرا ..

ـ عفارم ! وبهذه المناسبة أخبرك أننى ساعود معك الى القاهرة قائما باجازتى السنوية ..

ثم غادر الفراش وهو يقول :

ـ اغسل وجهك ونفض بدلتك من وعثاء السفر وهلم ننطلق الى المدينة فلا خير فى البقاء فى هذه الحجرة الضيقة ..

وارتدى بدلته ثم خرجا معا يتمشيان فى طرقات المدينة ، ثم مضى به الى قهوة السمر وجلسا معا يواصلان حديثهما . وتكلم حسين عن حياته فى طنطا كثيرا ، وشكا الى أخيه وحدته وكيف عودته على غشيان المقهى كل مساء فيمضى ساعتين على الأقل مع نفر من الموظفين يلعبون النرد حينا ويسمرون حينا آخر ، ثم يعود الى الفندق فيطالع ساعة أو أكثر قبل النوم ، وحدثه

عن آخر كتاب ابتاعه وهو الاشتراكية لمكدونالد المترجم عن الانجليزية وكيف ان النظام الاشتراكى لا يتعارض مع الدين ولا الاسرة ولا الأخلاق . كان فى وحدته وضيقه يسعد بأحلام الاصلاح ويتخيل مجتمعا خيرا من المجتمع الذى يعيش بين أحضانه ، وحالا خيرا من الحال المقدورة له . وأسعده الأمل فى امكان تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التى اشرب حبها والايمان بها منذ طفولته .

ثم تساءل فى نفسه ترى هل أفضت امه للشاب بالسر الذى دفعها الى زيارته منذ عام ونصف ؟ ولما لم يشر حسنين الى الموضوع بكلمة اطمأن الى انها كتمت الأمر كله وهو ما ترجح لديه من بادىء الأمر . وذكره هذا الخاطر بآلامه الماضية ولكنه ذكرها بقلب خال هادىء لولا حنينه العام الى الرفيق والحب ما تشكى قط ، ثم وجد نفسه وهو لا يدرى يسأل حسنين عن خطيبته ! واجاب الشاب اجابة عامة قائلا : « بخير والحمد لله » ، وساءل نفسه هل يصارح أخاه بما طرأ على نفسه من تغير وتطور ؟ ولكنه جفل عن هذا ، واجله الى المستقبل اذا جد جديد من الأمر ، وكان يعلم سلفا بأن حسين لا يمكن أن يوافق على نواياه أو يرضى عن منازعه . وتواصل الحديث بينهما طيبا لطيفا حتى عزم حسنين على خوض الموضوع الخطير الذى يشغله فقال متنهدا :

ــ تصور كم كانت الحياة جميلة لولا ماضينا واخونا حسن . .

وأحس حسين بما وراء هذا التنهد من حزن وسخط فقال ببساطة :

ــ اعتقد ان آلامنا قد انتهت ، أما ماضينا فليس فيه ما يخجل ، وأما حسن فلن يضر وا أسفاه الا نفسه . .

فهز راسه دلالة على عدم الموافقة وقال فى حزن :

ــ أنا علمت ان حسن قد انقلب مع الزمن بلطجيا وتاجر مخدرات ! ؟

ومع أن حسين كان يتخيل شقيقه الأكبر على أسوأ حال

الا أنه لم يكن يظن انه تردى الى هذا القرار . فهتف فى ارتياع :

ــ لا تقل هذا . . !

فكان جواب حسنين على ارتياعه ان قص عليه ما شاهده فى زيارته الأخيرة لحسن وما سمع . واصغى اليه اخوه فى صمت ووجوم . ولما طال صمته سأله حسنين :

ــ ما رايك ؟

فبسط له راحتيه كأنه يقول له : « ما حيلتنا ؟ » ثم غمغم :

ــ وا اسفاه . كان حسن ضحية للمرحوم والدنا . وكان والدنا ضحية لضيق ذات اليد !

فقال حسنين بجزع :

ــ الا تستطيع اقناعه بالاقلاع عن اسلوب حياته ؟

فقال الآخر متنهدا :

ــ لن يقلع عنها مهما قلنا او فعلنا . شيء واحد يستطيع أن يعدل به عن حياته وهو ان نهيىء له راس مال مناسب كي يبدأ حياة جديدة ، فهل يسعنا هذا ؟ !

وتبادلا نظرة يائسة لأن السؤال لم يكن فى حاجة الى جواب . ثم قال حسنين بحدة :

ــ انتركه فى غيه كي يقضى على آمالنا !

ــ لقد قضى على نفسه .

ــ وعلينا ! كيف تواجه العالم ولك مثل هذا الاخ ؟!. سوف تظهر اسماؤنا يوما فى الجرائد بين أعمدة الحوادث والجنايات !

فتنهد حسين محزونا متفكرا فى كلام اخيه الذى رجع أصداء أفكار طالما اكرتته فى وحدته ، ولكنه قال معارضا اخاه ونفسه معا:

ــ لا ذنب لنا ، ولا يصح ان ندع الخوف يتهول فى قلوبنا . قد يصيبنا رشاش من ألسنة الناس ، الآن او فيما بعد ، ولكننا لن يمكننا مواجهة الحياة اذا لم ندرع بقدر من عدم المبالاة . .

بدا له حسين كأنه لا يعى ما يقول ، أو كأنه لا يبالى السمعة

الطيبة التى هى أس كل أمل فى الحياة بيد انه مهما يكن من أمره فهو ليس ذا أصدقاء كأصدقائه يشفق من ان يطلعو على أسرار أسرته ، كذلك لا تنازعه نفسه الى المجد والطموح فليس فى آماله ما يخاف عليه السنة الناس . أجل اخطأ تقديره ولن يجد من اخيه مشاركة وجدانيــة ، وحنق عليه فى تلك اللحظة كثيرا . واحتقر استسلامه وهدوءه . واندفع قائلا وكأنه لا يروم الا الترويح عن حنقه :

ـ هل نعد أنفسنا شرفاء ؟

فقال حسين بدهشة :

ـ ولم لا ؟ !

ـ ولكنا استعنا على تقويم حياتنا بنقود ملوثة !

تطاير الشرر بغتة من عينى حسين ، وحملق فى وجه أخيه وهو صامت ، وكأن آلامه الدفينة قد طفت على سطح قلبــه داعية معها من الأعماق اسوأ الذكريات ، ثم قال بحدة :

ـ كنا فى موقف دفاع عن النفس ، والدفاع عن النفس قد يحل القتل ..

وشعر حسنين بارتياح خفى لغضب أخيه ، وجعل يتساءل فى حيرة عما دفعه الى مجابهته بهذا التصريح الأليم . ثم استطال الصمت حتى سئما الوضــوع فخاضا فى غيره ، غير انه مضى زمن غير قصير قبل أن يطيب لهما الحديث ..

٧٤

وبعد بضعة أيام عاد الشقيقان معا الى القاهرة فكان يوم فى حياة الأسرة لا ينسى . وقبلت الأم حسين طويلا ثم عانقته نفيسة عناقا حارا ، وأمضى الشاب ساعة طويلة من الظهر وهو يحدث

عن طنطا وحيائه بها والمراتان منصتتان . وجعلت نفيسة تتفرس في شاربه وبدانته الآخذة في النمو فهالها تغيره وقالت باستنكار :

ــ فيم تبدو كالرجال وانت طفل !

فقال حسين مبتسما :

ــ لم اعد طفلا .

وقال حسنين ضاحكا :

ــ نحن رجال وانت اختنا « الكبرى » !

فقالت الفتاة بحدة :

ــ كنت اكبركما فيما مضى اما من الآن فصاعدا فانتما تكبرانني ، هل تفهمان ؟ !

ثم التفتت صوب امها وساءلتها في اعتراض :

ــ هل يعجبك هذا الشارب الذى يكبر نفسه ويكبرنا معه بلا داع ؟ !

وكان الوقت ظهرا فراح حسين يخلع ملابسه ، وقد بدا البيت لعينيه غريبا ، بيد أن حبه العميق لأسرته ولبيته استيقظ ودر حنانا فملكه ارتياح شامل ، ارتياح من اهتدى الى مأواه بعد أن تخبط ضالا طويلا ، وأجال طرفه في حجرة المذاكرة ، هذا المكتب القديم ، وهذين الكرسيين ، وهذه النافذة التى تقوم صفحة الجريدة منها مكان اللوح الزجاجي المحطم : كل أولئك ذكريات عزيزة . أما سريره فلم يعد له أثر ، بيع في الوقت المناسب كالمتبع ، ولحق بسرير حسن ، وكأنه لم يعد من أهل البيت ! ومع أنه كان يحدس هذا بالبداهة الا أنه شعر بحزن وكآبة . وهنا شعر بنفيسة وهي تغادر الحجرة قائلة :

ــ امهلاني ساعتين أعد لكما غداء طيبا !

وابتسم ارتياحا . انه لم يذق طعاما طيبا منذ عهد بعيد ، ربما منذ وفاة والده . أجل كان طعامه طيبا وهو موظف أفضل من طعامه وهو تلميذ كما يشهد بذلك ارتواء جسمه ، ولكنه لم يطلق

لشهوته العنان قط . على انه كان مشغولا بما هو اخطر من لذة الطعام وهو تذوق عودته السعيدة الى منبته الاول وجوه الأصلى. كان حنانه كالغنوة الحلوة يتردد فى حواسه جميعا . حتى هواء عطفة نصر الله الفاسد وجد له ميل الفة ورقة مودة فكأنه الصحة والعافية . وجعل يحادث امه وعيناه تترددان فى انحاء الحجرة الصغيرة حتى استقرتا على جاكتة حسنين المعلقة بالمشجب فنظر الى النجمة طويلا . سيرقى حسنين عاما بعد عام حتى يصير ضابطا عظيما على حين يبقى هو كاتبا فى الدرجة السابعة — او السادسة على احسن فرض — طوال مدة خدمته . على انه لم يجد اى اثر لشعور الحسد او الحنق ، كان ابعد ما يكون عن هذا ، بل كان سروره بأخيه لا يدانى ، ولكنه وجد نفسه يتأمل فى صمت حزين الفوارق الطاغية التى تميز بين الموظفين ، وامتد خياله وهو لا يدرى الى الفوارق التى تفصل بين الناس عامة . ترى الا يمكنه اذا نقل الى القاهرة ان يلتحق بمعهد ليلى عسى ان يتغير من حال الى حال ؟ وابتسم قلبه لهذا الخاطر السعيد واودعه صدره كأمل احتياطى يلجأ اليه فى حينه فينجيه من مصير كمصير حسان افندى حسان ! وحتى حسان افندى نفسه لم يكن ليرقى الى الدرجة السادسة لولا الوزير الوفدى ! وذكر عند ذاك امورا سمع بها فى طنطا فساءل اخاه :

— هل حقا ما يقال عن احتمال سقوط الوزارة ؟

فضحك حسنين قائلا :

— غير مسموح للضابط بالاشتغال بالسياسة .

فضحك الشاب ، ثم قال :

— كيف تسقط بعد ان نفض الانجليز أيديهم من سياستنا ؟

وتساءلت الأم :

— انعود مرة أخرى الى المظاهرات ؟

— من يدرى ؟

وعادت تتساءل بقلق :

ــ لا شأن للجيش مع المظاهرات ؟

فقال حسنين بمكر :

ــ اذا قامت ثورة فلا بد من تدخل الجيش !

وضحك حسين . وادركت الأم ما تعنيه ضحكته فرمت حسنين بنظرة شزراء وهزت منكبيها استهانة . وعادت نفيسة لتقول لهم ان الغداء يتهيأ على احسن حال . ثم سألتهم عن السلطة المفضلة لديهم ، وغادرت الحجرة مشمرة عن ساعديها والعرق يتصبب من جبينها . وساد الصمت فعاد حسين الى افكاره وفكر هذه المرة فى الاجازة وكيف يمضيها . كان الموظفون فى طنطا يدعونه باليهودى لأنه لا يقامر ولا يسكر ولا ينفق أكثر من قرش واحد فى القهوة ، ولكنهم جهلوا حقيقة حاله . اجل انه ميال بطبعه الى الاقتصاد ولكن هل تركت مسئولياته له شيئا يقتصد ؟ ! . ولم تدعه أمه لأفكاره طويلا فعادت تنازعه الحديث ، وخيل اليه انها ترنو اليه بحنو نادرا ما تعلنه ، ترى هل ذكرت كيف قست عليه يوما ؟ ! لقد قست عليه حقا ، ولكن قسوة الدهر عليهم جميعا كانت أعظم . ترى ماذا هى فاعلة مع حسنين ؟ .. ولكن لماذا لا يبدو الفتى متحمسا لزواجه ! لماذا لم يحدثه عنه ؟ ! . وحوالى الساعة الثانية جاءت نفيسة حاملة صينية الغداء ، فوضعتها على المكتب وهى تقول :

ــ نأكل اليوم على المكتب لأن الموظفين لا يصح أن يأكلوا على الأرض .

جمعتهم المائدة لأول مرة منذ عامين ، ثم عادوا الى جلستهم على الفراش الصغير وواصلوا الحديث فى انس وسرور ، وحوالى منتصف الرابعة دق الباب الخارجى فغادرت نفيسة الحجرة لتفتح للقادم . ووثب لراس حسين خاطر عجيب ، أتكون أسرة فريد افندى قد جاءت لتهنىء العائد ؟ ! .. وفى هذه الساعة ؟

وعادت نفيسة جريا ووقفت على عتبة الحجرة وهى تنظر اليهم بعينين متسعتين تلوح فيهما الدهشة والانزعاج ، ثم هتفت قائلة :

ـ ضابط وعساكر ..

٧٥

ووقف الشقيقان فى دهشة وحسنين يتناول جاكتته ويرتديها بسرعة متسائلا :

ـ ماذا يريدون ؟

وكانت نفيسة تردد بصرها بينهم وبين القادمين فقالت فجأة بذعر :

ـ رباه .. لقد دخلوا الصالة .

واندفع الشابان خارج الحجرة فوجدا ضابطا وشرطيين ورجلا آخر يبدو من مظهره انه مخبر ، فتقدم حسنين من الضابط متسائلا :

ـ ماذا تريد حضرتك ؟

فقال له الضابط :

ـ لا مؤاخذة ، لدى أمر بتفتيش هذه الشقة !

واطلعه على أمر كتابى فنظر فيه حسنين بعينين لا تريان شيئا ، على حين سأل حسين :

ـ لعلك اخطأت الشقة . ماذا يدعو لتفتيش بيتنا ؟

فقال الضابط :

ـ نحن نبحث عن حسن كامل على الشهير بالروسى !

وجم الشابان وهما ينظران الى الضابط فى انزعاج وقنوط ، وكانت المرأتان تقفان على عتبة الحجرة فركبهما الذعر وتسمرتا فى مكانهما . وعاد الضابط يقول :

ـ لقد قبض على بعض شركائه ولكنه اختفى قبل القبض عليه . ودلنا بعضهم على مسكنه الأول وتحققنا من هذا بواسطة شيخ الحارة ..

فقال حسنين بصوت متهدج :

ـ ولكنه لا يقيم هنا . لقد غادر بيتنا منذ اعوام ولا ندرى عنه شيئا .

فهز الضابط رأسه وقال :

ـ على اى حال سأقوم بتفتيش الشقة تنفيذا للأمر ..

وبدأ التفتيش فتراجع احد الجنديين الى الباب واقتحم الضابط والآخران الحجرات ، وقد جمد الشقيقان فى موقفهما كأنهما استحالا حجرين . وقال حسنين لنفسه « سأذكر هذه الساعة ما حييت » ، وتبع خياله الضابط وهو ينتقل من حجرة الى حجرة ، وكأنه يرى معه الحجرات الخالية العارية ويقلب أثاثها البالى الحقير ظهرا لبطن . لم يكن تفتيشا عن حسن فحسب ، لأن حسن لا يمكن أن يختبىء فى درج المكتب أو تحت حشية الفراش ، فالفضيحة أفظع مما يتصور . وحتى فى تلك اللحظة الرهيبة لم يستطع أحد أن ينتزع من نفسه الخجل الجارح الذى عفى عزة نفسه والضابط يهتك بعينيه المتفحصتين حقارة البيت وفقره ، وبلغ مسمعه ـ على ذهوله ـ صوت بكاء مكتوم فارتفع بصره الى نفيسة وصاح بها بحدة جنونية :

ـ اكتمى أنفاسك !

وانتهى التفتيش فأمر الضابط رجاله بمغادرة الشقة ثم اقترب من حسنين وقال برقة :

ـ اكرر الأسف . وانه ليسرنى أننى لم أعثر على شىء كان حريا بأن يسبب لكم المتاعب !

ورفع يده الى جبينه بالتحية وغادر الشقة مخلفا وراءه سكونا محزنا . وتبادل الشابان نظرة ذاهلة دون أن ينبسا بكلمة ،

واقبلت المرأتان نحوهما بوجهين مبتئين . وانتبه حسنين من ذهوله بغتة متاوها فوثب الى الباب وابرز رأسه راميا بطرفه الى فناء البيت فرأى رجال البوليس فى نهاية الفناء يشقون طريقهم وسط لمة من الرجال والصبية بينهم البقال والحداد وبائع السجائر فتراجع وهو يضرب صدره بقبضته صائحا :

ـ الجميع يتفرج على فضيحتنا . افتضحنا وانتهينا .

وعاودت نفيسة البكاء ونظرت الأم الى حسين كأنها تستغيث به ولكن الشاب لم يدر ماذا يقول ، وبدا كأنه يقاوم طعنة قاسية . وجعل حسنين يذرع الصالة وهو يواصل ضرب صدره بعنف ويقول :

ـ بودى لو اقتل !.. لن يروح عن صدرى اقل من القتل .

وضاقت الأم بعنفه بنفسه فغمغمت قائلة :

ـ هدىء من روعك يا بنى ، ماذا يجدى ضربك نفسك هكذا ؟

فصاح فى غضب :

ـ دعينى أقتل نفسى ما دمت لا أجد من أقتله !

وخرج حسين عن صمته فقال بصوت غريب :

ـ يجب أن نتدبر امرنا فى هدوء .

فرماه بنظرة من عينين محمومتين وقال :

ـ اى أمر نتدبره .. لقد افتضحنا وانتهينا !

ـ هذه مصيبة لا حيلة لنا فيها ولكننا لم ننته ، فلنتدبر امرنا .

لم يكن صدره ليحتمل المناقشة فمضى الى حجرته وارتمى على فراشه ، وكان الخزى يخنقه والغضب يحرقه فمقت أخاه المذنب مقتا قتالا ود معه لو يخفيه عنه الموت الى الأبد . واستسلم لخواطر دموية جنونية راح يجترها فى ذهول وهذيان ، ولحق به حسنين فجلس على الكرسى صامتا متحاميا اثارته ، وكان هو نفسه فى حالة تستحق الرثاء . لم يبلغ منه الحزن يوما

ما بلغه فى تلك الساعة . فلم يغب عنه ما أصاب سمعتهم من طعنة قاتلة ، وما يتهددهم من قلاقل فى الحاضر والمستقبل وما نزل بأخيه الأكبر من قضاء لا قائمة له بعده . ماذا جنت اسرته حتى تستحق هذا كله ؟ ! . واخذت تتجمع فى ذاكرته ذكريات من آلام الماضى ويربطها بآلام الحاضر فبدت له كدمل خطير يتكشف فجأة عن مضاعفات سامة فى الوقت الذى يظن به الاندمال والشفاء . وكعادته قرن آلام اسرته بآلام الناس فوجد نفسه يتأمل حزينا شاملا . وكان يلقى على تأمله هذا كآبة لا شك فيها ولكنها كثيرا ما توحى بشىء من الصبر والعزاء . ثم نزعت به نفسه الى تلمس بصيص نور فى ظلامه المحيط ، وجعل يسترق النظر الى وجه اخيه المكفهر متحينا فرصة لمحادثته .

ولبثت الأم وابنتها بموقفهما ونفيسة لا تمسك عن النحيب . لم يعد بوسع المرأة المحنكة أن تحسن التفكير والتدبير ، غلبت على امرها . وقهرها الحزن والأسى . وكان قلبها يعانى الآلام التى تتوزع قلوب ابنائها جميعا يضاف اليها الم خاص دفين يخيفها بقدر ما يعذبها ، وتشفق اشفاقا شديدا من ذيوعه وافتضاحه ، هو المها لحسن نفسه . اين ذهب ؟ ، ماذا يفعلون به لو قبضوا عليه ؟ ؟ اى مصير يرصده ؟ . لا ينبغى ان تذكر له الا عطفه وحنانه ، وأنه جاد لهم بخير ما فى نفسه ، وأنه كان ملاذهم فى الملمات . يا له من طريد لا نصير له ولا حبيب ، حتى أهله ينكرونه ويمقتونه . عين حسود اصابتهم ، نفسوا عليها الوظف والضابط ونسوا الآلام التى تركتها حطاما ، وتنهدت فى عصبية لأنها لم تعد تحتمل نحيب نفيسة وانتهرتها قائلة :

— كفاك بكاء ارحمينى فانى لا أجد من يرحمنى !

ولكن نفيسة لم تكن تملك من نفسها شيئا ، حتى آلام الموقف الحقيقية غابت عنها فى حالتها العصبية . غلبها خوف غريب ترتعد منه الفرائص . ولم تكن تبكى حزنا أو أسفا أو غضبا ولكن

بكاء هستيريا تغالب به خوفا لا يغلب خيل اليها معه انها هى هى المطاردة . وتوقع قلبها شرا فظيعا ، أفظع مما وقع ، فتلفتت فيما حولها فى ذعر كأنما تخشى أن ينقض عليها فجأة . وسمعت امها تقول بصوت ضعيف « هلمى بنا اليهما » فرحبت بالدعوة لتفر من مشاعرها وسارت وراء أمها الى الحجرة فى خطوات ثقيلة ، ثم خفق قلبها وهى تجوز العتبة كأنما تجفل من لقاء أخويها ..

٧٦

ثم التفت حسنين الى حسين وسأله بوحشية :

— أين تظنه هرب ؟

وكانت مرت فترة من الوقت ثاب فيها حسين الى بعض نفسه فلم يرتح للهجة الشاب القاسية وقال :

— من لى بأن أعلم ! (ثم بلهجة لا تخلو من تأنيب) تذكر أنه أخونا !

— بعد هذا كله !

— نعم ، بعد هذا كله ..

نطقها بصوت عميق ليعزى قلبا يعلم أنه — على صمته — فى أمس حاجة الى العزاء ، ولكن ثارت ثائرة الآخر وصاح به :

— لقد قضى علينا ..

فقال حسين بصوت متعب :

— لا تبالغ ولا تصح . ينبغى أن تفكر فى هدوء .

— ان الحى كله يتحدث الآن عن فضيحتنا ..

فقال حسين فى هدوء :

— فى وسعنا أن نهجر الحى كله ..

فتطلع اليه حسنين بعينين حائرتين انشقت ظلمتهما عن

يصيص أمل . هذا دعاء تهفو له نفسه ملبية وكأنها هى التى تتكلم ، وغمغم متسائلا :

ــ ماذا قلت ؟

ــ لم لا ؟ .. القاهرة واسعة لا تحد ، وسيطوى النسيان قصتنا فى أقل من اسبوع ! ..

فتنهد حسنين فى شبه ارتياح ، ولكنه قال فى حذر :

ــ لن نمحو الماضى .

ــ فلنفكر فى المستقبل ..

ــ ولكن الماضى سيطارد المستقبل الى الأبد ..

فقال حسين بملل :

ــ فلنفكر جديا فى الانتقال الى مكان آخر . ويجب أن يتم هذا قبل انتهاء أجازتى .

وقالت الأم برجاء :

ــ أجدر بنا ان نفكر فى هذا حقا .

وردد حسنين نظره بينهما حائرا . قد يقبض على أخيه وقد لا يقبض عليه ولكنه سيظل على الحالين يطاردهم ويتهددهم . لن يطمئن لهم جانب وهو على قيد الحياة . ثم تساءل فى فتور :

ــ أين نذهب ؟

فقالت الأم فى أمل :

ــ الى شارع شبرا بعيدا عن هنا .

فندت عنه حركة تنم عن الجزع والسخط وقال :

ــ أبعد من هذا ، أبعد من هذا .. الى مصر الجديدة !

فقال حسين فى شىء من الارتياح :

ــ كما تشاء ..

فلاح فى وجهه تردد طارىء ثم قال متنهدا :

ــ ولكننا فى حاجة ماسة الى أثاث جديد !

فقالت الأم بضيق :

ــ لا تزد الأمور تعقيداً ، ماذا يهم الأثاث إذا لم تقع عليه الأعين ؟ !

ــ لا أستطيع ان أخفى بيتنا عن أصدقائى الى الأبد !

فقال حسين :

ــ هذه مسألة اخرى ، وبوسعك ان تبتاع كنبة وكرسيين كبيرين وبساطا اسيوطيا فتجعل منها حجرة استقبال مؤقتة . واذا شئت خرجنا معا اليوم او غدا للبحث عن شقة ؟ .

بذلك خف التوتر قليلا وان غشيت جو المكان كآبة استسلموا لها جميعا فى صمت حتى دق الباب وجاء فريد افندى وأسرته . كانت زيارة منتظرة ولكنها جاءت فى أسوأ حال ، وذكر حسين فى عجب كيف حلم بها منذ ساعات ، وكيف يتلقاها الآن بفؤاد كسير ونفس فاترة .اما حسنين فقد ثار غضبه بلا سبب ظاهر ، ولو لم يره فريد افندى ونفيسة تتقدمه الى حجرة الاستقبال ، لمضى هاربا الى الخارج . واجتمعوا فى جحرة الاستقبال ، ولقى حسين من الأسرة تحية حارة ثم استفاض الحديث عن الماضى والحاضر . وكانوا يتوقعون ان يثير الزوار مسألة التفتيش والبوليس ولكن آل فريد افندى تجاهلوا الأمر كلية كانهم ما علموا به . ولم يلطف هذا التجاهل من حنق حسنين ، او بالأحرى زاد من ثورته الباطنة وشعر يجرح عميق فى كرامته . والتقت عيناه بعينى بهية أكثر من مرة فوجدها ترمقه بحزن وحيرة لم تخف عنه بواعثهما منذ سفره المفاجىء الى طنطا . ليكن ، لقد ضاق صدره بهذا كله . الآن ، وفى وقدة حنقه وضيقه ، يستطيع أن يواجه خواطره الباطنة بصراحة وشجاعة . لن تكون هذه المراة حماته ، ولا هذا الرجل حماه .. ولا هذه الفتاة زوجه !. كل اولئك هم عطفة نصر الله بلا زيادة ، عطفة نصر الله بذكرياتها السود وحاضرها الأغبر . انهم يعلمون بما جاء بالبوليس كما يعلم الجيران جميعا ولكنهم يتكرمون عليهم بتجاهل الأمر ، ولعلهم يضيفون هذه

المكرمة الجديدة الى مكرماتهم السابقة . سحقا لهم . اشد ما يضيق صدره بالمكرمات قديمها وحديثها ، وانه ليتطلع الى قوم جدد لا تحول بينه وبينهم المكرمات ولا يربط الماضى البغيض اسبابه بأسبابهم . « انظرى بحزن وحيرة كيف شئت . لست لك ، لست لك . ينبغى ان يتغير كل شىء . ماذا فتننى فى هذا الجسم ؟ ! الأنه لحم طرى ؟ الاسواق ملأى بهذه اللحوم . جو بغيض . لو طال المقام بى هنا اكثر من ذلك سأبغض أسرتى نفسها » .

وطالت الزيارة فجعل يتحملها فى صبر حتى انصرفت الأسرة قبل المغرب بقليل . وقد دست الفتاة فى يده ورقة مطوية وهى تسلم عليه ، ولما أن خلا الى نفسه وبسطها وجد بها هذه العبارة « قابلنى فوق السطح » . كانت اول رسالة توجهها اليه ، وتفحص الخط بعناية وغرابة فوجده بخط الأطفال اشبه . وذكر لتوه تعليمها الابتدائى !. بيد انها كانت على ايجازها عميقة الدلالة حتى لكانها صرخة استغاثة . ولا شك انها كتبتها خلسة فى شقتها قبل الزيارة مما يدل على ان قلبها توجس خيفة من ان يواصل فراره منها الذى بداه بالرحيل الى طنطا . واحس بغمز الألم فى قلبه وشمله عدم ارتياح فسخط كما يسخط على كل شىء حوله . ولكن فيم يسخط ؟ اليس من الخير ان تلم بما طرأ على نفسه ؟ وهل كان يظن ان الارتياب لن يتسرب الى نفسها بعد سفره المفاجىء ؟ ليكن . لن يرضخ لضغط الظروف حتى يدمر نفسه بنفسه ، ولن يغامر بسعادته ومستقبله من اجل عاطفة طفلية قديمة ووعد صبيانى . وخاف ان يخلو الى نفسه اكثر مما خلا فمضى الى حجرته وقال مخاطبا اخاه :

— هلم بنا لنخرج .

ونهض حسين موافقا على دعوته وغادرا الحجرة معا . ووجد ما يشبه الندم ، وتمنى لو كان حسين قد تكاسل عن تلبية دعوته بهذه السرعة ليعاود التفكير ! ولم تكن الفرصة قد ضاعت تماما ،

فلم يزل بوسعه ان يراجع نفسه . ولكنه لم ينبس بكلمة ، وواصل سيره الى جانب اخيه . لعلها تنتظر الآن امام حجرة الدجاج ! وخفق قلبه خفقة شديدة . تنتظر بلا امل ؟ وما اقبح هذا . وفى نفس المكان الذى لمس حرارته وسمع بثه وشكواه ؟ ما اعجب هذا . وحاول ان يطرد هذه الصورة عن مخيلته بتصميم عنيف . ثم سمع اخاه وهو يخاطبه قائلا :

ــ لن نضيع وقتنا ، ولن ينقضى هذا الشهر حتى نكون قد انتقلنا الى البيت الجديد .

٧٧

وانقضت الأيام فى البحث عن مسكن جديد حتى اهتدوا الى بيت بشارع الزقازيق بمصر الجديدة ، ذى موقع ساحر وايجار مستطاع على حد قول حسنين . وفى اليوم المحدد للانتقال اجتمعت كلمتهم على حمل الأثاث مساء على غير المألوف لاخفائه عن أعين المستطلعين ، ونفذ ذلك ، ولبث حسنين فى الشقة مع الأثاث المكوم على حين عاد حسين الى عطفة نصر الله ليصحب أمه واخته الى المقام الجديد . وودعوا حيهم ليلا غير آسفين ، بل مستبشرين خيرا ، ولما بلغوا الحى الجديد تولتهم دهشة ممزوجة باكبار لما شاهدوا من اتساعه وصمته ومناظر العمارات والفيللات المقامة على جانبيه وهوائه الجاف النقى فلم تتمالك نفيسة نفسها من أن تقول باسمة على رغم ان الموقف لم يخل من ذكريات حزينة « لقد صرنا من الطبقة العالية حقا » .

وكانت الشقة الجديدة فى بيت مكون من دورين تحيط به حديقة بسيطة فارتقوا اليها سلما ذا سبع درجات وهنالك وجدوا حسنين فى انتظارهم وقد أشعل المصباح الغازى .

ونشطت المرأتان الى فرش الحجرات الثلاث الصغيرة وعاونهما الشابان فلم يستغرق تجهيز الشقة الجديدة بالأثاث البسيط اكثر من ساعة تخللتها فترة راحة . وبدت الكراسى والكنبتان والفراش غريبة نافرة وسط الحجرات الانيقة ، ولم يفت حسنين التعليق على هذا بتذمر كالعادة ولكنه وجد بعض العزاء فى حجرة الاستقبال التى كانت تفتح على الخارج فلا يضطر القادم الى عبور الصالة الداخلية اليها . وتحدثوا غير قليل عن الوسط الجديد والعمارات والشوارع وما يتخيلونه عن الجيران . وتحدث حسنين عن ضرورات الحياة الجديدة كما يراها حتى قال :

ـ امران لا يمكن تأجيلهما وهما النور الكهربائى وخادم صغير فبغير هذين لا يصح أن نبقى هنا يوما واحدا .

ولم يعترض على قوله أحد اذ كان مفهوما انه هو الذى سيدخل النور الكهربائى ويستحضر الخادم . ثم فكر فى الوسط الجديد من زاوية جديدة فتساءل فى نفسه ترى هل تصلح أمه واخته لمخالطة هؤلاء القوم ؟ وخيل اليه انه يسمع تعليقات السيدات والهوانم عقب زيارة لبيته فتصاعد دمه الى راسه وقال مخاطبا أمه فى لهجة تنم عن التحذير :

ـ لا ينبغى أن نعرف أحدا فى حينا الجديد ولا يعرفنا احد فلا نزور ولا نزار .

فقالت أمه بعدم اكتراث :

ـ لا رغبة لى فى معرفة أحد ..

وقالت نفيسة :

ـ لا صديق لنا هنا نأسف على قطعه !

فقال لها الشاب بقلق :

ـ يا حبذا لو اهملته صديقاتك الأخريات ايضا !

فاضطربت نفس الفتاة ، ومع أن الانقطاع عن العالم « الخارجى » كان من أمانيها الا انه كان أمنية تعجز عن تحقيقها

دائما . ولا تفتا تساق اليه بقوة بغيضـــة آسرة . فتساءلت فى اشفاق :

— وهل ابقى حياتى سجينة ؟ !

وتدخل حسين للدفاع عن اخته فقال :

— لا تغال يا اخى فى طلباتك . .

فقال الشاب فى حدة :

— لا اريد ان يزورنا احد من حينا القديم .

— لن يتجشم احد زيارتنا فيما عدا فريد افندى واسرته .

وصمت حسنين طاويا سخطه . وذكر زيارة التوديع التى قامت بها اسرة فريد افندى امس ، وكيف عرفوا العنوان الجديد وكيف تمنى وقتذاك لو يغمض عينيه ثم يفتحهما فلا يجد اثرا للماضى كله ، خيره وشره !.. ترى هل افضت الفتاة لوالديها بما تجد من فتوره ؟.. ترى هل يفلت من هذه العلاقة بيسر ام تنشب به متاعب لا يحلم بها ؟!. ليصمدن مهما كان الأمر . الحرية والمجد فوق المتاعب جميعا . اجل لو تغلبت على المـاضى فسيتمتع باشرف ما فى الحياة من طمأنينة وسلام .

ثم انتحى حسنين بالشـاب ليوازن معه ميزانيتهما لما جد عليها من تكاليف النقل وشراء ما سموه « حجرة الاستقبال » الى ما ينتظر من نفقات جديدة للنور والخادم . وقامت نفيسة للفرجة من نوافذ الشقة واستطلاع الدنيا الجديـدة . وخلت الأم الى نفسها فاستجمعت ما مر بها من حوادث فى الأيام الأخيرة حتى انتهى بها المطاف الى هذا الحى الجديد ، فلم يستقر وعيها الا على شىء واحد ، هو حسن !. ترى اين يهيم الفتى ؟ ماذا صنع الله به ؟. لم تكن تخلو الى افكارها حتى يطالعها من ثناياها فيستثير دفين الحسرة والألم ...

هكذا باتوا أولى لياليهم بمصر الجديدة .

٧٨

ـ جئنا نهنىء بالبيت الجديد جعله الله مقاما سعيدا ..

قالتها أم بهية ثم جلست هى والفتاة على الكنبة الجديدة . كان الوقت عصرا وكانت الأسرة مجتمعة ما عدا نفيسة التى غادرت البيت قبل وصول الأم وابنتها بنصف ساعة .

واثنت أم بهية ثناء جميلا على المسكن الجديد وحيه الباهر . وشكت الوحشة التى شعروا بها بعد فراقهم . واعتذرت عن تغيب فريد افندى بانهماكه فى العمل بالوزارة بعد الظهر لمناسبة موسم الأجازات . ثم جرى الحديث المألوف واشترك حسنين كالمعتاد ولكنه كابد قلقا لم تخف عنه بواعثه وشعورا مؤلما بالحرج . وجعلت بهية تخالسه نظرات حزينة ، فصيحة بغير بيان . فازدادت حاله توترا ـ ثم اعربت ام بهية فجأة عن رغبتها فى الانفراد بالأم ـ الأمر الذى زاده قلقا وتوترا ـ وما لبثا أن غادرا حجرة الاستقبال معا . ووجد حسنين نفسه غريبا بين خطيبين فغادر الحجرة منتحلا بعض الأعذار ، وخلا الجو . وهو ما لم يكن يتوقعه حسنين بحال . وكان يعرف بداهة ما دعا ام بهية الى الانفراد بأمه ، فأدرك أن الساعة الفاصلة فى حياته قد دنت . فاما النجاة واما الهلاك . وتبادلا نظرة طويلة ، هى فى انكار وتساؤل وهو بابتسامة باهتة لامعنى لها . ولم تلبث أن سألته مستنكرة :

ـ لماذا لا تزورنا ؟

فقال واجما :

ـ أسباب لا تخفى عليك تمنعنى من الظهور فى حينا القديم !

ولكنها لم يبد عليها الاقتناع وعادت تسأله :

ـ لم لم تقابلنى فوق السطح بعد أن تركت الورقة فى يدك ؟

ـ كنت واخى مرتبطين بموعد هام .

فتساءلت بلهجة وشت بحزنها :

ـ وسفرك المفاجيء الى طنطا دون ان تخبرنى ؟

فقال وهو يتحاشى عينيها :

ـ اضطررت الى السفر فجأة ..

فهتفت فى انفعال :

ـ لم تعد تبالى حتى باختلاق الاعذار المعقولة !

ان الموقف دقيق حقا ؛ بل اليم ؛ ولكن التخاذل معناه الموت بالنسبة اليه ، ولن يتهاون فى حق حريته ومستقبله . وتنهد متظاهرا بالحزن وغمغم قائلا :

ـ ان ظروفى أعقد من أن تقدريها .

ـ أفصح عما تريد قوله . لا أفهم شيئا الا انك تغيرت . لم تعد كما كنت . لست غبية ولا حمقاء ، انت لا تريد أن ترانى .

ـ سامحك الله .

ولعل ضيق الوقت حل عقدة لسانها فقالت فى تألم ظاهر :

ـ لا تلق الى بهذه العبارات المبهمة . أريد ان أفهم كل شيء . ماذا بك .؟ لماذا تغيرت هكذا ؟ صارحنى بما فى ضميرك كله .

وحال تشبثه بالنجاة والفرار دون احساسه بما فى كلماتها من يأس وعذاب فقال :

ـ لم أتغير ولكن ظروفى تغيرت .

فقالت باستغراب :

ـ تغيرت ظروفك حقا ولكن الى احسن !

ـ هـذا فى الظاهر فقط اما الحقيقـة فهى أننى بت ادرك مسئولياتى الشاقة .

فقالت بلهجة لا تخلو من غيظ :

ـ الم تكن تدرك مسئولياتك من قبل ؟.. ان مسئولياتك جميعا لا تحول بينك وبين ما تريد اذا كنت تريده حقا !

ـ اريد ولا استطيع .

فرنت اليه شاحبة الوجه وغمغمت :

ـ بل تستطيع ولا تريد .

ولم يجد ما يقوله ، وتضاعف احساسه بعذاب الموقف ، ومع ذلك ازداد تصلبا وتشبثا فتمتم :

ـ انت مخطئة .

وكانت تتفحصه فى جزع ويأس وكأنها تريد أن تنفذ الى اعماقه ، وابتلعت ريقها بمشقة ثم قالت :

ـ كلا ، لست مخطئة . لو كنت تريد حقا لما قلت لا استطيع . ان هى الا معاذير (ثم متنهدة على رغمها) لم تعد تحبنى وتريد أن تتخلص منى . هل ثمة سبب آخر !

ومع أن هذا ما كان يؤمن به فى اعماقه الا أن سماعه هاله واكربه فرفع حاجبيه منكرا وقال :

ـ لشد ما تظلمينني !

ولم تسكن لهجته خاطرها ، أو بالحرى مكنت لقبضة اليأس من عنقها . وزاد احساسها بضيق الوقت من جزعها فتناست حياءها المطبوع وهتفت :

ـ انت الظالم ، لقد خطبتنى ثلاثة اعوام ثم بدا لك أن تتخلص منى ..

وتحامى عينيها فنظر الى الأرض . كان متحرجا متألما ولكن تصميمه على عدم التراجع كان أعظم فقال :

ـ ان ظروفى أقسى من أن تدركيها على حقيقتها . أمامى صبر طويل .

ورقت لهجتها فجأة وقد نورد وجهها وقالت برجاء :

ـ اذا لم يكن ثمة سبب آخر فبوسعى أن أشاركك الصبر !

فتوجس خيفة من تغير لهجتها وقال :

ـ انه صبر طويل .

فقالت باللهجة نفسها :

ــ لا بأس ، الا اننى ارجو أن تعلن خطبتنا بالطرق المعهودة .

وذهب حيال انقلاب الحديث الى هذا المجرى بعد ان اوشك ان ينقطع ، وركبه الخوف والضيق والجزع فهتف وهو لا يدرى :

ــ كلا !!

وجعلت تحملق فى وجهه فى ذهول ، ثم خفضت عينيها فى يأس ، واحمر وجهها خجلا . وحركت شفتيها مرة ومرة كأنها تريد الكلام ولا تستطيعه ثم غمغمت :

ــ ارايت اننى كنت على حق لمــــا قلت لك انك تريد أن تتخلص منى ؟..

وبلغ منه الارتباك مبلغا لم يعهده من قبل ، ولاذ بالصمت مليا ، ثم قال كالمعتذر :

ــ انى جد حزين ، ربما أقمت لى العذر يوما .

فقالت فى اعياء وقهر :

ــ حسبك ، لا أريد سماع كلمة أخرى .

وساد صمت ثقيل الوطأة كالمرض ملأ الحجرة بأنفاس البأس الخانقة ، ولكن وجد الشاب على حرجه والمه لونا من الراحة ، فمهما يطل هذا العذاب فلا بد أن ينتهى ، وهنالك يجد نفسه حرا طليقا . وتساءل وهو يسترق اليها نظرة ترى ماذا يدور فى راسها ؟ الا زالت تريده ؟ أم كرهته ؟ أم تتمنى الانتقام منه ؟ لشد ما احبها عهدا طويلا ، ولكن هكذا انتهى كل شىء . وتساءل ترى فيم تتحادث الأمان ؟ وعلام انتهى الحديث الذى طال ؟ ثم قال لنفسه « ان مصيرى يتقرر بيدى لا بيد أخرى » . ثم ترامى اليه صوت المرأتين وهما تتكلمان قادمتين فخفق قلبه واستحوذ عليــه قلق مفاجىء . وعادتا الى مجلسهما بوجهين يلوح فيهما الرضا ــ مما ضــاعف قلقه ــ ثم دق الباب وكانت القــادمة نفيسة ، ورجع حسين الى الحجرة ، فوجد حسنين فى المحيطين

يه ما انتزعه من افكاره ورد اليــه شيئا من هدوئه . ومع أن بهية بدت على حال من الوجوم لا تخفى الا ان الحديث لم يشذ عن المألوف حتى انتهت الزيارة .

٧٩

ونظر حسنين صوب امه فى قلق متسائلا فادركت انه يسأل عما دار بينها وبين ام بهية ، ونظرت اليـــه نظرة لا تخلو من فتور وقالت :

ـ حدثتنى سته أم بهية عن وجوب اعلان الخطبـة بصفة رسمية ، ووافقتها فى النهاية على رأيها .

وقطب الشاب فى حنق وضرب يدا بالأخرى وهتف بها :

ـ تسرعت يا أماه !

وشعر بما أحدثه قوله من دهشة فعاد يقول :

ـ لا لوم عليك بطبيعة الحال ولكننى فسخت الخطبة !

وحدقت به الأعين التى تأبى تصديق ما سمعت وتساءلت الأم :

ـ ماذا تقول ؟

فقال ضاغطا على مخارج الألفاظ :

ـ لقد فسخت الخطبة اليوم ، الآن ، وغادرتنا بهية وهى تعلم أن كل شىء بيننا قد انتهى .

وصاح حسين منزعجا :

ـ انك تحيرنى بتصريحك هذا ، ولست أفهم شيئا ؟ هل

وقالت الأم :

ـ انك تحيرنى بتصريحك هذا ، ولست أفهم شــيئا ؟ هل وقع بينكما خلاف بغتة ؟.. متى ؟ وكيف ؟

وكانت نفيسة آخذة فى خلع حذائها فأمسكت وقالت :

ـ تكلم يا حسنين . هذا خبر لم يتوقعه أحد !

فقال الشاب بوجوم :

— الواقع اننى عقدت العزم على فسخ الخطبة من زمن غير قصير ولكننى لم اشأ أن أخبر احدا ، واليوم حين انفردت بها فى هذه الحجرة لم اجد معدى عن اعلان نيتى فانتهى كل شيء . أرجو الا يسألنى أحد عما قلت أو عما قالت فهذا لا يعنى أحدا سواى .

فقال حسين باهتمام واسف :

— كان موقفا قاسيا على الفتاة بلا شك ، وارجو أن يكون لديك من الأسباب ما يبرر الاقدام على هذه الخطوة الفظيعة .

وقالت الأم المنزعجة :

— يا للفضيحة !.. لقد تم الاتفاق بينى وبين الأم فى نفس الوقت الذى كنت تهدم فيه ما نبنى ، فما عسى أن تظن بى المراة .؟ الا يمكن ان تشك فى اننى كنت اخادعها وأنا اعلم بنواياك ؟.. ماذا فعلت يا بنى ؟.. ما سبب هذا كله ؟.. وماذا يعيب الشابة ؟!

وضاقت نفيسة بالمتكلمين فصاحت بحدة :

— دعونا نسمع صاحب الشأن .

وقال حسنين مخاطبا أمه :

— بهية شابة لا غبار عليها ، ولكن تبين لى بوضوح انها ليست الزوجة التى أطمح اليها .

فقالت الأم :

— لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق ان تهجرها بلا سبب مقنع :

وهز حسين رأسه مؤمنا على قول أمه ثم قال :

— هذا حق . ان فسخ خطبة أمر فظيع .. ولا يجوز ان يقع بلا سبب مقنع !

وتساءلت نفيسة باهتمام :

ـ كيف تبين لك انها ليست الزوجة التى تطمح اليها ؟..
دعوه يتكلم ..

فقال حسنين بضيق :

ـ لا ريب أن بهيـة لا تصلح زوجة لى . حقا لقد خطبتها بنفسى ولكنى لم أكن أدرك هذه الحقيقة وقتذاك ..

فقالت الأم بقلق :

ـ بهية فتاة جميلة ومؤدبة ، ولأبيها فضل علينا لا ينسى ..

وقال حسين بلهجة تنم عن استياء :

ـ انى أعجب لحكمك هذا ، ما هى الزوجة الصالحة فى نظرك ؟

فصمت حسنين قليلا ثم قال :

ـ أريد زوجة من وسط ارقى ، مثقفة ، وعلى شىء من الثراء ..

فتساءل حسين بنفس اللهجة :

ـ اهذه هى الأسباب التى جعلتك تنكث بعهدك ؟!

فقال حسنين متنهدا :

ـ نحن فقراء ، وبهية فى حكم الفقراء كذلك ، وأخاف اذا مت قبل نهاية المرحلة ـ كوالدنا ـ أن اترك أبنائى لقساوة الحاجة كما تركنا ..

وهتفت نفيسة قائلة بحماس :

ـ صدقت !!

فغضب حسين لحماس اخته وساله :

ـ هل قدرت خطورة الخطوة التى اقدمت عليها ؟

فقال حسنين بحزن :

ـ لشد ما حز فى نفسى الأسف ولكننى لم أوافق على ضياع حياتى !..

ـ وتوافق على ضياع حياتها ؟!

ـ لن تضـــيع حياتها ، لا زالت فى عنفوان الشـــباب ، والمستقبل امامها باهر .

فتساءل حسين فى حنق :

ـ هل تسمح لى بان اصف لك سلوكك ؟

فنظر اليه فى وجوم ولم ينبس بكلمة فهز حسين راسه فى انزعاج وتساءل :

ـ انى اعجب كيف تسخط على سلوك حسن وله من الأعذار ما ليس لك !

وامتقع وجه الشاب وقال بحدة :

ـ لا شك ان سلوكى لم يخل من قسوة ولكنه سينتهى بخير بالنسبة لى ولها ، وهو على أية حال افضل من زواج غير موفق .

واعرض الشاب عنه يائسا ، وضربت الأم كفا بكف وهى تتمتم .

ـ يا لها من اساءة شديدة لأطيب الناس طرا ، رباه كيف اخفى وجهى !

ومع أنها كانت صادقة فيما تقول الا أن أعماقها لم تخل من ارتياح خفى . وقد كانت تشفق من أن يبادر حسنين الى الزواج فتعود الأسرة الى الترنح والقلق ، وكانت ترمق نفيســة دائما بعين الخوف متسائلة فى حزن عن المستقبل القريب والبعيد . ولكن اذا كان هــذا حقا لا شك فيه فحق كذلك ما تجد حيال أسرة فريد افندى من أسباب الخجل والألم . أما نفيسة فلم تكن تحسن اخفاء عواطفها فقالت :

ـ لا خوف على بهية ، ستتزوج اليوم أو غدا .

فقال حسنين بامتعاض :

ـ هذا كلام يصدق على كل فتاة ولكنه لا يصلح دفاعا عن خطئنا ..

فقالت نفيسة متهكمة :

ـ لا يصدق على كل فتاة !.. والدليل على ذلك انه لا يصدق على أخت حضرتك !

وخفف تهكمها من التوتر العام ، وانتهز حسنين الفرصة، فقال بلهجة دب فيها الحماس :

ــ أليس الأفضل ان اختار زوجة من نوع خاص ككريمة أحمد بك يسرى مثلا !

وقالت نفيسة بمرح :

ــ وما هذا على الله بكثير . من يدرى لعلنا نراك يوما فى ڤيللا محترمة وتتدفق علينا خيراتك يوما بعد يوم ..

ولم يلق حسين اليهما بالا ، وقالت الأم وكأنها تحدث نفسها :

ــ سيعلم فريد افندى بالخبر هذا المساء ، ما عسى أن يقول عنا ؟!. ليتنى أجد الشجاعة لأزورهم وأعتذر اليهم !

ففكر حسين طويلا ثم تمتم بهدوء وحزم :

ــ لا تنقصنى أنا هذه الشجاعة .

ووقع قوله من نفوسهم موقع الاهتمام ، وسألته نفيسة :

ــ أتذهب حقا ؟.. وما عسى أن تقول لهم ؟

فقال الشاب مقطبا :

ــ اقول ما يفتح الله به على . رباه لا شك أن فى دمنا شيئا نجسا ..

ومضى يرتدى ملابسه ، ثم غادر الشقة ..

٨٠

لم يقصد غايته رأسا ولكنه مضى الى مشرب شاى بمصر الجديدة فجلس ساعة يقلب الأمر على وجوهه ويعد له عدته . سرح خياله بين ذكريات الماضى وحوادث الحاضر ، وساءل عقله طويلا وساءل قلبه ، ثم قر فكره على رأى . وكان فى تفكيره جريئا حازما قاطعا على غير عادته ، فلم تعترضه الصعوبات ولم تثبطه المخاوف ،

حتى عجب للسرعة التى بته بها فى الأمر وتساءل فى دهشة «ترى اهى من وحى الساعة ام اثر لما تجمع فى نفسى خلال ثلاث سنوات ؟ » . واستحوذ عليه شيء من الاضطراب ، وعاد يسأل نفسه ، ويستعرض الظروف المختلفة ولكن لم تكن قوة لتثنيه عما عقد العزم عليه . وقام من مجلسه تعتلج فى صدره انفعالات شتى من بسطة السرور وقبضة القلق وأريحية المغامرة ، ثم اتخذ سبيله الى عطفة نصر الله فبلغها فى أول الليل . ومضى يقترب من البيت القديم وهو يشعر بثقل المهمة وحرج الموقف ، ولكنه أقدم بخطى ثابتة وعزيمة لا تنثنى . ثم طرق الباب بقلب خافق ففتحت له الخادم ، وحدجته بدهشة أثارت أعصابه ، ثم قادته الى حجرة الاستقبال . وما عتم أن جاء فريد افندى بجسمه المترهل فرآه لأول مرة مكفهر الوجه ، يتوهج الغضب فى نظرة عينيه . وما كاد الرجل يفرغ من مجاملات السلام ويستقر على مجلسه حتى قال بانفعال وتأثر شديدين :

ـ عشرة العمر كله ، وجيرة العمر كله ، وصداقة العمر كله ، تمزقونها جميعا فى دقيقة واحدة !

فنظر حسين الى الخوان أمامه فى ارتباك وتمتم بصوت منخفض :

ـ ان ما بيننا من ود قديم لا يمكن أن يتغير ، وأن نسى لا ننسى فضلك ونبل أخلاقك ما حيينا ..

فلم يعره الرجل التفاتا وضرب كفا على كف وهو يقول :

ـ لم أدر حين خبرونى كيف أصدق أذنى . ان طبيعة قلبى تأبى أن تصدق هذا الغدر الشائن ..

ـ انى عاذرك يا سيدى . وصدقنى أننا لم تكن أذنى لتصديقه منك ، حتى اننى تركت أمى فى حال يرثى لها ..

وتابع الرجل حديثه دون اهتمام بما قال :

ـ كنت الاحظ انه يتثاقل عن زيارتنا ، وقيل لى فى تفسير ذلك اعذار صبيانية زادتنى تشاؤما ، حتى علمت هذا المساء بأنه

جاهر بنكث عهده ، ما شاء الله ، هل حسب بنات الناس العوبة يلهو بها على هواه ، يخطب حين تحلو له الخطبة ، ويفسخ حين يطيب له الفسخ ؟!. لقــد عاملته كابنى ولم يدر لى بخلد انه يطوى صدره على قلب بهذا الخبث والغدر ..

وزاد شعور حسين بالحرج وطأة فقال ينتحل الأعذار كيفما اتفق :

ـ اخى فتى طائش وقد اضاعت حادثة حسن صوابه .

فتساءل الرجل فى انكار :

ـ وما ذنبنا نحن ؟.. هذا عذر غير مفهوم !

ـ اقصد أن المصيبة أثارت أعصابه وأفسدت حكمه فضاق صدره بالدنيا جميعا .

فلوح الرجل بيده فى عنف وقال ساخطا :

ـ كلام غير مقنع . انى رجل مجرب وأعلم أن الرجل لا يغدر بخطيبته لمثل هذا السبب . قل غير هذا الكلام اذا شئت ان اصدقك . قل انه صار ضابطا وبات يطمع فى نوع آخر من النساء .

فقال حسين بلهجة حزينة :

ـ وددت بحياتى لو أصلح الأمر .

ـ فسد الأمر ولا صلاح له . انه عبث لا يليق بالشرفاء ؛ ولو كنت غير الرجــل لقاضيته وأدبته ، ولكنى أحمد الله على ما كشف لى من حقيقة نفسه بعد أن خدعت به طويلا . ما هو الا شاب نذل جبان ، ولا تؤاخذنى على قول الحق ..

ووقعت هذه الأقوال من نفس الشاب موقعا أليما فخفض بصره مليا ثم قال بصوت ضعيف :

ـ انى جد آسف ، بل كلنا آسفون ، ولا مطمع لنــا الآن الا الابقاء على الود القديم ..

وساد الصمت برهة ثم تمتم الرجل بفتور :

ـ ما عهدنا منكم شرا ..

وشعر حسين بقلق وتوتر ، وذكر ما انتهى اليه رايه قبل حضوره بقلب خافق مضطرب وتساءل فيما بينه وبين نفسه ترى هل من المناسب الآن الاقدام على الافصاح ؟!.. ومع انه لم يجد من الجواب مشجعا الا انه أبى التراجع أو التأجيل ، ونظر الى الرجل بعينين حذرتين وتساءل :

— هل أستطيع أن اقابل الآنسة بهية ؟

فقال الرجل بجزع وهو يلطم الهواء بظاهر كفه :

— ما الداعي لهذا ؟.. فلندعها وحدها ، هذا خير ما يفعل !

وغلب التأثر الشاب . ترى ماذا تفعل المسكينة ؟ وماذا احدثت الصدمة بنفسها الرقيقة ؟ وماذا هو فاعل ايقدم أم ينكص ؟ الا يقع كلامه من هذا الجو المكهرب موقعا مضحكا ! ولكنه شعر شعورا خفيا بانه اذا تراجع هذه اللحظة فلن يقدم أبدا ، وتنهد تنهدة عميقة أزاح بها التردد عن صدره وقال بسكينة ظاهرة يدارى بها اضطرابه :

— سيدى ، لا أدرى كيف أعرب عما فى نفسى ، ولست أزعم أنى اخترت وقتا مناسبا ، ولكننى لا أستطيع أن أقاوم ما يدفعنى الى قول كلمة أخيرة وهى أننى أرجو أن تبارك يوما رغبتى الصادقة فى طلب يد الآنسة بهية !

واتسعت عينا الرجل دهشة وبدا أنه كان يتوقع كل شىء الا هذا ، ولعله أراد أن يتكلم ولكن ارتج عليه ، أما حسين فكان قد عبر قمة أزمته فقال مستردا بعض هدوئه :

— لا تحسبن أن ما يدفعنى الى هذا الرجاء هو ما اشعر به حيال تضرف أخى من خجل ، أو ما عسى أن تتصوره عطفا على حال الآنسة . كلا ، واقسم على هذا . انها رغبة قائمة بذاتها ، منبعثة أولا وآخرا من تقديرى لكريمتكم ولكم .

وواصل فريد افندى دهشته الصامتة على حين استمد

حسين من انطلاقة لسانه وصمت الرجل شجاعة وحرارة فاستطرد قائلا :

ــ شيء واحد يحرجني في هذا المسعى كله وهو ما أشعر به من انني غير كفء لها .

فخرج الرجل عن صمته لأول مرة متمتما :

ــ لا تقلل من شأنك يا حسين افندى ، انت عندى بمنزلة الابن ..

فقال حسين وقد تورد وجهه :

ــ شكرا ..

وتفكر الرجل قليلا كالحائر ثم قال :

ــ لا يسعني الا شكرك على رغبتك هذه ، ويسرني ــ علم الله ــ أن تتحقق ولكنك تدرك طبعا أن وقت التحدث بشأنها لم يئن بعد !؟..

فقال حسين بحماس :

ــ هذا طبيعي جدا يا سيدى ، وبوسعي أن أمد .. أعني أن أنتظر حتى يجيء الوقت المناسب ..

وانتهى الحديث عند هذا الحد ..

٨١

وعاد الى مصر الجديدة غارقا في افكاره فلم يكد يرى شيئا من الطريق ، ولكنه استعرض صفحة مطوية طويلة من حياته كما فعل في مشرب الشاى قبل أن يتجه الى بيت فريد افندى . وكان على حيرته يشعر بسرور وأمل لم يشعر بمثلهما طيلة حياته . لقد احب الفتاة فيما مضى ولكن حبه مات قبل أن يترعرع ويزدهر ، ولم يبق منها في قلبه الحكيم الواقي الا المثال الذى يحلم به للزوجة الصالحة ، وانه يذكر انه تألم كثيرا وصبر كثيرا ، فتعلم

انه بشيء من الحكمة يمكن ان يعثرفى دنيا الألم علىمسرات عالية ، وخرج من التجربة ساكن القلب بسام الثغر ، وكان يقول لنفسه متعزيا أن مواجهة سوء الحظ بالصبر والتسامح . سرور ينبغى ان يعد من حسن الحظ .. وهكذا تعزى ونسى من زمن طويل . ولما ان تفتح له باب الأمل المغلق على حين غفلة نسى انه كاد ينسى وازهر الحب فى قلبه كأن ثائرته لم تهدأ لحظة واحدة من الزمان . وانطلق فى سرور لا تشوبه شائبة حتى بلغ البيت . ووجد الجميع فى انتظاره فما أن وقعت أعينهم عليه حتى صاحوا به :

ـ ماذا لقيت ؟!

ورأى ان يمهد للخبر العجيب الذى يحمله بأن يهول منخطر الامور فقال وهو يهز رأسه أسفا :

ـ وجدتهم على حال من التأثر انزويت لها خجلا وخزيا ، ولأول مرة فى حياتى رأيت فريد افنـدى الرجل الوديع ثائرا غاضبا كاسرا ..

وسألته الأم بحسرة :

ـ خبرنى عما حصل كله . ألم تقابلك أم بهية ؟

ـ كلا ، قابلنى الرجـل وحده وقبل أن أفتـح فمى بكلمة انهال علينا تأنيبا وتقريعا ..

واعاد عليهم كلام الرجل ـ فيما عدا الكلمات القارصة ـ مضيفا عليها منعنده ألوانا منالتأثر والحزنليستثير ألمهم ويستدر عطفهم حتى ملأهم الوجوم والخجل ، الا نفيسة فقد قالت :

ـ ما كان ينبغى أن تلقاه الليلة . وعلى أية حال فالخطأ الأول ينصب على من يقبل تلميذا صغيرا كخطيب لابنته فضلا عن أن يكون هو السـامى بحيله الى عقد الخطبة . ولا أجـد حسنين مستحقا للوم فقد كان تلميـذا كما قلت لا يعرف ما يضره مما ينفعه ، فلما أن بلغ طور الرجولة تبين أن الفتاة لا تصلح زوجة له فماذا عليه اذا تركها ؟!

وصمم حسين على ان يشق طريقه الى هدفه فقال بهدوء مخاطبا أخته .

ـ تكلمى عن الفتاة برفق من فضلك فقد تصبح خطيبة اخيك الآخر !.

وحملقت فيه الأعين بدهشة . وندت عن نفيسة آهة سريعة . وتساءل حسنين :

ـ ماذا تقول ؟

فقال حسين وهو يتغلب على ارتباكه بقوة ارادته :

ـ يجوز أن تصبح خطيبة لى ..

ـ لك أنت !

ـ لى أنا ..

وهتفت نفيسة :

ـ كلام لا يدخل المخ !

ـ ولكنه الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .

وسألته الأم وهى تتفرس فى وجهه :

ـ هل خطبتها حقا ؟

فقال الشاب خافضا عينيه :

ـ نعم ، قلت له انه يسرنى اذا وافق على ان اطلب اليـه يد الفتاة ..

فسأله حسنين بقلق :

ـ افعلت هذا رغبة فى اصلاح الأمور ؟

فتردد حسين قليلا ثم قال :

ـ لا يخلو الأمر من هذه الرغبة ، بيد أنى أكن للفتاة تقديرا كبيرا ، وأعتقد أنه اذا لم يكن بد من الزواج فالأفضل أن يكون من فتاة مثلها ..

فتساءلت نفيسة فى لهجة ساخرة :

ـ ومن قال انه لا بد من الزواج ؟!

وتداخلت الأم متسائلة :

ــ وماذا قال لك فريد افندى ؟

فأجابت نفيسة بالنيابة عنه قائلة :

ــ قال على العين والراس طبعا ..

واجاب حسين دون أن يعبأ بها :

ــ شكر لى طلبى ولكنه اعتــذر بأنه لا يستطيع أن يخاطب الفتاة الآن بهذا الشأن وطلب الى أن أمهله الى حين ..

وعاد حسنين يسأل باهتمام :

ــ أكنت تضمر هذه النية حين غادرتنا ؟

فأجاب حسين بفطنة :

ــ كلا ..

فقال الآخر باشفاق :

ــ أخاف أن تستبين بعد حين انك غير راغب فى الزواج حقا !

فقالت نفيسة متنهدة :

ــ ربنا يسمع منك ..

فصاحت بها أمها غاضبة :

ــ نفيسة !

أما حسين فقال مجيبا أخاه :

ــ انى أحب بطبعى الحياة المستقرة ..

فقال حسنين بارتياح :

ــ ليس أحب الى من سعادتك وسعادتها ..

وصمت قليلا ثم استدرك قائلا بصوت منخفض :

ــ ولى أنا أيضــا آمالى ، كأن أتزوج من كريمة أحمد بك يسرى . أتظنه يا أخى أملا أخرق ؟!

فقال حسين مبتسما :

ــ لم لا ؟.. انك كفء لها ..

وهتفت نفيسة ضاحكة فى شىء من الاضطراب :

— لنا الله ، أردنا أن نسترد واحدا والغالب اننا سنخسر الاثنين ، وهذه اصابة عين حامية ..

وتمتمت الأم بهدوء :

— على بركة الله ، انى مطمئنة الى أن ابنائى لن ينسونى ..

فقالت لها نفيسة :

— ما اجهلك بالزواج واسراره ، سلينى انا عليه .

ضحك حسنين قائلا :

— امنا اعرف بنا منك ..

وساد الصمت فراح حسنين يتساءل فى نفسه وهو يسترق النظر الى أخيه : ترى أكانت خطبته بنت ساعتها حقا ؟!

٨٢

« ربما كان الانتظار حكمة ؛ ولكن ماذا يجدى الانتظار اذا طار الطائر ؟! » هكذا تساءل حسنين فيما يشبه الغضب ، وبعد انقضاء قرابة شهر لم ين فيه عن التفكير والتدبر ساعة واحدة . قالوا له — خاصة حسين — انه ينبغى أن ينتظر حتى يكون ثروة صغيرة ثم يتقدم لطلب يد الفتاة ؛ وليكن رأيهم صوابا ، ولكن من يضمن له أن تنتظره الفتاة حتى تتكون هذه الثروة ؟. ومما شجعه على نبذ هذا الرأى « الحكيم » أن احمد بك يسرى على علو مقامه قريب اليه بحكم العلاقات القديمة ، فطمع فى أن يوسع له صدره . اما اذا أفلتت من يده الفرصة السعيدة فليس لديه الا ان ينتظر أعواما طوالا قبل أن تفتح له الأبواب أسرة كهذه . ألا يمكن أن يطلب يد الفتاة ثم يستمهل البك حتى يستكمل استعداده ؟.. يمكن بلا ريب ، واذا لم يمكن فاناحتمال الرفض لا يجب أن يقعده عن المسعى ، انه أجزأ من أن يقعده شىء عن غاية ، ثم انه لا يطيق هذه الفضيلة التى يدعونها بالصبر . الآن ،

ودون خوف أو تردد ، وليكن ما يكون . كان الشاب يدير هذه الأفكار فى راسه وهو يقترب من ڤيللا احمد بك يسرى بشارع طاهر . صمم وشرع فى التنفيذ بلا مبالاة . هذه هى الحياة التى يتلهف عليها بكل قوة نفسه . وليس ثمة ما يزعجه فقد اختفى حسن وصارت نفيسة آنسة محترمة والماضى فى طور الاحتضار ، وما يريد الا الحياة النظيفةالسعيدة لنفسه وذويه . وكان قد اخذ زينته وتبدى فى منظر حسن يجمع الى رشاقة الشباب فحولة الرجولة . وما أن انتهى الى الڤيللا حتى أدخل الى السلاملك فجلس ينتظر بقلب خافق ونفسه قلقة ، « أليس عجيبا أن اتقدم لطلب يد فتاة هذه ڤيللتها وانا لا أملك الا ما تبقى من مرتبى !. وهناك قضية الوقف الوهمية التى حدثت البك عنها ولكن هيهات أن تغنى عنى شيئا . لماذا لم يكن لأمى وقف ؟ ولكن هذه مسألة اخرى ، فلو كنا من أصحاب الوقف لكان الماضى غير الماضى والحاضر غير الحاضر ، ليكن ما يكون ، لن أتراجع ، ومهما يكن من أمر فلن يقطع راسى ، اذا ربحت ربحت الدنيا جميعا واذا خسرت لم اخسر شيئا يذكر . انى آسف يا بنى ، سلام عليكم يا سعادة البيك ، هذا أفظع ما يتوقع . انى كفء لها بغير جدال . ما عسى ان تريد مما ليس لدى ؟ المال ؟ عندها المال بالقنطار . ما أحمقكم يا اهل هذا البيت اذا رفضتم يدى . فى هذا الموضع رايتها أول مرة على دراجتها ، ساق تستأهل ثقلها ذهبا وفخذ سبحان الخالق . مسكينة نفيسة . ترى أين حسن الآن ؟ ليته يفر الى بلد غريب فيختفى الى الأبد . لا تكاد ذكراه المزعجة تفارقنى فمتى أرتاح من الماضى كله . لن أتراجع . فى هذا الموضع كادت تهوى بها الدراجة . اقدام البك ؟ . »

وانصت فى اهتمام ثم نهض قائما فى احترام حين راى البك قادما نحوه وسلم فى اجلال والآخر يقول :

— أهلا بحضرة الضابط . كيف حالك ؟

واجاب الشاب وهو يبذل اقصى جهده للسيطرة على انتباهه وارادته :

ـ شكرا لك يا سعادة البك ..

وتساءل البك ضاحكا بلهجة ذات معنى :

ـ الا يزال اخوك فى طنطا !

ورحب حسنين بأى حديث يطيل له مهلة الاستعداد فقال باهتمام ظاهرى :

ـ بلى يا سيدى !

وكانا قد اطمأنا الى مجلسيهما فقال البك :

ـ ليس فى الامكان نقله هـذه العطلة ولكنى اخـذت وعدا صادقا بنقله فى العطلة القادمة ..

وكان حسنين يعلم بهذا ولكنه قال بامتنان :

ـ هذه مأثرة جديدة تضاف الى مآثرك السابقة .

وساد صمت ، وشعر الشاب بأنه يقتحم لحظة رهيبة من حياته ، وانه لم يعد وراءه ثمة مجال لتردد أو تراجع ، فالقى بعزمه قائلا بصوت لم يخل من اضطراب فى نبراته :

ـ الواقع انى قصدتك يا بك فى شأن يخصنى انا ..

فرفع اليه الرجل عينيه متسائلا :

ـ خير ان شاء الله ؟..

فاعتدل الشاب فى جلسته كأنه يستمد من اعتداله قوة وقال :

ـ انى أستشفع بسعادتك لغاية بعيدة أراها فوق مطمحى .

فتساءل البك مبتسما وهو يدلل بأصابعـه شاربه الغليظ المصبوغ :

ـ اتريد ان ترقى لواء ؟

فضـحك الشاب ضحكة عصـبية سرعان ما غاضت من أساريره وقال بصوت منخفض :

ـ أعز من هذا . انى طامح الى شرف مصاهرتك ..

وحل اهتمام مفاجيء محل النظرة الباسمة ؛ وخيل اليه ان الرجل استحوذت عليه دهشة رغم ما يتظاهر به من الرزانة وضبط النفس ، ولكن أية دهشة يا ترى ؟ دهشة المفاجأة ام الانزعاج ؟ ودق قلبه بقوة وشعر شعورا عميقا بخطورة اللحظة التى يكابدها . اما الرجل فقال بعد صمت وتفكير :

ــ لا يسعنى الا ان اشكر لك حسن ظنك ..

وتأثر للقول الرقيق تأثرا لم يخل من ألم غامض وقال بتوكيد :

ــ ارجو الا اكون قد جاوزت حدى ..

فقال البك مبتسما :

ــ حاشا لله . انى اكرر الشكر بيد أننى أؤجل الجواب حتى أشاور اصحاب الشأن .

فارتاح حسنين لهذه المهلة التى رحب بها ترحيب المحارب المحرج بهدنة آمنة وقال :

ــ هـذا طبيعى يا سعادة البك ولكنى أرجو حقا الا أكون قد جاوزت حدى .

فابتسم البك قائلا :

ــ لا تعد على مسمعى هذا القول .

ونهض الشاب مستأذنا فى الانصراف ثم غادر الفيللا . واستعاد فى الطريق كل كلمة قيلت وما صاحبها من حركات واشارات ولمحات . وحاول أن يستشف ما وراءها من معان ومقاصد ، ومع انه كان يؤول كل شىء بخيال جرىء طموح متفائل الا انه وجد انقباضا وقلقا ؛ وفى النهاية قال لنفسه وهو يهز كتفيه استهانة : « اذا ربحت ربحت الدنيا جميعا واذا خسرت لم أخسر شيئا يذكر » .

٨٣

لم يفكر حسين فى معاودة زيارة فريد افندى حتى أوفت اجازته على نهايتها ، كأنما اراد أن يمد للرجل فى مهلة تفكيره حتى يستخلص منه رأيا قاطعا . ولم يكن يكف فى اثناء ذلك عن مشاورة والدته ، ولم تبد المرأة اعتراضا ولكنها نصحته ان يؤجل زواجه عاما حتى يستكمل استعداده . ومن عجب انها لم تفلح فى اسداء مثل هذه النصيحة للشاب الآخر المتعجل ولكن حسين نفسه لم يكن ليوافق اخاه على تعجله الذى وصفه « بالتهور » ولم يخف عليه انه اذا وفق حسنين الى هذه الزيجة الخيالية ، وتم زواجه هو بعد عام ، فستجد أمه وأخته نفسيهما وحيدتين بلا عائل ، ولهذا طمأن والدته الى انه مصمم على أن يضم زوجه الى البيت فى كنف معيشة واحدة ، واطمأن قلبه وفكره فمضى الى بيت فريد افندى ، واستقبله الرجل بترحاب انعش آماله ، ومع أنه لم يكن للزيارة الا معنى واحد لا يخفى على احد الا انه خاطب الرجل قائلا فى شىء من الارتباك :

ـ جئت أستودعكم الله قبل عودتى الى طنطا غدا ..

فابتسم فريد افندى ابتسامته الرقيقة وقال :

ـ مع سلامة الله ، وان شاء الله نسمع قريبا عن نقلك الى القاهرة ..

فقال حسين برجاء :

ـ أرجو أن يتم هذا فى العطلة القادمة ..

وساءل نفسه ترى هل يفتح « الموضوع » أو ينتظر حتى يتكلم الرجل ؟.. لقد شاور امه فى الأمر كأنه اصبح حقيقة مفروغا منها ، ومع هذا فمن يعلم بما دار فى نفوس أهل هذا

البيت !!. وساوره قلق ، أخذ يتزايد كلما طال انتظاره للكلمة التي يود سماعها ، حتى جاءت الست أم بهية فنهض لاستقبالها في أدب وشد على يدها في حرارة ، وتفاءل بمقدمها خيرا . وقد قالت له وهما يجلسان :

— انى سعيدة برؤيتك يا بنى ، كيف حال والدتك ؟

فقال حسين بحرارة :

— بخير يا سيدتى . وهى تقرئك السلام .

ثم نظر فريد افندى الى زوجه وقال لها :

— حسين افندى جاء يودعنا لأنه مسافر غدا واظن من المناسب أن نخبره بما قر الرأى عليه (ثم محولا رأسه الى الشاب) بخصوص ما حدثتنى عنه يا حسين افندى يسرنى أن أقول لك « اننا » موافقون .

وتتبع فؤاده كلام الرجل فى خفقان متواصل ، استحال ألما خالصا عند بعض المقاطع ، ثم انتهى بوثبة فرح فقال بصوت متهدج :

— شكرا لك يا سيدى ألف شكر ، انى سعيد حقا .

فابتسم الرجل وقال مخاطبا زوجه :

— وسينقل الى القاهرة فى العطلة القادمة .

فضحكت المرأة قائلة :

— خبر سار ، نحن نود بطبيعة الحال « أن تكونوا » على مقربة منا .

فتورد وجه الشاب وقال بصوت وشى بسروره :

— سيتحقق هذا باذن الله .

ثم قال فريد افندى :

— ولكن يحسن بنا أن ننتظر فترة معقولة قبل اعلان الخطبة .

ثم ضحك ضحكة لم تخل من الارتباك واستطرد قائلا :

— حتى ينقضى وقت مناسب بين الخطبتين .

فخفض حسين عينيه وهو يتمتم :

— انى رهن اشارتكم .

وقام فريد افندى وغادر الحجرة ، وغاب دقائق ، ثم عاد تتبعه بهية . ومع أن حسين حدس الأمر الا انه وقع من نفسه موقع المفاجاة البكر فنهض باذلا مكنون قوته لتمالك نفسه . ثم مد لها يده فى صمت ، فتلاقت يداهما ، وشعر بيدها على يده ناعمة الملمس رقيقة الموقع ، باردة المس ، فاهتز صدره ودر رقة وشكرا . وشعر بانه ينبغى ان يقول كلمة ، والح عليه هذا الشعور ، ولكنه وجد رأسه فراغا ، ولم يسعفه الموقف بالتفكير فجلس دون أن ينبس بكلمة . وسرعان ما تناسى مشاعر الأسف المنبعثة من خرسه فى موجة السرور والرضا التى غمرت حواسه جميعا فنزلت عليه سكينة لطيفة أشبه بالشفاء الذى يعقب نوبة ألم . ما أجملها ! كيف يعمى بعض الناس عن هذه المزايا المكتملة ؟!. انها الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الحنان الظامىء الى حياة البيت السعيد . لا تثير استفزازا من اى نوع كان ولكنها تبث سلاما وطمأنينة . لماذا جاء أبوها ؟ ليس لهذا الا معنى سعيد واحد ، قال اننا موافقون ثم جاء ببقية « اننا » شاهدا ملموسا . بوده لو يسعه أن يستخبر أفكارها هل أفاقت من الصدمة ؟ هل برىء الفؤاد ؟ أبدات حقا تبتشعر ميلا اليه؟. ولم يتركه الوالدان لتأملاته فعاودا حديثهما الذى بدا الآن تافها متطفلا . الا يمكن ان تحدث معجزة فيغادرا الحجرة ؟ وقد التقت عيناه بعينيها مرة فتاه فى صفاء وزرقة لحظة بهيجة . عنده ما يقوله ولديها ما يقال بلا ريب . ومهما يكن من أمر فالأيام آتية ، وسيفصح عما فى ضميره ، عن كل كبيرة وصغيرة . وفى أويقات ما بين الحديث كان يتجمع فى احساس رقيق سعيد أقنعه بأن فى الدنيا سرورا خليقا بأن يكفر عن جميع أكدارها . سرور يقطر صفاء . ليدم طويلا ، لتدم هذه الجلسة ، هذه

الحال ، هذا المنظر ، هذا الاحساس ، ليدم عمرا ، ليشمل الحياة جميعا ..

وتواصل الحديث ولكنها لم تشترك فيه اللهم الا بايماءة أو غمغمة ، حتى وجب الذهاب فنهض مستاذنا ، وسلم عليها ، وغادر الشقة وهو يشعر لأول مرة بانه مقبل من حياته على وقت حصاد ..

٨٤

وسافر حسين ، وانقضت أيام من فترة الانتظار التى دعاها حسنين بمدة « تحت الاختبار » . والتى عاناها فى تجلد اضطرارى والأمل واليأس يتجاذبانه . وقد أسف على سفر أخيه لأنه كان يفضل بلا شك أن يتلقى رد أحمد بك يسرى وهو غير بعيد عن مشورته ، كان فى الحقيقة يانس الى مشاورته وان غلب عليه الاستبداد برايه والاندفاع وراءه ؛ على أن اقدام حسين على الشروع فى الزواج كان قد ترك فى صدره راحة لأنه كان فى أعماقه متعبا لسبقه الى استكمال حياته بالزواج والآخر منزو تحت الأعباء كأنه محروم من الانتفاع بحياته . ولا يعنى هذا أنه لم يكن مشغولا بمستقبل أسرته فالحق انه كان يرجو من وراء زيجته النفيسة خيرا كبيرا لنفسه ولأسرته على السواء . هكذا سوى متاعبه الداخلية بهذا المنطق ليفرغ لملاقاة حظه بقلب مطمئن . وانه لعلى تلك الحال اذ دعاه أحد الأصدقاء من زملائه الى موافاته الى كازينو لوناپارك بمصر الجديدة ، وكان هذا الصديق ويدعى على البرديسى — أقرب زملائه مودة الى قلبه ، نشأت صداقتهما وتوثقت بالكلية ، ثم حافظت على حرارتها رغم تعيينه هو بسلاح الفرسان والتحاق الآخر بالطيران ، ومضى الى موعده فوجده فى انتظاره ، وجلسا معا فى حديقة الكازينو ، ثم طلب الصديق

قدحين من الجعة . وادرك حسنين من اللحظة الأولى ان صاحبه قد دعاه لأمر . لانه على غير عادته ــ وبالرغم من مرحه الظاهر ــ بدا جادا متفكرا ، وما لبث أن سأله :

ــ اتذكر الملازم احمد رافت ؟

فقال حسنين بعدم اكتراث :

ــ طبعا ، انه من دفعتنا ، واظنه ضابطا بالطوبجية ، أليس كذلك ؟ ..

فأوما الصديق دلالة على الموافقة وقال بضيق ومرارة .

ــ سمعته بالأمس يتحدث عنك فى جمع من الاخوان بما اغضبنى وساءنى .

فحملق حسنين فى وجهه بدهشة . كان يتوقع اى شىء الا هذا . وتساءل فى استنكار :

ــ ماذا قال ؟

فقال على البرديسى بوجوم :

ــ كنا ، أنا وبعض الأصدقاء ، نلعب الورق فى بيته بالعادى .

ــ وبعد ؟

ــ لا أذكر المناسبة التى أثارت الحديث . كنا سكارى . ولكنى سمعته يخوض فى أمور تمسك . خبرنى أولا هل سعيت حقا الى طلب يد كريمة رجل يدعى أحمد بك يسرى ؟ !

وفجر الاسم زلزالا فى صدر الشاب فدق قلبه دقة عنيفة ، وذكر لتوه ان احمد رافت هذا على صلة وثيقة ببعض اقارب احمد بك يسرى . وبذل جهدا صادقا ليتمالك اعصابه ، ثم قال باقتضاب وهو يكابد شعورا غليظا بالتشاؤم والخوف :

ــ ربما ..

ــ اتعلم أن أحمد رافت صديق لهذه الأسرة ؟

ــ هذا جائز ، ولكن خبرنى ماذا قال ؟

فصمت البرديسى كالمتردد حينا ثم تمتم بصوت منخفض والحرج باد فى أساريره :

— فهمت من حديثه أن الأسرة لم توافق . يؤسفنى أن ابلغك هذا ..

وشعر بالخبر يضغطه كحمل ثقيل فتضاءل تحته وأحس بانهيار فى كرامته ورجولته . ثم فار غضبه حتى أوشك أن يستسلم لنيرانه ولكنه ثار على الاستسلام فى اللحظة الأخيرة ، وابى الا ان يتظاهر بعدم الاكتراث ، بل ندت عنه ضحكة وتساءل:

— أهذا ما أساءك يا صديقى ؟

فقال الصديق بوجوم وقلق :

— هذا أمر عادى ، يحدث كل يوم ، ولكنه ذكر فى غير لياقة الأسباب التى تبرر عدم موافقة الأسرة ، ومع أنها أسباب تافهة لا يمكن أن تحط من قدر انسان الا انه ساءنى جدا أن يرددها فى جمع حافل من السكارى .

كان يشعر دائما بأن مطرقة ثقيلة من ماضيه معلقة فوق راسه تهدده فى كل حين ، وها هى قد أهوت على يا فوخه ونثرته هشيما . ليس الأمر بحاجة الى ايضاح أو سؤال ، ولكن أمن الممكن حقا ان يتجاهل كل شىء ؟! ورفع بصره الى وجه صديقه الواجم وسأله بلهجة آلية :

— خبرنى عما قال ؟

فعبس الشاب فى ضيق وتبرم ثم استطرد :

— انه حقيق بالاهمال ولكن من الانصاف أن تعلم بما يقال عنك ولست فى حاجة لأن أقول لك انى غضبت لك غضبة صادقة ألجمت ألسنة الهاذين ..

اذن اتخذوا منه مادة لهذيانهم ! وأى مادة ! كان ينبغى أن يفكر فى هذا كله يوم أقدم على تلك الخطبة المشئومة . وابتسم الى صديقه ابتسامة باهتة وقال :

ـ لا يخالجنى شك فى شهادتك . انى اقدر اخلاصك حق قدره، ولكن ارجو أن تعيد على مسمعى كل كلمة قيلت . كلمة كلمة .

وبدا الشاب متأففا ، واكتفى بأن يقول فى امتعاض شديد :

ـ قال كلاما كثيرا عن اخ لك .. حتى قلت له محتدا انى اعرف قاطع طريق فى بلدتنا اخوه وزير فى القاهرة !

فامتقع وجه حسنين ، وتأذى لدفاع صاحبه كأنه يسمع التهمة نفسها ، بيد أنه ضحك فى يأس وقال :

ـ العادة أن عين الرضا لا ترى الا الوزير أما عين الغضب . ما علينا ، وماذا أيضا ؟

فقال الشاب فى تهرب :

ـ وكلام سخيف من هذا القبيل .

ولكن حسنين هتف به فى ضيق غلبه على أمره فجأة :

ـ أرجوك ، أرجوك ، لا تخف عنى شيئا ..

فقال الشاب عابسا من التحرج :

ـ أكره الخوض فى الحرمات .

ـ أختى ؟ !

ـ قال انها كانت تعمل لترتزق ؟ .

ـ وقلت له غاضبا ان العمل الشريف لا يعيب أحدا وان الفقر ليس جريمة .

فهز حسنين رأسه فى حرارة وردد قول صاحبه فى سخرية أليمة :

ـ .. ان الفقر ليس جريمة .!. بديع !.. وماذا قال ايضا؟.

ـ لا شىء .

ـ حسبه ! أخ قاطع طريق وأخت خـ .. عاملة ، هه ؟ ويريد بعد هذا أن يتزوج من كريمة بك قد الدنيا !

قال البرديسى :

— أعتقد أن حسن الاختيار قد أخطأك فى التقدم لمثل هذه الأسرة العيابة .

فابتسم حسنين ابتسامة مريضة وتمتم :

— صدقت . .

ثم راح يقول لنفسه «انى غائص فى الطين حتى قمة راسى . ليس لهذه الحال من علاج الا ان ادق عنق هذا الأحمد رافت . ولكن هل يغير هذا من الواقع شيئا ؟ . كلا ، انه دفاع غير مجد بيد أنه لا يجوز أن تغيب عنى حقيقة هامة وهى أن اللكمة القوية تستطيع أن تنتزع الاحترام انتزاعا وتفرضه فرضا . انى قادر على هذا والحمد لله فلا تنقصنى الشجاعة أو القوة . كان حسن احقارنا شأنا ولكنه كان على ذلك أعظمنا احتراما . هذا درس ينتفع به » . ثم سمع صديقه يقول فى عزاء :

— لا تكترث أكثر مما ينبغى .

فقال وهو يهز منكبيه متظاهرا بالاستهانة :

— نصيحة معقولة . ليس فى أسرتنا ما يشين . كنا اغنياء فى يوم ما ثم دهمتنا ايام شداد فلاقيناها بشجاعة حتى تغلبنا عليها . ليس فى هذا ما يشين .

— بل فيه من دواعى الفخار ما فيه .

فضرب الأرض فجأة بقدمه وقال مستعر العينين من الغضب :

— ولكنى أعرف كيف أؤدب من تحدثه نفسه باهانتى .

— هذا حق لا شك فيه .

وساد صمت مرهق بالتعب والألم فلم يجد البرديسى خيرا من أن يطلب قدحين آخرين من الجعة ، ثم تمتم مبتسما :

— ستجد اذا شئت من هى خير منها . .

فقال حسنين باستهانة :

— أوه ، البنات فى البلد أكثر من الهواء وأرخص من التراب !

وعل من الجعة فى ظمأ ، وشغل الصديق بقدحه أيضا فعاد

الصمت . « آه لو كان فى وسع الانسان أن يخلق حياته من جديد . فيولد فى اسرة جديدة ، وينشىء ماضيا جديدا . ولكن ما بالى أعذب نفسى بالأمانى الكاذبة . هذا أنا ، وهذه حياتى ، ولن أسمح بأن اتحطم . لم تنته المعركة بعد ! » .

٨٥

ولما غادر الكازينو مودعا من صديقه كانت الصدمة والجعة تكادان أن تذهبا بعقله . وكان ينبغى أن ينفس عن صدره قبل كل شىء ومهما كلفه الأمر بيد أنه استسخف فكرة مواجهة الضابط احمد رافت واغراه شعوره المنطوى على التحدى والغضب بما هو اجل وأخطر . « ان غضبى على هذا الشاب المغرور غير عادل . لقد سمع قولا بذيئا فردده . ليس لى عليه حق ولا استطيع الزعم بأننا كنا أصدقاء . اذا سنحت فرصة للتحرش به فى المستقبل فلن ادعها تفلت بسلام ، ولكن الندع تأديبه حتى سنوح هـذه الفرصة . هـدفى الحقيقى هو البك نفسه ذو الشـارب المصبوغ . سأقول له ان أقل ما يستحقه رجل تقدم لطلب كريمتك هو أن تحافظ على كرامته خصوصا اذا كان ابن صديق قديم . اذا تنصل من التهمة قذفته بالدليل القاطع وقلت له ان الفقر ليس بعيب بخلاف التشنيع على الناس فهو عيب حقير . اذا غضب ولا بد ان يغضب كما يحتم مركزه الكبير فلن اقتصد فى اظهار غضبى حتى أفرغ بخار صدرى المكتوم . » وبهذا الشعور المتفجر وما ينبثق حوله من اشعاعات الجعة ألقى بنفسه فى أول ترام صادفه فحمله الى ميدان المحطة ، ثم استقل الترام الى شارع ظاهر ، وعندما تراءت له فيللا احمد بك يسرى تثاقلت قدماه كأنه يمهل نفسه لمعاودة التفكير . وترددت فى اعماقه هواتف

تهيب به الى التراجع ولكنها ذابت فى تيار الحمى المستعر فى راسه فدفع الى الفيللا دفعا حتى وجد نفسه حيال البواب الذى وقف له احتراما . وشق طريقه إلى الداخل دون استئذان وهو يشعر بغرابة سلوكه وسخافته ولكن دون أن ينثنى . كانت الشمس قد مالت نحو الأفق فلاحت شجيرات الورد والشيح الناعسة فى ظل المغيب ، وارتسمت على ارض الممشى الوسيط اثار عجلات السيارة فى هيئة خطين عريضين منحنيين ، فاتجه نحو السلاملك ، تشى نظرة الحيرة والتردد التى تنتاب تصميمه من حين الى حين بأنه لم يقتنع كل الاقتناع بوجاهة البواعث التى تدفعه الى هذا التحدى . ومع هذا ارتقى السلم بسرعة غير متوقعة ، وما كاد يبلغ الفراندا حتى وقف متسمرا تحت صدمة دهشة مفاجئة لم تدر له بخاطر فى هذيانه الطويل المتصل . رأى الفتاة — نفسها — جالسة على كرسى كبير وقد رفعت راسها عن كتاب أو نحوه وتطلعت الى القادم بعينين متسائلتين . وثبتت عيناه عليها فى جمود ذاهل وقد صدع صدره من الأعماق احساس بالخزى أذابه ذوبانا . ثم أدرك انه حيال موقف لو استسلم فيه لضعفه لباء بخزى جديد فاق ما تعرض له من الوان الاهانة ، فاستمد قوة جديدة من خوفه مصمما على الخروج من ورطته بكرامة واستهانة . وأفاده التصميم فتمالك نفسه ؛ وحنى رأسه باحترام وقال مبتسما فى لطف :

— مساء الخير يا آنسة . معذرة عن ازعاجى غير المقصود لك . هل أستطيع أن أقابل البك ؟

فقالت برقة — وكان يسمع صوتها لأول مرة — دون أن يعتورها أدنى ارتباك :

— والدى معتكف اليوم لوعكة خفيفة ..

وحنى رأسه مرة أخرى ، ولعله وجد ارتياحا الى هذا الخلاص الذى جاء من حيث لا ينتظر ، وقال وهو يهم بالذهاب :

ـ استودعك الله ..

ودار على عقبيه وسار خطوة ، وخطوة اخرى ، ثم توقف فى تصميم مباغت . اختفى منطق السلام وحل محله غضب واستهتار وتلبسته الحال الغريبة التى دفعته من مصر الجديدة الى شبرا .

ودار حول نفسه مرة اخرى وواجه الفتاة فى جراة غير مبال بنظرتها المترفعة المتسائلة ثم قال بصوت أعلى مما يستدعى الموقف :

ـ معذرة ، يعز على ان أودع هذا البيت الوداع الأخير دون ان أعرب عن افكارى .

فظلت على تساؤلها الصامت دون أن تنبس بكلمة فاستطرد متسائلا :

ـ اظن بلغك اننى طلبت يدك ؟

فقالت وهى تغض بصرها :

ـ لم تجر العادة بأن يحدثنى احد من زوار ابى .

فقال فيما يشبه الدهشة :

ـ ظننتها عادة غير مستنكرة فى الأوساط الراقية !

ـ ليس فى جميع الأحوال .

فتمادى فى الاستهانة قائلا :

ـ اسمحى لى أن أتكلم رغم هذا ، أننى قصدت البك لمحادثته فى الأمر نفسه لأنه نما الى أن طلبى عد وقاحة لا تغتفر .

فقالت دون أن ترفع بصرها :

ـ يحسن بك أن تؤجل حديثك لحين لقاء البك .

فقال وعيناه لا تتحولان عن وجهها :

ـ ولكن ما اسعدنى به الحظ من لقائك ـ وانت صاحبة الشأن الأول ـ يحتم على أن اتكلم ، يهمنى أن اعرف رأيك هل يعد طلبى وقاحة حقا ؟

فقالت بما ينم عن الضجر :

— أرجو أن تؤجل حديثك لحينه .

ومع ان ضجرها كان شيئا منتظرا الا انه آلمه واحنقه فقال:

— ان الذى يسعى الى يد فتاة يتقدم عادة بخير ما فيه ولكن يحدث أحيانا لسوء الحظ الا يروا الا شر ما فيه ، كبعض مساوىء تتعلق بأسرته مثلا .

فنهضت قائمة ، عابسة . وهى تقول :

— لا مفر من الذهاب .

واتجهت نحو مدخل البهو فلاحقها بصوت مرتفع قائلا :

— كنت أود أن أسمع رايك ، ولكن حسبى هذا ، انى آسف ، وأرجو أن ترفعى تحياتى الى البك .

ودار على عقبيه مسرعا وهبط السلم ثم سار نحو الباب . ومرت بخاطره مناظر متباعدة فى سرعة وتدفق . كموقفه مع بهية فى بيتهم الجديد ، وحديث البرديسى فى الكازينو . وهذا الحديث القريب « لست عاشقا خائبا والحمد لله . كنت على وشك أن أكونه ولكن الله سلم . بيد أننى رجل خائب وهذا افظع . احب أن أفكر طويلا فى هذه الأمور المعقدة . انى أشعر بمرض من نوع جديد ، أين الداء ؟ أين الخطأ ؟ أين العلاج ؟ » .

ولما خلص الى الطريق كان مقتنعا بأنه ارتكب سخافة لا معنى لها .

٨٦

قالت الأم مبتسمة وان نمت نظرة عينيها عن أسى :

— من عجب انك ترمى بنفسك فى أمور خطيرة دون ان تأخذ لها . هبهم وافقوا على الزواج فماذا كنت تفعل ؟ ألم الخلاص الذى جئا ؟ ألم نحذرك جميعا من عواقبه ؟

كان قد مضى على حديث صاحبه البرديسى حوالى عشرة ايام ومع هذا لم تغب هذه المسألة عن اذهانهم ، وكانوا كلما جمعتهم جلسة فى الشرفة المطلة على الطريق فى أوقات العصارى ولاح فى وجهه الشرود أو التفكير انبرت الأم للحديث ترجو أن تبلغ به موضع التعزى من قلبه وانضمت اليها نفيسة مازجة الجدبالمزاح.

وقال حسنين فى ضجر :

ـ لا يبدو لى الغد خيرا من اليوم .

فقالت نفيسة :

ـ كلام فارغ .

وصدقت الأم على كلامها قائلة :

ـ وستبدى لك الأيام أنه كلام فارغ ، وستتزوج من خير منها ..

وتساءل فى نفسه لماذا يبدو المتشائم الوحيد فى هذه الأسرة ؟ اهى اسرة بلهاء ام هو الأبلة ؟ اليس الدور الذى يلعبه الشيطان فى هذه الدنيا أخطر من ادوار الملائكة مجتمعين ؟ بلى ، فلماذا لا يرونه كذلك !. ولقد أرسل الى حسين كتابا بآخر أنباء زواجه فماذا كان جوابه ؟ لم يكد يزيد شيئا عما تقول أمه أو أخته !. أماتوا وهم أحياء ؟ ألم تعد تستهويهم الحياة الرفيعة الشريفة ؟ !

وقطع عليه أفكاره جرس الباب الخارجى الذى رن رنينا متواصلا ، ثم صوت الخادم وهى تصيح بحالة مزعجة بعد أن فتحت الباب « سيدى .. ستى » فهرع الى الصالة مستطلعا تتبعه أمه وأخته فرأى عند باب الشقة المفتوح رجلين غريبين يسندان ثالثا بينهما ، جريحا فيما يبدو من عصابة قذرة تطوق رأسه وتنز دما ، وقد مال عنقه الى كتف أحد الرجلين . واقترب حسنين مع القادمين مبهوتا منزعجا لا يدرك شيئا ولا يفهم شيئا حتى صار على قيد خطوات منهم وعيناه لا تتحولان عما انحسرت عنه العصابة من وجه الجريح . بشرة شاحبة تشوبها زرقة تثير

من الاعماق ذكرى الموت ، وتعلوها فوضى مخيفة من شعر نابت وآثار التهاب ، ولكن العينين المغمضتين رمشتا فى اعياء فلاحت خلال اهدابهما نظرة واهنة غير غريبة سرعان ما انتقلت حركتها الضعيفة الى ذاكرته وانفجرت بها كالقنبلة . وقبل ان يتحرك لسانه جاء صوت امه من الخلف مؤكدا ما انفجر فى راسه هاتفا فى تبرات يمزقها الخوف والاشفاق :

— حسن .. هذا حسن ..

فصاح حسنين مرددا قول امه فى ذهول :

— حسن ..

وهنا قال الرجل الذى يسند عنقه بكتفه ويشترك مع الآخر فى حمله :

— يجب أن ننيمه فى الحال ..

وتقدم الشاب فى ذهول منهم وانحنى فوق قدمى اخيه وبسط ذراعيه تحت ساقيه ورفعهما فى رفق وساروا معا متعاونين فى حمله الى حجرة نومه ، وانامو على الفراش الوحيد فى البيت ، ثم أسرع الرجلان بمغادرة الحجرة يتبعهما حسنين على حين هرعت الأم ونفيسة نحو الفراش فى جزع لا يوصف . وفى الصالة اشار الرجل الذى تكلم أول مرة — وكان يرتدى جلبابا وطاقية — الى الآخر — الذى يتزيا بزى الأفندية — وقال :

— لا مؤاخذة ، هذا سائق التاكسى .

فأدرك حسنين انه يلمح الى أجرة التاكسى فسار معهما حتى السيارة وأعطى الرجل النقود وصرفه مستبقيا الآخر ، ثم سأله فى اضطراب وجزع :

— ماذا حدث ؟

فقال الرجل :

— سى حسن أخى وصديقى ، ولعلك تعلم أنه كان هاربا من وجه البوليس فانتهز بعض أعدائه هذه الفرصة وتربصوا له فى

بعض الأماكن التى يقطنها مستخفيا وانقضوا عليه غدرا وسلبوه ماله ولاذوا بالفرار ، وقد تحامل المسكين على نفسه حتى بلغ مسكنى ورجانى ان أذهب به الى اهله فأخذنا التاكسى الى عطفة نصر الله حيث أخبرنا الجيران انكم انتقلتم الى هـذا البيت فجئنا من تونا .

وكان حسنين يصغى الى الرجل فى شبه ذهول ، ومع ان احساسات شتى تعاورت قلبه الا أن احساس الخوف والقلق غلبها جميعا ، ولما انتهى الرجل من حكايته غمغم الشاب :

ـ شكرا لك يا سيدى على مروءتك ، هلا تفضلت بالبقاء ساعة حتى تستريح ..

ولكن الرجل رفع يده الى راسه شاكرا وقال :

ـ انى ذاهب فى الحال ، ولى كلمة قبل الذهاب وهى أنه يجب الاسراع الى علاج الجرح الخطير ولكن حذار من استدعاء الاسعاف أو حمله الى القصر والا أدى الأمر الى التحقيق ثم الى البوليس .؟

وحياه الرجل ومضى الى حال سبيله ، فعاد الشاب الى الحجرة كمن يشق سبيله فى ظلمة حالكة والأرض تميد به . ووجد أخاه كما تركه راقدا وكأنه اطمأن الى الجو الجديد فأسلم الى غيبوبة تامة ، وانكبت عليه المرأتان فى جزع باد ، ولما أحستا بالقادم تطلعتا اليه بنظرة استغاثة . ورنا الى الراقد طويلا ثم تساءل بصوت غريب :

ـ الم يتكلم ؟

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها الجاف :

ـ غمغم كلمات لا تغنى شيئا ثم راح فى غيبوبة . اغثنا بدكتور .

ولكن الجريح حرك يده بجهد ، وبدا كأنه يستطيع أن يغالب غيبوبته عنـد الضرورة فقال بصـوت باهت ضعيف تجرد من فحولته المعهودة :

ـ لا دكتور .. الدكتور .. يبلغ .. البوليس .

والقى عليه نظرة متفحصة فرأى العصابة المخضبة بالدم تخفى

رأسه وجبهته وجانبا من صفحتى وجهه فلا تبـدو الا عيناه المثقلتان بالاعياء والذبول وذقنه النابتة الشعر ، وقد فغر فما تتردد فيه أنفاس ثقيلة محشرجة ، على حين تمزق رباط رقبته وجيب الجاكتة وانتثرت خيوط الأزرار ، وراحته يمناه تنقبض وتنبسط ، ويئن بين آونة وأخرى . وقف حسنين حيال هذا المنظر ذاهلا فتناسى مخاوفه وتركز شعوره فى احسـاس عميق بالألم والاشفاق . نسى برهةكل شىء الا انه حيال اخيه الجريح ، وانه ينبغى انقاذه بأى ثمن . ثم جعلت تطفو من أعماقه مشاعر خوف وقلق طالمـا طاردته فى الأيام الأخيرة فى هيئة نذر تتهدد سمعته ومستقبله ، فانقبض قلبه ، وداخله ألم جارح لهـذه المشاعر ذاتها من ناحية ، ولتانيب الضمير على احساسه بها فى مثل هذا الموقف من ناحية أخرى . وكأنه فزع الى الهرب من باطنه بالكلام فقال مخاطبا الجريح برقة :

ــ دعنى أحضر طبيبا . حياتك أهم من أى شىء آخر .

وقالت الأم ونفيسة برجاء معا :

ــ نعم يا حسن ، دعنا نحضر الطبيب .

ولكنه رفع جفنيه الثقيلتين وقال بنبراته المضغوطة المتعبة :

ــ كلا . لا تخافوا . هذه ضربة تافهة ..

ثم حاول أن يأخذ نفسا عميقا واستراح لحظة ، ثم استدرك قائلا مغمض العينين :

ــ غدروا بى . الويل لهم . ان كان لى عمر فالويل لهم . ولكن لا تستدعوا طبيبا . الطبيب يبلغ البوليس ..

فقال حسنين وكان لا يزال فريسة للنزاع الناشب من باطنه :

ــ لابد من احضار طبيب ، وليس عسيرا أن نقنعه بتكتم الخبر .

وتوسلت اليه الأم قائلة :

ــ ارحمنى يا حسن واقبل هذا ..

فنفخ الرجل مغمغما فى ضجر :

ـ ارحمونى انتم ودعونى فى سلام .. اف .

وجعلت الأم تردد بصرها بينه وبين حسنين ولكن الشاب كان من العناء فى بلوى . برح الخفاء وتبين حقيقة مشاعره . فليس تألمه لأخيه بشىء يذكر الى جانب الخوف الذى يلقى عليه ظلا ثقيلا من شبحه الجاثم . « قضى علينا ؛ قلبى لا يكذبنى على الأقل فى الشر ، قضى علينا فى مصر الجديدة كما قضى علينا فى شبرا وسيطاردنا البوليس جميعا كالمجرمين . اكاد أرى بعينى رأسى المحموم الضابط وهو يفتش الحجرات ويلقى القبض على المجرم الهارب . هل سدت منافذ الحياة ؟!. اتقول انه اخى ؟ أجل انه اخى ، ولكنها حياتى التى تتحطم تحت قدميه فى طريقه الوعرة . اف ، لشد ما ضاق صدرى .! ثم سمع امه وهى تهتف به فى يأس:

ـ أغثنى يا حسنين !. الا ترى أنه يموت بين ايدينا !

« كلا لن يموت ، اما انا فانى اموت موتا بطيئا قاسيا . ان كرامتى تحتضر . وهبه مات حيث هو الآن فسيأتى طبيب للكشف عليه ثم يلحق به البوليس والنيابة ولن يكون لهم سبيل على الجثة ولكن ستفوح النتانة من البيت فى هيئة فضيحة رائعة ! »

ثم حانت منه التفاتة الى أمه وكانت تردد بين الراقد وبينه نظرة حائرة زائغة فزعة ، ومع أنها كانت مطبقة الفم الا انه سمع لنظرتها تلك صرخة مدوية تمزق نياط القلب . وعجب لنفسه فقد حقد عليها بادىء الأمر ثم خيل اليه أن ذكريات غامضة سريعة تطرق قلبه فى لمح البصر فتخاذل وضعف وعاد يركز بصره فى العصابة الملوثة بالدم ، واسترد قوة تفكيره فخطر له خاطر باهر تمتم على اثره بلا وعى « كيف نسيت هذا ؟! » ثم قال مخاطبا أمه فى عجلة :

ـ سأحضر طبيبا صديقا من مستشفى الجيش ، انتظرى قليلا فلن اغيب طويلا .

وهرع الى بدلته فلبسها متعجلا وغادر البيت لا يلوى على شىء ..

٨٧

وقف حسنين مستندا الى حافة النافذة يراقب الطبيب وهو مكب على عمله الدقيق وقد غادرت الأم والأخت الحجرة ولبثتا وراء الباب المغلق يكاد يسمع تردد انفاسهما . كان عابسا شديد التأثر ، وتولاه الفزع ، ثم اخذ يهدأ رويدا ، ويغيب فى أعماق نفسه . وكان قد اخبر الطبيب لدى مقابلته أن أخاه أصيب بجرح فى رأسه عقب معركة مع أحد أفراد الأسرة ورجاه أن يسعفه مبديا له رغبته الحارة فى تكتم الخبر حتى لا تخدش كرامة الأسرة بفضيحة عامة ! ومضى الطبيب معه فى تحفظ ، ولما أجرى الكشف الابتدائى على رأس الجريح قال :

- كسر عميق ، الى ما استنزف من دم غزير . لا أدرى ما وجه الحكمة فى عدم ابلاغ البوليس ؟!

فقال حسنين بتوسل :

- فلنتحاش هذا بأى ثمن !

فقال الطبيب وهو يتهيأ للعمل :

- الظاهر انك لا تدرى خطورة الأمر !.. وعلى أى فلنؤجل هذا الى حينه !

وتركه طوال العملية الجراحية غير مستقر ولا مطمئن ، بل قضى حديثه الأخير على نوازع عطف كانت تتحرك فى أعماقه . كان فى ذهابه الى المستشفى وعودته بالطبيب مجال حسن هيأ له جوا طيبا تنمو فيه احساسات العطف وتزكو فنزعت به الذكريات الى الأيام الخوالى التى كان حسن فيها المرفه الوحيد عن بأسائهم . واليد المبسوطة التى تجود فتحقق لهم الآمال . ولكن سرعان ما استثار القلق الخوف فتحجر قلبه ونضب معين العطف ولم

يعد يرى فى الرجل الجريح الا نذير الشر الذى يتهدد سمعته ومستقبله . ها هو يرقد فى غيبوبة شاملة لا يشعر بالأسلحة الدقيقة التى تعبث بلحمه وعظمه ، وهكذا كانت حياته دائما جرحا عميقا يبتلى سواه بآلامه . اما هو فلم يفق من غيبوبته قط . او لم يشأ أن يفيق منها . الم يضرع اليه بالدموع أن يغير حياته ؟ بلى ، وكان جزاؤه السخرية الأليمة ، فلو انه مات فى ارض بعيدة .

ثم ثبت عينيه على الوجه الذى اخذ يختفى تحت الأربطة فسرت فى جسده رعدة ، وامتلأ يأسا وانقباضا واخيرا سمع الطبيب يخاطبه قائلا :

ـ انتهيت من الممكن عمله الآن ، هلم معى الى الخارج ..

وانتظر حتى غسل الرجل يديه وارتدى جاكتته ثم سار بين يديه الى حجرة الاستقبال ولم يجلس الرجل وبدا متفكرا ، ثم قال بهدوء غير منتظر :

ـ لا اظن الحال خطيرة جدا ولكنه سيحتاج الى علاج طويل . يا له من اعتداء وحشى ، لماذا لا تبلغ البوليس ؟

فقال حسنين بجزع وان رده قول الطبيب الى بعض رشاده :

ـ انى أتفادى من الفضيحة ، ومهما يكن من أمر فنحن اسرة واحدة !..

فهز الطبيب رأسه فيما يشبه التذمر ثم قال بشىء من الحزم :

ـ سأعود لرؤيته صباحا فاذا وجدته على ما يرام فبها والا فستجدنى مضطرا للتبليغ .

وساوره القلق فقال برجاء وكأنه يخاطب نفسه :

ـ أرجو الا يحدث هذا .

ثم خاطب الطبيب قائلا :

ـ انى اشكر لك ما تجشمته من جهد وتعب .

واتجه الرجل الى الخارج فوصله الى الباب الخارجى وهو

يشد على يده بامتنان ، ولم يشأ الطبيب ان يذهب قبل ان يكرر على مسمعه قائلا فى توكيد :

ــ سأعود صباحا ..

ووقف يتابعه بناظريه وهو يستقل سيارته حتى انطلقت به مزمجرة فى طريقها فتنهد كانه يزيح ثقلا لا يتزحزح ثم عاد الى الحجرة ينقل خطواته فى كآبة ، وما كاد يلج الباب حتى هرعت اليه امه وسألته فى لهفة وجزع :

ــ ماذا قال الطبيب ؟

وكره لهفتها وجزعها من أعماق صدره ولكنه لم يجد بدا من أن يقول فى هدوء :

ــ انه مطمئن الى الحالة وسيعود صباحا ، كيف حاله الآن ؟

فقالت نفيسة :

ــ لم يفق بعد .

وارتمى على الكرسى الوحيد بالحجرة وأغمض عينيه .. « أنا الجريح حقا . انه ينام نوما عميقا فى غيبوبة سعيدة فمن لى بمثل هذه الغيبوبة . لا أظن الحال خطيرة جدا ، هكذا يقول الطبيب الغافل . كلا انها خطيرة جدا . وابلاله أخطر من موته . اذا ساءت الحال أبلغ الخبر الى البوليس ، واذا تحسنت جثم على صدرى حتى يبلغ أعداؤه البوليس عنه ، فالفضيحة آتية لا ريب فيها .. أين المهرب من هذه الآلام جميعا . انى أمقت هذا الجريح وأمقت نفسى وأمقت الحياة جميعا . أما من حياة غير هذه الحياة ومخلوقات غير هذه المخلوقات ؟. » والظاهر أن أفكاره انعكست على صفحة وجهه فتقبضت أساريره فى امتعاض وألم ، ولاحت من أمه التفاتة اليه فاشتد بها التأثر وقالت له برقة .

ــ هون عليك ، أخوك بخير ، والله حافظه وحافظنا ..

وفتح عينيه فى دهشة ، ورمقها بنظرة غريبة دون أن ينبس بكلمة ..

٨٨

وجاء الطبيب فى صباح اليوم الثانى ثم غادر البيت معلنا اطمئنانه ، وبذلك نجا حسنين من الخطر القريب الداهم ليفرغ لقلق متصل وعذاب بطىء وأوهام لا تفارقه ليلا ولا نهارا . وانقضت أيام والأسرة فى هدوء نسبى ، ومضى الرجل الجريح يفيق ويسترد حيويته شيئا فشيئا ، وبعودته الى الحياة ساورته أفكار قديمة لم تلبث عدواها أن سرت الى النفوس المحيطة به . وقد ابتسم فى بادىء الأمر ابتسامة حزينة يشوبها تسليم لم تألفه طبيعته وقال كالمعتذر :

ـ أتعبتكم كثيرا ، والظاهر ان الله لم يخلقنى الا للتعب .. فليسامحنى الله !

والتمعت فيما حوله بسمات المجاملة والتودد فلم ينخدع بها ، أو لم ينخدع بها جميعا ، فمالت عيناه نحو حسنين وقال :

ـ لا شك فى أنك غاضب ولعلك تود أن تذكرنى بمواعظك السالفة !..

فغمغم الشاب قائلا :

ـ لا أود الا سلامتك ..

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، ثم ما عتم أن تجهم وجهه ، وتكالبت عليه الأفكار ، فقال فى لهجة مضطربة غير التى تكلم بها أول الأمر :

ـ سلبونى نقودى ، الويل لهم ، كنت عازما على الهرب ، ولا بد من الهرب .

وتحسس رأسه بيده واغمض عينيه ، ثم تمتم وكأنه يحادث نفسه :

ــ ماذا فعل الله بسناء ؟.. هل يكفون عنها ؟.. لن تستسلم لعدو من اعدائى ، ولكنها لن تستطيع الهرب معى ، فات الوقت وفقدنا نقودنا ..

وانصت حسنين صامتا ، جافلا من ملاقاة هذا الهذيان بغير الصمت ، واختلس من امه وشقيقته نظرة فوجدهما تتبادلان نظرة حائرة ثم عاد حسن يقول فى نبراته المضطربة :

ــ يجب أن أختفى . ان الصديق الذى حملنى الى هنا رجل مخلص ولكنه اجهل من أن يحفظ سرا ، وليس أحب اليه من ان يروى قصة مروءته لرفيقته ، فتنقلها هذه لجارتها ، حتى تبلغ أحدا ممن يتربصون بى ، فلا ندرى الا والبوليس يقتحم علينا البيت .

وتنهد حسنين فى يأس ، وحانت منه التفاتة صوب أمه فالتقت عيناهما لحظة قصيرة قبل أن تغض بصرها ، وامتلأ حنقا فخاطبها فى سره .. لماذا اتيت بنا الى الدنيا ؟.. لماذا اقترفت هذا الجرم الشنيع ؟.. ثم سمع اخاه يهتف بعنف :

ــ يجب أن أختفى . سأغادر البيت حالما أقدر على المشى ، وربما غادرت القطر كله ..

واستروح حسنين نسمة باردة كالأمل لأول مرة مذ جاء الرجل محمولا كالقضاء والقدر . « هل يمكن ان يحدث هذا قبل أن تقع الواقعة !.. هل يختفى حقا فلا تقع عليه عين ولا يعرف له اثر ؟!. فليتقدم حيث هو ، يجب أن أحيا حياة مطمئنة ! » .

ثم مر يوم ويوم ويوم حتى غدا جو البيت على كآبته معهودا مألوفا ، فلامس حسن الشفاء أو كاد واخذ يفكر جديا فى مغادرة البيت ثم فى الهرب من الوطن كله ويرسم لذلك الخطط فى صمت وتفكير متواصل ، ولم تعد نفيسة تلزم نفسها القبوع فى البيت فعادت الى زياراتها التى لم تكن تنقطع يوما ، وكذلك عاود حسنين حياته العادية ما بين عمله وبيته والنادى ولكن رأسه

لم يتوقف عن التفكير فى اخيـه والخطر الذى يتهدد سمعتهم بسبب اقامته بينهم - وقد دار حديث بينه وبين أمه مرة حول هذه النقطة الحساسة فقال لها بعد اشفاق وتردد :

- اذا كان البوليس لم يهتـد الى محل اقامته حتى الآن فبمعجزة من الله لا يمكن أن تستمر طويلا ..

ونظرت اليه المراة نظرة غريبة احتار فى تفسـيرها بادىء الأمر ، أهى عتاب صامت ، أم تسليم بالقضاء من العجز عن ملاقاته ، أم استنكار يداريه الخوف من الافصاح ، كل أولئك بدا راجحا حينا لولا أن برح الخفاء فهتكته دمعة ترقرقت فى محجريها فى بطء كالحيـاء وفى تردد هو العـذاب ، هنالك ملأه الانزعاج لأنه لم يكد يذكر ان رأى امه باكيـة على كثرة المحن والملمات ، وتراجع فيما يشبه الفرار وصور من حزمها وعزمها تنثال على مخيلته فى دهشة والم ، فكأنه يشهد احتضار أسد هصور . على أنه حين خلا الى نفسه تناسى آلام الآخرين وانفرد بآلامه هو ومخاوفه ، فاشتد به الاستياء والحنق ، ولعن نفسه وأمه معا ..

وفى عصر اليوم التالى مباشرة أرادت هذه المخاوف أن تخطو خطوة جديدة . كان يجلس وأمه وأخوه على الفراش يتجاذبون الحديث ، وكانت نفيسة فى الخارج . ورن جرس الباب فجأة فذهبت الخادم لتفتح ، ثم عادت فى ارتباك ظاهر وقالت للشاب:

- سيدى . عسكرى بوليس يرغب فى مقابلتك ..

٨٩

تناثرت نفوسهم كالشظايا : فوثب حسنين قائما وهو يحدق فى وجه الخادم ، ورمى حسن بقدمه من على الفراش الى ارض الحجرة وهو ينظر الى النافذة فى عبوس متمتما « الهرب ! » ، على حين رددت الأم بينهما عينين زائغتين وكان حلقهـا من الجفاف بحيث لم يسمح لكلمة بالخروج . وجمد حسنين فى مكانه دقيقة ، ثم استسخف جموده فهز منكبيه فى يأس وغادر الحجرة الى الباب الخارجى حيث وجد الشرطى واقفا وتبادلا تحية آلية ثم سأله الشاب فى استسلام :

ـ افندم ؟ !

فقال الرجل بصوت أجش :

ـ هل حضرتك الضابط حسنين كامل على ؟

ـ نعم ..

ـ حضرة ضابط نقطة السكاكينى يرغب فى مقابلتك فى الحال .

ونظر حسنين فيما وراء الرجل حتى الطريق فلم ير غيره ممن كان يتوقع رؤيتهم ، وداخـله شىء من الطمأنينة ، ولكنه تساءل فى حيرة :

ـ ماذا يريد حضرته ؟

ـ أمرنى أن أبلغك رغبته دون أن يزيد .

وتردد الشاب قليلا ثم استطرد ريثما يرتدى ملابسه وعاد الى الحجرة ، ووجد أخاه وراء بابها يتصنت فما أن رآه حتى سأله فى لهفة « هل جاءوا ؟ » ، وكررت الأم السؤال فى صوت مريض ، فأعاد على مسمعيها ما دار بينه وبين الشرطى وهو يرتدى ملابسه ، وما كاد ينتهى حتى قال حسن :

ـ لعل الضابط من معارفك فاراد ان ينبهك قبل ان يكبس البيت . هذا واضح . اصغ الى ، اذا سألك عنى فقل له انك لم ترنى منــذ اعوام . لا تتردد ولا تخش عاقبة الكذب فلن يقفوا لى على اثر . ساختفى عقب ذهابك مباشرة فقلها ولا تخف وربنا معكم ..

فتساءل حسنين وهو يخفى عنه عينيه حتى لا يقرأ فيهما ما تنفس فى اعماقه من امل جديد :

ـ وهل لديك من القوة ما يعينك على الهرب ؟

فقال حسن وهو يجذب بدلته من على المشجب :

ـ انى على خير عافية .. مع سلامة الله .

وغادر حسنين الشقة ومضى فى صحبة الشرطى ، وكان اول ما بدا له أن يسأله عن اسم الضابط لعله يكون حقا من معارفه ولكن الشرطى ذكر له اسما غريبا لم يسمع به من قبل فعاودته الحيرة . وبدا له الأمر شديد التعقيــد . بيد أن عزم حسن على الاختفاء بث فى نفســه طمأنينة لا حد لهــا . وبلغا نقطة البوليس قبل المغرب بقليل ، وقاده الشرطى الى حجرة الضابط ثم أدى التحية قائلا :

ـ حضرة الملازم حسنين كامل على .

كان الضابط جالسا الى مكتبه ، وعلى بعد ذراع من المكتب وقف رجلان وامرأة من أهل البلد تلوح فى وجوههم آثار معركة حديثة العهد ، ولكن الرجل نهض لأستقبال حسنين ومد له يده وهو يقول : « أهلا وسهلا » ثم أمر الشرطى باخلاء الحجرة واغلاق الباب . وطلب الى الشاب أن يجلس على كرسى أمام المكتب فجلس وهو يقول لنفسه « ترى ما معنى هذا كله ؟ .. ترحاب ومجاملة ثم ماذا ؟ ! » ..

وخرج الضابط من مجلسه ووقف فى مواجهته مستندا بيمناه الى حافة المكتب ، وجعل يتفحصه بنظرة غريبة تلوح فيها حيرة

من لا يدرى كيف يبدأ حديثه أو من يجد فى ذلك قدرا من الصعوبة لا يخفى . وشعر بفترة السكوت على قصرها غليظة لا تحتمل ، واشتد به احساس كريه استحوذ عليه منذ اللحظة التى وطأت قدماه فيها أرض نقطة البوليس ، احساس بالرهبة والقلق والضيق « ضابط مهذب يتحرج من القاء التهمة فى وجهى ، هذا غريب فى ذاته ، تكلم وأرحنى فطالما تراءى لخيالى كابوس هذه اللحظة . انى أعلم سلفا ما تريد قوله . تكلم .. » .

ونفد صبره فقال :

ـ دعانى الشرطى لمقابلة حضرتك !

فقال الضابط :

ـ انى آسف لازعاجك . كنت أود أن القاك فى ظرف خير من هذا ، ولكنك ادرى بما يتطلبه الواجب أحيانا .

وزفر حسنين آخر نسمة من أمل ضعيف فى السلامة وقال فى وجوم :

ـ انى اشكر لك كرم أخلاقك ، وها أنا مصغ اليك ..

فقال الضابط باهتمام ورقة معا :

ـ أرجو أن تتلقى ما سأقول بشجاعة ، وأن تسلك سلوكا جديرا بضابط يقدس القانون ..

فقال الشاب وهو يعانى ما يشبه الهزال والخور :

ـ هذا طبيعى جدا .

فعض الضابط على أسنانه كما بدا من تقبض صدغيه ثم قال باقتضاب :

ـ الأمر يتعلق بأختك ..

ورفع حسنين حاجبيه فى استنكار ثم قال :

ـ تعنى أخى ؟

ـ الست أختك ، ولكن معذرة أحب أن أسألك أولا هل لك أخت تدعى نفيسة ؟

فقال حسنين فى ذهول :

ـ نعم ، هل وقع لها حادث ؟

فعض الرجل طرفه وهو يقول :

ـ يؤسفنى ان أخبرك بأنها ضبطت فى بيت بالسكاكينى ..

وفزع حسنين واقفا ، متصلب الجسم ، مصفر الوجه محملقا فى وجه محدثه ، وهو يلهث قائلا :

ـ ماذا تقول ؟

فربت الرجل على كتفه متأثرا وقال :

ـ ادع كل قوة فى نفسك كى تضبط أعصابك . الموقف يستلزم الحكمة لا الغضب . ارجو ان تساعدنى على القيام بواجبى ولا تجعلنى اندم على ما اتخذت من اجراءات راعيت فيها المحافظة على كرامتك قبل كل شىء .

انصت اليه وهو لا يزال يحملق فى وجهه ، تمتلىء عيناه بوجهه تارة فلا يرى سواه ، ويغيب عنهما اخرى فيسمع الصوت ولا يرى شيئا ، وثالثة لا يرى الا شفتين تنطبقان وتنفرجان فينثال من بينهما كلام هو الفزع واليأس والغرابة ، وبين هذا وذاك ترمش عيناه فى حركة عصبية فتلتقطان منظرا غريبا هنا وهناك ، بندقية مثبتة فى جدار او صفا من البنادق او محبرة ، وربما امتلأ أنفه برائحة دخان محبوس أو رائحة جلود غريبة ، ثم ينحل وعيه ويتراجع فجاة الى ذكرى بعيدة لا صلة لها بالحاضر فيلوح لذاكرته منظر عطفة نصر الله وهو صبى يلاعب حسين البلى « ضبطت فى بيت ! اى بيت ؟! ان احدنا فاقد العقل ولا شك ولكن من هو ؟. ينبغى ان أتحقق من انى عاقل أولا .. » وتنهد فى وهن ، ثم سأله فى استسلام :

ـ ماذا تقول يا سيدى ؟

ـ يوجد فى هذا الحى بيت تستأجره بت رومية وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق . كبسنا البيت عصر اليوم فوجدنا

ألست .. وجـدناها مع شاب ، واعتقلناها طبعا وشرعت فى اتخاذ الاجراءات القاسية التى تعرفها فاضطرت تحت تأثير الخوف ان تعترف لى بأنها شقيقة ضابط على أمل أن اطلق سراحها ..

ـ اختى أنا ؟ .. أأنت متأكد ؟ .. دعنى أراها ..

ـ اضبط نفسك ، أرجوك ، لو كنت متأكدا من أنها اختك لأطلقته سراحها . ولكنى خفت أن يكون اعترافها خدعة ، قد عرضت المسـألة على المأمور فوافق على وقف الاجراءات على شرط التأكد من صدق قولها ..

ومن عجب انه لم يعد يداخله أدنى شك فى حقيقة الواقعة فسرعان ما آمن بها قلبه المتشائم ، ووجد فى فظاعتها ترجيعـا لأصـداء خوف قديم طالما ناوش قلبه وعذبه . أجل لم تخلق هذه الواقعة الا لحظه ولأسرته ، انه يعلم هذا علمـا لا يتطرق اليه الشك .. أهذه هى نهاية المطاف ؟ ! ثم غلبه ذهول شعر معه بأنه اثر من آثار ماض منطو انقطعت صلته بالحاضر فضلا عن المستقبل ، كان ، هـذا هو ، ولكنه لا يكون ولن يكون .ثم انبعثت منه لهفة على النهاية فقال بصوت ميت :

ـ اين هى ؟ .. دعنى أراها من فضلك ...

فأشار الضابط الى باب مغلق وقال :

ـ تركناها فى هذه الحجرة لأنه أغمى عليها حين علمت بأنى ارسلت فى طلبك بدل ان اطلق سراحها . اسلك سلوك رجل يحترم القانون واذكر انى مسئول عن الأرواح . انك رجل محترم ومهذب فعالج الأمر بالحكمة . لا يصح ان يعلم أحد ممن فى النقطة شيئا ولكن هذا يتوقف على سلوكك أنت ، تذكر هذا جيدا ..

فكرر قوله بنفس الصوت الميت :

ـ دعنى أراها من فضلك ..

مضى الضابط الى الباب المغلق متثاقلا وفتحه ، واقترب حسنين منه كمن يمشي فى حلم ، وألقى بنظره من فوق كتفه كمن

ينظر ليتعرف على جثة فى المشرحة ، فراى لصق الجدار المواجه للباب اريكة ارتمت عليها فتاة قد القت براسها الى الحائط ، عيناها نصف مفتوحتين ولكنهما مظلمتان لا تريان شيئا ميتة أو مغمى عليها او لعلها فى ذهول الافاقة الأول ، وقد التصقت بجبهتها شعيرات مبتلة وعلت بشرتها صفرة الموت . لكنها نفيسة دون غيرها . « قلبى لا يكذبنى فى المصائب أبدا لو كانت ميتة لادعيت انى لا أعرفها بلا تردد » ولم تبد حراكا كأنها لم تحس للقادمين وجودا ، أو انها لم تستطع أن تبدى حراكا . ونظر الضابط صوبه متسائلا ولكن عينيه لم تتحولا عنها ، جمد بصره وتحجر وغشيه ذهول وجو فيه مهربا مؤقتا مما كان ومما سيكون وخيم عليهم سكون الموت ، وانقضت فترة طويلة أو قصيرة ـ ثم شق الصمت صوت باطنى يصرخ فى اذنه « انتهى .. » ، وتخايلت لعينيه صورة أمه كما رآها منذ ساعة واقفة بينه وبين حسن فى حيرة يائسة والرجل يتوثب للفرار . ود تلك اللحظة لو يقتحم تجارب الكفر والقسوة والموت « ماذا ينتظر الضابط ان أفعل ؟ .. ماذا ينبغى أن افعل ؟ رباه كيف اغادر هذا المكان ؟ ! » .. ثم سمع الرجل يقول :

ـ لقد قدمت ما عندى من واجب نحوك فهات ما عندك من حكمة ..

فسأله بدوره وهو يتحامى عينيه :

ـ اين الآخر ؟!

وأدرك الضابط ما يعنيه فقال بلهجة لا تخلو من حزم :

ـ طبقت عليه الاجراءات وأطلق سراحه .

فغمغم قائلا :

ـ لنترك هذا المكان شاكرين .

٩٠

فى الخارج لفحه هواء بارد وكان الظلام قد خيم فابتعد عن نقطة البوليس فى خطوات ثقيلة تتبعه هى على بعد ذراع منكسة الوجه . سارا مع قضبان الترام ولم يكن يدرى أين ينتهى به المسير لأنه لم يسبق له المجىء لهذا الحى ، ومع أن الليل كان فى أوله الا ان الطريق بدا مقفرا ، وتساءل فى نفسه ترى أين ينتهى الطريق ؟.. ثم بدا له تساؤله آية فى الغرابة ، فلم يكن المهم أن يعرف اين ينتهى الطريق ولكن الجدير بالمعرفة حقا ان يعلم ما هو صانع « بها » . كان يحسب انه سيبدأ بالتنفيذ توا بعد خروجه من النقطة ، وكانت هى تتوقع هذا ، ولكن أقدامهما تقدمت بهما دون أن يفعل شيئا ، وكان يشعر بوجودها وراءه فى ضيق لا يحتمل ، ويسمع وقع قدميها كالرصاص فى ظهره ، ويمحو أول فأول أية رغبة فى أن ينظر الى الخلف ، ومع أنه بدا فى صمته - ذلك الصمت الهائل الذى وقف حائلا بينهما - وكأنه يفكر تفكيرا متواصلا الا أنه فى الحقيقة كان فارغ الرأس . كان فارغ الرأس بحال مزعجة ، لم يردها ارادة ، ولكنها فرضت عليه قسرا وبثت فى نفسه احساسا بالقلق ، احساس من يتلهف على السيطرة على ارادته سيطرة غاشمة فلا يجد الى ذلك سبيلا . واصطدمت قدمه بحجر صغير أعترض سبيله فانطلقت فى صدره شرارة حنق ، وكأنها جذبت اليها أفكاره الهاربة فى الظلام ، وسرعان ما وجد نفسه يتساءل فى صمت أيخنقها ؟.. أيحطم راسها بحذائه ؟.. لا بد لصدره من متنفس . وظل الصمت الجهنمي سائدا . وبينما كان يجمع عزمه لزحزحة هذا

الصمت تطوعت هي — وهو ما عجب له — لزحزحته . فسمعها تغمغم في نبرات مرتعشة متهدجة قائلة :

— لقد أجرمت . انى اعلم هـذا .. ولن أسألك غفرانا لست جديرة به .

هل حقا واتتها قواها على الكلام !. يا للشيطان !. واحدث صوتها — على ضعفه — زوبعة من الهياج في صدره ، زوبعة عمياء طاغية صبت الغضب في أطرافه صبا فتوقف عن السير والتفت نحوها في سرعة غريبة وارتفع ذراعه في الهواء وهوى على وجهها كالقذيفة فتراجعت مترنحة دون أن تنبس ثم سقطت على ظهرها واصطدم مؤخر رأسها بالأرض . لم تنبس بكلمة ولا ند عنها أي صوت ، ولكنها جلست على الأرض بسرعة ثم لمت نفسها ووقفت وأخذت في التراجع حتى ارتكنت الى جدار بيت . واقترب منها فتراءى لعينيها تصميمة رغم الظلمة التى تظل وجهه فلوحت له بيدها كأنها تسأله أن يقف ثم اندفعت قائلة في عجلة وتوسل :

— قف ، لا تفعل ، لست اخاف على نفسي ولكنى أخاف عليك ، لا اريد أن يمسك سوء بسببي .

وزادته رقة كلامها هياجا على هياج فصاح بها بصوت كالخوار :

— لا تريدين أن يمسنى السوء بسببك ؟!.. يا عاهرة لقد صببت السوء على صبا .

فأعادت بتوسل حار :

— ولكنى لا أطيق أن يسيئوا اليك ولو كان السبب هلاكى .

— هذا مكر حقير لن ينفعك في انقـاذ حياتك الحقـيرة ، هيهات ، لن ينالنى سوء بقتلك .

فهتفت في حرارة :

— لا ينبغى أن يمسك عقاب وان هان ، ثم بماذا تجيب اذا سئلت عما دفعك الى قتلي ؟!، دعنى أقم انا بهذه المهمة فلا يكدر مكدر ولا يدري أحد .

فتساءل فيما يشبه الذهول :

ـ تقتلين نفسك ؟ !

فقالت وهى تلهث :

ـ نعم ..

شعر فجأة ـ وقبل أن يتمالك نفسه ـ بأن حملا ثقيلا تزحزح عن عاتقه وهوى بعيدا . كان مدفوعا بغضب مستعر واحساس معذب بالواجب ولكن العواقب ـ كذيوع الفضيحة والعقاب ـ ما فتئته تتخايل لعينيه ، فالآن بعد هذا الحكم الذى قضت به على نفسها يسعه أن يسترد أنفاسه وأن يستبين بصيصا من النور فى هذه الظلمة الخانقة . وغمغم متسائلا وهو لا يزال مستغرقا فى أفكاره :

ـ كيف ؟

فقالت وهى تزدرد ريقها :

ـ بأى وسيلة كانت .

فتفكر قليلا متجهم الوجه ثم قال وهو يرمقها بقسوة :

ـ النيل ..

فقالت بهدوء :

ـ ليكن .

فنفخ حنقا وضيقا ثم تراجع فى تثاقل وهو يغمغم « هلمى » فغادرت الجدار وتقدمت فى خطو ثقيل ، ثم دار حول نفسه وواصل السير فتبعته كما كانا . أحس هذه المرة شيئا من الطمأنينة ولكن غضبه فقد عنصرا كان يعتز به وهو لا يدرى . فقد شعورا بالكرامة كان يلازمه وهو مصمم على قتلها بنفسه ، فاستحال من شخص يندفع وراء الكرامة الى آخر ينشد السلامة . وغص حينا بقهر خانق ، ولكنه لم يكن من القوة بحيث يعدل به عما تراءى له من سبيل النجاة ، ولم يكن من الضعف بحيث يتركه فى سلام ، ونفس عن صدره قائلا فى خشونة :

ـ كيف فعلت هذا ؟!.. انت ؟!.. من كان يتصور هذا !
فتنهدت قائلة فى استسلام الياس :
ـ امر ربنا .
فصاح مزمجرا :
ـ بل امر الشيطان .
فقالت بنفس الصوت المتنهد :
ـ نعم ..
فتردد لحظة ثم تساءل :
ـ من هو ؟
فسرت فى جسدها رعدة وقالت بذل :
ـ لا تعذب نفسك ولا تعذبنى ، سينتهى كل شىء فى لحظات.
ـ اكان يعرفنى ؟
فقالت بعجلة وتوكيد :
ـ كلا ..
فتردد مرة اخرى وقد تضاعف عذابه ثم تساءل :
ـ أول مرة ؟!
فعاودتها الرعدة بيد أنها قالت بتوكيد أيضا :
ـ نعم ..
فضرب الأرض بقدمه وصاح بها :
ـ كيف استسلمت للغواية ؟
فغمغمت فى عذاب صامت :
ـ أمر الشيطان .
ـ أنت الشيطان .. لقد قضيت علينا .
فهتفت فى رجاء :
ـ كلا .. كلا .. سينتهى كل شىء الآن ولن يدرى أحد .
ـ اتعنين ما تقولين ؟
ـ طبعا ..

ـ واذا ساورك خوف !

ـ كلا ، ان ما ورائى فى الحياة أفظع من الموت .

ـ وعادا الى الصمت وكلاهما يشعر بجهد ونصب ، ومضى يمد البصر مع قضبان الترام فى حيرة ، ثم سألها بلهجة ساخرة :

ـ الى اين نحن ذاهبان ، فلعلك ادرى بهذا الحى منى ؟

ولم تجب ، ولكن تقبضت أساريرها من الألم . ثم لاح لهما ميدان الظاهر فتراءت لعينيهما آثار الحياة والعمران وترامت لأذنيهما اصوات لأحياء ، وجعل ينظر فى قلق حتى ثبتت عيناه على صف من التاكسيات فمضى الى مقدمها وفتح لها الباب فدخلت، ثم دخل وراءها . وفكر قليلا والسائق ينتظر أوامره ، ثم قال له بصوت منخفض :

ـ جسر الزمالك من فضلك .

٩١

انطلقت السيارة بسرعة الى شارع فاروق فى طريقها الى العتبة ثم الى امبابة .

كانا يجلسان كغريبين ، أما هو فقد ألقى ببصره الى الطريق خلال النافذة موليا اياها نصف ظهره وأما هى فقد خفضت رأسها وغابت فى ذهول عميق . لم يكن فى رأسها شىء ، أو شىء ذو بال ، كأنه السكون الذى يعقب عاصفة هوجاء أو جمود الموت بعد نزع اليم . وقد بلغ بها الهياج ذروة الجنون قبل أن تسقط مغمى عليها وبعودتها الى الوعى تكالبت عليها الأفكار المفزعة ، واستعرضت عيناها شريط حياتها فى رعب جهنمى حتى أثقلت الهموم رأسها فانحنى على صدرها كما ينحنى رأس من سدت فى وجهه منافذ الحياة تحت جدار منهار . وبعد ما كان من الانهيار الكامل وظهور حسنين ، وما كان بينهما فى الطريق ،

شعرت بأن كل شيء قد انتهى ، واخلى الهول مكانه من راسها ، تاركا وراءه فراغا صامتا ، فلم يعد به شيء ، او شيء ذو بال الا ان تكون ذكرى بعيدة من ذكريات الصبا أو منظر مما ينعكس على عينيها من أرض السيارة . بيد أنها كانت تكابد تجربة جديدة لا عهد لها بها من قبـل ، اذ هانت عليها الحياة حقا : بالفعل لا بالقول ، هانت الهوان الذى يجعل من الموت نجاة . أجل طالما تذمرت فيما مضى من حياتها وسـخطت ، حتى تمنت الموت احيانا ، ولكنها لم تسع اليه مع ذلك لانه كان ثمة امل فى الحياة يدب متواريا فى أعماقها ، الآن تقطعت بها عن الدنيا الأسباب . واقتلعت الجذور التى تشدها للبقاء ، ووجدت مع هذا اليأس العميق راحة زحزحت عن كاهلها الأعباء ، فلم تعد تفكر فى شيء ذى بال ، ورمقت الموت الذى تنهب الأرض اليه باستسلام كأنه التخـدير . وقد دارت السيارة حول منعطف وهى منطلقة فى سرعتها فارتجت الفتاة فى مجلسها وتنبهت الى ما حولها فيما يشبه الفزع ، ومع انها ظلت منكسة الراس الا انها احست بوجوده الى جانبها وتراءى شبحه الجاثم عن يمينها للحظها فى غموض فتقبض قلبها الما وخزيا « ترى فيم يفكر ؟. الا يجد غير البغض والغضب ؟ متى يمسى كل شيء وقد انقضى ؟. هذه هى النهاية الوحيـدة . ترى هل تحدس امى الحقيقة ؟. لا داعى للتفكير . انى ميتة » .

ولبث حسنين مضطربا متوتر الأعصاب يتجاذبه الغضب واليأس والرهبة . « كيف تنتهى هذه المحنة ؟ ، وكيف أخرج منها ؟.. أيمكن حقا أن يسدل عليها الستار دون أن تفوح منها رائحة حرية بأن تجعل من هذا العناء كله عبثا لا طائل تحته ؟ انى أختنق . ان الماضى لا ينمحى ولكنه يسابق مستقبلى . لماذا لا نعيش بلا مبالاة ؟. قضى الأمر ولا داعى للتفكير فى هذا . لا داعى للتفكير مطلقا . ما اشد عذابى ، كيف اتغلب على هذه التعاسة

كلها !. مهلا ، انى أسوقها الى الموت ، وهى تعلم انها تساق الى الموت ، ترى هل تواتيها القدرة ؟. لا شك انها تفكر الآن تفكيرا متواصلا ، ولكن فيم تفكر ؟. لا ينبغى ان افكر فيها . الموت خير نهاية لها . لا يمكن ان تلتقى عينانا فهو فوق ما احتمل وفوق ما تحتمل هى . الأمر يتعلق بأختك ، آه قاتل الله هذا الضابط ، يؤسفنى ان اخبرك انها ضبطت فى بيت بالسكاكينى ، من يتصور هذا !. وليس الموت بنهاية ولكنه بداية لتعاسة اخرى تنتظرنى فى البيت . حتى متى اواصل هذا التفكير ؟ اية مدخنة هذه ؟ لعله مصـــنع ، نحن نقترب من جسر ابى العلاء ، هذه المدخنة تنفث دخانا اسود كثيفا ، لو تحترق افكارى وتذوب فى انفاسى لزفرت اقذر منه . لا أريد أن يمسك سوء بسببى ، صدقت ، يجب ان تهلكى وحدك . متى يطوى الطريق ! » .

وعبرت الســـيارة جسر أبى العـــلاء فاندفعت الى داخلها موجات غامرة من هواء بارد رطب مشبع بأريج النيل فاستقبله الشاب بترحاب من يصلى نارا حامية على حين سرت فى أطرافها رعدة بثت فى حناياها خوفا غامضا ، ودام لحظات ثم ارتدت بعده لحالها الأولى من الاستسلام والجمود واليأس . وضاعفت السيارة من سرعتها حتى شارفت جسر امبابة فخفت قوة اندفاعها رويدا ، ثم التفت السائق نحو حسنين متسائلا فقال له هـــذا بصوت منخفض « قف » ، ودفع له حسابه وغادر السيارة فغادرتها أيضا من الباب الآخر ، وما لبث التاكسى أن عاد من حيث أتى فوجدا نفسيهما وحيدين على كثب من مدخل الجسر . وكانت المصابيح المقامة على جانبى الجسر تشع نورا قويا احال ظلمته نورا ، بينا أطبق الظلام على ضفاف النيل بطول امتداده شمالا وجنوبا — رغم المصابيح المتباعدة الخافتة — فبدت الأشـجار المتراصة على جانبيه كأشباح عمالقة ، وكان المكان مقفرا الا من مار مسرع هنا أو هناك وقد تناوحت الغصون بأنين ريح باردة

كلما كف هبوبها تعالى هسيس النبات كالهمس . لازما موقفهما فى جمود كالذهول ، ثم استرق اليها نظرة فرآها مقوسة الظهر قليلا منكسة الراس غير ان منظرها لم يلق من صدره الا قلبا متحجرا ونفسا خنق الهم فيه كل رحمة . وثار حنقه على جموده فجاة فقال بغلظة :

ـ اانت مستعدة ؟

فغمغمت بصوت غريب لا عهد له به :

ـ نعم ..

ونفذ الجواب على بساطته الى أعماقه فلم يعد يطيق موقفه، وتزحزح عنه فى خطو ثقيل ، وقبل ان يبتعد عنها ذراعين سمعها تقول بتوسل :

ـ لا تذكر اساءتى ..

فند عنه صوت غليظ وهو يوسع خطاه كالهارب قائلا :

ـ فليرحمنا الله جميعا ..

تركها وحدها حيال الجسر ، وهدف الى الطوار الممتد الى يمين الجسر على شاطىء النيل ، ثم جد فى المسير . حدثته نفسه بالهرب ولكن قوة غشوم جعلت تجذبه الى الوراء ، وخارت مقاومته عند شجرة صفصاف ضخمة الجذع على بعد ثلاثين مترا من مبدأ الطوار فتوارى وراءها فى اعياء وأرسل الطرف نحو الجسر . ولاح له الجسر كتلة صماء متوهجة بانوار المصابيح تمسك من طرفيها بالشاطئين فى عناد وتصميم كأنه وحش يغرز أنيابه فى فريسته ، وعند راس الجسر ، وعلى الجانب المواجه له ، رآها تتحرك فى خطو ثقيل خافضة الراس ، يعلوها جمود غريب كأنها تمشى فى سبات . رآها فى وضوح تام تحت الأضواء المشرقة فثبتت عيناه على جانب وجهها المنعكس وهى تقطع الأرض قدما قدما حتى بلغت المنتصف فتوقفت عن المسير ، ورفعت راسها ، وأجالته فيما حولها ، ثم استدارت نحو السور وألقت ببصرها

الى الماء المصطخب الجارى ، وجعل يكتم انفاسه ويزدرد فى تسنج ريقه الجاف وهو يترقب ، ولكن ظهر فى تلك اللحظة عند الطرف الآخر من الجسر رجلان ومضيا يقطعان الجسر فى سرعة وهما يتحدثان ، ثم لاح الترام القادم من امبابة وهو ينعطف نحو الجسر ممزقا الصمت بعجيجه ، فاسترد الشاب انفاسه ولكن الى حين قليل ، وسرعان ما ركبه القلق والضيق ، وكان قلبه يخفق بعنف حتى خيل اليه من شدة وقع النبض فى اذنيه أن العالم الخارجى يسمع دقات قلبه . ثم مرت به لحظات فتوهم أنه يشهد منظرا غريبا عنه لا شأن له به ، ولكنها كانت لحظات ثم انقضت وغلبته الرهبة على ما فى نفسه جميعا فلم يعد يستشعر حقدا ولا غضبا ، ثم اعتركت الأفكار فى رأسه فى ثوان فشعر فى حيرته بأنه يروم حل مسألة معقدة غامضة ، ولكن لا قدرة له على حلها أو ليس لديه فسحة من الوقت للتفكير فيها ، فهو منها فى حيرة اى حيرة . وفى اثناء ذلك كان الرجلان قد عبرا الجسر ، وسبقهما الترام الى الطريق ، وما زالت الفتاة تحملق فى الماء . ونظر هنا وهناك فلم ير أثرا لانسان . وتجمعت نفسه فى لحظة ترقب مليئة بالفزع والرعب . رآها تعطف رأسها يمينا ثم شمالا . وبغتة ، وفى حركة سريعة يائسة تسورت السور . وزلزل قلبه وهو يتابع حركاتها وجحظت عيناه ، لا يمكن .. ليس هـــذا .. أما هى فألقت بنفسها ، أو تركت نفسها تهوى ، وقد انطلقت من حنجرتهـا صرخة طويلة كالعواء تمثل لعينى المبتلى بسماعها وجه الموت ، فجاوبها بصرخة فزع ولكنها ضاعت فى صرختها . وشعر وهى ترمى بنفسهـا أن بوسعه أن يجد للمسألة المعقدة التى تحيره حلا ، ولم يكن الحل فيما فعلت بنفسها ، كان يمكن أن تكون نهاية أخرى ، وكأنما حاول أن يستدرك الخطأ بصرخته ولكنها ضاعت ، ثم صك مسمعيه اصطدامها بالماء فندت عنه صرخة أخرى ..

٩٢

وثب الى منحدر الشاطىء وعيناه تحملقان فى المكان الذى ابتلعها تحت الجسر ، ثم جمد فى موقفه لا يدرى ماذا يفعل او لا يدرك ماذا يريد ، وظل على جموده يكاد محجراه ان يلفظا عينيه من شدة الحملقة . وتوقع مرات ان تطفو على ظهر الماء ثم ادرك ان النيل المندفع الى ما تحت الجسر لا بد ان يكون قد جرفها معه فلعلها تتخبط فى جوف الجسر او تغوص فيما يليه من النهر . ومر بخاطره أن ينزع سترته ويقذف بنفسه وراءها لعله ينتشلها ولكنه لم يحرك ساكنا ، ووجد لهذه الخاطرة ما يشبه السخرية المريرة فازداد جمودا وشعر بانه لم يعد لعقله من سيطرة عليه . وما يدرى الا وصوت من وراء يسأله باهتمام محسوس :

ـ اسمعت صرخة ؟

فالتفت الى الوراء فرأى شرطيا تنم حركاته على الاهتمام فقال له فى ذهول :

ـ نعم ، لعله غريق ..

وجعل الجندى يحدق فى الظلام فوق النهر ثم حث خطاه نحو الجسر . واعاده الجندى الى شىء من وعيه فتراجع الى موقفه الأول ولم يعد فى طاقته أن يضبط نفسه فاندفع عدوا صوب الجسر ثم عبره الى سوره المطل على الناحية الأخرى من النهر والقى ببصره الى التيار المتدفق . وما لبث أن رأى آثارا للحادثة لا تخطئها العين ، رأى قاربا يشق الماء فى سرعة قادما من الشاطىء الايسر نحو وسط النهر ، وسمع اصوات استغاثة وصراخا آتية من الشاطىء البعيد . وكان سطح النهر فيما يلى الجسر مضاء بما ينعكس عليه من انوار المصابيح فتصفحته عيناه هنا وهناك ،

ولكنه لم يعثر على ضالته . ثم تبعت عيناه القارب الذى اخذ يقترب من الوسط شاقا سبيله فى الرقعة المضاءة ، ثم اندفع مع التيار حتى خرج عنها الى الظلام . ووجد نفسه يتساءل « ترى هل يفوز القرب فى سباق الموت هذا ؟ » . ولم يستبن حقيقة مشاعره ، أو لعله هرب من باطنه بتركيز حواسه فى القارب فتابعه حتى رآه يتوقف عن التجديف ثم رأى شخصا يقفز منه الى الماء ، على حين تعالت أصوات الباقين بالقارب . هذه هى اللحظة الفاصلة ، وتتابع خفقان قلبه حتى جف حلقه ، وحاول عبثا أن يرى شيئا خلال الظلمة التى لفت القارب او أن يمبر كلمة معبرة فى هدير الأصوات المختلفة ، ثم كل منه البصر فلم يعد يرى شيئا وكانه عمى . واخذ يتنبه - دون التفات - الى تجمهر خلق كثيرين حوله ، ثم سمع أحدهم يقول :

- القارب يعود الى الشاطىء فلعله انتشل الغريق ..

وتمشت فى أوصاله رجفة وتساءل « ترى أنجت أم هلكت ؟. أذهب أم أفر ؟! » ولكنه تحول عن موقفه وسار فى اتجاه الشاطىء الذى يقصده القارب مدفوعا برغبة لا تقاوم فى تعذيب نفسه الى أقصى حد ، ولم يعد السير ليسعف جزعه فأطلق ساقيه للريح وعيناه تسبقانه الى بقعة من الشاطىء تجمهر عندها كثيرون . وبلغها والقارب يرسو الى الشاطىء فدنا من المتجمهرين بساقين متخاذلتين واندس بينهم واطرافه ترتجف على رغمه ثم ألقى بعينين متحجرتين الى القارب الذى اكتنفه ستار خفيف من الظلمة . وكان يقف غير بعيد منه ضابط النقطة المواجهة للشاطىء ونفر من الشرطة . ثم بدت اشباح الرجال وهى تنتقل من القارب الى الشاطىء حاملة بينها الغريق فصاح بعض المتجمهرين :

- هل نجا من الغرق ؟

وارهف السمع ليتلقى الجواب ولكن لم ينبس احدهم بكلمة

ومضـــوا يرتقون منحدر الشاطىء فى شىء من الجهـــد والأعين محدقة بهم حتى ميزت حقيقة الحمل فصاح بعضهم فى ارتياع :

ـ انها امرأة يا ولداه !

وتساءل آخر :

ـ كيف غرقت ؟

فصاح غلام :

ـ رمت بنفســـها من فوق الجسر فرآتهـا زوج النوتى واستصرخت زوجها لانقاذها ..

وجعل حسنين يتبعهم ناظريه فى طائف من الغرابة والذهول فلم يدر كيف يصدق ان هذه هى اخته وان احدا لا يعلم بهذه الحقيقة وانه لا يفعل شيئا الا ان يقف بينهم كالغريب المستطلع . وبلغ الرجال طوار الطريق وسرعان ما نشطوا الى عملية الاسعاف ليفرغوا ما فى جوفها من ماء . وقد أمر الضابط العساكر بتشتيت المتجمهرين ولكن احـدا منهم لم يتعرض لحسنين فلبث بمكانه جامدا لا يطرف لا تتحول عيناه عن الجسم المقوس الذى تعبث به أيدى الرجال الغليظة . وانتبه الضابط اليه فاقترب منه وحباه بايماءة من رأسه وسأله :

ـ أشهدت الحادث !

فخرج الشاب عن ذهوله فى انزعاج ولكنه أجاب بعجلة :

ـ كلا ..

وأنام الرجل الفتاة على الأرض وجثا احدهم الى جانبها ثم جس نبضها والصق أذنه بصدرها فوق القلب ، ثم رفع رأسه قائلا :

ـ صعد السر الالهى الى بارئه ، لا حول ولا قوة الا بالله ..

وعاود الشاب احساســه بالغرابة ، وغلبه الاحساس على ما عداه ، فلم يشعر لا بحزن ولا بارتياح ، ولم يتحرك فكره لا الى الأمام ولا الى الوراء ، وكأنه لم يطق هذا الفراغ المخيف

فركز انتباهه فى الجثة الراقدة غير بعيد من قدميه . جرى بصره عليها وقد تبعثر شعرها والتصقت خصلات منه بخدها وجبينها ؛ وران على الوجه جمود صامت لا يبشر بيقظة وعلته زرقة مروعة ، وخيل اليه أنه يرى أخاديد دقيقة حول الفم الفاغر والعينين كأنها تقلصات العذاب الذى كان آخر عهده بالدنيا ؛ أما الفستان المشبع بالماء فقد لزق بالجسد وتلوثت أهدابه بتراب الأرض فتطينت . وبدت قدم ما تزال ممسكة بفردة حذائها والأخرى فى جوربها . ورجع بصره الى وجهها فجاش صدره وامتلأ فراغه باضطراب وثوران « لماذا أضطرب هكذا ؟ ألم أقتنع حقا بأن هذه هى خير نهاية ! ألم أسقها الى الموت بنفسى ؟ ينبغى أن تطمئن نفسى . بيد أننى أتساءل عما داخلها من شعور وهى تهوى الى الماء ؛ وكيف تلقى جسمها النحيل صدمة الماء الغليظ ، وماذا دار بذهنها وهى تتخبط بين امواجه ، وأى جهد وجدت والطمى يكتم أنفاسها ، وأى عذاب ذاقت ورغبة الحياة تثب بها الى سطحه فيشدها باطنه الى الأعماق . ان محاولة الغريق اليائسة للنجاة أشبه بأحلام الشقى بالسعادة ، كلتاهما أمنية ضائعة . أتراها ترانى الآن من عالمها الآخر ؟ أراضية هى أم غاضبة أم ساخرة ؟! ماذا ترى فى موقفى هذا ؟. لماذا وقع هذا كله ؟ » . وذكر بغتة أمه فحجبت صورتها الجثة عن عينيه ، وهز رأسه كأنما ليطردها عن مخيلته ، وصمم بقوة على أن يتحامى التفكير فيها ، وعاد بانتباهه المحموم الى الجثة . وعلى رغمه وجد نفسه يتذكر أيادى الفتاة عليه ، ما كانت تكن له من حب وما جادت به من كرم ، فما كان يخطر لها ببال أن تكون نهايتها على يديه . وشعر باعياء وقنوط وتساءل فى جزع « لماذا هذا كله !؟ » . وأغمض عينيه لأنه لم يعد يطيق النظر اليها . كان رأسه محموما ، وغيض الهم كل رغبة فى الحياة فى قلبه ، وانقلب وجه الدنيا فى عينيه كهذا الوجه الأزرق

الناطق بالعدم . وقال لنفسه وهو يتنهد من الأعماق « رباه . لقد قضى على » . وسمع عند ذلك صوت الضابط وهو يأمر النسهود بالذهاب معه الى النقطة ، ثم راى الجثة تحمل وراى القوم يمضون بها الى الجهة الأخرى من الطريق فأتبعهم طرفه حتى حال الظلام بينه وبينهم . وفى أقل من دقيقتين وجد نفسه وحيدا يكتنفه حفيف الأشجار التى تكاد تطبق اغصانها الغليظة الملتوية على البقعة كلها . وتراجع فى تراخ وترنح حتى اسند ظهره الى جذع شجرة وراح فيما يشبه السبات وكأنه يتردى فى هاوية معتمة ليس بها بارقة أمل . « قضى على . كنا جميعا فريسة الشقاء فما كان ينبغى لأحدنا أن يعين الشقاء على أخيه . ماذا فعلت ؟. انه اليأس الذى فعل ، ولكنى قضيت عليها بالعقاب الصارم . أى حق اتخذت لنفسى !. أحق أنى الثائر لشرف اسرتنا ؟! انى شر الأسرة جميعا . حقيقة يعرفها الجميع ، واذا كانت الدنيا قبيحة فنفسى أقبح ما فيها . ما وجدت فى نفسى يوما الا تمنيات الدمار لمن حولى فكيف ابحث لنفسى أن اكون قاضيا وانا راس المجرمين ! لقد قضى على . » والقى نظرة على ما حوله فى حيرة وخوف « اين اذهب ؟ أيمكن أن أمرق من هذه المحنة كما مرقت من غيرها من قبل ؟ .. لشد ما تهزأ بى الأمانى . لا تبال ، حسن .. ولكن هل يسعك هذا ؟. احمل نفسك بشرها وانشدها النسيان ثم السعادة ، هاها . انى أعبث بنفسى بلا رحمة . طالما أحببت أن أمحو الماضى ، ولكن الماضى التهم الحاضر ، ولم يكن الماضى المخيف الا نفسى ، لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء ؟ لا أستطيع . كان ينبغى أن أحب الحياة الى النهاية ، ومهما يكن من أمر ، ولكن فى طبيعتنا خطأ جوهرى لا أدريه . لقد قضى على .. » .

واستوى واقفا اما لأنه ضاق بمسنده واما لأنه وجد حافزا جديدا ، وابتعد عن الشجرة وهو يلقى نظرة الوداع على نقطة

البوليس ما فى شعوره الا السأم والنزوع الى الهرب . « لا اريد ان يمسك سوء بسببى . أمر ربنا . امر الشيطان . النيل . ليكن . واذا ساورك خوف . كلا ، ان ما ورائى فى الحياة افظع من الموت . انت مستعدة ؟ لماذا تغيب الملازم حسنين ، الم يرسل خطاب اعتذار ؟. رأيت صاحب هذا الوجه عقب انتشال الجثة وسألته هل شاهدت الحادثة وكان مذهولا . » وبلغ الموضع نفسه من الجسر فارتفق السور والقى ببصره الى الماء تتدافع أمواجه فى هياج واصطخاب . واخلى رأسه من الفكرة . « اذا اردت هلم . لن أصرخ . فلأكن شجاعا ولو مرة واحدة ليرحمنا الله . . » .

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

الطبعة الأولى

مصر القديمة (مترجم عن الانجليزيه)		١٩٣٢		
همس الجنون (مجموعة اقاصيص)		١٩٣٨	الطبعة الثامنة	١٩٧٣
عبث الأقدار	(قصة تاريخية)	١٩٣٩	» السابعة	١٩٧٤
رادوبيس	(قصة تاريخية)	١٩٤٣	» الثامنة	١٩٧٦
كفاح طيبة	(قصة تاريخية)	١٩٤٤	» السابعة	١٩٧٢
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	» التاسعة	١٩٧٤
خان الخليلى		١٩٤٦	» الثامنة	١٩٧٥
زقاق المدق		١٩٤٧	» السابعة	١٩٧٢
السراب		١٩٤٨	» الثامنة	١٩٧٣
بداية ونهاية		١٩٤٩	» العاشرة	١٩٧٦
بين القصرين		١٩٥٦	» التاسعة	١٩٧٢
قصر الشوق		١٩٥٧	» الثامنة	١٩٧١
السكرية		١٩٥٧	» السابعة	١٩٧٦
اللص والكلاب		١٩٦١	» السابعة	١٩٧٦
السمان والخريف		١٩٦٢	» الخامسة	١٩٧٦
دنيا الله	(قصص قصيرة)	١٩٦٣	» الثالثة	١٩٧٣
الطريق	(رواية)	١٩٦٤	» الثالثة	١٩٧٤
بيت سيىء السمعة (قصص قصيرة)		١٩٦٥	» الرابعة	١٩٧٥
الشحاذ	(رواية)	١٩٦٥	» الرابعة	١٩٧٤

الطبعة الأولى

ثرثرة فوق النيل	(رواية)	١٩٦٦	« الثالثة	١٩٧٣
ميرامار	(رواية)	١٩٦٧	« الرابعة	١٩٧٦
خمارة القط الأسود	(قصص قصيرة)	١٩٦٩	الطبعة الثالثة	١٩٧٤
تحت المظلة	(قصص قصيرة)	١٩٦٩	« الثالثة	١٩٧٤
حكاية بلا بداية ولا نهاية	(قصص قصيرة)	١٩٧١	« الثانية	١٩٧٢
شهر العسل	(قصص قصيرة)	١٩٧١	« الثالثة	١٩٧٤
المرايا	(رواية)	١٩٧٢	« الثانية	١٩٧٤
الحب تحت المطر	(رواية)	١٩٧٣	« الثانية	١٩٧٥
الجريمة	(قصص قصيرة)	١٩٧٣		
الكرنك	(رواية)	١٩٧٤		
حكايات حارتنا	(شخصيات ومواقف)	١٩٧٥		
قلب الليل	(رواية)	١٩٧٥		
حضرة المحترم	(رواية)	١٩٧٥		

تحت الطبع :

الحرافيش

رقم الايداع ١٧٩٨ / ١٩٧٦

الترقيم الدولى ١ ـ ٠٠٤ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٦٠ قرشا

دار مصر للطباعة